



الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

داود باشا

والح. بغداد

تأليف
الدكتور عبد العزيز سليمان نوار

الناشر
دار الكاتب العربية للطباعة والنشر
القاهرة
١٣٨٨ - ١٩٦٨

دَاوُدُ بِأَسْمَاءِ
وَالْحَبِ بَعْدَ الْاِ

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

الهيئة العامة للنشر والتوزيع

بلاشير كويتي

المجلس الأعلى لإدارة الشؤون والآداب والعلوم الاجتماعية



الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

داود باشا والحرف بغداد

تأليف
الدكتور عبد العزيز سليمان نوار

الناشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
وكيل جامعة عين شمس

هذا الكتاب أولى رسالتين في تاريخ العراق الحديث تقدم بهما الدكتور عبد العزيز سليمان نوار الى جامعة عين شمس فأجازت الاولى منهما وهى هذا الكتاب لدرجة الماجستير بتقدير ممتاز في سنة ١٩٥٨ وأجازت الثانية لدرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الاولى في سنة ١٩٦٣ وكان لى حظ الاشراف على الرسالتين .

وقد اتجه الدكتور نوار منذ بدأ دراسته العليا فى التاريخ الى العناية بتاريخ العراق الحديث ولم أملك الا أن أشجعه على هذا الاتجاه وعلى المضى فيه فأقبل على بحوثه جادا مخلصا فى عمله ، ولم يتردد حين اعوزته المادة الأصلية أن يذهب الى لندن حيث أمضى بضعة أشهر مترددا على دور الوثائق والمكتبات ، حتى تجمعت له مادة أصلية أكثرها غير منشور ، من المخطوطات والوثائق ، وكانت ثمرة هذا الجهد المضنى - الذى لا يعرف حقيقته الا من يكابده - هاتين الرسالتين اللتين غطى بهما الدكتور نوار - أو كاد - تاريخ العراق فى القرن التاسع عشر .

فبهذا الكتاب يعالج أهم فترة من تاريخ العراق فى النصف الأول من ذلك القرن ، وهى فترة حكم الوالى الشهير « داود باشا » (١٨١٧ - ١٨٣١) والكتاب الآخر - الذى أوجو أن يرى النور قريبا - يعالج أهم فترة من تاريخ العراق فى النصف الثانى من هذا القرن ، وهى فترة حكم الوالى المصلح « مدحت باشا » مع فصول تصل ما بين نهاية حكم داود وبداية حكم مدحت . وبذلك خدم الدكتور عبد العزيز نوار تاريخ العراق الحديث أجل خدمة وقدم للباحثين فى تاريخ العرب الحديث ، والمهتمين بهذا التاريخ دراسة أصيلة منمعة .

والحق ان اتجاه الدكتور نوار الى دراسة تاريخ العراق الحديث انما يمثل الاتجاه العام الذى اتجهت اليه مدرسة التاريخ الحديث بجامعة

عين شمس منذ سنوات ، كما يتضح في الوسائل العلمية التي أنتجها وبنيتها تلاميذ هذه المدرسة ، والدكتور نوار أحد طلابها المتنازين وبفضل جهودهم أصبحت بين أيدينا - لأول مرة في تاريخ الجامعات العربية - دراسات علمية رصينة لجوانب هامة من التاريخ العربي الحديث في العراق ، والخليج العربي ، وسورية والسودان ، والمغرب واليمن ، والجزيرة العربية ، وغيرها من اقطار العرب شرقا وغربا . ونرجو بذلك أن تكون حققنا هدفنا الذي هدفنا اليه وهو « دعم الاتجاه القومي العربي بالدراسة التاريخية الرصينة » ، وليس أقوى من التاريخ عاملا فعلا في فهم الحاضر وبناء المستقبل .

والقارئ لكتاب « داود باشا والى بغداد » - الذي يسرني أن اقدمه اليوم للقارئ والباحثين - سوف يجد فيه صورة واضحة المعالم لا لهذه الشخصية الفذة في تاريخ العراق وحدها ، ولا لعاصمة العباسيين في حكم هذا الولى ، وانما سيجد فيه صورة كاملة للعراق في العهد العثماني « الأول » وتقصده العهد الذي امتد منذ فتحه السلطان سليمان القانوني في الثلاثينات من القرن السادس عشر ، حتى استرده السلطان محمود الثاني للحكم العثماني المباشر في الثلاثينات من القرن التاسع عشر . في هذه القرون الثلاثة توالى على العراق احكام واحداث كانت أرضه ميدان صدام مسلح بين الايرانيين والعثمانيين أكثر من مرة ، وبين الولاة والعصبيات الكردية والعربية بشكل لا يكاد ينقطع ، هذا الى منازعات فرق المالكي ومن اليهم ، مما تمتلئ بهم سجلات العهد العثماني في سائر الولايات العربية حتى جاء داود وهو أحد الأجناد المنتمين لهذه البيوت المملوكية التي استقلت أوضاع العراق والدولة لتسيطر على الحكم في بغداد منذ منتصف القرن الثامن عشر ، جاء داود ليحاول أن يضع حدا لهذا الاضطراب ويمهد لحكم مستقر مستثير شأنه في ذلك شأن معاصره في مصر « محمد على » الذي خرج - هو نفسه - من صفوف النظام القديم ليعمل على تحطيم هذا النظام وتشبيد نظام جديد . ولكن كلتا المحاولتين اصطدمتا بمحاولة ثالثة ، اثبتت على الايام قوتها ، كانت تجرى منذ سنوات في استانبول عاصمة الدولة ، ورفع لواءها اذ ذاك السلطان الكبير محمود الثاني وتهدف - هي الأخرى - الى تقوية دعائم الدولة وتشديد قبضتها على ولاياتها واصطناع اساليب التنظيم الحديث في الادارة والقضاء وشئون المال والتعليم والأرض وغيرها من المرافق . واعتبرت هذه الحركة العثمانية (الاصلاحية) أي حركة احياء في أية ولاية من ولايات الدولة خروجاً على واجب الولاء وطعناً للدولة وفتحاً للباب - على مصراعيه - للمداخلات الأجنبية ، فهو بذلك يسبب ضعفا

واضعافا لقوتها وللإسلام كله الذي تمثلته السلطنة باعتبارها دولة الخلافة ، وهذا أمر ينبغي أن تنهض لمقاومته ملوسعها الجهد وتحشد له القوى ، حتى وإن اضطرت في سبيل ذلك إلى الاستعانة بالقوى الأجنبية . وكانت ثمرة هذه السياسة والخطط ثلاثة جهود في هذا السبيل :
الجهود الأول حين قضت على داود والمالكي في بحر من الدمار شهدته بغداد سنة ١٨٣١ .
الجهود الثاني يتمثل في القضاء على حكم الأسرة القرمانية في طرابلس سنة ١٨٣٥ .

الجهود الثالث هو قيام الدولة سنة ١٨٤٠ بتحطيم إمبراطورية محمد علي ورد القوة المصرية إلى داخل مصر نفسها ووضع نظام « الخديوية » المصرية حتى انهيار على يد الاحتلال البريطاني في ١٨٨٢ .

ونعود إلى بغداد في ١٨٣١ وداود باشا يغادرها مشيعا بالأسى . وإذا كانت الدولة العثمانية قد بدأت تصطنع أساليب جديدة في الحكم والإدارة وترتيب القوة العسكرية فإن الأوضاع السابقة التي هيمنت على تاريخ العراق الحديث ظلت تفعل فعلها وإن اتخذت أشكالاً مختلفة ، كالصراع الأيراني العثماني والمنازعات بين العصبية الكردية والعربية ومنافسات الولاة وأصحاب البيوتات ثم أضيفت إلى هذا كله مداخلات القوى الأجنبية ومحاولات احتكار النفوذ وظلت هذه الأوضاع تسيطر على العراق حتى الاحتلال البريطاني فقيام الحكم الوطني .

ولكن العراق استطاع أن يخرج من هذا « الليل الطويل » بكسب واحد ثمين ، هو احتفاظه بوجهه العربي السليم وروحه العربية الأصيلة وهذا بحث ممتع في التاريخ الاجتماعي والثقافي لا أجد أقدر من الدكتور عبد العزيز نوار على كتابته . فهو قد عاش العراق القديم في مصادره ووثائقه ومخطوطاته وعاش العراق الجديد واضطرب بين ناسه وخبر مشكلاته حين حمله حنينه الدائب إلى العراق وتاريخه إلى الترحيب بشد الرحال إليه حيث أقام نحو ثلاث سنوات منتدبا للتدريس بجامعة بغداد .

وأنا أعلم أن نوارا عاد وشيكا من بغداد وقد ملأ عقله وقلبه وجعبته بمادة — بل بمدد لا ينقطع — من تاريخ العراق الحديث ، وقد بدأ بشكل بعض هذه المادة ويدفع بها إلى المطبعة .

وله منا أصدق الدعاء بالتوفيق ، وعلى الله قصد السبيل .

أحمد عزت عبد الكريم

نشية البكري ١٩/١٠/١٩٦٧

المحتوى

صفحة

- مقدمة ٧
- تمهيد : العراق تحت الحكم العثماني ٩
- الفصل الأول : حكومة المماليك : ٢١
 - أسباب تفوق المماليك — سليمان أبي ليلة — على باشا الأول —
 - الحرب الإيرانية — سليمان باشا الكبير — نشأة داود —
 - على باشا الثاني — سليمان الصغير — اقتراب داود من
 - الزعامة
- الفصل الثاني : تولية داود وتوطيد سلطته : ٥٥
 - داود في عهد سعيد — النزاع بين سعيد ومحمود بابان —
 - مؤامرة عزرا — النزاع بين داود وسعيد — داود
 - يفر إلى محمود بابان — تطور الصراع — مصرع سعيد —
 - ثورات مبكرة ضد داود
- الفصل الثالث : داود وتوحيد العراق ٨٧
 - أهم العشائر العربية — سياسة داود لإزاء العشائر العربية
 - سياسة داود لإزاء الشيعة — أهم الإمارات والعشائر
 - الكردية — سياسة داود لإزاء الأسرة البابانية — أهم
 - الطوائف المسيحية — سياسة داود لإزاء الطوائف
 - المسيحية — سياسة داود لإزاء اليهود — سياسة داود
 - إزاء آل عبد الحليل في الموصل — سياسة داود لإزاء
 - ماردين
- الفصل الرابع : داود ومقاومة التخلل الإيراني : ١٥٧
 - أطماع إيران في العراق — السياسة الرومية — القتال

بن داود ومحمود - الحرب بين التوطين الفارسية - صفحة
والعثمانية - محمد علي يمسك عن نجدة داود - معاهدة
أرضروم الأولى - استمرار النزاع

- الفصل الخامس - داود ومقاومة النفوذ الأجنبي : ... ١٨٩
تطور النفوذ الإنجليزي - النزاع بين سليمان الصغير
وريتش Rich - نمو نفوذ ريتش - النزاع بين داود
وريتش - طرد ريتش - تسوية الأزمة - مشروع
الملاحقة التجارية البخارية

- الفصل السادس : سياسة داود في الخليج العربي : ... ٢٢١
ارتباط البصرة والأحساء ببغداد - علاقة البصرة
بمسقط - الأحساء بين داود ومحمد علي - النزاع بين
داود وملك مسقط - نهاية حكم داود في البصرة

- الفصل السابع - النزاع بين داود والسلطان : ... ٢٣٧
محاولات السلطان طرد المماليك - مصرع صادق
مبعوث السلطان - علي رضا يتولى مهمة طرد المماليك -
الطاعون والقيضان - بغداد تقاوم - استسلام داود -
مذبحة المماليك

- الفصل الثامن - إصلاحات داود : ... ٢٨١
إصلاحاته الاقتصادية - وصف بغداد في عهد داود -
فضل داود على النهضة الثقافية - نمو القوة العسكرية
على عهد داود

- خاتمة ... ٣٢٧
- الملاحق ... ٣٣١
- المراجع ... ٣٤٧

مقدمة المؤلف

يحتاج الوطن العربي في الظروف الراهنة إلى تكريس كل الجهود للدراسة تاريخه ، وخاصة لما لتاريخ البلاد العربية من أثر كبير في توجيه عمليات الوحدة التي تسير بخطوات سريعة منذ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وقبل هذه الثورة كانت الدراسات العليا التاريخية مقصورة تقريباً على تاريخ مصر والسودان . ولذلك وجه أستاذنا المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال والأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم تلاميذهما نحو تقديم رسالتهم في تاريخ العرب وكنت ممن لبي هذه الدعوة ، وتوفرت على دراسة تاريخ العراق الحديث وقدمت هذه الرسالة للحصول على درجة الماجستير في تاريخ داود باشا ١٨١٦ - ١٨٣١ . وهي ليست دراسة لهذه الشخصية فقط ، بل كذلك دراسة لأحوال العراق السياسية والاجتماعية والاقتصادية خلال عهد الحكم المملوكي في العراق ، الذي بدأ منذ منتصف القرن الثامن عشر في بغداد . ثم قلمت رسالتي للحصول على درجة الدكتوراه في تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ١٨٣١ - ١٨٧٢ . وأرجو أن أتابع دراسة تاريخ العراق حتى وقتنا هذا ، حتى أقدم - بإذن الله - دراسة مستفيضة متكاملة لتاريخ العراق الحديث .

د . عبد العزيز سليمان نوار

القاهرة في يناير ١٩٦٤

تمهيد

العراق تحت الحكم العثماني (٥)

كان العراق في القرن السادس عشر قد أصابه تغيير كبير خلال عصور الاضمحلال التي مرت به بين الاحتلال المغولي سنة ١٢٥٨ م والاحتلال الصفوي الإيراني في أوائل القرن السادس عشر الميلادي . فقد دم هولاكو بغداد فجعلها « مجرد مركز فقير »^(١) وقامت بغداد منذ نهاية الحكم المغولي حتى الحكم الصفوي سلسلة متتالية من الثورات الداخلية والمنازعات على الحكم ، وتوالى عليه « حكومات » الجلائريين^(٢) ، والقره قوينلو^(٣) والآق قوينلو^(٤) دون أن يشهد العراق عناية تقيله من عثرته ، وظل في انهيار مستمر حتى كان انتصار الشاه إسماعيل الصفوي^(٥) الحاسم الذي فر على أثره أمراء الآق قوينلو إلى السلطان العثماني تاركين العراق لقمة سائغة للصفويين (١٥٠٨) .

-
- (٥) ليس المقصود من هذا التمهيد دراسة الحكم العثماني في العراق أو تفصيل الكلام عن تاريخه ، بل المقصود منه أن يكون مدخلا لدراسة العراق في عهد داود .
- (١) كانت لكبة المغول للعراق مروعة استمرت آثارها قروناً طويلة .
- (٢) الدولة الجلائرية نسبة إلى مؤسسها آق بنابن جلاير . استمرت تحكم في العراق من ٨٧٤٠ - ٨٨١٣ م (١٣٣٩ - ١٤١٠ م) .
- (٣) القره قوينلو دولة تركانية حكمت العراق من ١٤١٠ - ١٤٦٨ م .
- (٤) الآق قوينلو دولة تركانية أيضاً حكمت العراق من ١٤٦٨ - ١٥٠٨ وراجع من هذه النول C.Huart: Histoire de Bagdad. Paris. 1901. pp. 1-30.
- (٥) مؤسس الأسرة الصفوية الشيعية في إيران التي استمرت من (١٥٠٠ - ١٧٥٠ م) .

دخل الجيش الإيراني بغداد ، وكان من الأعمال الأولى للفاطميين
الجلدد^(١) ذبح أئمة السنة الموجودين وهدم مقابر الغابرين منهم (١) : فكانت
وصمة ذات صدى قوى في بلاط السلطان ، وبخاصة أن أمراء كردستان
كانوا قد فروا من وجه الصفويين إلى السلطان وكانوا يستنجدون به ،
ولقيت نداءهم آذاناً جد مصغية إذ أن سقوط العراق في يد الصفويين
هدد قلب الدولة العثمانية وأوجد إلى جانبها قوة فتية ذات أهداف مذهبية
إمبراطورية واسعة ، فكانت الحرب الضروس وانتصار السلطان سليم في
جالديران^(٢) ودخوله تبريز والاستيلاء على كردستان والموصل . وكان
لتقدم الفاتح العثماني في بلاد الدولة الصفوية صدى قوى في بغداد حيث
اغتصب الحكم ذو الفقار الكردي الأصل وأعلن ولاءه للسلطان العثماني
ولكن الخيانة أعادت بغداد إلى الحكم الصفوي سنة ١٥٣٠ ، على أن
انتعاش الحكم الصفوي في بغداد لم يستمر أكثر من سنوات قليلة وذلك لأن
السلطان سليمان القانوني بعد أن انتهى من حروبه في أوروبا التفت إلى الشرق
وإلى خطورة عودة الحكم الإيراني للعراق ، فلقد تحالف الشاه مع ملك المجر
علمو السلطان فكان الشاه بذلك خائناً للحركة الإسلامية الكبرى التي تزعمها
السلطين العثمانيون . وواضح أن الاحتفاظ بكردستان والموصل لا يمكن
ن يستمر قوياً إلا إذا توطد الحكم العثماني في العراق كله . لذلك زحف
السلطان مجيوشه القوية على العراق ففتح بغداد سنة ١٥٣٤ بعد تردد شائن
من حاكمها .

رأى السلطان أن الشيعة الصفوية عملوا على صبغ بغداد بالصيغة
الشيعة ، ولذلك اتجه السلطان إلى رفع شأن أهل السنة وإعادةهم إلى سابق

(١) C.Huart: Histoire de Bagdad dans Les Temps Modernes-Paris 1909

pp 38-39

(٢) واد بين بحيرة أورمية وتبريز وكانت المعركة في سنة ١٥١٤ (ك. بروكلمان .

تاريخ الشعوب الإسلامية . بيروت ١٩٤٩ ج ٣ : ص ٦١) .

تفوقهم . ولكن موقفه من مزارات الشيعة ومن شيعة العراق أنفسهم كان طيباً (١) إذ اتخذ إليزائهم موقفاً كريماً من حيث الاعتراف بما في العراق من اختلافات مذهبية والنظر إلى الطرفين بعين الاعتدال وتسهيل أمور العبادة لكل من أهل السنة والشيعة ، وإشعارهما بالطمأنينة والهدوء ، وهذه السياسة كانت من أسس الحكم العثماني التي استمرت قائمة في العراق ، فقد تركوا للشيعة مذهبهم وتركوا لهم مزاراتهم ولم يحولوا قط بينهم وبين هذه المزارات ، بل وحرصوا على أن يجهلوا للشيعة من خارج العراق أيضاً زيارة هذه المزارات المقلصة (٢) . وأما من الناحية الاقتصادية فقد تابع السلطان العثماني سياسة إسماعيل الصقوي من حيث الاهتمام بمشروعات الري وحماية البلاد من غوائل الفيضان (٣) .

ومن الناحية السياسية اعترف السلطان بالعصبيات الكردية في الشمال فأبقى حكم كردستان للبيوتات الكردية الحاكمة وجعل من الموصل أياًلة قائمة بذاتها ضمت ستة سناجق (٤) ، وكانت هذه الأياًلة تتوغل قليلاً في كردستان شرقاً حتى « بانه » وتمتد جنوباً إلى تكريت إلى ما وراء جبل حميرين بقليل . ولم تكن حدود هذه الأياًلة واضحة نظراً لأنها كانت مجاورة لمنطقة كردستان التي أصبحت أياًلة باسم « شهرزور » وهي أياًلة لم تنضج إلا في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، نظراً لأنها كانت محالاً

(١) عباس المزوي : تاريخ العراق بين احتلالين — بغداد : ١٩٥٤ ج ٤ ص ٢٨٥

٢٨٦ .

(٢) وأهم هذه المزارات قبر حل بن أبي طالب في النجف وقبر الحسين في كربلاء ، وقبر موسى الكاظم في الكاظمية وهي قرية تقع شمال بغداد وضاحية هامة من ضواحي بغداد .

(٣) المزوي : تاريخ العراق ج ٤ : ٢٩ - ٣٧ .

(٤) وهي الموصل ، الموصل القديمة ، وباجوان ، وتكريت ، وبانه ، وهور .
ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية : محاضرات ألقاها بمعهد الدراسات العليا العربية (القاهرة ١٩٥٧ - ص ١٣٣ - ١٣٤) .

واسعاً للعمليات العسكرية من جانب إيران ، وبخاصة تابعتها أردلان(١) والنولة العثمانية ، ومع ذلك فيمكن أن تقسم أيلة شهرزور إلى حوالى العشرين سنجقاً(٢) .

وكما اعترف السلطان بحكم العصبيات في شمال العراق اعترف به في العراق العربى إذ ترك الشيوخ حكاماً على عشائرهم ، وكانت أهم المشيخات في القرنين السادس عشر والسابع عشر هى مشيخات الخزاىل والعبيد وزيد وبني لام وشمر والمتفق(٣) . وكانت عشائر المتفق أقوى هذه العشائر . كانت تسيطر على البصرة عند ما فتح السلطان بغداد فأعلن شيخها راشد المغامس ولاءه للسلطان ، فأبقاه تحت حكمه(٤) . ولكن وجود هذه الإمارة العربية شبه المستقلة كان يحول بين العثمانيين وأعدائهم البرتغاليين(٥) : إذ قامت عليها القوات العثمانية سنة ١٥٤٦(٦) وتقدم العثمانيون بعد ذلك على طول الساحل الغربى للخليج العربى ، قاسموا دولها على الأحساء سنة ١٥٥٠ وهذه أيضاً أصبحت أيلة . ولم تقسم البصرة - وكذلك

(١) إحدى الإمارات الإيرانية القوية التى كانت تدعى السيادة على كردستان .

(٢) وهى سناجق ، سروجك ، كسنان ، أربل ، شهر بازار ، جنكوله (ضمت إلى بغداد) هازارمردود ، جوران ، مركاره ، حريير ، دودين ، كيل طارى ، سبه ، زنجير ، صجور ، أبرومان ، ياق ، يرغل ، باق ، أوشى ، قلعة غازى ، وكانت هذه السناجق سرية الاختفاء وكان بها حوالى مائة أمير من مرتبة زعامت . انظر : عباس الزاوى : تاريخ العراق ج ٤ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٣) سنتكم بالتفصيل عن هذه العشائر العربية في الفصل الثالث ومعظم هذه العشائر في جنوب بغداد حتى البصرة .

(٤) الزاوى : تاريخ العراق ج ٤ : ٤٦ .

(٥) كان السلطان يعمل على قتال البرتغاليين في المياه المحتلة « التفصيل في سياسة داود في الخليج العربى » .

(٦) الزاوى : تاريخ العراق ج ٤ : ٤٩ - ٥٠ .

الأحساء - إلى سناجق^(١) نظراً لقوة العصبية العشائرية في كل من الأيالتين . وبقيت البصرة بذلك وحدة إدارية واحدة وكانت هذه الأيالة ذات مميزات خاصة . فهي تطل على البحر واتجاهها نحوه ومشكلاتها تتعلق بخطر عشيرة كعب^(٢) عليها وبأطماع إيران .

وبين الموصل وشهرزور في الشمال والبصرة في الجنوب كانت تمتد أيلة بغداد وهي أهم باشويات العراق وتضم أنحصب المناطق وأشهرها لأنها قلب العراق منذ أقدم العصور ، وأقوى باشوية فيه تحكم حكماً مباشراً . وكانت بغداد تتفوق على مدن العراق كلها بأنها كانت المركز الثقافي والاقتصادي الأول في العراق ، وكانت أكبر الباشويات مساحة إذ كانت تضم ثمانية عشر سنجقاً^(٣) .

وقد وضع الباب العالي نظام حكم أيلات العراق على غرار النظام الذي كان متبعاً في بقية الإمبراطورية العثمانية . فكان الولى على رأس الجهاز الإداري ، ومدة حكمه سنة تتجدد بموافقة السلطان فتصل أحياناً إلى ثلاث سنوات وكان الولى أحياناً يعود إلى ولايته أكثر من مرة أو يعين في ديار بكر أو الموصل ثم يتولى بغداد أو البصرة فيكون ذلك من الأسباب التي تكسبه خبرة أدق بأمور العراق . وكان باشا بغداد من المرتبة الأولى

(١) اللؤلؤ العربية : ١٣٦ .

(٢) عشيرة عربية تنزل في شرق البصرة وتشتغل بالقرصنة النهرية والبحرية والتجارة .

(٣) وهي سناجق (١) الحلة (٢) زنك اياد (من توابعها تزلرباط) وقد افترشت المدينة

(٣) الجوزور (الجزائر) (٤) الرماحية (٥) جنكوله على الحدود العراقية الإيرانية (٦) قراء طاغ (تبع السلطنة فيما بعد) وهذه السناجق الستة فيها زعامت وقياد (٧) دوتنك (بجوار الحدود الإيرانية وموضع نزاع) (٨) البليات (في كركوك) (٩) درنه (على الحدود الإيرانية وموضع نزاع) (١٠) ده بالا في شمال شينكوه (١١) واسط (الكوت) (١٢) دميرقير (١٣) قراينه بجوار مندلي (بتدجين) (١٤) كيلان العراق (بين كركوك وإيران) (١٥) آل صاج قبيلة قرب التون كوبري (١٦) العمادية ويحكمها البهدينان (١٧) السهاوة (١٨) كرنه . انظر المزاري تاريخ العراق ج ٤ - ٢٨٢ - ٢٨٤ .

(أى صاحب ثلاثة أطواغ) - وكان عدد كبير من باشوات العراق من حاشية السلطان حتى تولى حسن باشا ولاية بغداد سنة ١٧٠٤ فأصبحت الباشوية لابنه ولما ليكه من بعده .

وكان باشوات بغداد متفوقين على زملائهم في بقية الأيالات العراقية إذ أن اعتماد الأيالات الأخرى على بغداد جعل الباب العالى ينص في الفرمان على حق باشا بغداد في عزل ونصب باشوات كردستان^(١) ، وهذا امتياز لم يحصل عليه أى باشا من باشوات الأيالات الأخرى العراقية . على أن حكم الأيالات كان مطلقاً تقريباً لا يرجع إلى الآستانة إلا في الأمور الخطيرة وعلى الباشا أن يدير أمور باشويته وأن يرسل الأموال إلى الباب العالى وألا يزعمه بمشكلات خطيرة .

" وكان الوالى يأخذ مرتباً سنوياً . وهو يقتطع هذا المبلغ من الأموال التى جمعها من أبايته وكانت عين الباب العالى تراقب - في كثير من الأحيان - أعمال الباشا . وبخاصة أن القاضى والدفتردار^(٢) كانا يعودان سنوياً إلى الآستانة فتصبح أمور الأيالة مكشوفة أمام الباب العالى . وكان الشعب أيضاً كلما أحس بظلم ملحوظ تمرد على الباشا وأرسل الشكاوى في حق الوالى . وكانت شكاوى الشعب إلى السلطان ذات صدى في دوائر الآستانة .

على أن الديوان كان الهيئة الحكومية العليا القادرة على معارضة الباشا . وكان يتكون من كبار ضباط الحامية وعلى رأسهم أغا الانكشارية والدفتردار والعلماء وكبار حكام المدن ، وكانت العضوية في الديوان غير ثابتة وكان الباشا

(١) جودت باشا : ترتيب جهيد استانبول : مطبعة عثمانية سنة ١٣٠٢ هـ : ج ١ : ص ٢٧٢ .

(٢) سوف ترى أن الممالك كانوا يستنون هذا المنصب إلى أسلافهم الذين يخلفونهم في منصب الباشوية .

هو الذى يختار الأعضاء ومن ثم كانت السلطة العليا للبasha الذى كان قادراً على أن يغير حتى تشكيل الديوان^١. وقد ثبت أن الديوان لم يستطع أن يكون قوة قائمة بنفسها نظراً لأن الانكشارية اعتمدوا على قوتهم ، والعلماء اعتمدوا على الشعب ، واعتمد الشعب عليهم ، والوالى اعتمد على ما يجمعه من قوات . وانتهى الأمر الى إهمال الديوان وأصبح مجرد هيئة استشارية ولم يعد أداة من أدوات الحكم ، ولكنه بقي لاستقبال كبار الزائرين والمبعوثين .

وكانت القوة التنفيذية لأوامر البasha مسندة الى الكتبخدا (الكخيا) فهو نائب البasha ووكيله ، وهو القائد العام للقوات العسكرية ، والمشرف على أمن المدينة والولاية فكانت مكانته لذلك خطيرة . على أن هذه المكانة لم تظهر خطورتها إلا عندما بدأ حكم المماليك .

أما الأمور الاقتصادية فكانت مسندة الى الدفتردار الذى كان بمثابة وزير المالية فى الولاية . وهذا المنصب لم يعد له مدلوله الذى كان عليه فى القرن السادس عشر والسابع عشر . وقد أصبح الدفتردار فى غضون القرن الثامن عشر والتاسع عشر يتولى قيادة الجيوش وأمور الولاية السياسية حتى كادت وظائفه لا تفرق كثيراً عن مهمة الكخيا فى بعض الأحيان . وكذلك كان الأمر بالنسبة للخازندار . وأما الأمور القضائية الشرعية فكانت مسندة الى القاضى الذى كان يعين باقتراح من شيخ الإسلام وبفرمان سلطاني ، وتلحق به دار الإفتاء ويرأسها مفتى المدينة . وكان للقاضى نواب فى سائر أنحاء الولاية^(١) .

وأما خارج عاصمة الولاية فإن المشيخات العشائرية تتبع أقرب المدن إليها أو يعين لها ضباط فى أماكن معينة يجمعون منها الأموال ويكونون واسطة بينهم وبين الحكومة . والواقع أن التنظيم الإدارى خارج بغداد

(١) أحمد حل الصوفى : المماليك فى العراق - الموصل - ١٩٥٢ م. - ص ٢٢٢ .

كان بسيطاً فلكل منجى حاكم مسئول عنه من جميع النواحي العسكرية والاقتصادية ، ويتولى منصبه كل سنة أيضاً حسب رغبة الوالى (١) . والوالى عادة مدته قصيرة ولذلك يمكن أن نقول إن إدارة العشائر كانت متروكة لشيخها تماماً حسب عرفها وما تتبعه من قوانين ، وهذا يرجع إلى قوة هذه العشائر العربية في العراق .

على أن الاعتراف بالعصبيات الحاكمة وتقسيم العراق إلى أقالام متعددة كان خطة لها عيوبها . لقد كان التقسيم يقوم على أساس جغرافى ، كما كان نتيجة لعوامل سياسية . فقد كانت الموصل على الحافة الجنوبية لجبال كردستان ، وبذلك لا تستطيع السيطرة التامة على إمارات كردستان حتى الحدود الإيرانية . ولذلك كان إنشاء إمارة شهرزور من العوامل التى تجعل السلطة العثمانية أكثر قدرة على رقابة الحدود الإيرانية — العراقية فى تلك المنطقة المضطربة . وكانت البصرة لها وضعها الذى كان يختلف كل الاختلاف عن أوضاع الأقالام الأخرى . فشكلاها بحرية — عشائرية ، واتصالها بالصراع الأوروبى الاستعمارى فى الخليج العربى مباشرة ، وتغرق الأهوار والبحيرات الموسمية والقبائل المعادية الانصالات السريعة مع بغداد . وكانت فى الوقت نفسه نقطة رقابة حساسة على نشاط عشيرة كعب الشيعية المهددة للبصرة ، ومن ثم كانت فعلا جديرة بأن تصبح وحدة إدارية واحدة مستقلة عن بغداد . وأما الأحساء فكانت هى الأخرى وحدة إدارية واحدة لأن العشائر كانت تموج فيها والحكم الفعلى فيها كان للعشائر ولم يكن فى استطاعة باشا « الأحساء » إمكانياته البسيطة أن يسيطر على هذه الأقالام التى تحيط بها العشائر العربية القوية من كل جانب .

ومن العوامل الرئيسية التى أدت إلى تقسيم العراق إلى أقالام أن السلطان قدر خطورة تجميع العراق كله تحت يد وال واحد تكون ثورته

(١) انظر عبد السلام أفندى الملقى الماردنى : تاريخ ماردى : ورقة ١٥٢ - ١٥٤ .

مروعة إذا ما ناهض السلطان . وقد كان تمرد الباشوات أمراً معهوداً في الدولة العثمانية . وكانت سياسة عدم الثقة هي التي تسيطر على أعمال الباب العالي . والباشا في ذلك الوقت لم يكن قادراً على أن يسيطر على العراق كله دفعة واحدة نظراً لامتداد العراق امتداداً كبيراً ، ولأنه ضم بيئات مختلفة وجنسيات متنافرة ذات أهداف متباينة . وهذا أمر يختلف كل الاختلاف عن مصر التي عرفت في مختلف العصور الحكومة الواحدة والسلطة المركزية . وذلك لتجانس العناصر التي تؤلف أكثر سكانها وارتباط الغالبية العظمى من سكانها بالأراضي الزراعية وقدرة هذه الأرض على اجتذاب العناصر الأخرى .

وكان لهذا التقسيم أيضاً عيوب من الناحية العسكرية ، إذ أنه يوزع القيادات ويشتت المجهودات ولكن لم تظهر تلك العيوب واضحة إلا بعد أن ضعفت القوات الإمبراطورية ، فقد ترك السلطان قوات إنكشارية في عواصم الأيالات والمدن الكبرى ، وكانت ترد أحياناً من الآستانة فرق إنكشارية جديدة لتحل محل الفرق القديمة . وكلما توترت العلاقات مع إيران - الطامعة دائماً في العراق - أرسلت القوات الإمبراطورية إلى العراق لتقوم بمهمة الدفاع عنه ، وكانت هذه القوات الإنكشارية المرسلة من الآستانة أو الموجودة في قلاع عواصم العراق تحت قيادة أغوات تابعين للسلطان . وفي أوقات السلم كانت الفرق الإنكشارية في بغداد تقوم بأعمال الشرطة في المدينة وجمع الضرائب ، وفي الوقت نفسه كان للوالى الحق في تشكيل فرق محلية ذات مرتبات منتظمة . ونظراً لانحلال النظام الإنكشاري في الآستانة سرى الضعف أيضاً إلى إنكشارية الولايات^(١) . وأصبح الوالى يعتمد أكثر على القوات المحلية وهذه إما من المرتزقة أو من العشائر الموالية أو التي حصلت على امتيازات مالية في مقابل

(١) سيم هذا الانحلال في القرن السابع عشر حتى تصبح الفرق الإنكشارية عبارة عن الأهالي المدنيين المرتبطين بجرثومهم وأعمالهم المدنية .

خدمات عسكرية . وقد أدى هذا التطور إلى وقوع النزاع بين القوتين :
الإنكشارية والمحلية^(١) . ولكن الإنكشارية كانت قوية في داخل بغداد
واستطاع بلوك باشي (أى رئيس كتية خيالة) أن يفرد بحكم بغداد
سنة ١٦٠٣-١٦٠٤م^(٢) .

وكذلك استطاع بكر صوباشي من إنكشارية بغداد أن يستبد بحكم
الولاية سنة ١٠٣١هـ - ١٦٢١م^(٣) وعهد بإخضاعه إلى جيش السلطان
الذى كاد ينجح في طرده ، لولا دخول الشاه عباس الثانى كطرف ثالث
في المشكلة ، فكان الكفاح المبرر الطويل بين السلطان والشاه على العراق
وكللت بمجهرودات السلطان مراد الرابع بالنجاح سنة ١٦٣٨م ولكن الفتح
العسكري لم يعقبه إصلاح شامل . وظلت معظم الأمور على ما كانت عليه
من فتن داخلية وثورات إنكشارية ، وتمردات عشائرية ، وأزمات اقتصادية
وأوبئة وفيضانات وتهديد إيراني ، بل إن الولاة أصبحوا يعتمدون على
قوات محلية لمواجهة تمردات العشائر والإنكشارية فكلهم ذلك كثيراً .
واضطرب بعضهم في سبيل جمع المال إلى رفع قيمة الضريبة والتلاعب في قيمة
النقد واستحداث ضرائب ونظم مالية جديدة كنظام الالتزام ، ومع ذلك
لم يستطع الولاة السيطرة على الولاية واشتدت روح الفوضى في داخل
بغداد ، وفي خارجها أيضاً . وضاعبت هيئة الباشا في بغداد كما ضاعبت
في البصرة حتى إن أحد باشوات البصرة باعها لأفراسياب سنة ١٥٩٦^(٤) .
فألقى على كاهل والى بغداد مهمة استعادتها . ونجحت بغداد في مهمتها وقد

(١) غير من وضع هذه الناحية . Huart: Op. Cit. pp 80,85,89,92-93 .

(٢) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٤ : ١٤٧ .

(٣) تفاصيل حوادث استيلاء بكر صوباشي في تلك السنة على الحكم في بغداد واستيلاء
الشاه عباس على بغداد ثم استرداد مراد الرابع لبغداد موجودة بتصوير يدعى في :

Huart: Histoire de Bagdad: pp.48-74

(٤) كان أفراسياب هذا من كتاب الجند في البصرة وقد اختلف المؤرخون في أصله وقد
مرؤ عنه الاهتمام بشئون الأهالي قتال محبتهم وقد حكى أسرته من ١٥٩٦ . انظر فتح الله الكمي:
زاد المسافر . بغداد ١٩٢١

كانت المهمة شاقة مرهقة . ومنذ أن أعيدت البصرة إلى الحكم العثماني المباشر أصبحت البصرة تنظر إلى بغداد نظرتها إلى أختها الكبرى مثلها في ذلك مثل شيرزور ، إذ أصبح على ولاية بغداد أن ينظروا في أمور كردستان بسبب كثرة العدوان الإيراني عليها ، وتعدد الصراع بين أمرائها الذين كانوا يستغلون إلى أبعد مدى موقع بلادهم بين أملاك السلطان وأملاك الشاه .

ولما كان من الصعب على قوات ولاية بغداد أن تتغلب على تمرد باشوات الكرد وأن يمنعوا هؤلاء من الاستعانة بإيران ، فإن ولاية بغداد عملوا على أن يضربوا الكرد بالكرد (١) . فكان ذلك أساساً من الأسس السياسية التي اتبناها هؤلاء الولاة خلال الحكم العثماني كله فظلت المشكلة الكردية الإيرانية مشكلة تعرض العراق من وقت إلى آخر لأزمات حادة ومرهقة.

إن هذا الضعف الذي انتاب حكومة بغداد نتيجة لهذه المشكلات جعلها في حاجة إلى وال قوى يستقر فيها ليضع خطة معينة لمعالجة مشكلاتها وإنقاذها من الفوضى التي تردت فيها خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر^{١٧}، وصادف أن تولى حكم بغداد سنة ١٧٠٤ حسن باشا الذي كلف بحرب إيران ، فكان عليه أن يقوم بمجهودات جبارة تتطلب السيطرة الكاملة على العراق ، لذلك بذل مجهودات ضخمة في إخضاع هذه العشائر لسيفه فضرب يعنف العشائر المتمردة ، ولما كانت البصرة قد وقعت في قبضة المنتفق سنة ١٧٠٨ فإنه استأذن من السلطان في أن يخلصها من يدهم ، وخاض ضدهم حرباً ضروساً انتهت بانتصار باهر لقوات حسن باشا (١٧٠٨) ففوضت الدولة إليه أمر تعيين « من يراه لائقاً لإدارتها » ، وأُرسل إليه منشور الولاية بلا تعيين اسم ، على (٢) أن تبقيها الكاملة لبغداد . كانت في ١٧١٦ عند ما منحت البصرة لأحمد باشا — ابن حسن — الذي حكم

(١) التزوي : تاريخ العراق : ج ٤ : ١٨٥ .

(٢) المرجع السابق : ج ٥ ص ١٨٤ .

شهرزور قبلها^(١) ، وهكذا بدأت سيادة بغداد على كل من البصرة
وشهرزور تستقر .

وجنت بغداد كما جنى العراق بأمره ثمار سياسة توحيد العراق تحت
حكم بغداد . فلقد فتحت همدان على يد حسن باشا . كما ضرب البغداديون
والمماليك تحت قيادة أحمد باشا أروع الأمثلة في الاستبسال خلال حصار
نادر شاه لبغداد سنة ١١٤٥هـ - ١٧٣٢م^(٢) . ولم تحدث خلال هذا الحصار
خيانة تؤدي إلى استسلام المدينة مثلما حدث سنة ١٢٥٧م^(٣) ، وسنة
١٥٣٠م^(٤) وسنة ١٦٢٣م^(٥) . وما ذلك إلا لأن أحمد باشا كان شخصية
قوية كسبت ثقة الشعب البغدادي لأنه بسط نفوذه قوياً على القبائل في
الشمال والجنوب وعلى الإنكشارية وعلى الجيش الذي يقوده .

وعلى أي حال ليس عهد الباشوات العثمانيين الذين سبقوا حسن
بسيئ للغاية . فخلال هذا العهد ظهر ولاية مصلحون اهتموا بالزراعة
وتسهيل طرق الري وبالتعليم وشق الترع وإقامة السلود لمقاومة خطر
الفيضان . ومع ذلك ظل الري سيئاً حتى بعد عهد المماليك نظراً لأن إصلاح
نظام الري يحتاج إلى حكومة مستقرة تحكم مدة طويلة . ولقد توفرت لكل
من حسن وأحمد مدد حكم ليست بالقصيرة^(٦) . ولكن الإصلاحات
لم تكن مطردة وذلك يرجع إلى انشغال حسن بقتال العشائر المتمردة وبحربه
في إيران وانشغال أحمد بالدفاع عن العراق ضد نادر شاه .

(١) المصدر السابق : ١٩٣ .

(٢) انظر : عبد الرحمن السويدي : حديقة الزوراء في سيرة الوزراء (مخطوط) .

ص ١٢٠ .

(٣) عندما سلمها وزير آخر خليفة عباس المنول بعد أن خان سيده .

(٤) عندما سلمها أخوة « ذو الفقار » حاكم بغداد للشاه بعد قتلهم لأخيه .

(٥) عندما خان أولاد بكر صوباشي أباهم وسلموا بغداد للشاه .

(٦) حكم حسن باشا من ١٧٠٤ إلى ١٧٢٣ .

أحمد باشا حكم من ١٧٢٣ - ١٧٤٧ باستثناء سنوات قليلة .

حكومة المماليك

أسباب تفوق المماليك - سليمان أهرلية - عل باشا والأول -
الحرب الإيرانية - سليمان باشا الكبير - نشأة داود - عل باشا
« الثاني » - سليمان الصنوبر - اقتراب داود من الزعامة .

تخكومة الممالك

أسباب تفوق الممالك :

أدت الحروب ومشكلات العراق العشائرية وتمردات الإنكشارية إلى أن "يعنى حسن باشا وأحمد باشا بتكوين قوة جديدة لتكون الأداة المنفذة بإخلاص لأوامر الباشا . فقد فسدت القوات الإنكشارية في العراق فساداً شاملاً حتى أصبحت نكشارية القرن السابع عشر غير تلك الإنكشارية التي عهدتها الدولة من جميع الوجوه ، ويرجع ذلك إلى :

١ - بطال نظام (الديوشرمة) أو جمع الصبية المسيحيين فتوقف لإرسال جنود إنكشارية إلى الولايات .

٢ - دخول المسلمين الأحرار في الإنكشارية وارتباط هؤلاء بأسرهم وبحرفهم حتى أصبحت الإنكشارية عبارة عن رجال مدنيين في الغالب وضعت أسماؤهم في قوائم الإنكشارية ليحصلوا على امتيازات الإنكشارية فقط وأصبح معظم الشعب البغدادي إنكشارية (١) .

أما القوة الثانية التي كانت في العراق فهي القوات المحلية التي كانت تؤلف الحرس الخاص للباشا وهذه يجمعها الباشا ويدفع لها الرواتب المنتظمة . وكان في الوقت نفسه يعتمد على قوات عشائرية كلفت بالخدمة العسكرية تحت قيادة الباشا ، مثل عشيرة البيات (٢) وعشيرة العقيل (٣) وهي قوات

(١) Gibb & Bowen: Islamic Society & the West-Vol. I, Pt. I, pp. 244-245

(٢) البيات: عشيرة تركية تنزل قرب طوزخورماتو .

(٣) عشيرة عربية ارتبطت بالخدمة العسكرية واشتهرت بالشجاعة والصلابة في المقاومة .

مرتبطة بكيانها العشائري وليس من السهل تدريبها على الحركات العسكرية الشاملة .

ولم يكن أمام حسن باشا ليكون جيشاً نظامياً هجوماً مخلصاً يحقق به أهدافه في إيران وفي بغداد والبصرة وشهرزور سوى أحد طريقين :

١ - إما أن يعتمد على العشائر العربية والكردية .

ب- أو يستخدم قوة مرتزقة من غير العراقيين . ولكن العصية القبلية وارتباط أفراد القبيلة بعشيرتهم وبعمرها ، وعدم ثبات ولاء هذه العصبية أدى كل هذا إلى أن يفكر حسن باشا في تكوين جيش من المماليك .

! ولم يكن من الصعب عليه أن يفكر في استخدام المماليك فقد ظهر المماليك في مختلف أرجاء العالم الإسلامي منذ أيام الفاطميين وكثر استخدامهم حتى أصبحت لهم في مصر دولة . وظهروا في الأستانة خلال الحكم العثماني وفي إيران أيضاً ، وكان المماليك يجلبون من تغليس ومن عشائر القوقاز ، وكانت لهم مميزات عسكرية أهلهم لما وكل إليهم . ومن هناك اشترى حسن باشا أعداداً كثيرة منهم ورباهم تربية خاصة تعدهم للحياة الإدارية وعسكرية سليمة . فقد نشأ حسن باشا في سراي السلطان . وعلى غرار النظام الداخلي لسراي السلطان كون فرقاً وجماعات من المماليك . وكانت كل جماعة تقيم في ثكنة مخصصة لها ولكل فرقة اسم مثل فرقة « الخالص » و « وكلاء الخزينة » (١) .

وأنشأ لهذه الفرق مدارس وحدد لها نظم الدراسة . وهو لم يقتصر على تعليم المماليك في هذه المدارس ، بل ألحق بهذه المدارس كثيراً من

(١) « باتركية » خزينة وكيان » .

سليمان فاتق : بغداد كوله من حكومتك تشكيله انقراضه دائر رسالة .

استانبول سنة ١٢٩٢ ص ١١ .

أبناء الأسماء الكريمة . وبعد موته صار ابنه أحمد باشا على منواله . وقد استمرت هذه النظم مرعية حتى حكم داود .

وكان نظام الدراسة يسير حسب ترتيب دقيق . فكان المماليك - وقد بلغوا سن المراهقة - يوزعون على المدارس ويصبحون أشبه بالتلاميذ ويزودون بأنواع الثقافة الدينية والأدبية . وكان في كل مدرسة من هذه المدارس المؤدبون (الآلا) والأساتذة لتعليمهم القراءة والكتابة . كما كانوا يتدربون في الوقت نفسه على الأعمال العسكرية ، ودقة إصابة الهدف . وركوب الخيل والسباحة في أحواض أعدت خصيصاً لذلك . وبعد إتمام تعليمهم وتدريبهم يدخلون في صف (أغوات الداخل) ومن هؤلاء بصطفي الباشا كبار رجال حكومته (١) .

وهكذا كانت تلك المدارس جديرة بأن تخرج قادة السيف والقلم في العراق ومن تولى النهوض بالحركة العلمية والعسكرية فيه . على أن هذا النوع من التعليم المخصص للمماليك ، وتلك الحياة المشتركة التعاونية التي كان يحياها المماليك في العراق ، خلال فترة تربيتهم ، وشعورهم بأنهم أقلية في وسط المجموع العراقي الكبير ، كل هذا كان من العوامل القوية التي جعلت منهم عصبية متماسكة وبذلك استطاعوا السيطرة على العراق وأن يضعوا في أيديهم كل السلطات ، وخاصة أن عهدهم خلال حكم سليمان أبي ليلة (١٧٤٩-١٧٦١) كان قد زاد زيادة كبيرة إذ تدفق المماليك بكثرة في ذلك الوقت من نفليس وبلاد الكرج ، وكان معظم المماليك في العراق مجلوبيين من تلك الجهات . وقلة منهم كانت تولد في بغداد (٢) .

(١) كان عدد من المماليك متمسقين بدراسة الفقه والتشريع وتولوا تنشيط الحركة العلمية في العراق وعلى سبيل المثال : عل باشا (١٨٠٢ - ١٨٠٧) سليمان باشا الصغير (١٨٠٨ - ١٨١٠) ودلاد باشا (١٨١٧ - ١٨٣١) .

(٢) سليمان فاتقي : بغداد كوله من : ١١ .

كانت تلك القوة المملوكية التي شرع حسن باشا في تأليفها ثم وسع ابنه أحمد باشا نطاقها من بعده هي التي أدارت رحا الحرب ضد نادر شاه (١٧٣٠ - ١٧٤٣) وهي التي ساندت أحمد باشا ووقفت إلى جانبه قوية وكانت من العوامل القوية التي أحبطت محاولات السلطان لعزل أحمد باشا من بغداد .

سليمان أبو ليلة

كان السلطان يخشى المكانة التي نالها حسن باشا عن جدارة وتلك التي نالها من بعده ابنه أحمد باشا ، فحاول أن يبعد عن العراق خطر احتمال أن يستقل أحد الباشوات به . فأبعد أحمد باشا عنه سنة ١٧٣٤ . ولكن ظروف العراق كانت تحتم على السلطان أن يكون حكمه بيد شخصية تستطيع أن تنازل وتفاوض نادر شاه . ولم يكن هناك سوى أحمد باشا فأعيد إلى باشويته وإلى شعبه البغدادى الذى ظل متمسكاً به حتى بعد أن نقله السلطان إلى باشوية أخرى ، فقد تمسك البغداديون بأحمد باشا لأنهم خبروا الباشوات العثمانيين عقب إبعاده عن العراق ، فألفوهم غير كفافة لقيادة العراق (١) : هذا بينما كان البغداديون قد رأوا في سليمان باشا - كخليفة أحمد باشا وصهره - خليفة لبطلهم أحمد باشا حيث خبروه خلال خمس عشرة سنة ، أثبت خلالها في ميدان الحرب والسلام أنه الأكفأ والأقدر على إدارة شئون البلاد التي عرف مشكلاتها ، وحقق أساليب حكمها . وكان مرجع الخاص والعام خلال توليه منصب الكتخدائية (٢) .

ولكن هل كان الباب العالى يقبل راضياً إلى ذلك الوقت ، أن يتولى سليمان باشوية بغداد المسيطرة على العراق حتى ولو تمسك به الشعب البغدادى

(١) Heude: A Voyage up the Persian Gulf. PP. 145 — 146

انظر : المزوى : تاريخ العراق : ج ٥ : ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٢) سليمان فاتق : بغداد كوله من : ٩ .

والعصية المملوكية؟ فالباب العالى كان يعمل جاهداً على إعادة حكمه المباشر إلى أقاليم العراق :

ولعل الباب العالى وجد في وفاة أحمد باشا (سنة ١١٦٠هـ - ١٧٤٧م) حلاً لمشكلة قيام حكم شبه مستقل مثلما حدث في معظم ولايات الدولة العثمانية . ولكن الباب العالى أخفق في إبعاد سليمان أبى ليلة عن حكم العراق ، لأن « ولاية الخارج » وأموال الباب العالى لم تتمكن من تسكين ثائرة القبائل السريعة التمرد - التي كانت قد صاهر بعضها أحمد باشا وسليمان باشا أبو ليلة^(١) . ولم تتمكن أيضاً من تهدئة البغداديين المتمسكين برجلهم المفضل^(٢) وعجزت أمام فتن الإنكشارية المتعددة ، وأمام دعايات سليمان أبى ليلة ، الذى كان يطالب بكل قوة بباشوية بغداد ، خصوصاً وقد وقفت العصية المملوكية إلى جانبه . واستطاع سليمان أن يتولى الباشوية برغم ما أبداه منافسه الباشا العثماني من مقاومة عنيفة (١١٦٢هـ - ١٧٤٩م)^(٣) .

ويعتقد صاحب « بغداد كوله من » أن الدولة أخطأت بتوليها سليمان الباشوية لأن الدولة لذلك شغلت نفسها بممالك العراق زهاء قرن ، وأنها أسندت إليه الولاية طمعاً فيما سيقدمه لها من أموال ولكن دون أن تجربه^(٤) . والواقع أن إسماعيل الولاية إلى سليمان باشا كان أمراً لا مناص منه . فلقد حاولت الدولة أن تبعده عن الولاية ، ولكن مشكلاتها الداخلية والخارجية في أوروبا وروسيا وفارس لم تسمح لها بالوصول إلى هدفها في تلك الولاية الثانية^(٥) وهو إبعاد سليمان أبى ليلة عن بغداد .

(١) Huart: Op .Cit. PP. ١46 — ١47.

(٢) بغداد كوله من : ٩ .

(٣) Huart: Op cit. PP. ١53.

(٤) بغداد كوله من : ٩ - ١٠ .

(٥) بروكلمان ج ٣ : ١٥٥ - ١٦٢ (يبين مشكلات الدولة المدينة في تلك الفترة) .

وهكذا تولى مملوك حكم العراق^(١) من بغداد ، وكانت بغداد منذ أيام حسن باشا مسيطرة على باشوات العراق الأخرى وأدى ذلك الصراع بين نادرشاه وأحمد باشا إلى توحيد العراق تحت حكم باشا بغداد فيما عدا الموصل وباشوات أقصى شمال العراق .

ولكن عملية التوحيد هذه وقفت عند حد التبعية الظاهرية في معظم الأوقات فقد كانت مناجق الشمال وباشواته تتمتع باستقلال نسبي إلى أن يجرد عليها باشا بغداد حملة لاستعادة نفوذها فيها^(٢) .

٢ وكانت سياسة أبي ليلة — وقد سمي بذلك لحركاته السرية الليلية العسكرية إزاء القبائل السريعة الانقضاض والتمرد — ترمى إلى توجيه الضربات السريعة القاسية^(٣) . وقد بلغت قواته خلال إحدى حملاته دمشق ففتح عن تلك المجهودات أن أصبحت الملاحة النهرية آمنة وتحولت التجارة من الموانئ الفارسية إلى البصرة وهجر التجار طرق فارس المحتلة الأمن . ونشطت تجارة شركة الهند الشرقية البريطانية في البصرة^(٤) .

(١) انظر قائمة الباشوات الذين حكموا بغداد منذ حمدن باشا (١٧٠٤) حتى داود باشا ١٨٣٩ ملحق رقم (١) .

(٢) جودت : ١ ج : ٢٧٠ .

(٣) Heude: op cit .PP. 148 — 149

يرجع اهتمام الإنجليز ببحر الهند والخليج إلى أوائل القرن السابع عشر وأنشئت الوكالة البريطانية في البصرة منذ ١٦٣٩ وحصل الوكيل البريطاني سنة ١٧٢٨ على حق محاكمة الأشخاص الثائبين للوكالة وفي سنة ١٧٣١ حددت الضريبة بـ ٣٪ على البضائع البريطانية . ولم يترف ألياب المال بوكالة البصرة إلا في سنة ١٧٦٣ ولم يوافق مديرو شركة الهند الشرقية البريطانية على تعيين مقيم بريطاني في بغداد وإنما عين وكيل وطني هناك سنة ١٧٨٣ ، وفي سنة ١٧٩٨ عين وكيل بريطاني لتنظيم البريد بين الهند وبريطانيا ولمراقبة حركات الفرنسيين . وفي سنة ١٨٠٢ حصل الإنجليز على براءة التصليية في بغداد .

Aitchison: A Collection of Treaties. Vol. XI. P 2

على باشا الأول :

ولما كانت قوة المماليك قد توطدت خلال حكم سليمان أبي ليلة وكثر عددهم . ولم يكن في وسع الباب العالي إلا أن يسند الباشوية - بعد أبي ليلة - إلى شخصية مملوكية معروفة لديه ، يجمع عليها المماليك وأولو الرأي من علماء وأعيان بغداد^(١) ، لذلك أسندت حكومة بغداد إلى على باشا الذي تعاون مع شركة الهند البريطانية على ضرب أسطول كعب^(٢) ولكن لم تغفر له عادلة هانم - زوجة أبي ليلة وذات النفوذ الواسع خلال حكم زوجها - إغفاله لنفوذها ، فاستغلت كراهية البغداديين للفرس ولمنهمهم ، وأثارت عليه حقد المماليك الطموحين ، وأطلقت في العاصمة العراقية شائعات رددت أنه كان خفيف الوطأة على الخزاعل الشيعة شديدها على الإنكشارية والكرد السنين^(٣) .

وكان من الطبيعي أن يبرز مطالب بالباشوية يدعى إنقاذها من الوقوع في يد « بكر صوباشي » جديد^(٤) وترغم الثورة عمر بك أحد كيخيات سليمان أبي ليلة ، وقضى على خصمه واعتلر للباب العالي بعدم عرض قضية الباشا « الفارسي » عليه خشية وقوع العراق في يد إيران قبل ورود أمر السلطان . وأبدت الاعتذار كتب الأعيان والتماسات الأهالي فأسندت إليه الباشوية (١١٧٧ هـ - ١٧٦٤ م) .

ويقول جودت إن انتصار المماليك في تعيين عمر باشا وشعورهم بقوتهم جعلهم يعملون على تقليد آراء المماليك في مصر . فقد اجتهدوا

(١) عباس الزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين - ج ٦ - ٣٢ .

(٢) كانت عشيرة كعب البرية - وهي من مذهب الشيعة - تزل في شرق البصرة وتقوم بأعمال القرصنة .

(٣) الزاوي : تاريخ العراق ج ٦ : ٣٦ ١٧٣ Longrigg: Four. p.

(٤) ثائر أسلم بغداد للشاه عباس في أوائل القرن السابع عشر الميلادي . ٣ - جودت

ج ١ : ٢٧١ .

في السيطرة على الجهاز الإداري والعسكري لباشوية بغداد وفي تقوية أواصر :
الرباط فيما بينهم بمصاهرة ذوى الشكيمة منهم وترقية الأصهار إلى منصب
الكخذائية ، وهو المنصب المهد للحصول على منصب الباشوية : وعلى
هذا النمط سار الممالك فعلا حتى داود باشا .

حكم عمر العراق بقوة ونشر الأمن في ربوعه في وقت كانت الكوارث
فيه تتوالى على الدولة العثمانية في ختام حربها مع روسيا التي انتهت بإذلال
كوجك كينارجي ، وبضياع هيبتها في الشام إبان انتصارات على بك الكبير
في مصر ، وضاهر العمر في فلسطين وغيرهما من المتمردين الذين أشعلوا
نيران الفتن في معظم أجزاء الدولة حتى إن بغداد أصبحت تحت حكم
عمر باشا جديرة بأن تسمى « دار السلام » لما شملها من هدوء وطمأنينة .

ولكن الجزء الأخير من حكم عمر باشا كان مضطرباً كل الاضطراب
فقد اجتاحت الطاعون العراق (١١٨٦ هـ - ١٧٧٢ م) ، ويقال إنه قضى
على قادة البلاد ومن تمرس في إدارتها ، فركن عمر باشا إلى غير الكفاة
فكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن اختلت أمور البلاد وخفت يد عمر باشا عن
عشائر العراق الجنوبي ، وحاول أن يتخلص من الزعامة الشعبية التي انتضحت
قوتها - بقتل عبد الله بك الشاوي العربي الحميري العريق - فثارت عشيرة
العبيد^(١) القوية وزاد الطين بلة انفراد كريم خان الزندي الكردي بأمر إيران :

الحرب الإيرانية :

حقيقة كانت علاقة كريم خان بباشوات العراق - قبل عمر باشا
وبعمر نفسه - ودية ، بل تعاون عمر مع البريطانيين والفرس في حملة مشتركة
ضد بني كعب . إلا أن أسباب النزاع بين فارس والعراق لم تتغير منذ أقدم

(١) كانت عشيرة الميبد عشيرة قوية تنزل المنطقة الواقعة بين بغداد والموصل ومشيختها
في آل الشاوي الذين ينتمون إلى حير ، وكانوا مشهورين بملوكهم في الأدب وفي السياسة وذاع
حيثهم منذ ذلك الوقت .

المصور . فإلى جانب أطماع فارس الجبلية فيما تفتحه وديان العراق الخصبية ، كانت التجارة قد تحولت من بندر عباس وبوشهر إلى البصرة .

وكانت ذكريات النجف وكربلاء والمعاملة السيئة التي يعامل بها حجاج العتبات المقدسة من الإيرانيين من الدوافع القوية لأن يحتلّ الفرس المبرات لإعلان الحرب على العراق لامتلاكه . وبخاصة أن كريم خان كان كردياً ، فالت إليه العصية الكردية في شيرزور ، وأعطى النزاع الأسرى العنيف الذي لا ينقطع فرصة لتدخل كريم خان في أمور العراق في وقت كانت فيه الدولة العثمانية تجاهد في الوقوف على قدميها أمام جيوش قيصرية روسيا « كثرين الثانية » المنتصرة ولذلك لم يكن لدى الدولة جيوش لتوجه إلى العراق ، هذا إلى أن قوات عمر نفسها كانت قليلة وإمكانات الشعب أرهقها الطاعون^(١) .

كان من الطبيعي والحالة كذلك أن تنهار مقاومة عمر باشا أمام الهجوم الفارسي في شيرزور ، أما البصرة فقد حمل لواء الدفاع عنها متسلماً على جانب عظيم من المقدرة وهو الذي عرف فيما بعد باسم سليمان باشا الكبير : وكان المسلم محبوباً من أهل البصرة فتفانوا في الدفاع عنها حتى استنفلوا طاقتهم وحتى أتاها من أخبرهم بأن بغداد لن تمدها يد لها للدفاع عن المدينة ، فاستسلمت البصرة بعد دفاع مجيد من رجالها ومن كان معهم من بحرية مسقط وبعد انسحاب مزر للمع البريطاني (١٧٧٦م) ^(٢) .

وكان لمسا حل بالعراق صدى قوى في الآستانة ، وكان السلطان

(١) الزاوي : تاريخ العراق ج ٦ : ٤٤ - ٥٢ .

جودت : ج ٢ : ٤٤ - ٤٥ .

(٢) عندما اشتد حصار الإيرانيين البصرة آثر المقيم البريطاني - الذي كان يتعاون مع سليمان آغا في الدفاع عن المدينة - أن يتسحب فجأة وأن يتفق مع الإيرانيين بينما كانت قطع من أسطول مسقط قد أتت لتجدة البصرة نظراً لأن إمام عمان كان يقدر قيمة هذا التعاون ضد إيران العدو المشترك ونظراً لأن الممالك رفضوا من قبل التعاون مع إيران ضد مسقط .

قد خرج منذ وقت قليل من حربه الخاسرة مع قيصرية روسيا كثرين الثانية ، فالتفت إلى العراق وأرسل جيش لإنقاذ إليه ، ولكن الباب العالي اقتنع بأن تبعه ما حدث تقع على عاتق عمر ،^(١) لذلك أوعز إلى الجيش فقتله بدلا من أن يهتم بإنقاذ البصرة ، لأن السلطان كان ينوي أن يعيد العراق إلى الحكم العثماني المباشر بالقضاء على حكم المماليك فيه ، ولكن حكام العراق الجدد من « باشوات الخارج » أثبتوا عجزهم عن حكم العراق وإنقاذه ، وسياسة كهذه فاشلة من أجل تعيين باشوات عثمانيين لا يثق بهم البغداديون وبدون تاريخ يشرف صفحاتهم - لكفيلة بثورة الأهالي وبثورة المماليك وقد أبعدوا عن دست الحكم وبأن يكتب الباليوز^(١) رسائل إلى الآستانة تلقى تبعه سقوط البصرة في يد الفرس على الباشا العثماني الحاكم .

وبرغم ذلك لم يقبل السلطان على المماليك إلا بعد أن عين الوالي إثر الوالي دون أن يتمكن واحد منهم من أن يحكم العراق مثلما كان يحكمه المماليك . ولهذا تخلى الباب العالي عن فكرة القضاء على الحكم المملوكي في العراق .

وهاجم والى طرابزون العثماني في ذلك الوقت سياسة الباب العالي في محاولته القضاء على المماليك فيقول إن المشكلة ليست في بغداد فقط ، بل كانت أيضاً مشكلة الحركات الثورية المنتشرة في الدولة كلها ، وإن موقف الباب العالي من المماليك يجب أن يكون أسسه تعاوناً عثمانياً مملوكياً على الفرس وتسوية الخلافات بين المماليك والأهالي حتى يتفرغوا لمواجهة الأخطار الخارجية ولإخضاع الكرد والعشائر^(٢) . والحق إن رأى والى طرابزون اعتراف بالأمر الواقع وتقرير لوجوب استغلال الإمكانيات الموجودة فعلا

(١) الباليوز : كلمة تركية بمعنى قنصل . وهذه التسمية شائعة في العراق . أصل القنصل إيطالي . راجع : دكتور محمد موسى هنداوي : المعجم في اللغة الفارسية - القاهرة .

(٢) للزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٥٦ - ٥٨ .

لحل مشكلات البلاد ، وهى السياسة التى اتبعها الباب العالى بعد تعيين عبد الله فى بغداد سنة ١٧٧٦ . ولكنه أَسند كركوك إلى مملوك آخر هو حسن باشا ، ولعله يرمى من وراء ذلك إلى تفكيك وحدة العراق تحت حكم بغداد ، على أن حكم عبد الله هذا (على أى حال) كان مسرحاً للتواكل والضعف السياسى والخلقى ، بينما كانت البصرة تعاني آلام الحكم الدموى الفارسى فيها ، وتحاول الآستانة إنقاذ الموقف فترسل مبعوثاً إلى العراق . ولكن المفاسد التى انساق فيها الطبقة الحاكمة فى بغداد طوت قيمن طوت مبعوث السلطان . فقد ركن المبعوث السلطانى مثل عبد الله باشا إلى اللهو والتراخي فى علاج مشكلات البلاد (١) .

وخلال ذلك يموت عبد الله سنة ١١٩٢ هـ - سنة ١٧٧٨ م وتقع بغداد فى فوضى شاذة يسعى فيها أهل الخون إلى تسمُّ أرقى المناصب . ولا تبدأ هذه الفوضى حتى بعد إسناد الباشوية إلى حسن باشا والى كركوك (١٧٧٨ - ١١٩٢) (٢) وهو أيضاً كان من المماليك :

وأروع ماحدث خلال حكم حسن هذا ، ذلك الانتصار الذى نغنى به عرب المنتفق على جيش الاحتلال الفارسى (١١٩٣ هـ - ١٧٧٩ م) . وذلك التآزر الذى كان بين فرسان العبيد بزعامة آل الشاوى والكرد بقيادة محمود بابان على مطاردة الثوار على الباشا (٣) . ورغم ذلك بلغت هجمات الثوار أبواب بغداد وأخرج مركز الباشا حتى اضطُر إلى ترك المدينة لنقمة الناس عليه بسبب ضعفه (٤) . (١١٩٣ هـ - ١٧٧٩ م) .

(١) الزاوى : تاريخ العراق ج ٦ : ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق : ٦٥ - ٧٤ .

(٣) جودت : ج ٢ : ٨٩ .

(٤) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى ص ١١ - جودت ج ٢ : ص ٩٣ ، ج ٧ :

ص ١٤١ .

الزاوى : تاريخ العراق ج ٦ : ٨٣ .

سليمان باشا الكبير :

وقبل ذلك بوقت قصير كان الفرس قد أدخلوا البصرة لأن حاكمها ذهب إلى إيران ليطالب بعرش أخيه كريم خان ، ومن ناحية أخرى أطلق منافس ثان على العرش الفارسي سراح سليمان أغا متسلم البصرة السابق ، ومنحه ولايتها فذهب إليها ليحكمها ولكنه طلب المنصب من السلطان فتأله بسهولة . ثم خات بغداد من وال بعد خروج حسن باشا منها فأرسل سليمان الالتماسات إلى السلطان (١) مطالباً بالولاية لنفسه واستعان بصديقه لاتوش Latouch المقيم البريطاني في البصرة لتزكية طلبه فحصل على غرضه أيضاً لما له من ماض مشرف (٢) .

استهدف سليمان باشا أولاً وقبل كل شيء توطيد الأمن في البلاد ، فإيران كانت في شغل شاغل عن أمور العراق بسبب ذلك الصراع العنيف بين المطالبين بالعرش (٣) . وكان السلطان راضياً عن سليمان فوجه ضربته إلى الطامعين في منصب الباشوية (٤) ثم زحف على جناح السرعة بخيالة الكرد على العصابات المتمردة فشقت شملها (٥) .

وورث سليمان عن أسلافه المشكلة العشائرية وواجهها في أعنف أدوارها ، وما كان هو سبب تضخم هذه المشكلة وإنما كانت السياسات التي انتهجها أسلافه لاتضمن خضوع عشيرة ما إلا إذا كان السيف المملوكي مسلطاً عليها ، ثم جاءت فترة ضاعت خلالها هيئة الحكومة أمام انتصارات الفرس وضعف الولاة ومجونهم ، فكانت فرص التمرد للعشائر موالية فامتنتع العشائر عن دفع الأموال المفروضة عليها .

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبي : ١٥ .

(٢) سفصل القول عن النفوذ الأجنبي في العراق في الفصل السادس .

(٣) جودت : ج ٢ : ٩٢ .

(٤) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبي : ١٣ .

(٥) جودت : ج ٢ : ١١٦ .

وكان أول تمرد خطير واجهه سليمان الذي تزعمه حمد الحمود شيخ الخراعل الذي التفت حوله عشيرته (١) . وقد عرفت ثوراتها بالعنف والخطورة ، ولكن انتصر عليه الوزير بأكراده وبصلابته ، ولقد ضرب الوزير خلال ذلك أمثلة عليا في العلاقة بين القائد وجنده ، لحمتها التآخي وسداها الطاعة والإخلاص . ولم يعد أمام الشيخ إلا أن يطلب العفو فنال ماسأل ، ومع ذلك لم يستمر الشيخ على ولائه فزحف عليه الوزير وحاربه دون أن يتفقه لتفوق الثائر عليه باستخدامه أهوار (٢) بلاده وطبيعة تكوينها براءة مما اضطر الوزير إلى أن يبقيه في منصبه (١١٩٩ هـ - ١٧٨٤ م) . وعاد الوزير إلى مقر حكومته ليواجه مشكلة الزعامة الشعبية المثلة في شيوخ العبيد من آل الشاوى وعلى رأسهم سليمان بك الشاوى .

فقد تطلع ذلك العربي الفصيح الأشم إلى مناصب الحكومة الكبرى بينما كان سليمان الكبير يعمل على إبعاد العناصر الوطنية عن الحكم ليركزه في أيدي الماليك . ولكن القوة القبلية كانت قد اشتد جانبها ولم تخش عاقبة الثورة وأصبح للعبيد القوة التي تساند زعيمها حين يمتشق الحسام للحصول على حق العرب في إدارة البلاد . ولاشك في أن رفع أحمد الوضع إلى منصب الكتختائية الذي يتطلع إليه سليمان بك الشاوى كان كافياً لأن يدفع سليمان الشاوى إلى ثورة عاتية استمرت وقتاً طويلاً (٣) . واستطاع الشاوى أن يحجز بعض الانتصارات وأن يأسر أميراً بابانياً ، وكان البابانيون حينذاك

(١) الخراعل : عشيرة قوية من طي من سبب من قططان . بعضهم في مصر في سخا وبمفهم في العراق في غربي السبابة ومنطقة الحلة . انظر الزاوى : عشائر العراق : ج ٢ : ٢٤٥ .

(٢) « المورد » هو البحيرة قفيص بها مياه غياض وآجام فتشع والجمع أموار . انظر الفيروزبادي : القاموس المحيط ج ٢ : ١٦١ .

(٣) مختصر مطالع السعود طبعة بمبى : ١٣ - ١٧ الزاوى : ج ٦ : ٨٤ - ٨٥ جردت ج ٣ : ٢٣٠ .

أقوى أسرة حاكمة في كردستان ، ولحكمة واضحة أعاده معزراً إلى وطنه^(١) فهؤلاء البابانيون الأكراد اليوم عون للوالى وفي الغد ثوار عليه عتاة ، ولعل سليمان الشاوى كان يضع بذلك أساس وفاق كردى عربى ، واستمرت انتصارات الشاوى ، وكاد الوزير يسقط فى يده لولا انتصار عرب العقيل^(٢) على العبيد فذهب سليمان الشاوى إلى ثوبنى شيخ المتفق ليكون هناك حلفاً وضع حكومة الممالك في كفة القلر فقد تألفت قلوب العبيد والخزاعل والمتفق على أن يكون لم نصيب في حكم البلاد واعتقدوا أنه آن الأوان لأن يتولى عربى حكم العراق . ولكن الوزير خاض ضد الحلف معركة حامية كتب فيها النصر للوزير والبقاء لحكومة الممالك^(٣) .

والحق أن هذا العصر كادت تنعدم فيه الثقة فلا يكاد هؤلاء الثوار يخضعون أو ينالون عفو الوالى حتى ينفجروا في ثورات أعنف وأشد ، بل اتسع نطاق المحالقات فضمت في بعض الأحيان عشائر عربية وكردية وحكام مدن أقوىاء مثل متسلم البصرة الكردي وباشا السليمانية وثوبنيا شيخ عشائر المتفق أقوى العشائر إذ ذاك ، وقد كانت هذه الثورة أشد على الوالى من سابقتها ولم ينقذه من هذه الأزمة إلا سليمان بك الشاوى الذى كشف له النقاب عن هذه الخطة^(٤) التى تجعل الوزير بين شقى الرسمى^(٥) .

ويتضح لنا مما سبق أن الكرد كانوا يكونون جزءاً هاماً من قوات الباشا ، وأنهم أيضاً خطرون على الوزير ، والواقع أن الوزير كان في حاجة ماسة إلى القوات الكردية لأن الوزير لم يكن قد أتم بعد تدريب ممالكه

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٩٩ .

(٢) عشيرة عربية كلفت بالخدمة العسكرية تحت قيادة بلشا بغداد وقد عرفت بالشجاعة .

(٣) مختصر مطالع السعود : طبعة مجي : ١٧ .

(٤) فضح سليمان الشاوى سر المؤامرة لكراميته لزعماء الأكراد لأنهم كانوا سبب انتصار الوزير عليه .

(٥) مختصر مطالع السعود : طبعة مجي : ١٨ .

بينما كان الجيش الكردي كبيراً وخيالته مدربة على المعارك ، فقذف العرب بهم .

ولا شك أن سنجقية (بابان) وهذا جيشها وهذه هي أهميتها وتقع بين دولتين متعاديتين لقادرة على أن (تلعب) بالطرفين ، وأن تكون معرضة لانقسامات ومؤامرات خطيرة ، وكذلك كانت فعلاً . فكان أفراد الأسرة البابانية يعملون على كسب ثقة كرمنشاه (١) أو بغداد وأصبحت الأخيرة تجمع بعملاء المطالبين بالإمارة ، فما كان الأمير الباباني يشعر بالطمأنينة إلا إذا كان له في كرمنشاه أو بغداد ولد ذو حظوة عظيمة فإذا أخفق في الحصول على أهدافه من باشا بغداد فر إلى إيران ليعود إلى شبرزور على رأس جيش إيراني كردي ، وكانت إيران مستعدة دائماً لأن تقدم القوات اللازمة . ولكي يؤدب الباشا الأمير الباباني الثائر كان يصدر الأوامر بعزله . ويعين بابانياً آخر في مكانه (٢) . وكان لقرار العزل الصادر من باشا بغداد للمتسلم بابان نفس القوة التي كانت لفرمان العزل الصادر من السلطان لوالى بغداد فسرعان ماتتفكك قوات الثائر ، وتبدأ حركات الانضمام إلى المتسلم الجديد .

أما المتسلم المعزول فلما أن يقاوم حتى إذا ما شعر بالهزيمة فرّ إلى إيران أو يطلب العفو ، وقد ينال العفو ولكن لا يلبث أن يعود للتمرد .. وهكذا (٣) على أن الوزير كان يراعى جانب فارس في هذه الأمور فيعفو عن المتسلم الكردي الباباني الثائر حتى لا يعرض علاقاته مع فارس إلى التوتر مع العلم بأن الوزير كان في الوقت نفسه يعمل على عدم توحيد قوى الكرد

(١) قسم الشاه فتح على الثورة الإيرانية بين أولاده فكانت كرمنشاه من نصيب ابنه محمد علي ميرزا .

(٢) النزاري : تاريخ العراق : ج ٢ : ٨٩ وما بعدها .

(٣) هذا واضح في تتبع تاريخ الكرد في كتاب محمد أمين زكي : تاريخ السليمانية .

تحت سلطة واحدة كردية ، ولذلك كان يبدل في المناصب الكردية بسرعة ولأقل شبهة (١) .

ونظراً لما أبداه سليمان الكبير من نجاح في إخضاع الثورات رأى السلطان فيه قوة قادرة على العمل خارج حدود أباته وتوابعها . فكلفه بإخضاع ثورة الملى (٢) فقام بواجبه خير قيام وعرج على اليزيدية (٣) فقتل زعماءهم من مثيري الفتن في المنطقة الشمالية من العراق . ولكن لما كلفه السلطان بأن يزحف على الدرعية أراد أن يتملص من القيام بهذه المهمة ، فإن نجاحه في إخضاع تيمور يرجع إلى وجود قواعد تموين له في ديار بكر وماردين ، ولأن قواته كانت تعمل في أرض خبرتها من قبل القيادة المملوكية ، هذا بينما قتال الوهابيين في جهات صحراوية نائية ، وعلى أرض مجهولة وفي ظروف مناخية قاسية ، وبجيش يضم عناصر متباينة ، من عرب وكرد يتبعهم جمفضل من الدواب الثقيلة بالمؤن وبالياء . غير مأمون العاقبة أمام قوات وهابية سريعة الحركة متقنة لعمليات الانسحاب والمناورة على أرضها للدرجة أنها تستطيع في سهولة أن توقع الجيش المهاجم في أزمة قد لا يجد منها فكاً إلا بالاستسلام .

ولما ألح السلطان على الوزير بضرورة تجريد حملة ضد الوهابيين اتجه الوزير إلى أن يرى العرب الوهابيين بعرب العراق الذين لم يقبلوا على الدعوة الوهابية . وأغلب الظن أن ذلك بسبب ما كانت تتمتع به عشائر العراق من حكم ذاتي ، واستخدام عرب العراق يتمشى مع رأى

(١) الزاوى : تاريخ العراق : ٦ : ١٠٨ .

(٢) عشيرة الملية من عشائر الشام ثارت بزعامة تيمور وعجز ولاية الرقة وديار بكر عن إخضاعها حتى كلف سليمان بلشاً بإخضاعها .

(٣) اليزيدية عشيرة كردية تقطن منطقة منجمار الجبلية شمال غربي الموصل . وقد عرفت بتمسك معتقديها ببعادها المستر للحاكم ومنفصل الحديث عنها في الفصل الثالث عند الكلام عن العشائر الكردية .

الوزير في موقفه من قتال الوهابيين ، فهؤلاء أقدر على اتباع أساليب المناورة في البقاء ومنازلة الوهابيين بوسائل أبناء الصحراء . فكلف الوزير ثوينيا بأن يجرّد حملة ضخمة على الوهابيين ، فألفها وسار بها إلى الأحساء ولكنه اغتيل هناك . فتفكك جيشه وتراجع في غير نظام ، وغنم الوهابيون غنائم ضخمة دون مشقة كما غنموا فرصاً كبيرة لتوسيع نطاق هجماتهم على العراق^(١) ، فأعد الوزير حملة بقيادة كميخياه على باشا (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م) ولكنها كانت سريعة الإعداد سيئة التدبير فباعت بالفشل . واشتد ضغط الوهابيين حتى طمع آل سعود في غربي الفرات من «عانة» إلى البصرة فأراد الوزير أن يصل إلى حل عن طريق المفاوضات فأرسل عبد العزيز بك الشاوي ليفاوضهم ولكنه عاد إلى العراق داعية وهايباً (١٨٠١م)

وكان المشكلات كانت تتجمع في ذلك العام . فقد اشتد المرض على الباشا الكبير وانتشر الطاعون في البلاد ، وظهرت على العشائر علامات القلق ، واشتد الضغط الوهابي حتى بلغ كربلاء فخرها الوهابيون . وبرغم عدم أهمية هذه الحركة من الناحية العسكرية أو الاقتصادية كان دويها مريعاً في البلاط السني والشيوعي على السواء، وهو يسمعه الباشا في البلاطين الفارسي والعثماني إلى الحضيض^(٢) . وبرغم ذلك كان من الحكمة أن يرفض سليمان بلباقه مرور القوات الفارسية عبر العراق لقتال الوهابيين^(٣) .

(١) ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا (١٨٤٨-١٩٤٨) . إبراهيم باشا في بلاد العرب الدكتور عبد الحميد البطريق : ص ٣ - انظر أيضاً ، الزاوي : تاريخ العراق ج ٦ : ١٢٢ - ١٢٣ وكذلك جودت : ج ٦ : ١٠١ ، ج ٦ : ٢٦ - ٢٩ - ٧ ، جودت : ج ٧ : ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) جودت : ج ٧ : ١٤٠ - ١٤١ .

(٣) Corancez: Op cit. P. 25.

هذا ولم يتعرض كثيراً صاحب تاريخ الكويت لحملة سليمان باشا الكبير على الأحساء . انظر :

Dickson: Kuwait. London 1956 — P — 113-114

إن إلقاء نظرة سريعة على تاريخ الكفاح الطويل بين سليمان الكبير والعشائر ليدل على أن علاج المشكلة ليس في حد السيف وإنما في إقرار هذه العشائر ، ولذا ظلت المشكلة القبلية قائمة حتى القرن العشرين . وإذا كان السيف المملوكي قد استطاع أن يخضع العشائر يوماً ما ، فسرعان ما تنفجر في فتنة عارمة حالما تشعر بأن السيف قد شغل بمقاومة خطر جديد . ورغم ذلك حكم الباشا الكبير العراق زهاء عشرين عاماً ، كانت العصر الذهبي لحكومة المماليك ، وكان هؤلاء ورغم تمكنهم من حكم العراق قد ظلوا متمسكين بولائهم للسلطان في وقت كانت تضج فيه الدولة من كثرة الثورات ، وأصبح السلطان يشعر بأن العراق صار جارا له قوة ذات بأس تحت حكم الباشا الكبير . ولذلك استغله السلطان في إخضاع الوهابيين وتيمور الملى ، ولكن الباشا لم يستطع أن يقضى على الحركة الوهابية للأسباب التي ذكرتها . على أن الباشا يتفوق على أسلافه بنشره الأمن في معظم البلاد ورغم تعدد الثورات ، وهو في سبيل ذلك كان يضرب العرب بالكرد ، والكرد بالعرب والكرد بالكرد أيضاً ، وكذا العرب بالعرب ، كما قضى على الزعامات الشعبية وركز القوة والحكم في أيدي المماليك ومن أجل ذلك هوى بالإنكشارية إلى الحضيض ، وأعد جيشاً مملوكياً شغل زعماءه المناصب الإدارية والعسكرية (١) .

وبرغم ما حصل في عهده من أخطار جسام كالطاعون والقحط كانت بغداد في عصره قد استكملت طابعها كباشوية كبرى تدور في فلكها باشويات العراق الأخرى الصغيرة . فالموصل ولت وجهها شطر بغداد ، فاختذتها مرجعاً لها ، وأصبحت لها بمثابة الأخت الكبرى ، فكانت تقبها من اعتداء اليزيديين والأكراد ، ومع ما لآل الجليلي (١) من مكانة

(١) النزاري : تاريخ العراق : ج ٦ : ١٠٨ .

(٢) الأسرة الحاكمة في الموصل .

في الموصل والآستانة كان رأى باشا بغداد فيمن يتولى الحكم هناك له قيمته الكبرى^(١) .

وكان للباشا أثر واضح في توجيه أمور راوندوز الداخلية^(٢) ، كما أبقى الصوريانيين حكاماً على كوى التابعة للبابانيين ، كما حصلت بغداد بفضلها على حق تنصيب مسلم كركوك ، وأصبحت أربل وماردين ونصيبين^(٣) وكفرى تابعة لبغداد^(٤) . والحق إن الرجل نال بمجدارة سمعة طيبة في داخل البلاد حتى إن ذكره العطرة كانت ترددها بغداد حتى استمع إليها هود Heude في ١٨١٨م بعد وفاة الوزير الكبير بست عشرة سنة .

وكانت مجهوداته الجبارة في سبيل تثبيت قدم المماليك في العراق هي التي جعلت حكمهم يمتد حتى عهد داود الزاهر . وكان من خطته أن يملأ المناصب بهم وأن يكونوا قوة ذات بأس في العراق فاشترى أعداداً منهم وكان من بين من اشتراهم داود .

نشأة داود :

وكان داود من أسرة كرجية مسيحية في تفليس ولد حوالي سنة

(١) G. A. Olivier: Voyage dans l'Empire Ottoman. Paris. 1801. (١)

Vol. IV, P. 269

(٢) راوندوز مدينة كردية بين العمادية والسليمانية ، في شرق الموصل ، وكانت تحت حكم المعوية الصهرانية الكردية حتى وقت قبضة البابانيين في القرن الثامن عشر وسلكهم عن العنائر الكردية في الفصل الثالث .

Olivier: op. cit. Vol. IV. P. 249, 299 — 6 (٣)

Longrigg: op cit. P. 209 (٤)

Heude: op. cit. P. 148 (٥)

١١٨٨هـ-١٧٧٤م^(١) من أب يدعى على الأرجح بطرس^(٢) ، وفي حوالى ١١٩٩هـ-١٧٨٤م جاء إلى العراق في العاشرة تقريباً ولعل مجيئه إلى العراق كان عن طريق اختطاف بعض النخاسين^(٣) له أو عن طريق الشراء المعتاد . وفي بغداد اشتراه مصطفى الربيعي بك سنة ١١٩٩هـ ثم باعه هذا إلى سليمان باشا الكبير الذى كان في حاجة إلى تربية عدد جديد من المماليك ليعيد للمالك سابق قوتهم فأدخله في نظام تربية المماليك ، وتربى على ذلك النسق الذى وضع منذ أيام حسن باشا . وكان داود حسن الصورة متقد الذكاء مولماً بالعلوم تلقى العلم على كبار علماء الزوراء ، ففهر فى الآداب العربية والتركية والفارسية وفى الرياضيات وظهر حذقه فى الأمور السياسية والإدارية^(٤) وألحق بحرس سليمان الكبير^(٥) .

واكتشف فيه سليمان الكبير القدرة على الإدارة وسياسة الأمور فأُسند إليه منصب « الخازندار » واصطفاه وقبله خطيباً لابنته الصغرى ، فقد كان من سياسة سليمان الكبير أن يسند المناصب الكبرى لأصحاره . فكان على زوج ابنته الكبرى - خازنداره ، فلما طمع على هذا فى منصب الكتبخانة قتل الكتبخدا ورقى هو إلى المنصب وخلفه فى منصب « الخازندارية » داود أفندى وفى الوقت نفسه كان سليم زوج ابنته الثالثة

(١) ذكر أنستاس الكرمل أن داود ولد سنة ١٧٧٩ م ولعل التاريخ الذى أورده أمين ابن حسن الحلوانى أدق لأن داود جاء إلى بغداد وسليمان الكبير يحاصر الحبيكة سنة ١١٩٩هـ وأنه تولى منصب الخازندار وهو فى السابعة والعشرين - انظر تذكرة الشراء : ص ٥ - مختصر مطالع السعود : ج ٢/٣ .

(٢) اخطف فى اسم أبيه هل هو Perros أو Pesros أو Petros . انظر يعقوب سرعيس : مباحث عراقية : ج ٢ : ٢٩٥ .

(٣) الأب أنستاس مارى الكرمل : خلاصة تاريخ العراق : البصرة : ١٩١٩ ص ٢٠٨ .

(٤) الأخطى : مختصر تاريخ بغداد : بغداد سنة ١٩٢٦ ص ٢٢٢ .

(٥) Ker Porter: Travels in Georgia, Persia, Armenia and Ancient Babylonian, London 1822 Vol. II P. 248.

يشغل منصب متسلم البصرة ، ونصيف - زوج ابنة رابعة - يشغل منصب كتخدا البوابين . ويبدو أن الباشا الكبير خشي من اندلاع الفتنة بين أصحابه عقب وفاته فجمعهم حوله على سرير المرض في ١٨٠١م وطلب منهم أن يتكاتفوا . كما يبدو أنه أوصى بأن يكون « على » خليفته في منصب الباشوية . وكان « على » هذا قد عرفت عنه الشدة والقسوة ، ولذلك أثر داود أن يتعد عن مشكلات الحكم وذهب إلى البصرة حيث انهك في الدراسة والاطلاع على الكتب الفقهية والأدبية .

وعندما وفد الشيخ على زين العابدين (جمل الليل) سنة ١٢٢١هـ لقي من الوزير « على باشا » كل عناية واشترى له الوزير الكتب ويسر له التفرغ للعلم والتدريس فانتهز داود الفرصة وجاور الشيخ فأجاز له « البخاري » و« فتح الباري » على البخاري لابن حجر ، وغيرهما من أمهات كتب الحديث والتشريع^(١) . وظل مكيباً على الاطلاع طول حكم على باشا ؛ ولا شك أن داود كان بعيد النظر عند ما أثر أن يتعد عن المشكلات المعقدة التي تلت وفاة الباشا الكبير ، والتي أنغمس فيها أصحابه . وانتظر هادئاً حتى جاءت الظروف التي وجدها مناسبة لينحل المعترك السياسي وذلك في عهد عبد الله باشا (١٨١٠هـ - ١٨١٣م) . وفي الفترة بين وفاة الباشا الكبير سنة ١٨٠٢ وسقوط سليمان الصغير سنة ١٨١٠ على يد خالد أفندي^(٢) وقعت حوادث خطيرة ذات أثر كبير في تطور تاريخ العراق وفي التمهيد لتولى داود منصب الباشوية .

على باشا الثاني :

فقد كانت وفاة الباشا الكبير إيذاناً بنشوب صراع عنيف بين المتحفظين للحصول على منصب الباشوية . وربما كان الباشا الكبير قد

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبي : ٣٤ ٣٥ - وقد عرف بأنه من أعلم وزراء الدولة .

(٢) مبعوث السلطان لعزل سليمان الصغير باشا - بغداد من ١٨٠٧ - ١٨١٠ م .

أوصى بأن يخلفه صهره على باشا ، أو ربما على ذلك أرغم^(١) . وأياً كان الأمر فإن أعناقاً اشترأت لتحصل على منصب الباشوية بعد أن أخفقت في الحصول عليه في حياة الباشا . فكان من بين المطالبين به الشاوي العربي العريق والكردي المعز بكرديته ، وأغا الإنكشارية القادر على تدبير المؤامرات العنيفة ، ولكن الصراع انحصر أخيراً بين علي باشا وأحد (أغا الإنكشارية) الذي ادعى أن شعب العراق «أهل فتن ونفاق»^(٢) ليدبر مؤامرة لإبعاد «علي» عن المنصب ليحل محله سليم صهر الباشا الكبير أو ابنه سعيد وليكون هذان قطرة يعب عليها ليصل إلى المنصب ، ولا شك أن الأغا أدرك أيضاً قيمة وساطة الباليوز في نيل موافقة الباب العالي على تولية سامان الكبير على البصرة فسعى لدى المقيم البريطاني^(٣) . ولكن السياسة الإنجليزية مالت إلى علي باشا فرجحت كفته . ورضى عنه الباب العالي لتعده بدفع مخلفات سلفه وبالقضاء على الوهابيين^(٤) .

بدأ علي باشا حكمه بالضرب على أيدي مثيري الفتن من شيوخ القبائل العربية ومن اليزيديين^(٥) . ثم التفت إلى الوهابيين ، وكانوا الخطر الحقيقي المهدد للعراق فقد ورث المشكلة الوهابية في أدق مراحلها . فبينما كان الوهابيون يثيرون الفتن في داخل العراق نفسه ، كان سعود يعمل على السيطرة على كل ما يقع غربى الفرات^(٦) . ولما كان الإيرانيون والإنجليز ينادون بتعاون فارسي - مملوكي للقضاء على الحركة الوهابية^(٧) اشتد السلطان في ضغطه على «علي باشا» ليجرد حملة على الوهابيين فلجأ علي باشا

(١) جودت : ج ٧ : ١٤١ .

(٢) المصدر السابق : ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) ، (٤) جودت : ج ٧ : ١٩٩ ، ١٤٣ - ١٤٤ .

(٥) المزاي : تاريخ العراق : ج ٦ : ١٥٤ ، ٦ ، ١٦٩ ، ١٧١ .

(٦) مختصر مطالع السمود : طبعة بمبي : ٣٣ .

(٧) جودت : ج ٧ : ١٤٣ .

إلى القيام بحركات عسكرية مظهرية أكدت أن العراق ليس القوة القادرة على قمع الحركة الوهابية . هذا العجز جعل عشائر العراق النازلة غربي الفرات تتعرض لقسوة الهجمات الوهابية فلم يكن أمامها سوى أن تشد رحالها إلى أرض الجزيرة العراقية حاملة معها عناصر القوضى والاضطراب (١)

وفي داخل البلاد سرت الدعوة الوهابية إلى قلوب زعماء العبيد . ولا شك أن « علياً » قدر ما ينطوى عليه ذلك من خطر جسيم يهدد قلب العراق لما كان لعبد العزيز الشاوي ولأخيه محمد من زعامة شعبية ذات مجد أدبي وسياسي عسكري تليد ، وأدى قتلها إلى ثورة العبيد ثورة هوجاء (٢) اشتد أوارها بتحالفهم مع عبد الرحمن الباباني حاييف إيران ، فتوترت العلاقات بين بغداد وكرمنشاه ، وخاض الباشا حرباً ضد إيران ، وذلك لأن الشاه طالبه بإعادة عبد الرحمن (باشا السليمانية) إلى منصبه وكان الوزير قد عزله ، وطالبه الشاه أيضاً بأن يدفع باشا بغداد مبلغاً ضخماً من الأموال نقداً كضمان لعبد الرحمن ، وذلك في كتاب شديد اللهجة أثار حفيظة باشا بغداد ؛ فتسرع في مهاجمة إيران دون أن يطلب موافقة السلطان ، ودون أن تكون لديه القوة الكافية لمثل هذه الحرب . فكانت النتيجة هزيمة عسكرية شديدة (٣) . وغضب السلطان عليه نظراً لأن نابليون كان يسعى في ذلك الوقت إلى عقد تحالف عسكري بين فارس وتركيا ضد روسيا العدو المشترك (٤) . وتنتهى أيام علي باشا دون أن يصل إلى نتيجة مشرفة في الميدان الفارسي أو الكردي أو الوهابي . والحق إن العراق كان بين شقي الرحى . فالوهابيون كانوا يقرعون أبواب العراق الغربية ، ولهم دعائهم في قلب العراق نفسه ، والإيرانيون يدقون أبوابه

(١) بغداد كوله من : ٢٤ ستعرض بالتفصيل لهذه الميجرات في الفصل الثالث .

(٢) جودت : ج ٧ : ٢٣١ ، مختصر مطالع السمود : طبعة مجي : ٣٠ .

(٣) جودت : ج ٨ : ٤٣ - ٤٤ .

(٤) أحمد علي الصوقي : المدايك في العراق : ١٠١ - ١٠٢ .

الشرقية ورغم أحلافهم البابانيون في الشمال ، والعرب في الجنوب يؤلفون مشيخات انتهازية لا تقل سرعتها في الولاء عن سرعتها في التمرد ، وهي قوة خطيرة ولكن مفككة لا تستطيع أن تتغلب على قوات باشا بغداد ، وقوات الباشا تعجز عن السيطرة الكاملة عليها لما في العراق من أهوار يصعب اجتيازها ومن صحارى شاسعة تحمي الفارين من وجه قوات الباشوية إلى حين . وعلى الرغم من هذه الأخطار كلها لم يقض على الحكومة المملوكية لأن هذه النكسة جاءت في زمن فتوة حكم المماليك وإن كانت سبباً في ضعفها المستمر حتى تولى داود باشا الوزارة .

سليمان الصغير :

و شاءت الأقدار أن يقتل « على باشا » فجأة سنة ١٨٠٧م فانهز الباب العالي فرصة مقتله للقضاء على حكومة المماليك . فقد كان الباب العالي لا ينسى أن المماليك استأثروا بخبرات العراق وأنهم يهددونه بالعمل على أن يتخلصوا من نفوذهم تماماً في إحدى درر الإمبراطورية العثمانية . ولذلك أسند الباشوية إلى يوسف ضيا باشا - الصدر الأعظم السابق - فتمرد سليمان - كخيخيا الباشا السابق - ، وآزره أهل الميدان (١) ذوو الكلمة المسموعة في المدينة (٢) . وفي الوقت نفسه عمل على إرضاء الباب العالي بالأموال . وقد خدمته الظروف الدولية في ذلك الوقت ، فقد أيقظت مدافع نابليون في أسترلنز السلطان من سباته ، فهب لينتقم من عدوته اللدود الروسية ، ولذلك قوى النفوذ الفرنسي في الآستانة وجاء الوقت الذي يلعب فيه السفير الفرنسي الدور الذي لعبه السفير الإنجليزي من قبل : فزكى مهابتتاني (٣) « سليمان باشا » . وخدمته أيضاً الظروف الداخلية في الآستانة نفسها ، فقد نجحت الرجعية الإنكشارية في قتل السلطان المصلح

(١) الميدان في بغداد منطقة يسكن فيها علي القوم .

(٢) بغداد كوله من : ٢٢ .

(٣) كان مهابتتاني سفير الإمبراطور نابليون لدى السلطان العثماني .

« سليم الثالث » فعزل يوسف ضيا ، وخطا الطريق من هذا المنافس ورضى الباب العالي عن سليمان لما تعهد به من أموال فأُسند المنصب إليه (١٨٠٨ م) (١)

ورث سليمان باشا - وقد عرف بالصغير - مشكلات العراق المعتادة فحاول حلها ولكنه لم يوفق ، فقد باءت حملته على عدوه اللدود عبد الرحمن الباباني وعلى عشيرة الضفير (٢) وعلى اليزيدية بالفشل ، وفي سبيل السيطرة على الموصل أثار فيها اضطرابات دموية . واعتدى على أراض تابعة لديار بكر (٣) . ويصفه المؤرخون بالصفات والميول المتناقضة فيقول البعض إنه وهابي (٤) ، وإنه في الوقت نفسه كان يبلى نوعاً من التشجيع لفارس (٥) . وعلى أى حال كان هذا الباشا من الباشوات المصلحين . فقد قام بإصلاحات مالية وتشريعية (٦) بغض النظر عما يسود الدولة العثمانية من قوانين وعما تعهد به السلطان من أموال . ووقف في وجه النفوذ الإنجليزي المتزايد ، ولكنه تراجع بسبب ما يجنيه من التجارة الهندية - العراقية (٧) . ولما تولى عرش آل عثمان السلطان « محمود الثاني » الذي عرف قيمة ما تدره العراق من أموال قدر خطورة هذا الوالي (الوهابي) المثير للمشكلات مع قناصل الدولة الإنجليزية . فقرر أن يتخلص منه لا بجيش جرار ولكن بوساطة سياسي خبير أساليب المؤامرات وهو خالد أفندي (٨) . وكان خالد عدواً

(١) جودت : ج ٨ : ١٧٠ .

(٢) عشيرة عربية من عزة فرت من وجه آل سعود إلى العراق .

(٣) بغداد كوله من : ٢٥ - ٢٦ .

(٤) جودت ج ٩ : ٢٥١ .

(٥) جودت ج ٩ : ٢٥٦ .

(٦) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبي .

(٧) منفصل هذه الناحية في الفصل السادس .

(٨) ابن أحد القضاة . أصله من القرم قول عدة مناصب في سرائي السلطان وفي الباب العالي ثم اختاره الباب العالي ليكون سفيراً لدولته في باريس بعد عقد الصلح بين فرنسا وتركيا سنة ١٨٠٢ م وبق هناك حتى ١٨٠٧ م عندما طلبت فرنسا لإبعاده من باريس . فعاد إلى الأستانة

للفرنسيين وللسياسة الفرنسية ولذا اختير ليقضى على سليمان باشا الصغير الذى لعب الفرنسيون دوراً هاماً فى توليته . ولقد أرسل الباب العالى خالد إلى اعراق لا ليقضى على سليمان الصغير فحسب، بل ليقضى أيضاً على المماليك إذا ما تمكن من ذلك .

أقرب داود من الزعامة :

وليقوم خالد بهذه المهمة الخطيرة ، ولتكون لديه إمكانيات تيسر له تدبير المؤامرات ضد سليمان الصغير منحه الباب العالى سلطات خاصة ، فاعطاه فرمانات مجهزة بتوقيع السلطان ترك فيها مكان اسم الوالى شاغراً ليملاه خالد أفندى حسبما يراه ملائماً لتحقيق الأهداف التى أرسل من أجلها إلى بغداد . نعى بذلك أنه منح فرماناً على بياض ، ولما كان عبد الرحمن (باشا السلجانية) عدواً لدوداً لسليمان الصغير وكان الموصليون يكرهون باشا بغداد نظراً لأنه كان يسعى إلى السيطرة على الموصل فإن هؤلاء كانوا الأعوان الأقوياء لخالد أفندى^(١) . ولكن الانتصار على « باشا بغداد » يكون أملاً بعيد المنال إذا ما ظلت العصبية المملوكية والشعب البغدادى متمسكين به . ولذلك عمل خالد على أن يجمع حوله المماليك الناقمين على الباشا . وكان لفرمان السلطان بعزل الباشا قوة عظيمة التأثير فى قلوب المماليك والشعب البغدادى ، فأخذ بعض المماليك ينضم إلى خالد ، وكان على رأس هؤلاء عبد الله أغا وداود أفندى ، وقد انضم داود إلى خالد — بعد تلك الغيبة الطويلة عن الميدان السياسى — ليجد لنفسه مكاناً فى حكومة بغداد .

= ثم أسند إليه منصب « رئيس التشريفات » السلطانية (ركاب رئيسى) ولكنه عزل من منصبه بناء على شكوى قدمت ضده من سبستيان سنة ١٨٠٩ م فحبس لاثامه بأنه كان على صلة بالإنجليز ثم أفرج عنه بعد سنة كاملة ليوفد إلى بغداد ولعزل سليمان الصغير . انظر : دائرة المعارف الإسلامية .

(١) جودت : ج ٩ : ٢٣٥ - ٢٥٥ .

لقد كان اتصال داود بخالد أفندي ذا أثر خطير في مستقبل داود . فلقد خدم داود خالداً بإخلاص ، وانتصرت الجيوش التابعة لخالد أفندي على « سليمان الصغير » ونال داود منصباً خطيراً في الولاية على يد خالد أفندي وهو منصب الدفتر داري^(١) . ولكن منح خالد المناصب الرفيعة للممالك لا يعنى أنه تنحى عن فكرة القضاء عليهم لأنه أخذ يوقع الفتنة في بغداد ، واستبعد المالك من كشف المرشحين للملء منصب الباشوية وكان أمامه أحد أمرين :

- ١ - إما أن يسند المنصب إلى أقوى شخصية في العراق في ذلك الوقت من غير المالك ، مثل عبد الرحمن باشا بابان .
- ب - وإما أن يسنده إلى شخصية محبوبة من البغداديين ، ولكن ليست من المالك . مثل سعيد بك ابن الباشا الكبير الذى حظى بحب الشعب له لما كان لأبيه من أباد يبضاء على الجميع .

وكان عبد الرحمن طامعاً فعلاً في المنصب ، وفي الوقت نفسه لديه القوة التى تستطيع أن تقضى على المالك^(٢) . وعرض عبد الرحمن على السلطان فعلاً أن يرفع ساليانة بغداد إلى خمسة أضعافها^(٣) ، في مقابل توليه حكم بغداد .

(١) جودت : ج ٩ : ٢٥٩ .

(٢) يقول محمد أمين زكى إن خاله هو الذى عرض الباشوية على عبد الرحمن وينقل هذا عن « رحلة ريج في العراق » : ص ٦٧ - ٦٨ ويقول إن عبد الرحمن هو الذى رفض عروض خاله عليه لقبول باشوية بغداد . والواقع إن هذا ليس بصحيح إذ أن ريتش القنصل البريطانى في بغداد منذ ١٨٠٨ - متحيز اليابانيين متحامل على الممالك لأمور سببها في الفصل السادس . ويجب أن نأخذ كلام ريتش بعين فاحصة ناقدة . (ملاحظة : يكتب العراقيون ريتش على هذا النحو « ريج ») . راجع : تاريخ السليمانية : ١١٧ ، جودت : ج ٩ : ٢٦٠ .

(٣) كانت بغداد تدفع ألف كيس للسلطان سنوياً ومعنى هذا أن عبد الرحمن رفع قيمة الإرسالية إلى خمسة آلاف كيس . والكيس يساوى خمسة آلاف قرش أو ثلاثة آلاف محمية والحمدية عشر أمتجات والأتجة نصف مثقال من الفضة ، لكن هذه الأسعار غير ثابتة لكثرة تغيير قيمة العملة من وقت لآخر .

انظر : عباس المزوى : تاريخ العراق : ج ٤ : ١٣٩ ، ج ٦ : ١٤٧ .

ولكن خالد أفندى - وقد أحييت إليه هذه القضية - نظر إليها من زاوية أخرى . فقد عرف عن البايانيين فرارهم إلى إيران كلما أرادوا الحصول على حكم السليمانية برغم معارضة بغداد ، ولم يعرف عن الممالك أنهم استنجدوا بدولة أجنبية أو جلبوا قواتها إلى أراضي السلطان ، وكان السلطان في حاجة إلى باشا يحافظ على العراق من الخطر الفارسي والوهابي على السواء ، ولما كانت شوكة الممالك قوية وتمادوا في التمتع بالحكم الذاتي فإن خالد عمل على استبعادهم من قائمة المرشحين للباشوية لعل في ذلك مقدمة للتخلص من الحكم المملوكي ؛ فعمل على إستاد الباشوية للصبي سعيد بك ابن سليمان باشا الكبير وفضل هذا الصبي على عبد الله الذي كان قد عين منذ وقت وجيز في منصب القائمقامية . وهكذا كان خالد يضممر إبعاد الممالك عن الحكم . ولكنه في هذه المرة أخطأ التقدير فإنه واجه عبد الله القائمقام الذي تؤيده القوة المملوكية والذي طالب بكل قوة بأن تكون الباشوية له . وكان خالد في الوقت نفسه قد تمنى عنه حليفه عبد الرحمن لأن خالد أبى أن يسند إليه الباشوية ، ولذلك أخفقت محاولة خالد أفندى في إبعاد الممالك عن الحكم واضطر إلى أن يملأ فرماناً باسم عبد الله باشا^(١) (١٨١٠م) .

وأغلب الظن أن داود - خلال هذه الأزمة بين عبد الله وخالد - اتخذ موقفاً ضمن له حجة الطرفين فقد ظل في منصب التدفردارية ومعنى هذا أن عبد الله كان راضياً عنه ، وكذلك نجده بعد ذلك على اتصال وثيق بخالد أفندى بعد عودة الأخير إلى الآستانة^(٢) . ولا شك أنه لعب دوره بمهارة لأن النزاع كان أيضاً بين عبد الله وسعيد ، وسعيد صهر داود ، وابن الباشا الكبير سيد داود .

وقد أثبتت الأحداث أن داود كان مخلصاً لعبد الله وللممالك . فقد كان

(١) مختصر مطالع العود : طبعة بمبى : ٢٠ .

(٢) أحمد الصوفي : الممالك في العراق : ١٤٩ .

من الطبيعى أن يصطدم عبد الله باشا بعبد الرحمن الذى خابت آماله فى تولى
 الباشوية فناصر عبد الله العداء ، لعله يصل بالقوة إلى هدفه . ولقد تعاون
 عبد الله فى سبيل تأديبه مع الإيرانيين الذين كانوا يكرهون فى عبد الرحمن عدم
 الانصياع لهم . ولكن سرعان ما أدرك عبد الله خطورة قيام جيش إيران
 بعمليات عسكرية فى أراضي العراق فأمد عبد الرحمن ضد الإيرانيين حتى
 انسحب هؤلاء من كردستان^(١) . ورغم أن الوزير أنقذ عبد الرحمن من أيدي
 الإيرانيين عاد عبد الرحمن إلى الثورة على باشا بغداد فأعد عبد الله قواته لقتاله .
 قاد عبد الرحمن قواته إلى كبرى وتحصن بها وزحف عليه عبد الله بقواته
 المؤلفة من مماليك وكرد وعشائر عربية وكان داود يقود فرقة من فرق رماة
 البنادق من المماليك . ورغم شدة نيران جيش بغداد تمكن عبد الرحمن من دحر
 القوات العشائرية واخترق صفوف الجيش البغدادي الذى كاد ينهزم . ولكن
 الوضع انقلب فى اللحظة الأخيرة . فقد ثبت الدفتردار داود أفندي على رأس
 القوة المملوكية التى كان يقودها والتى كانت متحصنة فى الخنادق ، وانتهز
 فرصة الهجوم القوى الذى شنه عبد الرحمن وأصلى قواته نيراناً حامية ،
 فتساقطت الرؤوس بالمئات فبنى منها جند عبد الله أهراماً بينما كان
 عبد الرحمن يفر إلى إيران^(٢) (١٢٢٧ هـ - ١٨١٢ م) .

إن نصر كبرى هذا كان قاضياً على آمال زعماء الكرد فى المطالبة
 بباشوية بغداد ، ولداود الفضل الأكبر فى هذا النصر . فقد اقتصر آمال
 البابانيين بعد ذلك فى العمل على الوصول إلى منصب باشوية السليمانية فقط .
 على أن انتصار المماليك فى موقعة كبرى كان فرصة جديدة ليعاود الشاه
 تدخله فى أمور العراق ، وبخاصة أن الشاه كان يؤله الصلح الذى عقد بين

(١) جودت : ٩ : ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢) تاريخ السليمانية : ١٧٨ : ١٢٩ .

المزوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢١٢ - ٢١٣ خلاصة تاريخ الكرد وكردستان :

٢٤٢ - مختصر مطالع السمود : طبعة بمبى : ٣٢ ، جودت ج ١ : ١٠٢ - ١٠٤ .

القيصر والسلطان (١٨١٢م)^(١) فهاجم الحدود العراقية . وعند ما علم الباب العالي بأنباء العدوان الإيراني أرسل سفيراً ليقاوض الإيرانيين على أساس إعادة المياه إلى مجاريها بين الدولتين . ولكن « فتح علي شاه »^(٢) طالب بأن يكون لإيران رأى في حكام كردستان إذ أن العنصر الكردي مشترك بين الدولتين كما احتج على المعاملة السيئة التي يعامل بها زوار العتبات المقدسة من الإيرانيين .

وكانت النولة مستاءة من أن عبد الرحمن كان يدفع عشرة آلاف تومان للشاه ، ولذلك توترت العلاقات بين البلدين كل التوتر^(٣) . وعزم الوزير على أن يقلم أظافر عبد الرحمن الباباني الذي عاد من إيران على رأس جيش فارسي - كردي واستولى على السلمانية عنوة . ولكن عبد الله اضطر إلى قبول مطالب الشاهزاده محمد علي ميرزا^(٤) بإعادة عبد الرحمن إلى منصبه ودفع مبلغاً من المال إلى الشاهزاده ، وما كان هذا الصلح الشائن إلا لأن عبد الله واجه خطراً شديداً في أقصى جنوب العراق ، وهو فرار سعيد بك إلى المنتفق ، برغم أنه كان قد تعهد أمام القنصل البريطاني بالولاء للبasha وبعدم الفرار من بغداد ، إلا أن سعيداً وجد في انشغال عبد الله بحرب الكرد فرصة للحصول على منصب الباشوية^(٥) .

والحق إن فرار سعيد إلى المنتفق له مغزى عظيم الأهمية ، فلقد استعان عبد الله بالكرد في الحصول على منصب الباشوية^(٦) ، وأن الأوان للعرب أن ينصبوا والياً على بغداد . ولقد كان المنتفق القوة الثانية بعد الأكراد القادرة على أن ترفع مطالباً بالباشوية إلى كرسي الحكم . وقد رحب حمود - شيخ

(١) محمد أمين زكي : تاريخ السلمانية : ١٣٠ .

(٢) شاه إيران من ١٧٩٧ م إلى ١٨٣٤ م .

(٣) جهود : ج ١٠ : ١٢١ - ١٢٢ .

(٤) هو ابن فتح علي شاه حكم كرمشاه سنة ١٨٠٥ م حتى سنة ١٨٢٣ م .

(٥) رحلة ريج في العراق : ٢٦٢ .

(٦) رسول حاوي الكرنوكلي : دوحه الوزراء : ص ٣٥١ .

المتفق - بسعيد ، وكان هذا محبوباً لامن المتفق فحسب ، بل كان أيضاً محبوباً من البغداديين ومن المالك ، لما كان لأبيه من أباد على أهل العراق . ولذلك انضم المالك إلى سعيد .

وقد انضم داود كذلك إلى سعيد ، لما كان بينهما من آصرة المصاهرة وفي انضمامه لسعيد شيء من الاعتراف بجميل سليمان باشا الكبير عليه . وقد يكون من الدوافع أنه رأى في انضمامه لسعيد فرصة للحصول على منصب أرقى من المنصب الذى يشغله ، ذلك لأنه بقي طوال حكم عبد الله (١٨١٠-١٨١٣م) في منصب الدفتردارية دون أن يرقى . ويبدو أن انضمام داود إلى سعيد كان من العوامل القوية التى شجعت المالك على أن يتخلوا عن عبد الله ، فقد كان داود في ذلك الوقت مشهوراً بأنه « مدبر وصاحب رأى سديد »^(١) أضاف إلى هذا أن المالك لم يطيقوا أن يدنسوا أيديهم بدماء ابن سيدهم الذى بلغ منه الجهد والإعياء ما بلغ في سبيل سعادتهم وتوطيد أركان حكومتهم . وبرغم الحملة البرية النهرية التى شنها عبد الله تفكك جيشه بانضمام من كان معه من المالك إلى سعيد ووقع هو أسيراً ليقفل انتقاماً لوفاة برغش بن حود متأثراً بطعنة أصابته خلال المعركة . وبعد ذلك سار سعيد إلى بغداد ليترع على الكرسي الذى شغله أبوه بمجدارة من قبل .

(١) يعقوب سرقيس - مباحث عراقية : ج ٢ : ٢٥ .

من وثيقة كتبها مواطن بغدادى نشرها الأستاذ يعقوب سرقيس في كتابه المذكور .

الفصل الثاني

توليّة داود

داود في عهد سميّد - النزاع بين سميّد ومحمود بابان - مؤامرة
مزرا - النزاع بين داود وسميّد - داود يفر إلى محمود بابان
تطور الصراع - مصرع سميّد - ثورات ميكرّة ضد داود .

توليسيم داود

داود في عهد سعيد باشا :

دخل سعيد بغداد في ١٥ ربيع الأول ١٢٢٨ هـ (مارس ١٨١٣ م) وتولى قائممقامية بغداد حتى يأتي فرمان السلطان وكان سعيد قد أرسل التماساته إليه مشفوعة بالتماسات الأهالي (١) ، وما كان السلطان في ذلك الوقت بقادر على أن يوجه عناية خاصة إلى العراق بسبب المشكلات الداخلية ولتطور الأحداث بسرعة في أوروبا منذ هزيمة نابليون في روسيا ، ولذلك اعترف السلطان بالأمر الواقع وأسند المنصب إلى الرجل الذي استولى عليه بقوة السلاح .

وكان من الطبيعي أن يقوم سعيد بتعديل في المناصب الكبرى ، ولنا في حاجة إلى تفاصيل هذه التعديلات إلا فيما يخص تعيين داود أفندي في منصب الكتخدائية ثم عزله منه بسرعة .

يقول صاحب « بغداد كوله من » إن سعيداً « كان شغوفاً باللعب واللهو . . . وتولت أمه وحاشيتها وخدامها أمر الحكومة ونصب زوج أخته الدفتردار السابق داود أفندي كميخيا ، فتولى المذكور عمله بكل ما في وسعه ولما وصل سعيد إلى بغداد عزله بلا سبب ظاهري وأمره بالبقاء في منزله مهجوراً دون أن يلتفت إليه » (٢) .

ويسرد لنا هذا المؤرخ قصة عزل داود بصورة تثبت أن سعيداً كان

(١) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢١٨ .

(٢) بغداد كوله من : ٢٩ .

ضعيفاً أمام إرادة أمه التي أصرت على عزله ، وذهبت محاولاته في الدفاع عن حسن اختياره داود لمنصب الكيخيا أدراج الرياح أمام إصرار أمه التي اعتبرت داود من أعدائها منذ أيام سليمان الكبير . ولم تفهم الأم النتائج السياسية المترتبة على عزل داود ، فقد كان الرجل في نظر سعيد أفضل من غيره ، وكان عزله ينفر المخلصين ويفرقهم عن الباشا . ولما كان داود صهر الباشا استغل سعيد هذه العلاقة لإقناع الأم ، وأوضح لها أن أباه الباشا الكبير لم يختر داود لابنته عبثاً ، وأن داود أخلص في عمله لسيده واستمر مخلصاً وأنه بذلك أحق من غيره بهذا المنصب ، وله ماضيه المشرف . ومع ذلك تحطمت محاولاته أمام إصرار أمه^(١) .

وهناك رواية أخرى موافقة لتلك الرواية ، فصاحب دوحة الوزراء يقول إن داود هو الذي قدم استقالته عندما وصل إلى بغداد لما رأى الوزير أنه غير كفء لإدارة البلاد^(٢). ويخالف هذه الرواية ما كتبه أحد تجار بغداد المسيحيين فيؤكد لنا أن داود رفض قبول منصب الكتبخداية لتعدد الرياسات ولاعتقاد الوزير على أشخاص مثل قاسم بك لا يخلقون سوى المشكلات^(٣) . هذا بينما لا يذكر صاحب مطالع السعود شيئاً عن الحادثة برغم أن جميع المؤرخين تقريباً أجمعوا على أن الباشا حدد إقامة داود أفندي .

وأغلب الظن أن داود أراد أن تكون له من السلطة ما يستطيع بها إدارة أمور البلاد فلما توزعت القيادة بين حمود الثامر وقاسم وغيرهم شعر داود بخرج مركزه وأبدى رأيه بأنه لا يستطيع أن يعمل والأوضاع هكذا ، فكان أمام سعيد أحد أمرين : فلما أن يتخلى عن داود ولما أن يهجر أصفياه ، ووقفت الأم ضد داود فعزل : ولاشك أنها تمسكت بعزله

(١) المصدر السابق : ٣٠ .

(٢) دوحة الوزراء ص ٢٦٢ .

(٣) مباحث عراقية : ١ : ٢٥ .

لأنه القادر على أن يجد من تقوِّضها ، وكانت هي تقدر قوة شكيمته :
 وأياً كان الأمر فقد أثبتت أحداث العراق ومشكلاته أن العراق في
 حاجة إلى شخصية قوية حازمة لإدارة شئونه : فقد كان سعيد باشا قليل
 التجربة وكان في يد حمود - شيخ المنتفق - كالطفل في يد وصيه « حتى
 إنه منحه ماني جنوب البصرة من القرى وهو يقارب ثلث إيرادات العراق .
 بغير مال ولاخراج وهذا تضييع لأموال الدولة »^(١) . ثم إن سعيداً عجز هو
 وأصفياءه عن إنقاذ الزوار الإيرانيين في كربلاء^(٢) من بطش العشار
 العربية . ولا شك أن الوزير قدرة النتائج السياسية الخطيرة المترتبة على ما يصيب
 هؤلاء الزوار من أذى ونهب في وقت كانت فيه الدولة الفاجرية تتطلع
 بشغف إلى العراق ، شأنها في ذلك شأن حكومات إيران السابقة ، خصوصاً
 أن العلاقات العثمانية الإيرانية أصبحت تنذر بالخطر لإخفاق المفاوضات التي
 كانت جارية بين البلدين ولأن الباب العالي عقد الصلح مع روسيا على غير
 رغبة إيران سنة ١٨١٢ م ولذا كانت إيران بالمرصاد للعراق . فيكون
 ما يصيب الزوار حجة قوية لتدخل إيراني عنيف :

والحق إن الوزير لم يتحرك لعلاج المشكلة إلا بعد أن ساءت الأمور
 وضح أهل العقد والحل في بغداد من تقاعسه عن إنقاذ الزوار ، فطالبوه
 باتخاذ تدابير حاسمة لإنقاذ سمعة الباشوية ولتوطيد الأمن حتى تظل سيول
 الزوار متدفقة على العراق . وتلفت الوزير حوله فلم يجد من بين أصفيائه
 من له جلد مثل هذه المشكلات . فالتفت إلى داود وعهد إليه بقيادة الحملة
 الموجهة لإنقاذ المحاصرين وتأديب المتمردين وإقالة سمعة الباشا من عثرتها^(٣)
 فأُسند إليه القيادة بمنصب الدفردارية^(٤) لا بمنصب الكتخدائية ، كما

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبي : ٤٤ .

(٢) كانت حرم الشاه فتح علي من بين الزوار .

(٣) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبي : ٤٤ .

(٤) جودت ج ١٠ : ١٦٨ .

يقول صاحب المطالع^(١) واستطاع بالسياسة والحرب أن يضطر العشائر النائرة إلى إعلان الخضوع للوزير^(٢) . ويبالغ صاحب المطالع في ذبوع صيت داود لما قام به إبان هذه الحملة الموفقة ، والواقع أنها فعلاً أذاعت صيته في إيران والعراق فنسب له النصر عن جدارة ولم ينسب للبasha كما هي العادة . وكان الأدباء والشعراء والطبقة المثقفة — ذات الصلة القوية بـداود من العوامل الأساسية التي نشرت صيته في الآفاق فلقد مدحوه بما يمدح به الملوك وبيت واحد من الشعر يكفي ليبين مدى ما كان عليه الأدباء من حرية تصوير الأمر الواقع .

أمديراً قطر الممالك بعد ما عجزت ولاية الأمور عن تدبيرها^(٣)
حقيقة للشعراء مبالغات ، ولكنها على أى حال ذات أثر في الدعاية ، بل إن الأسلوب الشعري الذي كان يخاطب به سعيد كان في قالب النصيحة بينما كان الأسلوب الذي كان يوجه لداود فيه إشادة بقوته وعظمته ، وهذا مما يؤكد لنا أن الطبقة المثقفة كانت ترى في البasha سعيد قصوراً تعمل على تقويمه ، ولقد حضوه على إنقاذ سمعة البلاد وامتدحوا من أنقذها . أفلا يدفع ذلك أصحاب المناصب من أصفياء البasha إلى أن ييغضوا داود ويخشوه في آن واحد ، بل وأن يخشاه البasha نفسه فلا يسند إليه منصباً أرقى من منصب الدفتردارية ، وكان منصب وكالة الكتبخداية شاغراً ولم يقع اختيار البasha على داود لشغله وإنما اصطفى متسلم البصرة عبد الله أغا وفضله على داود الذي ظل في منصب الدفتردارية . على أن صاحب الدوحة^(٤) يقول إن داود اكتفى بالدفتردارية حباً في برودة الرأس

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبئي : ٤٣ - ٤٤ .

(٢) المصدر السابق : ٤٥ . وسننقل الحديث عن علاج داود لهذه المشكلة العنصرية في الفصل الثالث .

(٣) صالح التيجي : ٣١ (عن الزاوي : ج ٦ : ٢٢٤) .

(٤) رسول حاوي هو مؤلف دوحه الوزراء .

من الفوائت^(١) . وهذا يؤكد لنا أن داود كان قد فطن إلى أن حكومة سعيد تهوى وأن الإصلاح غير ميسور ، وتمسك داود بموقفه : فلما أن يكون حراً في العمل ولما أن يبقى في منصبه حتى يدخر قواه لهدف أسمى . ويبدو أن سعيداً لم يكن يعمل لصالح المالك ، فهو ليس بملوك ، ولم يقرهم منه ، ولم يتشبع بروحهم ، وترك الأمور في أيدي غير أمينة مثل حادي ابن أبي عقيل^(٢) أو في أيدي من جر عليه تعقيدات سياسية خطيرة مثل قاسم بك الشاوي^(٣) وذلك في وقت كانت الحركات العشائرية نشطة مضطربة لانتقال بعض عشائر غربي الفرات إلى الجزيرة العراقية فراراً أمام الضغط الوهابي^(٤) فكان ذلك سبباً لاشتداد الصراع بين العشائر كما كان فرصة لمدهري أمر الوزير لضرب العشائر بعضها ببعض .

النزاع بين سعيد ومحمود بابان :

وكان سعيد في سياسته هذه يعتمد أساساً على العرب وهكذا لم يحكم سعيد بقوة الممالك وإنما بقوة العرب وبخاصة المنتفق والعبيد^(٥) . فكانت أيام سعيد للعرب بينما كانت أيام عبد الله للکرد ، وتبادل الفريقان شرف تنصيب الولاة . والواقع أن ميل سعيد نحو العرب وتفضيله لهم — برغم مبرراته — كان سياسة خاطئة توسع هوة الكراهية بين العرب والکرد وتزيد في تفكك المجتمع العراقي الكبير ، خصوصاً أن الكرد سريعو الميل لإيران ، وكان بيد إيران أن تشد أزر البابانيين في الخفاء^(٦) ولعل ذلك كان من

(١) المزاي : ج ٦ : ٢٢٤ عن دوحه الوزراء : ٢٦٣ .

(٢) شخص وشيخ الأصل سيطر على سيد باشا وعلى أعمال الحكومة .

(٣) كان قاسم باب العرب وشيخ العبید . والعبید عنده شهر ولذلك كان سبباً في اصطدام

الوزير بشهر .

(٤) عباس المزاي : عشائر العراق : ج ١ : ١٣٧ - ١٤٥ ، ٢٩٦ - ٢٩٩ .

(٥) مختصر مطالع السمود : طبعه بمبى : ٤٥ ، ٤٦ .

(٦) كانت تولية محمود باشا الباباني بعد وفاة أبيه بموافقة الأهالي ولاشك برضاء محمد

علي ميرزا (جودت ج ١٠ : ص ١٢٢) .

الأسباب التي نفرت الوزير من محمود الباباني باشا السليمانية^(١) فلقيت نصيحة حمادي ابن أبي عقلين لسعيد بعزله أذنًا صاغية وعزل محمود عن السليمانية . وفي مثل هذه الأحوال — كما هو معتاد في تاريخ الكرد — يستنجد الباشا الكردي المعزول بكرمنشاه وهذا ما حدث ، فقد أرسل محمد علي ميرزا إلى محمود الباباني مددًا قدر بحوالي عشرة آلاف مقاتل^(٢) (١٨١٥م) .

وكان من المعتاد أيضاً أن الباشا الكردي لا يكاد يستقر في السليمانية حتى تنسج المؤامرات وتتوالى الحيلانات ويكثر فرار كبار الشخصيات إلى كرمشاه وبغداد ، فتصبح التربة مهيأة لبذور المؤامرات من كل نوع ، فتقدم الأموال ، وتشتري الخدمات العسكرية ، وتصطف الجيوش ، وتشن الحرب لعزل الباشا القائم وتولية آخر يلجأ إلى بغداد . وكان اللاجئ في هذه المرة إلى بغداد عبد الله باشا المطالب بحكم السليمانية ، فهو أخو عبد الرحمن وأحق من ابن أخيه بالحكم ، ولما كان عبد الله حليف باشا بغداد عينه الباشا على السليمانية ، وجهزه لقتال محمود وطرده ، بينما أخذ محمود يعد خطط الدفاع مستغلاً في ذلك طبيعة بلاده الوعرة . واستعد الطرفان للمعركة التي يشترك فيها — بطريق غير مباشر — والى كرمشاه . وكان لهذا الصدام بين باشا بغداد وكرمشاه صدى سيئ في الآستانة . فالباب العالي كان يجناز فترة حرجة من حيث علاقته بإيران التي نكبت في حربها مع الروسية والحانقة على الصلح التركي — الروسي فكانت الدولتان تتبادلان السفراء لتسوية الأمور ، ومن هؤلاء السفراء سليمان أفندي الذي مر بالعراق خلال أزمة عزل محمود ، ويبدو أن المبعوث السلطاني كان يرى بقاء محمود في منصبه حتى لا تزداد الأمور تعقيداً في مفاوضاته مع حكومة

(١) يقول بعض المؤرخين إن عزل محمود كان بسبب الوشاية ، ومع ما نتقده ، من أن لسعيد نزواته فإن أعمال البابانيين كفيلاً بإيالة حكام بغداد الصالح منهم والطالح . راجع المزوي ج ٦ : ٢٣٠ ، تاريخ السليمانية : ١٣٥ .

(٢) تاريخ السليمانية : ١٣٥ .

إيران ولكن سعيداً أبي إلا أن يعزله وتسرع في العمل - بتحريض من حمادى أبي عقيل - فكان ذلك سبباً في إفساد الأمر على مبعوث السلطان وفي إخفاق المفاوضات ، وعودة المبعوث السلطاني حائفاً على أعمال باشا بغداد (١) فكان ذلك من العوامل التي أساءت إلى سمعة الباشا في دوائر الآستانة . ومع ذلك فإن سمعته لم تصل إلى الحضيض هناك إلا نتيجة مؤامرة محكمة دبرها اليهودى عزرا .

مؤامرة عزرا :

كان عزرا هذا شقيقاً لحزقيل أحد صراني خالد أفندى . ولقد مرّ بنا ذلك الدور الذى لعبه خالد أفندى وانتهى بمصرع سليمان الصغير . ومنذ أن عاد خالد إلى الآستانة اختص بتدبير أمور العراق . وكان خالد واقعاً تحت النفوذ الثالى لليهودى حزقيل ، وهذا الأخير استغل مكانته في العمل على تولية أخيه عزرا في منصب صراف باشى بغداد . ولكى يحصل على هذا المنصب يجب أن يطرد سعيد باشا الصراف باشى الموجود في ذلك الوقت ، ولكن الصراف باشى كان على أوثق صلة لا بالباشا وحادى فقط بل وبالأم أيضاً ، فرفض الباشا طلب خالد . وكان لهذا الرفض أثر سيئ جديد في الآستانة . فلقد كان لخالد نفوذ قوى - في ذلك الوقت - في الآستانة . وفي الوقت نفسه فكر عزرا في طريقة يصل بها إلى غرضه . وما كان ليصل إلى هدفه إلا بعد عزل الباشا ، ولذلك دبر مؤامرة تظهر الوزير بمظهر الذى يوحى بأنه رفع راية العصيان وخرج على السلطان ، إذ انتهز فرصة لإستاد الوزير إليه مهمة الإشراف على سك العملة النحاسية ، وضرب بعضاً منها واضعاً اسم الوزير مكان طغراء السلطان . وهذا مظهر من أقوى مظاهر خلع الطاعة ، ولما سمع سعيد بالأمر سارع فأمر بجمع كل ما سك من العملة على تلك الصورة ، ولكن عزرا كان

(١) المزوى : ج ٦ : ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

قد أسرع إلى إرسال بعض منها إلى الآستانة^(١) ، حيث حزقيل وحيث خالده التاقم على سعيد وخير من يضيف إلى دليل الخيانة أدلة ... فقد كان خالده على اتصال بالعراق مستمر ، وكانت علاقته بـداود وثيقة منذ كان خالده في العراق ، وظلاً يتراسلان وكان من الطبيعي أن يعرج داود فيما يكتب على أحوال الباشوية وما فيها من اضطراب وما يحدق بها من خطر^(٢) فصدر فرمان بعزل الوزير وإبعاده إلى حلب . وأسندت قائممقامية بغداد إلى أحمد بك القبوجي باشي ، ومنح سعيد الأمان وأرسلت صور الفرمانات إلى قاضي بغداد وإلى مفتي الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية وأئمة ووجوه بغداد في أوائل شوال سنة ١٢٣٠ (سبتمبر ١٨١٥)^(٣) . وبعد ذلك بوقت قصير وقع انشقاق خطير في بغداد كان قاضياً على سعيد باشا .

النزاع بين داود وسعيد :

في ربيع الأول ١٢٣٠ هـ - ١٨١٦ م خرج داود على الوزير ويروى لنا صاحب مختصر مطالع السعود الحادثة على أن « كثيراً من المناقشين الأعداء لما رأوا داود متيقظاً وبنه الولي دائماً إلى دسائسهم داخلهم الحسد وأرادوا إتلاف داود بكل ما في جهدهم ... وتحمل هذا الخطر العظيم شكراً لما لوالده سليمان باشا عليه من النعم ، ولما اشتد غيظ الحساد لداود أفهموا الوزير أن مقصد داود ... قتله » لبلى ولاية بغداد بالراحة . وخصوصاً أن العساكر جميعاً في قبضة داود^(٤) . « وأتوا بمن شهد عند الوزير بأن داود يتفق الذهب لمن يقطع رأس الباشا فدخل الخوف قلب الوزير ، وخشى بأس داود ، ولا شك أنه كان أعجز من أن يواجهه

(١) بغداد كوله من : ٣٢ .

(٢) أحمد الصوفي : الماليك في العراق : ١٩٢ .

(٣) جردت : ج ١١ : ٢٢ .

(٤) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبئي : ٦٠ .

داود بالعزل ، فدبر مؤامرة لقتل داود إما ختفاً أو صبراً ، فبلغت تفاصيل المؤامرة داود ، فلم يكن أمامه إلا أن يفر إلى أحد « الجبال المحصنة إلى أن يأتيه أمر الله » (١) .

على أن الأمر لم يكن مجرد نزاع بين سعيد وداود ، فإن الأمور كانت مضطربة في بغداد والعراق والباشا ضعيف ، والحكم في يد فئة قليلة الدراية ، وأصحاب المناصب الكبرى من المماليك أبعدوا عنها ، وقرب الباشا إليه زعماء العرب وآخرين وبعض عامة الناس . فكان ذلك مما أثار عليه المماليك ، فاختار كبارهم داود ليتولى قيادة الثورة وليتولى من بعد نجاحها منصب الباشوية (٢) ، ولقد كان داود مستعداً لتولى هذه الزعامة وصرخت بين جنبه روح الثورة العنيفة لما كان يطلقه حمادى - الوضع الأصل - من صفريات بداود (٣) .

ومن ناحية أخرى لم تكن المنافسات الشخصية ولا المحافظة على كيان المماليك في العراق هي الأسباب الوحيدة التي دفعت داود إلى الثورة ، فلا شك أن داود شعر بالخطر الداهم الرابض على حدود العراق الشرقية ، فلقد فغرت إيران فاهاً لا يتلوع العراق وترددت الشائعات هنا وهناك أن الشاهزادة محمد علي مه ١٠ ينوى الاستيلاء على بغداد ليجعلها عاصمة له (٤) ، وكانت كرمناشاه تعج بالفارين من بغداد (٥) ، وهذه ظاهرة جديدة خطيرة ، فلقد كان البابانيون موصومين بهذه الظاهرة ، وهاهى ذى العدوى تنتقل إلى بغداد ، فأغا الإنكشارية يفر إلى كرمناشاه ويتخذ منها ملجأ (٦) وهذا

(١) مختصر مطالع السمود : طبعة بمبى : ٤٦ .

(٢) المزوى : ج ٦ : ٢٣٢ .

(٣) Huart : Op. Cit. P. 159.

J. M. Kinneir: Voyage dans L'Asie Mineure, et le Kourdistan Vol. II. P.351.

(٤) تاريخ السليمانية : ١٣٥ .

(٥) المزوى : ج ٦ : ٢٤٥ .

(٦) المرجع السابق .

يؤكد لنا أن النفوذ الفارسي لم يقو فقط في كردستان بل في بغداد نفسها أيضاً ، على أن الخطر الفارسي يمثل شطراً من الخطر الأجنبي الذي يهدد العراق ، فلقد بلغ نفوذ القنصل الإنجليزي المستر كلاودوس . ج ريتش C.J. Rich ذروته في عهده ، فكلمته كانت مسموعة بغض النظر عن الديوان . وبرغم تغلر الحصول على ما يثبت أن ذلك كان من داوعي ثورة داود على سعيد فقد كان موقف داود مناهضاً للسلطة التي نالها القنصل وأتباعه في بغداد

هذا إلى أن أمور الولاية الاقتصادية (١) تثبت أن الوزير أهل أهم مورد للعزانة وللأفراد وهو التجارة ، فالطرقات تملؤها القبائل المتمردة أوقطاع الطرق وهذا أشد خطراً على التجارة ، وحياة بغداد أساسها التجارة ولذلك لعبت الناحية الاقتصادية دوراً في سقوط سعيد باشا .

وعلى وجه العموم كانت أمور العراق توحى بأن الزمام يفلت من بين يدي سعيد ، وأن الباب العالي يتيماً للقضاء عليه فكانت فرصة سانحة لمن يتوسم في نفسه الزعامة فيعلن الثورة مطالباً بالباشوية مؤيداً من الباب العالي وكان لداود خلصاء وأراد أن يخرج من بغداد وهم معه ، فتظاهر بأنه خارج للصيد وجمع خلصاءه معه — وكانوا نحو المائتين ، منهم بعض أغوات الداخل وأغوات الخارج (٢) وأحمد بك القائمقام (٣) وغيرهم من وجوه بغداد .

داود يفر إلى محمود بابان :

اختار داود طريق الشمال ، وما اختاره إلا لأنه يؤدي إلى كردستان حيث محمود المستعد لمنازلة سعيد ، ولاشك أن داود كان يقدر تمام

(١) انظر الفصل الثامن .

(٢) وهم أغوات خارج سراي الباشا وأغوات الداخل هم المالك في السراي .

(٣) لم يكن أحد يعرف في ذلك الوقت أنه قائمقام بغداد ، فقد أعني الفرمانات لغرض

في نفسه سيتضح لنا فيما بعد : جودت : ١١ : ٢٣ .

التقدير تحالف محمود معه ، ولما وصل إلى قرب كركوك كتب إلى الباب العالي يلتمس إسناد الباشوية إليه . وركز اهتمامه هو ومن تبعه في إظهار مثالب سعيد من حيث أنه أسلم الحكم للعرب « أهل الظلم والغشامة » (١) .

لدى كتاب داود ترحيباً في دوائر الآستانة (٢) فإن خالد أفندي كان يميل إليه ، وله ماض عسكري مشرف ، وهو يكنى الدولة مثونة الدخول في حرب ضد سعيد غير مؤكدة النتائج ، وكان داود الشخصية القوية التي تستطيع أن تخلص الدولة من الباشا الناصر ، وأن تبقى محموداً الباباني في الحكم حتى لا تنطلق الجيوش الإيرانية في الأراضي العراقية . وهكذا التفت مصلحة الدولة العثمانية بمصلحة محمود باشا . ولاشك أن الظروف كانت إلى جانب داود ومحمود ، فإن باشا السليمانية كان يعلم بأمر عزل سعيد قبل أن يصل هذا الأمر إلى سعيد نفسه والحرب ضد هذا الباشا المعزول المتمسك بالوزارة مشروعة . فأخذ محمود جانب الباب العالي ومن يعينه ولكي تطمئن القلوب إليه عرض على داود أن يقدم عليه ، وأن يعلن له الولاء وأن يكون الجيش الباباني تحت إمرته ، معلناً في الوقت نفسه التخلي عن إيران . والحق إن هذا الأساس السياسي السليم الذي قام بين داود ومحمود يدل على فطنة الطرفين ، فالباشوات الكرد يميلون لإيران ولكن سرعان ما ينفرون منها لتعصبها المذهبي وإلحاقها الأتباع في دفع الأموال ، والبقاء في نطاق الدولة العثمانية خير ضمان للتمتع بذلك النوع من الحكم الذاتي وبتلك الهيبة الكبرى التي يتمتع بها السلطان العثماني .

كان لهذا التعاون أثره الكبير بين الأوساط المثقفة في بغداد ، وكانت فرصة للناقمين على سعيد لينضووا تحت لواء المطالب الجديد بالباشوية ومن هؤلاء خليل أغا متسلم كركوك السابق ورسم أغا متسلم البصرة السابق وسيد عليوى أغا الإنكشارى السابق (٣) وقسم كبير من الأمراء البابانيين (٤)

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبي : ٤٦ . هكذا كانت نظرة المالك العرب .

(٢) أحمد الصوفى : الممالك في العراق : ١٤٩ .

(٣) جودت : ج ١١ : ٢٣ .

(٤) تاريخ السليمانية : ١٣٤ - ١٣٥ .

بل إن المدن بدأت تخلع طاعتها لسعيد . فقد كانت كركوك تعاني مرّة العناء من حرب داخلية استمرت مدة طويلة دون أن يتخذ الباشا إجراء حاسماً . ولا شك أنه كان لسوء الحكم أثره في أن يعلن الكركوكيون ولاءهم لداود فأشعلوا نار الثورة على سعيد منذ أغسطس ١٨١٥م (رمضان ١٢٣٠) وقتلوا أغا الإنكشارية وعدداً من أتباعه ، ولما نقلت أنباء هذه الثورة إلى مسامع الباشا لم يهتم بها ، والواقع إن ثورة كركوك هذه لم تكن إلا أمراً متوقّعا نظراً لأن الشمال كان بعيداً عن متناول أيدي سعيد وربما لم يبد تأثراً ما لأن ريتش Rich كان في حضرته في ذلك الوقت . ولم تكن ثورة كركوك إلا مقدمة لثورات غيرها من المدن فالحلة منذ ١٨١٦م كانت في حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب (١) ذهب داود ومن تبعه إلى السليمانية حيث أمضى أربعين يوماً وأخذ يتصرف كأنه باشا فعلاً . فعلى رأس القوات البابانية ومن انضم إليه ، سار إلى كركوك فاستقبله متسلماً وأشرافها وأعيانها خبير استقبال ، وأجرى تعديلات في المناصب ، فولى أحمد بك وكيل كتبخدا ومحمد أغا كتبخدا البوابين (قبوحي لركتبخدا) ، وعين أغا الاحتشامات السابق وكيل خازندار ، ونصب عمر بك بن محمد سعيد وكيل مصرف ، وخصص لهؤلاء رواتب مناسبة . وأخذ مساعد داود يشتد ، بينما شعر غريمه بالوهن ، فالمماليك بدعوا ينفضون عنه ، ومن كان في بغداد أخذ يفر إلى كردستان وضمجر منه العثمانيون ، فأراد سعيد أن يعدل من سياسته ليحتفظ بالبقية من الأعوان . فلإرضاء للمماليك عزل حمادى بن أبى عقيلين وقربهم منه فعين درويش أغا أغا كتبخدا أصالة (٢) ونصب يحيى الميرآخور خازناً في مكان ابن أبى عقيلين . وأسند منصب أمين الاصلطيل إلى يوسف أغا ، وعزل عمر الملى وعين عبد الله كيخيا الباب . هكذا

(١) Buckingham: Travels in Mesopotamia, Vol. II P. 360, 482.

(٢) أحياناً يمدد الوزير الى تعيين وكيل كتبخدا فقط بدلا من تعيين كتبخدا .

واجه سعيد الموقف بهذه التبديلات في المناصب لعله يرضى البعض فينال إخلاصهم^(١).

ومن الناحية العسكرية كتب سعيد إلى حمود الثامر شيخ المتفق يستقدمه فأناه على رأس ألف وخمسمائة مقاتل . وكذا أناه عبد الله الباباني على رأس خمسمائة مقاتل وعسكر خارج باب الإمام الأعظم^(٢) ، وإلى جانب هذه القوات كان الباشا يستطيع أن يعتمد على إنكشارية بغداد المكلفة بالدفاع عن المدينة ، وهذه كان يجب أن يكون تعدادها من ٢١-٢٥ ألف مقاتل ولكن لم يكن منهم من يحمل السلاح سوى عشرة آلاف مقاتل والباقي كان مدرجاً في قوائم الإنكشارية فقط ويعمل في الحرف المدنية وخاصة التجارة متخليين بذلك عن واجباتهم العسكرية . وكان للباشا إلى جانب ذلك قوة مؤلفة من ألتي خيال ، وتحت يده عشرة مدافع ميدان وفرقة من المشاة كحرس خاص له لا يزيد عددها على ألف راجل . على أن القوة العسكرية الكبيرة العدد التي يستطيع الباشا أن يجمعها كانت من العشائر العربية النازلة بالقرب من بغداد في مقابل تموينها أو مقابل مبالغ صغيرة نسبياً . وعلى وجه العموم كان في استطاعة الباشا أن ينزل إلى الميدان جيشاً يراوح بين عشرين ألف مقاتل وثلاثين ألفاً ، ومعظم هؤلاء غير مدربين وغير مؤثوق بجلدهم في حومة الوغى . والإنكشارية لا تسمع منهم إلا بالجمعية في المناقشات وفي المعركة كالنعام^(٣).

هذا ما كان في استطاعة الباشا أن يعتمد عليه من قوات جسيمة في بغداد هزيلة عند التقييم . والأدهى أن سعيداً لم يستفد حتى من هذه القوات الاستفادة الكاملة فإن هذه القوات كانت أكثر على أي حال من قوات داود وفي حاجة إلى قيادة تستغلها بحكمة ، وداود قدر خطورتها فعمل على تفكيكها وعلى كسب أعوان جدد له .

(١) المزاري: ج ٦ : ٢٢٢

(٢) جودت : ج ١١ : ٢٤ ، ٢٥ تاريخ السليمانية : ١٣٨ .

(٣) Heude: Op. Cit. P. 186.

تطور الصراع :

عمل داود على كسب ولاء جميع الأمراء البابائين ، فطالب خالد بك ، متصرف كوى وحريز بالانضمام إليه ، ولما لم تكن براءة الولاية قد وصلت إلى داود فإن خالداً أبى الانقياد له فسير داود إليه عثمان بك - أخا محمود البابائي . فاستطاع أن يستولى على كوى وحريز بسهولة (١) ، وهكذا نجح داود في إحراز نصر مبدئي . ولكن هذا النصر ذاته كان فرصة لمؤامرة فوجئ بها داود ، دبرها أحمد بك ونفذها الكركوكيون : فقد طمع أحمد بك في الباشوية وكان الباب العالي قد أصدر فرمانات عزل سعيد ونفيه وإسناد القائمات إلى أحمد بك . ولكن أحمد خشي على نفسه عداوة سعيد ونقمة داود فكتب أمر العزل عن سعيد وانتظر الفرصة المناسبة ليعلم نفسه قائماً ويطلب بالباشوية . ولما رأى أحمد القوات التابعة لداود تكلف بمهمة في كوى وحريز انتهر الفرصة ، وأعلن ما كتبه للكركوكيين وطالبهم بأن يكونوا تحت لوائه فهو الرجل الذي عين من قبل السلطان ، فأطاعه أهل كركوك . وألف منهم جيشاً ووضع خطة لمفاجأة قوات داود والقضاء عليها ليفضي بذلك على المطالب الأول بالباشوية . ولكن هجومه بآء بالفشل وتشتت قواته وقضى على هذه المحاولة السريعة الإعداد . فكانت نصراً آخر أحرزه داود ، ولم يتبعه بالانتقام من حلفائه القدماء الكركوكيين ، فالوقت ليس وقت تأديب كركوك (٢) بل هو وقت المطالبة بالباشوية ، فاكتمل ما ناله أحمد من هزيمة ليتفرغ لهدفه الأسمى (٣) ولكي يرفع من معنويات أعوانه أخذ يسند المناصب إليهم ويرفع المرتبات ثم بدأ يشرك بقواته فوصل إلى طقمقلو حيث أتاه رد السلطان على طلبه بإسناد الولاية إليه في يوم الجمعة أول محرم ١٢٣١ هـ (نوفمبر ١٨١٦ م)

(١) تاريخ السليمانية : ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) عفا داود عن الكركوكيين بعد دخوله بغداد .

(٣) جودت : ج ١١ : ٢٤ ٢٥ تاريخ السليمانية : ١٣٧ .

ووصل المنشور في ٣ من المحرم فاحتفل داود بذلك وأصبح مركزه أشد قوة وأمله أقرب إلى التحقيق^(١) .

داود يهاجم بغداد :

استعد داود للزحف على بغداد ، فسار إلى « طوزخورماتو » حيث أقام نحو عشرة أيام ومنها إلى « الجديلة »^(٢) ومن هناك بدأ يشن حملة دعاية واسعة النطاق ، فأرسل نسخاً من فرمان عزل سعيد وتولية داود إلى سعيد نفسه إذ كان هذا لا يزال يعتقد أن فرمان عزله لم يصدر وبخاصة أن أحد بك أخفى فرمان العزل والقائمقامية لغرض في نفسه^(٣) ، وكذلك عمل داود على أن يكون على اتصال بأهالي بغداد ليستميلهم إلى جانبه ، كما أرسل نسخاً من فرمانات إلى حمود الثامر شيخ المنتفق ، وكذلك ليعده عنه فيشل حركة سعيد :

وكان من الطبيعي أن يهتز كيان سعيد بعنف بوصول تلك فرمانات وأن تكون هذه فرصة تنهزها القوات الموجودة في بغداد لتطالب بمرتباتها وبالمزيد وإلا انسحبت إلى الطرف الآخر ، وعلى هذه الصورة كان موقف الإنكشارية واللاوند والقلقلية (أهل القلنسوات)^(٤) .

ولذلك كان لابد من أن يتفق سعيد بسخاء ليضمن استمرار ولاء هؤلاء العسكر ، وليجمع أكبر عدد ممكن من المقاتلين ، فجمع خمسة آلاف مقاتل ليستخدمهم في صد هجوم داود المنتظر ، أو إذا ما بمرت بواذر التردد بن أهالي المدينة نفسها . كانت تلك ناحية من تدبيرات سعيد للدفاع عن المدينة . وأما في الميادين الأخرى فقد وضع سعيد أيضاً بعض الخطط لمواجهة قوات داود ، ففكر في استغلال انقلاب كركوك على داود بأن

(١) جردت ج ١١ : ٢٦ تاريخ السليمانية : ١٣٧ .

(٢) بجوار طوزخورماتو .

(٣) جردت : ج ١١ : ٤٧ .

(٤) فرقة من الجند المحلية .

يجمع من هناك القوات ويقطع خط الرجعة على داود ومحمود بمهاجمة كوى مفتاح السليمانية ثم الانقضاض على السليمانية نفسها . واتفق على أن يخرج خالد الباباني من كركوك ومعه سباهية كركوك لتوحيد قواته مع قوات عبد الله ليقوما بالهجوم المشترك على السليمانية في الوقت الذي تركت فيه هذه المدينة دون دفاع قوى إذ كان محمود قد ترك فيها أخاه حسناً على رأس مائة من الخيالة ، بينما استطاع عبد الله أن يجمع ألتي مقاتل من كركوك ، وهاجم السليمانية بتلك القوات المتفوقة وحاصرها بضعة أيام دون جدوى وأخيراً انسحب إلى بغداد^(١) .

على أن هذا النصر الذي أحرزه حسن في السليمانية لم يكن ليؤثر كثيراً في تطور الصراع بين سعيد وداود ، فالمعركة الحاسمة هي تلك التي تدور تحت أسوار بغداد ، وهي التي يستعد لها سعيد بكل إمكاناته . أما داود قد أدرك أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه الأهالي داخل المدينة نفسها إذا ما ثاروا على سعيد ، ولذا وضع داود خطته على أساس أن ينسحب حمود الثامر من بغداد بقواته إلى الجنوب وإشغال نار الثورة في المدينة ، وكأملت وسيلته في ذلك شن حرب اقتصادية على بغداد ، والاستيلاء على بغداد يتطلب عدة أمور أهمها .

- ا : رضاء الأهالي عن الوالي الجديد .
- ب : تجريد الباشا المعزول من القوة العسكرية .
- ج : الاستيلاء على القلعة المسيطرة على المدينة .

فالواقع أن اشتداد الأزمة الاقتصادية في بغداد كثيراً ما أدى إلى ثورة الأهالي على الوالي على اعتبار أنه هو المسئول الأول عن هذه المشكلات مثلما حدث في عهد سليمان الكبير^(٢) . وتتطاي من ألسنة الناس الاتهامات المختلفة للوالي فتضطرب المدينة في موجات من المسخط والغضب تتحول

(١) تاريخ السليمانية : ١٣٧ ، ١٣٨ الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٣٧ - ٢٣٨

(٢) الزاوي : ج ٦ : ٩٨ .

إلى شغب لا يهدأ إلا إذا ضرب الوالى بقوة وحزم على أيدي مثيري الشغب ، على أن يسد - في الوقت نفسه - الأفواه الجائعة بالغذاء الضروري ، كما فعل الباشا الكبير . ولكن ابنه لم يكن لديه حزم أبيه وقوته ، ولم تكن لديه الأموال الكافية ليشتري بها المؤن على أنه لو وجدت الأموال في يده لما استطاع أن يحصل على شيء نظراً للحصار الذي ضربه داود على الطرق المؤدية إلى المدينة وللاضطراب الذي عم معظم أجزاء البلاد ، فأصبح سعيد بذلك في موقف حرج أشد عليه من خوض معركة ، وما كان داود يمنحه فرصة خوض معركة حاسمة ، وإنما كان يجري اشتباكات على نطاق محدود ، فذهب داود إلى قره بولاغ حيث تصبح خطوط نمونه مضمونة وقصيرة^(١) . خصوصاً بعد أن هزمت قوات تابعة لسعيد طلائع جيش داود ، وكان من الطبيعي أن يردد أتباع سعيد أن جيش داود انكسر وتشتت أشنع تشتت ، نعم لقد اعترف أحد رجال داود أن داود كان قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في الأسر ، ولكن كانت المعركة على نطاق ضيق ، فتألمجها لم يستثمرها أتباع سعيد في فك ذلك الحصار الاقتصادي المضروب على المدينة ، وإنما استغلوها فقط في الدعاية والتشهير^(٢) وأصبح على سعيد أن يجد حلاً للمشكلة الاقتصادية التي تفاقمته في المدينة وأن يواجه تكاليف القوات المسلحة في المدينة ، وكانت كثيرة العدد من متفق وعيد ودليم وعقيل ، وأن يواجه نتائج اعتداءات هذه القوات على الأهالي في سبيل الحصول على الأرزاق . واشتد الأمر على سعيد حتى إن المصروفات اليومية لسعيد بلغت أكثر من ألفي قرش ، حيث بلغت القوات في المدينة عشرة آلاف مقاتل ، فأصبحت الأقوات عزيزة ، والإدارة عسيرة ولم يستطع أن يمنع العثانيين من الفرار من المدينة إلى داود^(٣) ولا أن يخفف

(١) الزاوي : ج ٦ : ٢٣٨ .

(٢) Heude: Op. Cit, P. 164

(٣) جودت : ج ١١ : ٢٦ الزاوي : ج ٦ : ٢٣٨ .

من ثقل وطأة عرب المنتفق على أهالي بغداد ، و فرغت خزانته ، فلبجأ إلى الاقراض من تجار المدينة ؛ فجمع بذلك خمسة وعشرين ألف قرش ، ليدفع رواتب جنده ، وليحتفل بـرمضان ١٢٣١ هـ - ١٨١٧ م .. وكان هذا من الأسباب التي زادت من ثورة النفوس عليه لأن الإعانات القهرية التي تفرض على التجار كانت نادرة الحدوث في بغداد .

فلن الباشا إذا أراد فرض إعانة قهرية فإنه يفرضها على الموظفين دون التجار لأن هؤلاء كانوا عصب الحياة الاقتصادية في العراق وإن في إرهابهم زعزعة الباشا . أضف إلى هذا أن سعيداً لجأ إلى القسوة والاعتصاب ليجمع الأموال ، وهو الذي كان محبوباً لسخائه وكرمه فلامه الأهالي على أعماله هذه ، وفقد المميزات التي كانت سبباً في محبة الشعب له ففقد ولائهم له (١) .

ولم يجد سعيد من حل للأزمة سوى أن يخفف من نفقاته الباهظة ، ومعنى هذا التخفيف التخلص من عدد من القوات المرابطة ببغداد ، ولعله اعتقد فعلاً أن الهزيمة التي منيت بها طلائع جيش داود كانت قاضية على آمال داود ، وأن بغداد أصبحت آمنة وفي غير حاجة إلى جيش حمود الثامر فرخص له سعيد بالعودة إلى موطنه (٢) ويبدو أن حموداً كان يرغب في ترك المدينة بعد أن نصح سعيداً بإطاعة أوامر السلطان ولكن رفض سعيد هذه النصيحة (٣) .

وبعد انسحاب حمود اشتعلت في المدينة روح العداء للباشا المعزول وهو في الوقت نفسه يعمد إلى عزل الموظفين وتبديلهم لعله يقع على رجل يستطيع أن ينقذ الموقف . وما كثرة التبديلات إلا دليلاً على عدم الاستقرار ولعل أبرز دليل على أن أمور سعيد كانت في انهيار سريع أن درويش محمد أغا اغتبط كل الاغتياب بعزله من منصب الكتخدائية بينما أسف

(١) Heude: Op. Cit. P. 164

(٢) الزاوي : ج ٦ : ٢٣٩ .

(٣) المصدر السابق : عن مطالع السعود : ١٧٥ .

خليفته عبد الله كل الأسف على ترقبته إلى هذا المنصب^(١) ، ومع ما كان لعبد الله هذا من شهرة ومقدرة إدارية ، فقد كره أن يتولى منصباً أسند إليه في مثل هذه الظروف^(٢)

مضت عدة أيام على تلك التبديلات ، والوقت في صالح داود . فقد كانت الحمسات من وراء الأسوار تردد أن قوة داود في تزايد ، وأنه عن قريب يصل بقواته إلى بغداد . هذا بينما ظهر ضعف سعيد واضحاً من موقفه من خروج كبار العثمانيين من المدينة لينضموا إلى داود ، وعجزه عن التصدي لبعض هؤلاء ، فعندما حاول أن يمنع أحد هؤلاء من الخروج من المدينة تحصن وأعلن انضمامه لحزب داود في المدينة^(٣) ذلك الحزب الذي أصبح قوياً وكان قد اتخذ من حى «الشيخ» أهم أحياء بغداد - معقلاً وبدأت حرب الشوارع في المدينة ، ولكن سعيداً رفض أن يضرب «الحى» بالمدفعية وبعزل هود Hende ذلك بأن الوزير أشفق على الحى وأهله من شر الحروب ولو قد أطلق بعض مدافعه عليه لربما قضى على الفتنة في مهلها ولم يغفل الوزير شيئاً من ذلك ، بل أرسل قوة من العقيل للقبض على زعماء الثورة ، وهؤلاء العقيليون لم يكونوا مدربين على مثل هذا النوع من قتال الشوارع فأخفقوا في أداء مهمتهم لأن الوقت كان قد فات إذ كانت قوات داود تقترب رويداً رويداً من المدينة ولم تكن أسوار المدينة على تلك الحصانة التي كانت عليها عند ابتداء القتال بين سعيد وداود ، وذلك لأن سعيداً بعد تراجع داود إلى قره بولاق أمر بهدم أجزاء منها ، وهكذا أصبح سعيد يقترب من نهايته حتى إن أولئك الذين كانوا قد لجئوا إلى المقيمية البريطانية لتحميمهم من بطش سعيد بهم تشجعوا واعتزموا امتشاق الحسام بينما المدينة كانت في حالة من الفوضى العارمة لاتكاد تستبين خلالها المدافع من المهاجم . فالمنازل والأسواق مغلقة ، وبين الفتنة والفتنة ينطلق

(١) النزوى : ج ٦ : ٢٢٩ .

(٢) Heude: Op. Cit. P. 114 .

(٣) Heude: Op. Cit. PI 174 ، جودت : ج ١١ : ٢٦ .

مدفع فتدخل له القلوب ، وتنطلق جماعة مسلحة في سرعة إلى ميدان معركة وروح الانتقام تغل في صدور رجالها ، وأخرى تعود مخدلة منكوبة وأهازيج العقيل تدوى في المدينة في أثناء تقدمهم للقتال ، وقواد سعيد يذهبون إلى معركة غير متكافئة ووجوههم متقدة غيظاً أو يعودون من القتال متخاذلين مع بقية من المخلصين (١) .

وخلال هذا الكفاح جرح حمادى بن أبى عقيلين وكان إصابته كانت الإنذار النهائي الذى تلقاه سعيد بأن حياته في المدينة أصبحت في خطر ولم يعد أمامه سوى الفرار إلى القلعة فتحصن بها هو ومن معه من العقيليين . وحينئذ اجتمع أغوات الداخل مع الأعيان والتدماء والعلماء وصنوف العسكر فانفقوا على طاعة الوزير داود ونصبوا موسى أغا قائماً ثم كتبوا التماساً أرسلوه إلى الوزير وكان في قره بولاى . وعلى هذا نهض بموكب فخم إلى بغداد فوصل يوم الجمعة ٥ ربيع الآخر ٨١٢٣ هـ فتوقف خارج الباب الشرقى ، ومن ثم استقبله الأعيان والعلماء ، فدخلها مساء في ساعة حددها له المنجمون بائهاج من الأهلى .. فتعالت الأصوات من كل صوب بخير مقدم مرحباً (٢) .

على أن الأمر لم يكن قد استتب تماماً لداود ، فإن سعيداً تحصن بالقلعة ومعه ٤٠٠ من العقيليين ، وكان هؤلاء العقيليين جلد شديد للحرب فخشى المالِك — وقد تمخلوا عن سعيد — انضمام العقيليين على الخائب الآخر من دجلة إلى الباشا المعزول في القلعة . فدمروا الحرس القائم على النهر وكانت القوة التى لدى سعيد في القلعة والموالية له في الخارج تستطيع أن تقوم بمقاومة ذات شأن والقلعة مسيطرة بمدفعيتها على المدينة وهى مشحونة بالبنادق والذخائر ولكن المؤن كانت قليلة بها . وكان على داود أن يخضع القلعة ليستتب له الأمر ولكنه لم يعمد إلى القوة وإنما عمد إلى السياسة فعمل على استمالة جند العقيل وظل وراهم حتى أفتنهم بأمانه لم .

(١) Heude: Op. Cit. P. ١٦٤ — ١٦٥

(٢) جودت : ج ١١ : ٢٧ ، المزوى : ج ٦ : ص ٢٤٠ .

واضطرب إلى أن يوافق على خروجهم من بغداد بأسلحتهم (٢٤ فبراير ١٨١٧م)
وفي الليلة نفسها دبر سيد عليوى مصرع سعيد (١) :

مصرع سعيد :

وفي اليوم نفسه الذى دخل فيه داود باشا المدينة باحتفال مهيب
اجتمعت بعض الخادماوات والأتباع ومن أشرف على تربية سعيد ، ووقفوا
جميعاً مع النساء اللاتي وقفن يشهدن الموكب على جانبي الطريق ، وعندما
اقترب ركب الوزير منهن انطلقت من حناجرهن صيحات مدوية تشق
النفوس مبتهلات إلى السيد الجديد متضرعات بما بينه وبين صهره من صلة
نسب قوية سائلات الرحمة بشباب سعيد الغض ليعفو الوزير عما ارتكبه ،
وكان لهذه التوسلات أثرها في قلوب للنظارة فقط ، أما قلوب الحكام
فلم تتأثر ، وما كان هذا العويل لينقذ سعيداً من بين يدي سيد عليوى أغا
الإنكشارية الجديد وعدو سعيد اللدود والذي كان قد تلقى أمر إعدام سعيد
منذ بضعة أيام .

فذهب سيد عليوى بعد غروب الشمس إلى الخناح الذى فيه سعيد
مع أمه ، ثم طرق الباب طرقة خفيفة وكان سعيد في ذلك الوقت نائماً
تضنى عليه أمه كل ما عندها من حنو وإشفاق وكانت تنطلق من بين جنبه
تنهدات عميقة تعكس ما يضطرب في صدره من صراع وخوف شديدين
فلما قرعت أذنه طرقات سيد عليوى ذعر أعنف ذعر لشعوره أن جلاديه
على الأبواب . وسألت إحدى الخادماوات عن يكون الطارق فكذب عليها
سيد عليوى إذ أخبرها بأنه إنما أتى بأخبار سارة ثم اندفع أربعة أو خمسة
رجال أشداء دفعة واحدة وانطلقوا نحو سعيد وفي غضبون تلك المحاورة كانت
الأم تطمئن ابنها إلى أن داود لن يقدم على قتله . فهو كان عبداً لأبيه
اشتراه بدراهمه وكان موضع لإكرامه وفضله ولكن قلب سعيد الواجف

ماكان ليؤمن بهذا القول . وقال لأنه يعرف من أى نوع يكون ذلك الحاسد الخائن . وسرعان ما انقض الرجال الأشداء عليه وانزعوه من بين يدى أمه وقطعوا رأسه ثم غطوا الجثة بحصيرة قديمة بينما أمه قد أذهلتها المفاجأة ، وفجأة اصطدمت قدمها بالحصيرة فمرت نفسها على جثة ابنها بلا رأس فكانت خاتمة الصدمات .

قصة مؤثرة رواها لنا صاحب «بغداد كوله من» ابن كيخية داود . وهو يرى أن ما أصاب سعيداً كان خارجاً عن إرادة داود ، وإنما كان نتيجة حتمية لأسباب مختلفة . ولكنه يلوم داود على قتل سعيد، وأن هذا القتل كان بعلمه، وكان عليه أن يقف من ابن سلفه موقف المدافع عنه . ولكنه لم يفعل ويأسف كل الأسف لأن عقلية كعقلية داود لم تنتبه لهذه الدوافع السامية ، ولم تتغلب عليه لذة الغزو ، فانتزع ابن رب نعمته من بين ذراعى أمه وجعل اسم هذا التمس في صفحات التاريخ الخالدة (١) .

ويؤيد هود Heude «صاحب بغداد كوله» من حيث مسئولية داود في مقتل سعيد (٢) وعلى هذا الوتر يضرب ريتش (٣) على أن صاحب دوحه الوزراء يقول إن محمد آغا معتمد خالد أفندي هو الذى قتل سعيداً (٤) ويؤيده فيما يقول صاحب مطالع السعود ويضيف إلى ذلك « أن الوزير نفذ أوامر الدولة بقتل من أمروا بقتله فمن قتل بعد استيلاء داود باشا «سعيد باشا» الوزير السابق وكان قتله على غير مراد الوزير داود باشا» (٥) ولكن كيف يستقيم هذا مع اعتراف سيد عليوى بنفسه لهود Heude بأنه قتل سعيداً قبل أن ترد أوامر إعدامه (٦) وأغلب الظن أن

(١) بغداد كوله من : ٣٤ - ٣٦ .

(٢) Heude: Op. Cit. P. 172

(٣) Constance Alexander: Bagdad Bygone Days, London, 1928.

(٤) النزاري : ج ٦ : ٢٤١ وانظر دوحه الوزراء : ٢٧٦ .

(٥) مختصر مطالع السعود : طبعه بمبى : ٤٧ .

(٦) Heude: Op. Cit. P. 173 — 174

سعيداً قتل قبل الوقت الذى حدد لقتله . فلقد أنقذ الوزير الجديد رجلاً غريباً من الإعدام ، ونفذ حكم الإعدام فى آخرين ، ومعنى هذا أنه كان قادراً على أن يوقف التنفيذ ، ولكنه لم يفعل إما لأن سيد عليوى أسرع إلى إنهاء حياة سعيد ، وإما لأن داود غض الطرف عما كان يدبر لسعيد فربما عاد وأصبح خطراً عليه فى المستقبل ، على أن الأمر المتفق عليه أن داود لم يتدخل لإنقاذ صهره .

ولا شك أن عزل داود من منصب الكتخدائية فى مطلع حكم سعيد كان من أسباب ابتعاد المخلصين عن سعيد ، فوقعت أمور البلاد بين أيدي قادة غير مجربين ، ولما كانت جيوش المنتفق هى التى مهدت له الوصول إلى الباشوية فقد منح شيخ المنتفق إعفاءات واسعة وانصرف هو إلى اللهو واللعب حتى بدا للناس أن عهد الأمين قد عاد إلى بغداد . فقد كانت نفقاته باهظة وإنعاماته وهداياه كثيرة ، واشتهر عنه هذا الكرم العظيم وأحبه الناس لذلك ولم يكن حبه لهم له قدرته على إدارة أمور البلاد . ومهما بلغ الحاكم من كرم فإن كرمه لا يمكن أن يسد حاجة الطامعين ، وما كان ليكفيه شر الأزمات السياسية التى تتعرض لها البلاد والتى تحتاج إلى عقلية فطنة سياسية إلى جانب المال والجند . ولذلك لما واجه مشكلة الزوار الإيرانيين لم يجد سوى داود ليكلفه بإنقاذ صمعة البلاد . ولما خرج عليه داود ونفذ ما فى خزينته أصبح طالباً للأموال بدلاً من منقحها . فكرهه الناس وسلقوه باللسنة حداد . وألقوا عليه مسئولية ما حدث للعراق من كوارث وفارقه من كان يدين له بالنعم والرفاهية^(١) .

ولقد ساعدت حياته الشخصية على تدميره ، فإن شخصاً عرف عنه الانهماك فى الملذات لا شك يتهم بقصور النظر وإهمال الرعية ، فقد كان عبد الله ياشا (١٧٧٦-١٧٧٨ م) زير نساء ومن أفسق باشوات العراق^(٢)

(١) Ibid, 170 .

(٢) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٧ .

ولكنه تمكن - بعقلية السياسية - من أن يبقّى في دست الحكم حتى توفاه الله ، ولذلك فليست المسألة مسألة أخلاق فقط ، وإنما هي أيضاً تدبير أمور الدولة أولاً وقبل كل شيء .

ولعبت ظروف العراق دوراً كبيراً في نهايته التبعة ، فقد كانت أمور العراق تدار في ذلك الوقت من الأستانة بيد خالد أفندى . وكان نفوذ اليهود قوياً عليه . وكان نجم خالد في تألق فكانت إهانة سعيد لخالد برفض رغباته خطأ سياسياً وقع فيه سعيد وكانت سبباً في انهياره . وكانت سياسة خالد أفندى ترمى إلى إبقاء الماليك في حكم بغداد على أن يحافظوا على العراق في نطاق الدولة العثمانية وأن يدفعوا للباب العالي الأموال المقررة ، وأن يكسب باشا بغداد تأييد الباب العالي بالهدايا والأموال . ولم يكن سعيد قد كسب أحداً من رجال الباب العالي ، ولذلك لم يكن هناك من يدافع عنه ؛ بل كان هناك من يضيف إلى الاتهام اتهامات .

وكانت أمور العراق تقضى بأن يتولى أمر بغداد حاكم قوى قادر على رد عدوان الفرس المنتظر ، فلقد أفسد سعيد محاولة مبعوث السلطان لتصفية العلاقات بين طهران والأستانة ، وهو في الوقت نفسه أضعف من أن يقاوم هجوماً فارسياً . وأخيراً كانت سياسة سعيد إزاء الماليك سلسلة من الأخطاء فلقد أبعدهم عن الحكم ، فكانوا عوناً قوياً لداود ضده ، وكان ميله للعرب من العوامل التي أحفظت قلوب الكرد عليه .

ولما كانت قوات المنتفق هي القوة الأساسية التي اعتمد عليها فإنها بعد انسحابها تركت فراغاً لم يستطع سعيد أن يشغله مطلقاً ، ثم ضرب هو نفسه آخر معول في حكمه بأن أثار على نفسه أهل بغداد لقسوته في جمع الأموال وفشله في تموين المدينة .

على أن حركة الإعدام لم تقف عند حد مصرع سعيد . فقد كان فرمان السلطان يقضى بإعدام كل من حمادى بن أبى عقيل - ساعد سعيد الأيمن - وعبد الله أغا ودرويش أغا من كيخيات سعيد ونعمان الباجه جي

من كبار تجار بغداد وعمر آغا الملى ، وقاسم الشاوى ومحمد سعيد الدفترى . كان حمادى قد أصيب واستسلم ، وكان داود ناقماً عليه ، وكان فى الوقت نفسه فى حاجة إلى الأموال ، لذلك أراد أن يحصل منه على أمواله وما خبأه من أموال الحكومة . ولكنه أبى ورفض أن يبدل بأى شيء إما لأنه فقد كل شيء ، أو لأنه كان حريصاً على ألا تقع أمواله فى يد خصمه . وأغلب الظن أنه فقد أمواله خلال المعركة . ولقد اشتد تعذيب رجال داود له ، وعبثاً حاولوا أن يستخلصوا منه شيئاً حتى مات (١) . على أن داود لم يكن مسرفاً فى تنفيذ أوامر الإعدام ، بل كان ينظر إلى ماضى المحكوم عليه أولاً ويقدر النتائج المترتبة على إعدامه وأثر ذلك على رأى العام وعلاقته بمصالح الولاية وشئون الحكم . ولذلك طلب من السلطان أن يعفو عن نعمان الباجه جى حتى لا تسوء العلاقات بين الحكومة والتجار عصب الحياة فى بغداد .

كما طلب العفو عن كل من درويش آغا وعبد الله آغا . فقد كان الأول لاجئاً إلى المقيمة البريطانية خوفاً من بطش سعيد بعد عزله من منصب الكتخدائية ، وكان الثانى قد أرغم على أن يتولى منصب الكتخدائية فلا حاجة إذن لإعدامهما . فنالا عفو السلطان أيضاً . أما عمر آغا ومحمد سعيد الدفترى ، وأحد العلماء ، فقد أعدموا لأنهم وقفوا إلى جانب سعيد باشا حتى النهاية (٢) .

ثورات مبكرة ضد داود :

أما قاسم الشاوى سليل تلك الأسرة العربية العريقة التى كان من رجالها من طالب بالحكم ومن قام بالسفارات بين بغداد وكرمنشاه ونجد ، فقد فر إلى الخزاغل (٣) وظل نائراً على الوزير ويؤيد الخارجين عليه .

(١) الزواوى : تاريخ العراق ج ٦ : ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) جودت ج ١١ : ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) جودت ج ١١ : ٣١ . انظر الفصل الثالث .

وأبى إلا أن يكون له ذلك النفوذ القوى الذى تمتع به فى عهد سعيد (١) ، وأن يشترك العرب فى الحكم وهذا ما كان أيام سعيد ، ولكن داود كان يرى فى اشتراك العرب فى الحكم مضیعة للعراق ، وقضاء على وحدة البلاد لما بین العشائر العربية من ضغائن لا تهدأ ولأن العرب لا یحذقون أساليب الحكم وطرقه (٢) .

لقد كان الصراع بین داود وقاسم صراعاً بین فکرتین ویتمثل فى هذا الصراع روح العصبية العربية ذات الآمال التى تسمو فوق التخلص من ضريبة أو تكلیف ، هذا من جانب قاسم ، كما یتمثل فيه النظرة السياسية البعيدة الهادفة إلى توحيد البلاد تحت يد واحدة وعقلية واحدة دربت على أصول السياسة وفنون الحرب . وهذا من جانب داود باشا . وهو فى الوقت نفسه صراع بین العصبية المملوكية - التى یبغضها العرب - والعصبية العربية .

ولم یکن أمام داود سوى أن یستخدم الأساليب التقليدية القديمة للقضاء على قاسم . فأُسند مشیخة العبيد إلى عبد الله بك الشاوى (٣) وبذلك حرّمه من تأييد عشيرة العبيد القوية . وهى عشيرته . كما أن داود بذلك كان یضرب العبيد بالعبيد . ومع ذلك اقتصحت آمال قاسم الشاوى عندما اندلعت الحرب بین داود ومحمود باشا السلجانية وعند ما تطورت هذه الحرب سنة ١٨١٨م إلى حرب مع إيران استمرت من ١٨١٨ إلى ١٨٢٣م . وكانت الفرصة قد اتسعت أمام قاسم عند ما فر صادق بك - أخو سعيد باشا الوالى السابق ، منتهزاً فرصة تلك الحرب - إلى شفلح الشلال شیخ زید . فأُسرع قاسم إلى الانضمام إلى صادق .

وكان هدف صادق من وراء ذلك الوصول إلى منصب الباشوية .

(١) مباحث عراقية : ج ١ ص ٢٥١ وكان یشتغل منصب باب العرب فى عهد سعيد .

(٢) مختصر مطالع السعود .

(٣) المزاولی : تاریخ العراق ج ٩ : ٢٤٦ .

ولا شك أن فرار صادق بك - وهو الذي كان من أصفياء داود باشا - يدل دلالة واضحة على أن العصر كان عصراً مليئاً بالشكوك والمؤامرات والخيانات دون مراعاة للمصلحة العامة . وكان الأجدر بصديق - وهو الذي عاش في بغداد ومرت به أزمات مشابهة لتلك - ألا يقحم نفسه في مشكلة المطالبة بحكم العراق هكذا بسرعة . ولم يكده صهره يستقر فيه بعد ، ولكنها المصلحة الشخصية . والمثل قد ضربه داود من قبل في استغلال أزمة خارجية للمطالبة بالحكم . والعصر هو الذي أملى هذه الظروف على كل من داود وصديق ، والفرق بين الاثنين أن الأول تنادى بالخطر الإيراني في الخطوة الأولى ليتولى الحكم على أساس سليم فقد تحالف داود مع محمود الباباني بعد أن تخلى الأخير عن حلفائه الإيرانيين^(١) . بينما حركة صادق كانت مجرد التجاء إلى عشيرة عربية ليسير على رأسها إلى سراي بغداد دون أن يتخذ أى موقف إيجابى من الخطر الإيراني . وعلى أى حال فقد انتصرت قوات داود على قاسم وصديق وحلفائهما من الخزاعل وزبيد ولكنهما فرا إلى عفك وجليحة^(٢) فهزمتها قوات الوزير هناك أيضاً ففر صادق إلى قبيلة كعب^(٣) ، وهى قبيلة شيعية ممالئة لإيران حينذاك . وبذلك يتضح أنه كان في ثورته على الوزير بعيداً عن التفكير في المصلحة العامة للبلاد ، وبعد أن فقد الأمل في أن يصل إلى غرضه آثر أن يطلب من الوزير العفو فناله وعاش هادئاً معززاً في بغداد حتى جاءت أزمة على رضا وهجومه على بغداد في ١٨٣١م فعاد إلى المسرح السياسى .

أما قاسم فقد فر في اتجاه الشمال وسار نحو العشائر اليزيدية في جبل سنجنار^(٤) ، ولكن الوزير انتصر على اليزيديين وعلى قاسم^(٥) . وعلى

(١) جهودت : ١١ : ٣٠ . (٢) من عشائر المنتفق .

(٣) جهودت : ١١ : ٣٣ .

(٤) سنجل عن العشائر اليزيدية في الفصل الثالث .

(٥) النزاع : تاريخ العراق : ٦٥ : ٢٦٢ .

أى حال انتهت محاولات قاسم بالفشل ، ولم يستطع أن يحقق الهدف الذى كان يسعى إليه زعماء العبيد من آل الشاوى منذ أيام سليمان الكبير (١٧٨٠م - ١٨٠٢م) وبقي بذلك الحكم خالصاً للمماليك .

ومع ذلك كانت الثورات من أجل الحكم والمناصب العليا لا تهدأ ولم تكن مقصورة على قاسم وصادق ، بل قام الثوار أيضاً من داخل الجهاز الحكومى المملوكى نفسه ، ذلك الجهاز الذى كان داود يعتمد عليه ويسعى إلى تقويته . وكانت أخطر المؤامرات والثورات التى دبرت ضد داود تلك التى دبرها سيد عليوى سنة ١٨١٨م وثورة محمد أغا كيكيا داود حتى سنة ١٢٣٦هـ (١٨٢٠م) .

كان بطل المؤامرات الأولى سيد عليوى أغا الإنكشارية ، وكان يشغل المنصب نفسه فى عهد سعيد باشا^(١) . ولكن سيد عليوى كان واسع الآمال وفى الوقت نفسه كان سليل الطائفة فاستاء منه سعيد باشا واشتد غضبه عليه حتى عزم على قتله . فلجأ سيد عليوى إلى القنصل الإنجليزى ريتش Rich ، وحصل على تخفيف حكم الإعدام إلى السجن فى الوكالة الإنجليزية فى البصرة^(٢) . ثم أطلق سراحه بعد ذلك ، ورحل من البصرة إلى بوشهر ، ومنها ذهب إلى كرمشاه ثم إلى السليمانية عندما علم بثورة داود على سعيد ، وتولى قيادة قوات داود . وكان سيد عليوى يرغب كل الرغبة فى أن يشمت فى سعيد ، وقد جاء اليوم الذى انتظره فقتله على أشجع صورة بن يدى أمه^(٣) ، ويبدو أن الرجل كانت أطعمه واسعة ولكنها كانت تقوم على الرمال ، فلا شك أن سيد عليوى وقد أعاده داود إلى منصبه تطلع إلى الوزارة ورأى أن القوة التى يستطيع أن يعتمد عليها هى كرمشاه على اعتبار أنها أصبحت القوة ذات البأس الأعظم والمهددة باحتلال العراق ولا شك أنه لقي إكراماً من حكومة كرمشاه

(١) انظر الفصل الثانى : ص ٥٤ .

(٢) يعقوب سرکيس : مباحث عراقية : ج ١ : ١٧ - ١٨ .

(٣) انظر ص ٧٧ - ٧٨ من هذا الكتاب .

خلال بقاءه هناك ، ولذلك ظلت علاقاته بالشاهزاده محمد على ميرزا قوية ، وأصبح عين الشاهزاده في حكومة داود ، وكان هذا الاتصال يعني خيانة عظمى في نظر داود الذي كان قد قرأه على التخلص من النفوذ الإيراني منذ أن سعى إلى تولي الحكم ولذلك كان إعدام سيد عليوى أمراً يتفق مع تشريعات القرن العشرين ، ومع ذلك نرى أحد المؤرخين يرجع ذلك إلى «أن الوزير أراد أن يقضى على كل من كان يخشى منه ويتوسم فيه قدرة معارضته ليخلو له الجو» (١) .

أضف إلى هذا أن سيد عليوى كان أمير معروف ريتش Rich وكان ريتش على اتصال بالشاهزاده ، فلا نستبعد مطلقاً أن يكون داود قد خشى من أغا الإنكشارية هذا الذي كان على اتصالات واسعة النطاق تهدد كيانه تهديداً خطيراً .

ولاشك أن داود كان يشعر بأن المؤامرات الإيرانية هي الداء العضال الذي ينخر في عظام العراق ، فعمل على استئصاله ولذلك أسرع بإعدام يحيى خازنداره عندما علم بتآمره مع البابانيين والإيرانيين ضده ولكن لم يلبث أن انهزم محمد أغا - كيخيا داود - سنة ١٢٣٦هـ (١٨٢٠م) في حربه ضد إيران فخشي من نقمة داود عليه فآثر أن يفر إلى المعسكر الإيراني ، فدفعه الإيرانيون إلى المطالبة بالباشوية وأيدوه بقواتهم وهكذا تطور التدخل الإيراني من مجرد ضغط على كردستان إلى نفوذ قوى في تولية باشوات السليمانية إلى التآمر مع كبار رجال حكومة بغداد ثم أخيراً تقف وراء المطالب بوزارة بغداد (محمد أغا كيخيا داود) ولكن توقيع الصلح جعل المطالب بالوزارة يعتمد على القوات العشائرية فنزل إلى الحلة واتخذها مقعلاً ولكن داود هزمه ونكل بالحلة سنة ١٨٢٥ . ففر الناصر إلى حمود الناصر شيخ المتنقي سنة ١٨٢٦م . ولكن التحصن لازمه وهزم حمود (٢) .

(١) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٢٦ .

(٢) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٩٠ ، ٢٩٢ - ٢٩٥ .

وأخذ يتجول في العراق مثيراً القلاقل حتى كان النزاع بين داود والباب العالي فانضم إلى علي باشا رضا^(١) الذي قضى على آمال المماليك أجمعين وعلى آمال الطامعين في الحكم من رجال العراق :

وواضح من هذا العرض أن سياسة داود - في هذه الظروف المنفعمة بالمؤامرات والحيلانات كانت سياسة معتدلة ، وأن الأسلوب الذي كان يتحدث به الكتاب الإنجليز عن داود ووصفه بأنه كان يسيل الدماء وأن عدد ضحاياه بلغ ١٥٠٠ قتيل أسلوب مبالغ فيه جداً ، لاشك أن هذه الصفات بعيدة عن الحقيقة ، وجاءت تلك الصورة بتأثير موقف داود من ريتش Rich وبتأثير الدعاية الإنجليزية التي كانت تشوه داود بسبب طرده ريتش من العراق . ولو فرض أن عدد ضحاياه بلغ هذا الرقم فليس هذا بعجيب في بلد لم تهدأ فيه الثورة في أي عام وكان القتال والمؤامرات أمراً عادياً فيه ^(٢) .

وهكذا كانت أيام داود . ثورات متصلة لا تهدأ ومطالبون بالحكم ومؤامرات إيرانية في طول البلاد وعرضها ومؤامرات في كردستان وثورات عشائرية عربية وحروب خارجية وفتن إنجليزية . كل هذه تجعلنا نؤكد أن داود لم يستطع أن يسيطر على العراق كله خلال مدة حكمه ، ومعنى هذا أن الاضطراب كان العامل الأساسي في إنهاك العراق وعدم تفرغ حكامه لإصلاح أموره . وهو اضطراب غل يد الحاكمين عن إصلاح أمر البلاد كما لم يمكن أهل البلاد من أن يصلوا إلى القيادات العليا .

(١) المصدر السابق : ٣٠٩ تفصيل ثورة حمود على داود في الفصل الثالث .

(٢) انظر ما كتبه هود Heude في هذا الشأن وستعرض للنزاع بين داود وريتش

في الفصل الخامس .

داود وتوحيد العراق

أم العشائر المربية في العراق - سياسة داود إزاء العشائر المربية -
سياسة داود إزاء الشيعة - أم الإمارات والعشائر الكردية -
سياسة داود إزاء الأسرة البابانية - أم الطوائف المسيحية -
سياسة داود إزاء الطوائف المسيحية - سياسة داود إزاء اليهود -
سياسة داود إزاء آل عهـد الخليل في الموصل - سياسة داود إزاء
ماردين .

داود وتوحيد العراق

تمهيد :

امتاز العراق بتقسيمه إلى أقالام خمس ، والاعتراف بحكم العصبية فيه ، ومع ذلك كانت بغداد هي المستولة عن الدفاع عن العراق وعن حل مشكلات الأقالام الخمس - وكلفت بغداد بطرد عشائر المنتفق من البصرة سنة ١٥٤٦م ، ولما هددت الأخطار البصرة دافعت عنها بغداد حتى غفلت عن البصرة قليلا فتولى أمرها أفراسباب مؤسس أسرة حكمت البصرة اثنتين وسبعين سنة ، وكافحت بغداد طويلا حتى طردت هذه الأسرة نهائيا منها سنة ١٦٦٨ م ولكن البصرة لم تلبث أن سقطت مرة أخرى في يد المنتفق^(١) وطردهم منها حسن باشا بغداد (١٧٠٤ - ١٧٢٣ م) وضمت إليه كمتسلمية . فقد كان حسن ينظر إلى العراق على أنه وحدة واحدة تحكم من بغداد . واستطاع أن يضم إليه كردستان وماردين ، إلى جانب البصرة التي كانت تتبعها الأحصاء حيث كان يحكم بنو خالد . ولم يبق من الأقالام الخمس بعيداً عن السيطرة المباشرة لبغداد سوى الموصل ، وظل الحال هكذا حتى عهد داود . على أن داود تولى الحكم في عهد كانت فيه القوضى ضاربة أطنابها . فالعشائر لها كيانها الشبه المستقل عن بغداد ، والسليمانية أصبحت على جانب خطير من القوة ، والموصل ثابتة في وجه محاولات ضمها إلى بغداد ، والبصرة واقعة تحت نفوذ العشائر وتقلص نفوذ متسلمها في داخل المدينة وخارجها ، وماردين كانت تمرقها الحروب الأهلية ، والشيعية الإيرانية والأقليات المسيحية واليهودية تزيد في علق التفكك في العراق . ولذلك عمل داود على أن يعيد قبضته على باشوية

(١) عباس الزاوي : تاريخ العراق : ج ٥ : ص ١٩٣ .

بغداد وعلى الباشويات والمدن التابعة له . (شهرزور - البصرة - ماردين)
وأن يضم الموصل إليه فكان أن خاض صراعاً مريراً شغل معظم سنى حكمه
تقريباً . ولذلك ستنرس كل عامل من عوامل هذا التفكك وإلى أى مدى
كان مؤثراً فى تعميق التفكك . وسنبداً بالعشائر العربية ثم الكردية ثم الأقليات
المسيحية واليهودية والموصل وماردين حتى نتبين من هذا كله الجهود التى
قام بها داود فى سبيل وحدة العراق .

أهم العشائر العربية في العراق

كان العراق منذ العصور القديمة محط أنظار العشائر النازلة في شبه الجزيرة العربية ، وكانت هذه الهجرات نتيجة لأسباب مناخية واقتصادية وسياسية اختلفت من عصر لآخر ، فنجد هجرات عربية قوية إلى العراق قبل الفتح الإسلامي . وفتح التوسع الإسلامي باب الهجرة العربية على مصراعيه ، فنزلت بالعراق أعداد كبيرة من العشائر القحطانية والعدنانية . وملأته بالعصر العربي الحديد الذي تفوق في العدد وفي المكانة على العشائر العربية القديمة .

وهذه العشائر العربية الحديدية كانت تحيا حياة بدوية في أماكنها الأولى تختلف كل الاختلاف عن الحياة الريفية في العراق . ولكن بمرور الزمن لمست بعض القبائل المكاسب الوفيرة والهدوء والطمأنينة في حياة الاستقرار ، فاشتغلت بالزراعة . وهذا التحول من البداوة إلى حياة الريف يتطلب وقتاً غير قصير (١) وبخاصة على أطراف العراق الغربية الصحراوية ، ولذلك كانت في العراق عشائر استقرت واشتغلت بالزراعة مثل زبيد التي نزلت في منطقة الحلة . وهذه العشيرة توزعت إلى عشائر أخرى نتيجة لتكاثر عددها . ولتشتت بعضها بسبب الحروب وطول العهد منذ الفتح الإسلامية ، ولكنها ظلت برغم هذا عشيرة قوية ذات بأس .

وهذه العشيرة تنقسم إلى زبيد الأكبر وزبيد الأصغر ، وهذه الأخيرة تنقسم إلى عشائر ذات أثر كبير في تطور العراق السياسي فمنها عشيرة الدليم (٢)

(١) لا يزال هذا التحول مستمراً حتى الآن .

(٢) عباس الزواوي : عشائر العراق : ج ١ : ١٢٠ - ١٢٥ ، ج ٣ : ٣١ ،

١٠٥ - ١٠٨ .

وهؤلاء يكثرون في منطقة الرمادي^(١) . ومنها أيضاً عشيرة العبيد التي تفرعت من زبيد الأصغر في حوالى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) وكانت زعامة العبيد في آل الشاوى . وكانت العبيد تنزل في المنطقة الواقعة بين بغداد والموصل .

ومن زبيد الأصغر أيضاً عشيرة الجبور وهم بنو عم العبيد : وكانت تسكن منطقة دبالى وبغداد والحلة وينزل بعض عشائرها قرب الموصل وفي الخابور مثل العبيد^(٢) ، ومنهم جبور الوادى في أنحاء الحلة والرمثة^(٣) .

وتنافس عشيرة طى عشيرة زبيد في عراقه القدم فقد كانت طى من العشائر التي هاجرت إلى العراق قبل الفتح الإسلامى وأصبحت لها إمارة قوية في العهد المغولى . ونظراً لقوتها انضم إليها بعض العشائر الأخرى وكانت الرياسة في آل أبى ريشة ؛ وكانت إمارتهم تتركز على عانة . وكانت لآل أبى ريشة سطوة عظيمة عندما فتح السلطان سليمان القانونى العراق سنة ١٥٣٤م (سنة ٩٤١ هـ) وكانت سياسة العثمانيين ترى إلى الاعتراف بالعصبيات المحلية الحاكمة . فتركت إمارة طى تحت حكم آل أبى ريشة^(٤) .

وقد انتشرت هذه العشيرة الضخمة في العراق . وقد تمسك بعضهم بطابعهم البدوى بينما مال بعضهم إلى الاستقرار في الريف . ومن أشهر بطونها عشيرة بنى لام التي هاجرت إلى العراق في القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى)^(٥) وكان اتجاه هذه العشيرة في هجرتها نحو العراق الجنوبي الأوسط ، فامتد سلطانها من القرنة حتى أطراف بغداد وسبقت بهجرتها هذه عشيرة « شمر » من طى أيضاً ، ولكن شمر حينما هاجرت اتجهت نحو الشمال الغربى

(١) على الفرات جنوب مدينة هيت بقليل .

(٢) المزوى : عشائر العراق : ج ٣ : ١٥١ - ١٤٢ ، ٧٧ - ٧٨ .

(٣) مدينة على الفرات قرب الحلة .

(٤) عشائر العراق : ج ٣ : ١٩٢ - ٢٠٢ .

(٥) عشائر العراق : ج ٣ : ٢٠٤ - ٢٢١ ، ١ : ١٧١ - ٢٥٨ .

للعراق حيث كانت إمارة طى وعشائر زبيد^(١) وقد كانت أقوى هجرة لها في القرن السابع عشر الميلادي عندما انتشرت في المنطقة الواقعة بين القرات وتدمر وقطعت المواصلات بين بغداد ودمشق ، ثم انحدرت إلى وادي القرات وأصبحت المدن خاضعة لها بدل خضوعها للسلطان . وانتصرت شمر على الموالي^(٢) ولكن تحركات « عنزة » قلبت الأوضاع وبدأت الدائرة تدور على شمر ، فقد انضم الموالي إلى عنزة ضد شمر ، فاضطرت هذه إلى أن تترك الصحراء السورية لعنزة وتذهب هي إلى مراعى العراق الخصبه فأخضعت عشيرة طى بعد أن شنت هجمات كثيرة بلغ بعضها الموصل وبغداد والحدود الإيرانية دون أن يقوم الباب العالي بمجهود يذكر^(٣) .

ولم تزام شمر عشيرة طى فحسب ، بل زاحمت أيضاً بعض العشائر الأخرى التي سبقها وحاربها في أرزاقها ، ولذلك احتدم ذلك النزاع الذي لم ينقطع بين العبيد وشمر^(٤) فكان هذا النزاع من العوامل التي منحت باشوات بغداد فرصة ضرب شمر بالعبيد ، والعبيد بشمر^(٥) .

وبينما كانت عشائر طى ومن بعدها عشائر شمر تسود شمال العراق كانت عشائر المنتفق تسود أقصى جنوبه حيث كانت تقطن ثلاث عشائر كبيرة متجاورة متحاربة هي : بنو مالك وبنو سعيد والأجود . فقد اشتد الصراع فيما بينها حتى لمست القيمة العظيمة لتوحيد قيادتها . وكانت تعيش بينها أسرة آل شبيب الثرية الشريفة الأصل ، فاتفقت العشائر الثلاث على أن تحقن الدماء وأن توحد الرياسة في آل شبيب . وكان المعتاد في العراق أن تسند إلى الشرفاء

(١) الزواوى : تاريخ العراق : ج ٤ : ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) الموالي : عشيرة من عشائر العراق .

(٣) A.Blunt: Bedouin Tribes of the Euphrates, London, 1879. vol. II, P 177 — 180.

(٤) وقد استمر المداخلة بين شمر والعبيد خلال العصر المملوكى عنيقاً وامتد هذا النزاع إلى القرن العشرين . (انظر الزواوى : عشائر العراق : ج ١ : ٢٨٠) .

(٥) انظر الفصل الثاني : ص ٥٥ .

أمور الصلح وإصلاح ذات البين ، وهكذا اتفقت هذه القبائل الثلاث وأطلق عليها اسم المتفق^(١) .

ولم تكن المتفق مقصورة على هذه العشائر الثلاث فقد قدرت بعض العشائر الأخرى قيمة التكتل والقيادة الموحدة ، أو قدرت قوة طغيان عشائر المتفق ، فدخلت تحت لوائها ، وأصبحت هذه العشائر المتكتلة تضم العدنانية والقحطانية على السواء . وكانت بعض العشائر قد انشطرت ، فشطرت داخل في المتفق ، وشطر بقى على حاله^(٢) ، وكان دخول قبائل أخرى في عشائر المتفق من عوامل قوتها حتى استطاعت أن تستولى على البصرة غير مرة . وقد كانت البصرة في يدها عندما دخل السلطان سليمان بغداد سنة ١٥٣٤ م^(٣) .

ونظراً لأن هذه العشائر المنتفعية كانت قد اتخذت من المنطقة الواقعة غربي البصرة مجالاً لمراعيا وحركاتها كانت تطمع دائماً في البصرة وفي السيطرة على المنطقة الواقعة بينها وبين السماوة . ولذلك كانت تصطلم أو تتحالف مع عشيرة الخزاعل^(٤) التي كانت تنزل منطقة السماوة^(٥) .

وكانت تصطلم أيضاً بعشيرة كعب^(٦) عدوتها اللدود الطامعة كذلك

(١) سياحتنامه حدود : ص ٥٥ .

أصل الكلمة متفق حرقت إلى متفق ثم إلى متفك .

وينكر عباس الزاوي هذا الرأي ويقول إن اسم كلمة المتفق سابقة على التألف بين عشائر المتفق وإنها مأخوذة من المتفق بمعنى من يدخل التفق وأصله اسم جدم المتفق . انظر سياحتنامه حدود : ٥٥ ، وعباس الزاوي : عشائر العراق : ج ٤ : ٤ - ١٦ .

(٢) سياحتنامه حدود : ٥٥ .

(٣) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٤ : ٤٩ .

(٤) عشيرة من بني لام من طي ، وعشيرة الخزاعل قديمة ترجع إلى القرن الثامن الهجري وربما قبل ذلك .

(٥) الزاوي : عشائر العراق : ج ٣ : ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٦) عشيرة من ربيعة هاجرت إلى العراق منذ المصور الإسلامية الأولى وقد فصل الحديث عنها في سياحتنامه حدود ٣١ - ٣٣ .

في البصرة ، وقد استمر هذا الصراع قوياً خلال القرنين الأولين من الحكم العثماني للعراق . وكانت عشيرة كعب قد استطاعت هي الأخرى أن تكون لنفسها إمارة قوية ترتكز على الحوزة منذ القرن السادس عشر ، وكانت شيعية المذهب وأصبحت أداة في يد حكومة إيران للاستيلاء على البصرة . وكذلك كان الحال بالنسبة للخزاعل الشيعية ، ولذلك كانت كعب والخزاعل تتعاونان مع الغزاة الإيرانيين للعراق^(١) ، بينما كانت عشيرة المنتفق في الجنوب نداءً قوياً لعشائر كعب وقوة من القوى التي استخدمها العثمانيون لصد عدوان إيران وكعب^(٢) . على أن الدافع المذهبي لم يكن وحده السبب في تمرد العشائر على حكومة بغداد وانضمامها لإيران ، فقد كانت العشائر تعمل دائماً على التخلص من سيطرة الحكومات عليها والتهرب من دفع الأموال ، وكثيراً ما تعتدي عشيرة على أخرى فتثير فتنة تضطر الباشا إلى أن يتدخل لإخمادها وتأييد العشيرة المعتدية . ولذلك ملأت تمردات شمر والمنتفق تاريخ الحكم العثماني في العراق . وكان من الطبيعي أن تتأجج ثورات العشائر بصورة مروعة عندما شعرت هذه العشائر بضعف حكام العراق وبضعف القوة العثمانية الضاربة في النصف الثاني من القرن السابع عشر . ولذلك واجه حسن باشا وخلفاؤه^(٣) تمردات عشائرية خطيرة ، فكان صراعاً دائماً مع بني لام والخزاعل وشمر والمنتفق وكانت لا تسمح له الظروف إلا بأن يضرب العرب بالعرب ، والعرب بالكرد ، بدون أن يضع حلاً دائماً للمشكلة العشائرية وبدون أن ينظر في تنظيم حركات الهجرة العشائرية في داخل العراق نفسه أو للهجرات الوافدة باستمرار على العراق . وكل ما فعلوه استخدام منصب « باب العرب » كوسيط للتفاهم.

(١) هذا واضح خلال النزور الإيراني للعراق في أوائل القرن السابع عشر وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر وفي الثلث الأخير من القرن الثامن عشر أيضاً . انظر الزاوي تاريخ العراق الجزمان الرابع والخامس .

(٢) فقد كانت مقاومة المنتفق عنيفة لجيش الاحتلال الإيراني في البصرة بين ١٧٧٦ و

١٧٧٩ م . انظر مختصر مطالع السعود : طبعة بجي : ص ٦ .

(٣) حكم من ١٧٠٤ - ١٧٢٣ م . انظر قائمة البشوات ملحق رقم (١) .

بن الحكومة ، العشائر العراقية وكان هذا المنصب يوسد إلى أحد شيوخ العبيد حلفاء الوزير أحياناً^(١) .

والواقع أن العيب ليس في أسلوب علاج المشكلة العشائرية وحده فإن تكوين العشيرة وأسلوب حياتها وتقاليدها العربية كانت من العوامل القوية التي حالت دون أن توضع سياسة تؤدي إلى هدوء هذه العشائر وإلى حملها على احترام قانون الدولة ونظامها ، ولذلك لم يشعر أفراد أية عشيرة منذ عصور طويلة بضرورة الخضوع لتنظيم سيامي أو إداري من خارج القبيلة فتطور في نفوسهم ولاء عظيم نحو القبيلة ، ولهذا كانت القبائل دائماً خطراً يهدد الدولة ويعرض الأمن الداخلي إلى كثير من القلق والاضطراب^(٢) وكان من طبائع العرب « حاية اللاجئ » (الدخالة) فمن يلجأ إلى عشيرة دافعت عنه حتى لو كان على خطأ ، وكان ذلك يؤدي إلى حروب دموية بين بعض العشائر والبعض الآخر ، وبين العشائر والحكومة ، كما كان حب الغزو من طبائعهم . وكبح أشعلت الدخالة وحب الغزو من حروب بين عشيرة وأخرى ، أو بين العشائر والحكومة ، بل إن سياسة الباشوات العثمانيين التي أدت إلى منح الأراضي بطريق الالتزام للعشائر تتحمل قسطاً كبيراً من مسئولية التفاف العشيرة حول شيخها وتقوية ارتباطها بنظامها القبلي بدلا من أن ترتبط بالحكومة القائمة . كل هذا أدى إلى أن يتفكك العراق إلى وحدات عشيرية . تعتد كل واحدة منها بنفسها وتحاول أن تسيطر على سواها . ولما جاء دور المماليك كان هدفهم الأول أن يخضعوا هذه العشائر كلها لسلطان الحكومة واحترام قوانينها حتى يستقر النظام ويتوفر الأمن . ولكن حال دون تحقيق هذا الهدف الأمور التي سبق أن وضحتها^(٣) و

(١) الزاوي : عشائر العراق : ج ٣ : ١٥٩ .

(٢) عبد الجليل الظاهر - البدو والعشائر في البلاد العربية . محاضرات ألقاها بمعهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٥٤ : ص ٣٤ .

(٣) وهذه الأسباب هي : تكرار الغزو الإيراني ، استمرار الهجرة إلى العراق ، والعداء المستحكم بين العشائر .

ولقد استشرت في العراق فن وتمردات واضطرابات على نطاق واسع كنتيجة لحروب نادر شاه في العراق وللاضطرابات التي صاحبت تولية سليمان باشا أبي ليلة على العراق . وبرغم مجهودات سليمان أبي ليلة الضمخمة التي بذلها لإعادة قبضة الحكومة على العشائر كان نصيبها أن ضاعت سدى بسبب غزوة كريم الزندي للعراق^(١) فكان على سليمان باشا الكبير أن يبتدئ من جديد بعلاج المشكلة بالأسلوب التقليدي نفسه ، وكان من نتيجة مجهوداته أن فقدت هذه العشائر قدرتها على المطالبة بالباشوية أو الاشتراك في الحكم^(٢) . ولكن لم يكد يطمئن سليمان الكبير على إقرار النظام والأمن حتى فوجئ بعاصفة هبت من الجزيرة العربية على العراق وقذفت بعشيرتي شمر والحربا والصفير إلى العراق . فقد أبت شمر الحربا أن تخضع للسيف الوهابي وامتشتت الحسام في وجه آل سعود ، فدارت عليها الدائرة واضطرت إلى الهجرة إلى العراق في العقد الأخير من القرن الثامن عشر ونزلت في شمال غرب العراق ولقيت ترحيباً من القبائل الشمرية التي سبقها ، كما لقيت ترحيباً من سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ - ١٨٠٢ م) إذ كانت خطته ترمي إلى جمع عدد كبير من العشائر المعادية للحركة الوهابية ليضرب بها السعوديين^(٣) . لقد حصل الباشا على قوة عشائرية قوية ليغزو بها نجداً ، وتكاتف العشائر العراقية الشمرية والعبدية والمتنفقة المعادية للحركة الوهابية على مقاومة هذه الحركة تحت قيادة ثوبني شيخ المتفق . ومع هذا كان العداء بين بعض العشائر والبعض الآخر يسير جنباً إلى جنب مع هذه الاتجاهات السياسية التي كانت تهدف إلى توحيد القيادة العشائرية لمواجهة خطر خارجي ، وهذا شأن جميع العشائر . فلا غرابة إذن في أن نجد بين شمر والعبيد عداء مستحكماً برغم ذلك التكاتف .

وبعد هجرة شمر الحربا بسنوات قليلة هاجرت الصفير إلى العراق سنة

(١) انظر قائمة شاعلت إيران في الملحق رقم (٢) .

(٢) انظر الفصل الأول .

(٣) عباس الزاوي : عشائر العراق : ج ١ : ١٣٧ - ١٤٥ .

١٨٠٤ فارة ، مثل عدوتها شمر الجربا من وجه زعماء الحركة الوهابية . وعشيرة الضفير هذه من عنزة ، وعنزة من أكبر عشائر شبه الجزيرة العربية . وكانت الضفير نفسها قوية الشكيمة ، وحركاتها صيفاً وشتاء طلباً للمرعى كانت سبباً في الاصطدام المستمر مع شمر الجربا . ولم يلبث الصراع أن اشتد بين الجربا والضفير ، وخشيت حكومة بغداد نتائج تلك الحروب ، إذ أن انتصار الضفير من شأنه أن يوهن نفوذ الباشا . وهذا ما وقع فعلا سنة ١٨٠٩ عندما أخفقت حملة سليمان باشا الصغير وحلفائه الشمرين والعبيدين على الضفير . فهوت مكانة الباشا واستمرأت العشائر العصيان حتى أن حليفته شمر الجربا نفسها تمردت عليه ، فكانت النتيجة أن تفككت قواه وكان ذلك من العوامل التي أدت إلى سقوطه^(١) . وكان انشغال عبد الله باشا (١٨١٠ - ١٨١٣ م) بقتال عبد الرحمن الباباني^(٢) من الأسباب التي أفضت إلى استفحال هذا التمرد وبخاصة حينما وقعت تولية سعيد باشا بواسطة السيف المنتفقي ، ومن هناك كان تمرد العشائر خطيراً في عهد سعيد . فقد تمردت عليه عشائر الخزاعل وزبيد وشمر الجربا والضفير ، وانهزت الفرصة وحاصرت أربعين ألف زائر ليراني ، من بينهم حرم الشاه في كربلاء^(٣) . ولكي ينقذ سعيد الموقف أسند قيادة الحملة ضد المتمردين إلى داود (١٢٢٩ هـ - ١٨١٤ م) .

سياسة داود لإزاء العشائر العربية :

تولى داود المهمة التي أسندت إليه بكل اهتمام ، فعبا القوة الكافية وزحف بها إلى كربلاء ، فخشيت القبائل وفكت الحصار المضروب على الزوار ، وعزل شيخ زبيد ، ونصب مكانه شفلح الشلال وأجبر عشيرة جبور الواوي على التخلي عن مواقعها الحصينة وغنم أموالها واضطر الخزاعل إلى إعلان الخضوع ورأى أن الحكمة تقتضي الصفح عنهم ووقف القتال .

(١) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) راجع الزاوي : عشائر العراق : ج ٣ : ٢٤٥ .

(٣) مختصر مطالع السعد : طبعة بمبي : ٤٤ .

ويبالغ صاحب المطالع في ذبوع صبت داود لما قام به في هذه الحملة الموفقة ويقول إنه إنما ظفر بأعدائه لحسن قيادته ودقة نظام جيشه ، ولجأته قواته - بأمر منه - الأعمال السيئة التي عرفت بها جيوش الولاية منذ أمد طويل^(١) .

حقيقة أنقذ داود سمعة الباشوية كما أنقذها من خطر تدخل إيراني عنيف ، ولكن حملته هذه لا تختلف في بعض نواحيها عن حملات أسلافه التأديبية ضد العشائر المتمردة ، حملات تنتهي بإعلان العشيرة المتمردة الطاعة والولاء للباشا ، ولكن إلى حين . فالعشائر العربية في العراق تنحني للعاصفة مؤقتاً ثم تعود إلى ما كانت عليه ، وتقرع السيف بالسيف ، فلعل بعد الصدام نصراً ، وإن لم ينل فالصحراء والأهوار استحكامات طبيعية يحتشون بها من جيوش الوالي .

ولما تولى داود الباشوية رأى أن العراق يتكون من وحدات عشائرية كبيرة قوية شبه مستقلة عن الحكومة ، بعضها هادئ هادئاً مؤقتاً مثل المنتفق وزبيد وبنى لام والضفير ، وبعضها أعلن الخصومة السافرة للحكومة مثل الخزاعل وتيمم^(٢) والباوية^(٣) والنجادة^(٤) وبنى عمير^(٥) والدليم وبعض عشائر شمر . وكانت بعض العشائر أيضاً قد منحت إعفاءات مالية في مقابل خدمات عسكرية تقدمها للباشا مثل البيات^(٦) وعقيل^(٧) ، فوضع داود سياسته حيال العشائر على الأسس التالية ، وهي :

(١) يقول حنان بن سند « لا تسع لديه رشوة ولا هدية ولا تسع بالنظم في جيشه بل كل واحد من العسكر عارف حده . . وإن اشترى العسكر شيئاً من الأعراب ينقذونهم منه قبل تسلمه بخلاف رؤساء السالك قبله فإنهم كانوا يأخذون من الأعراب والقرى ما يحتاجون إليه بغير ثمن والفصل لم . مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٤٥ .

(٢) من شمر . (٣) من كمب تنزل شرق نهر كارون .

(٤) من اللغافة من عزة . (٥) من زبيد الأصغر .

(٦) عشيرة تركية .

(٧) عشيرة عربية سياتي الكلام عنها في الفصل الثالث .

١ - أن يعمل على استقرار بعض العشائر في أماكن معينة يعطيها لها
لتهدأ حركتها وترتبط بمنطقتها . وبلاستقرار تتطور سريعاً نحو
حياة أكثر تقدماً .

٢ - أن يعيد سيادة الحكومة قوية على العشائر وأن يحملها على احترام
نظام الدولة وحكومتها وعلى أن تسهم في تحقيق الكيان العراقي
الموحد تحت سلطة الباشا .

٣ - أن يقضى على المنازعات والضغائن الشديدة بين العشائر وأن
يقضى كذلك على الغزو الذي يجلب القوضى للبلاد .

٤ - أن يستغل تلك العشائر المكلفة بالخدمة العسكرية (العقيل والبيات)
في تأديب العشائر الأخرى المتمردة .

وقبل أن يضرب بالسيف كان يحذر ثم ينذر ، ولكن العشائر ما كانت
— كما تعودت — لتصيح إلى التحذير والإنذار ، وبخاصة أن بعضها كان حليفاً
لسعيد حتى النهاية مثل الدليم ، وأن بعضها قبل دخالة أعداء داود مثل الخزاعل
التي آوت قاسماً الشاوي ، وقد أثر داود أن يضرب العشائر الصغيرة أولاً
ليتفرغ للعشائر المتمردة القوية فبعد تأديبه للباوية والنجادة وبني عمير^(١) التفت
إلى الدليم وأرسل إليها وكيل كتبخده محمد آغا الذي خرج على رأس حملة قوية
من بغداد في ٢ ذي الحجة ١٢٣٣ هـ (حوالي منتصف أكتوبر ١٨١٧ م)
وكانت مواطن الدليم وعرة يصعب على الجيش اجتيازها ، ويبدو أن داود باشا
شعر بخطورة المعركة وأنه في حاجة إلى نصر مؤزر ليثبت أنه قادر على تنفيذ
وعيده فترهبه القبائل ويستطيع بعد ذلك أن ينفذ سياسته ، ولذلك رقى محمد
آغا إلى منصب الكتبخدانية ، ليشجعه على التفاني في مهمته . ولذلك اقتحم
الكتبخدا المصاعب بحزم وجرأة وضيق على العشيرة المتمردة حتى اضطرت
إلى أن تطلب وساطة عبد الله بك الشاوي — باب العرب — فقبل الوزير

(١) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٤٦ - ٢٤٨ .

الوساطة وتعهدت العشيرة بدفع مبالغ وهدايا وافرة ، فعين الوزير لكل فخذ أغا ليحصل منه ما تعهد به . وفعلت العشيرة الأموال كلها في وقت وجيز^(١) .

وفي الوقت نفسه كان داود مهتماً كل الاهتمام بوضع حد للحروب التي تنشأ بين العشائر ليستتب الأمن ، ولثلاث يقع في أزمة مثل تلك التي وقع فيها سليمان الصغير سنة ١٨٠٩ أصدر الباشا أمراً عاماً وجهه إلى العشائر كافة يقضى بمنع الغزو بين الأعراب وهم مسلمون ، ولكن العشائر ما كانت لتقبل هذا المبدأ الجميل بسهولة . وفي نجد كان السيف هو الذي مهد لأن تقتنع العشائر بهذا المبدأ ، ولذلك كان لا بد من أن يضرب كل عشيرة تخرج على هذا المبدأ ، فلما غزت إحدى عشائر شمر الجربا عشيرة الحديدية^(٢) أرسل الوزير قواته لتضرب المعتدين . ومع ذلك لم تنجح هذه السياسة في العراق ، مثلما نجحت في الجزيرة العربية ، وذلك لأن داود لم يكن متفرغاً للعشائر العربية وحدها ، فإن إيران كانت تدبر وتهاجم ، وكانت قوات الباشا مشغولة في الجبهة الإيرانية الكردية^(٣) ، وفي مقاومة العشائر التي انتهزت الفرصة وتمردت وأعلنت تأييدها لقاسم وصادق المطالب بالباشوية . وقبل هاتين العشيرتين لندخلة قاسم وصادق يدل دلالة واضحة على أن عقلية العشائر لم تكن قد استعدت لأن تدرك الهدف الكبير الذي يجب أن تجالذ في سبيله أمة العراق كلها ، بل ظلت الروح العشائرية هي المسيطرة على أهداف هؤلاء الزعماء حتى ولو كان في ذلك ضرر للحكومة التي يتبعونها . ويجب أن نؤكد هنا أن معظم العشائر التي كانت تؤيد المطالبين بالباشوية لم تكن تقبل على هذا التأييد من أجل الاشتراك في الحكم أو من أجل تحقيق فكرة سامية ترى إلى

(١) المصدر السابق : ص ٢٤٨ .

(٢) مختصر مطالع السعود : طبعه بمبى .

(٣) كان داود منذ بداية حكمه في صراع ضد الإيرانيين والأكراد .

انظر الفصل الرابع .

التعاون في حكم البلاد بل كانت تهدف إلى التخلص من دفع الأموال المقررة عليها أو كسب إعفاءات مالية . ولم يتضح الهدف الخاص بالاشتراك في الحكم إلا في ثورات العبيد والمتفق . أما تمرد زيد على الوزير فكان وفق مبدأ الدخالة ومحاولة من جانبها للتخلص من دفع الأموال . ولما كان فرار صادق إلى زيد وانضمام قاسم الشاوي إليه قد صادفا الوقت الذي بدأت فيه قوات داود ترحف شمالاً لتقاتل محمود الباباني وحلفاءه الإيرانيين فإن داود أسرع إلى شطر جيشه شطرين أحدهما ذهب شمالاً والثاني كان بقيادة الكنخدا ومعه بعض عساكر الأكراد زحف إلى زيد ثم بعث داود في أثره مدداً يتألف من عشائر الديزة في « والشامك » سنة ١٨١٧^(١) .

وفي الوقت نفسه عمل داود على تفكيك قوى شيخ زيد بأن أسند المشيخة إلى أحد المطالبين بها وهو الشيخ علي البندر فجمع هذا جموعه وأعدّها للهجوم على خصمه وأسرع ضباط جيش داود إلى وضع الخطط العسكرية الفنية للوقعة بجيش غريمه . وبفضل هذه التوجيهات انتصرت قوات الشيخ « علي البندر » على قوات الشيخ شفلح الشلال وحلفائه^(٢) ، هذا بينما فر قاسم إلى عفك المتحصنة بأهوارها .

واكتفى داود بانتصاره المؤقت هذا ، نظراً لأن الحروب مع إيران والكرد لا تسمح له بالتفرغ التام للمشكلة العشائرية . وشاعت الظروف أن تزداد المشكلة العشائرية تعقداً .

لم يكد داود ينتهي من تلك الثورات حتى نشبت اضطرابات في منطقة الحلة والحسكة (الديوانية) ، فقد كانت قبيلة الصقور من عزة قد جاءت كمهاجرة (سنة ١٢٣٣ هـ - ١٨١٧ م) ونزلت في غربي المسيب^(٣) وذهب بعض شيوخها لتقديم فروض الولاء ، فأكرمهم الوزير طالباً منهم مراعاة

(١) الغزوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٥٢ الديزة في عشيرة كردية .

(٢) الغزوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٣) مدينة على الفرات بين الحلة والمحمودية .

الحقوق واستتباب الأمن . ولكن هذا كان أمراً غير ممكن التحقيق من جانب قبائل بدوية رحالة . فاضطر الوزير إلى تأديبها ، فأرسل إليها خازنه يحيى ، فالتقى بهم في موقعة انتهت بخذلان جيش الوزير وأصدر داود أوامره بأن يعود يحيى أدراجه^(١) .

وكان لذلك الفشل صدئ بين صفوف العشائر الانتهازية التي ترى في هزيمة هذه ضعفاً طرأ على الوزير فتضيق هيئته بينها . وهذا ما حدث فقد تمردت شمر ، كما تمردت الفتلة^(٢) والدليم وزوبع^(٣) والبوعيسى^(٤) والحميله^(٥) ، وطمعت عفك وجليحة في سلب زوار العتاب المقدسة^(٦) (النجف وكربلاء) وهكذا ماجت القوضى بسبب هزيمة جانب من قوات الوزير أمام عشيرة عربية ، ورد هيبة الوزير إلى قلوب شيوخ العشائر في هذه الظروف لا يتم إلا بضربات قوية لها صداها . فزحفت قوات الوزير بقيادة كتخداه في الليل وفي أقصى سرعة ليفاجئ شمر التي غشها من اللعر ما غشها حينما ظهر الكيخيا فجأة على مقربة منها ، ففرت تاركة أموالها غنيمة باردة لجيش الكيخيا .

كما بعث كتخداه أيضاً إلى الصقور - وهم سبب تلك القوضى الضاربة بجراحها في أنحاء العراق لينتقم منهم وليستعيد هيبة الحكومة كاملة . وكانت الخطوة ترمي إلى تأديب عفك وجليحة أيضاً (١٢٣٤ هـ - ١٨١٨ م) وكانت المهمة كبيرة ، فأعد لها داود ما يكفل القيام بها خير قيام^(٧) وأصدر تعليماته

(١) دوحه الوزراء : ٢٨٨ (عباس الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ص ٢٥٦ - ٧) .

(٢) الفتلة : عشيرة عربية في منطقة الديوانية .

(٣) زوبع : عشيرة عربية من شمر ينزلون منطقة أبي غريب والبوسفية .

(٤) من طي في منطقة الدليم الحالية .

(٥) في منطقة حرقوف .

(٦) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٥٧ - ٩ .

(٧) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٥٧ - ٩ .

إلى كيخياه بأن يتخذ الوسائل الكفيلة بالقبض على الشيوخ المتمردين^(١) .
وقد وصف لنا بورتير Porter معسكر الكيخيا فقال إن قواته لا تتبع
في أية ناحية أساليب القتال الحديثة من أسلحة وخطط واكتفت باستخدام
البنادق ومدفعين تقريباً . وكان بصحبة الكيخيا عبد الله الباباني الذي كان
في استطاعته أن يجمع بعض القوات برغم أنه عزل من منصب باشوية السلجانية
سنة ١٨١٨ م ، كما كانت مع الكيخيا بعض القبائل الموالية للوزير^(٢) .
وبالقرب من مدينة الكفل^(٣) دارت المفاوضات بين الكيخيا وشيوخ
الصقور ، وكان أحد شيوخ العقيل المقربين من داود وسيطاً بين الكيخيا
والشيوخ ، فاستطاع أن يحصل من الكيخيا على وعد بمنح الأمان للشيوخ النافرين
ففتح الكيخيا الأمان لهؤلاء . ولكنه لم يلبث أن نقض عهده عندما أتى الشيوخ
مع الشيخ العقيلي لزيارته . فاعتقلهم الكيخيا وأرسلهم مكبلين في مذلة إلى
بغداد وبرر الكيخيا عمله هذا بأن الوزير أمره بأن يعتقلوا ويرسلوا إليه في
بغداد . وفعل الكيخيا كل هذا دون أن يهتم بصرخات الشيخ العقيلي بعد أن
طعنه في صميم كرامته طعنة نجلاء لأن الكيخيا أظهره كمتآمر معه وهو جدير
من هذه التهمة^(٤) .

وبعد ذلك تابع الجيش زحفه نحو بقية المتمردين وبخاصة جليحة وعفك
فأقامت العساكر جسراً عند الحسكة (الديوانية) وعبرت الفرات من جهة
« الشامية » إلى الجزيرة ، ثم تابعت القوات زحفها نحو القبيلتين اللتين تحصنتا
واستعدتا لمعركة عنيفة مع قوات الكيخيا . فدارت معركة في منتهى الشدة
ظهر خلالها انقسام رؤساء جليحة ، فقسم طلب الأمان فقبل طلبه لإضعاف
جانب الثوار ، وقسم اضطر إلى أن ينسحب إلى أهوار أخرى بعيدة عن
متناول قوات الحكومة^(٥) .

(١) Porter: Op. Cit. II, PP, 376—8.

(٢) Ibid: Vol. II, PP. 294, 302

(٣) مدينة بين الحلة والتجف .

(٤) Porter: Op. Cit. II, P, 376—8. انظر أيضاً مختصر مطالع السمود : ص ٥١ .

(٥) مختصر مطالع السمود : طبعة بمبئي : ص ٥١ ، الزاوي : ج ٦ : ص ٢٦١ .

أما عفاك فلأنها لم تنفكك ، ولكن رأيت أن منازل الجيش مغامرة خاسرة فاحتسب جزء منها بالأهوار واحتسب الجزء الآخر بقلعة شخير ، وكان من الطبيعي أن يفضل الجيش عدم التقدم في الأهوار حتى يستولى على القلعة أولاً فحاصرها في صفر (١٢٣٤ هـ - ١٨١٨ م) وأخذت المدافع تضرب القلعة المحاطة بخندق عميق ففشلت القوات في اقتحامها بسبب انخفاض مستوى الأرض الأمر الذي جعل ضرب المدافع غير فعال فشيدت المتاريس لحماية الجند من نيران المدافعين عن القلعة . ويبدو أن نيران العدو كانت أضعف مما كان يتوقعه ، فاستفاد من ظلمة الليل وشيد الكيخيا تلالاً صناعية أكثر قرباً من القلعة ، وتقدمت المتاريس إلى الأمام ، وأحكمت حلقة الحصار وشدت النكير على القلعة ، واستحر ضرب المدفعية ووضعت خطة لهجوم ليلى خاطف على القلعة تحت وابل من الأمطار ، فلم يستطع المدافعون الصمود ، وفروا إلى الأهوار ، واستولى الجيش على القلعة وعلى ما فيها من غلال وفيرة ، ثم خربوها وعادت القوات إلى قواعدهما ، ونال الكيخيا^(١) محمد أغا - عن جدارة - تقدير ومكافأة داود له لما قام به من مجهودات أنزلت الرعب في قلوب العشائر وأعادت إليها بعض الهدوء ، وأخذت بعض العشائر المتمردة تعود إلى حظيرة الطاعة وتمهدت جليحة والقتلة بأن يدفع كل منهما مبلغ خمسين ألف قرش . وأسند إلى شيخ الخزاعل مهمة جمع هذه الأموال ، وترك معه ثلاثون يرقاً لتحصيل تلك المبالغ ، كذلك ترك للكيخيا بعض القوات مع شيخ الأقرع الذي التزم عشيرته أن تحافظ على سد أم العويل بكل دقة وعناية وبعد هذه الترتيبات عاد الكيخيا في ٥ ربيع الأول ١٢٣٤ هـ - ديسمبر ١٨١٨ م فاحتفى به الوزير وخطب عليه^(٢) .

ولم يكد الكيخيا يعود حتى كلف بالزحف على الدليم تلك العشيرة التي

(١) مختصر مطالع السمود : طبعة بمبئي : ٥١ ، وانظر أيضاً عباس الزاوي تاريخ العراق

٦ : ٢٦١ .

(٢) مختصر مطالع السمود : ص ٥١ ، الزاوي : تاريخ العراق : ٦ : ٢٦٢ .

عردت سنة ١٢٣٣ هـ (سنة ١٨١٨ م) وعادت إلى العصيان سنة ١٢٣٥ هـ (سنة ١٨٢٠ م) وامتنعت عن دفع الميرى وصممت على القتال . وبرغم أن أرض المعركة كانت لصالح القبيلة المتمردة انتصر عليها الكيخيانصر أكبراً وبقي الكيخيا هناك بأمر الوزير عدة أيام حتى ييث بقواته وانتصاراته الرعب في العشائر وبعد ذلك أدب العشائر التي كانت متحالفة مع الدليم ، ثم عاد الكيخيا مرة أخرى إلى بغداد في آخر ربيع الثاني سنة ١٢٣٥ هـ لينال عطف ورعاية الباشا الذي أنعم عليه وزاد في مرتبه^(١) .

ولا شك أن سيطرة داود على العشائر ، بعد تلك العمليات العسكرية الناجحة قد اتسعت وحلقت فوق رعوس العشائر ، وبدأ كأن سياسة العنف مع العشائر بدأت تؤتي أكلها . فقد وقفت بعض العشائر العربية وقفة قوية جريئة إلى جانب الوزير خلال حربه مع إيران مثل^(٢) شمر الحربا بقيادة شيخها صفوق الذي وجه سنة ١٢٣٦ هـ (سنة ١٨٢٠ م) هجمات ناجحة على قوات إيران وعلى قوات محمد أغا كيخيا داود الذي تمرد على الباشا^(٣) ، ولكن بعض العشائر انتهزت فرصة تلك الحرب وتمردت ، مثل عشيرة بني لام التي فر شيخها إلى إيران^(٤) . ومع ذلك نستطيع أن نقول إن العشائر خلال تلك الأزمة الطاحنة التي وقع فيها داود بعد هزيمة كيخياه وخيائنه كانت كفيلة بأن تجعل العراق كالمرجل يغلي ثورة وتمرداً . ولكن لم تقع إلا أمور عادية وذلك يدل على أن تلك السيطرة التي كسبها داود قبيل الحرب الإيرانية هيأت له استمرار سيطرته على العشائر خلال تلك الأزمة وبعدها . فقد كانت قوته قد تضعضعت بعد هذه الحرب وساعت الحالة في مدينة بغداد وجيش الكتخدا الثائر يلتي بعض النجاح هنا وهناك^(٥) . ومع ذلك لم تكن الفوضى عارمة

(١) الزاوي : تاريخ العراق : ٦ : ٢٦٣ : ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) تفصيل الحرب بين داود وإيران في الفصل الرابع .

(٣) الزاوي : تاريخ العراق : ٦ : ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٤) C. Rich: Narrative of a Residence in Koordistan, II, P. 169.

(٥) أحمد الصوفي : الممالك : ١٨٢ - ١٨٣ .

كما لم تكن على تلك الصورة التي كانت تقع فيما مضى^(١) ، ولعل ذلك يرجع أيضاً إلى :

- ١ - هدوء المتفق في تلك الفترة .
 - ب - خشية بعض القبائل من الاحتلال الإيراني البغيض .
 - ج - النزاع بين شمر وعنزة^(٢) .
 - د - ولاء الخزاغل القوي لداود برغم شيعتها .
 - هـ - وقوف شمر الحربا إلى جانب الوزير بكل قوة .
- وكان من الطبيعي أن يكافئ الوزير هذه العشيرة التي أبدت شجاعة وإخلاصاً في قتال لإيران والتي كانت تمثل القوة الهجومية الوحيدة التي تبقت له بعد هزيمته في كردستان (سنة ١٢٣٦ هـ - ١٨٢٠ م) ولذلك أقطع « عانة وما يتبعها من القرى » لصفيق شيخ شمر الحربا^(٣) .
- وكما كافأ الوزير المخلصين له داوى جراح العشائر التي أصابها الحرب بالدمار^(٤) . فقد اهتم داود من جانبه بالعشائر التي منيت بمخاطر فادحة بسبب العدوان الإيراني فأسبغ عليها عطفه ، ومن ذلك أنه رفع عنها رسوم الميرى كما اهتم بتأديب العشائر التي انتهزت الفرصة فنهبت وسلبت^(٥) .
- يبد أن الهدوء الذي كان ينشده داود باستمرار طاعة العشائر العربية له كان عرضة من وقت لآخر للانقطاع بسبب النزاع المستمر بين شمر وعنزة ،

(١) بعد غزوة الشاه عباس الأول للعراق في النصف الأول من القرن السابع عشر وقت سلسلة طويلة من تمردات العشائر لم تبدأ إلا بعد فتح مراد الرابع للعراق . وخلال حروب نادر شاه وبعدها انفجرت الفوضى في العراق ما أدهق أحد باشا وسليمان أبي ليلة في عمليات إخضاعها ، وكذلك عقب غزو كرم خان الزندي عمت الفوضى العراق ما أهلك سليمان الكبير وحلفائه في سبيل إخضاعها بينما لا يواجه داود بعد حروبه ضد إيران فوضى مثل تلك التي ذكرتها .

(٢) Bhunt: Op. Cit II, P. 177 — 180

(٣) مطالع السعود : ٢٦٦ : من الزواوي عشائر : ج ١ : ١٥٣ .

(٤) الزواوي : تاريخ العراق : ٦ - ٢٨٢ .

(٥) الزواوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٨١ - ٢٨٤ .

فقد حدث أن اشتبكت قوات شميرية بقوات عشيرة عنزة فكان النصر في «يوم بصالة» لشمر^(١) فجمعت عنزة جوعها لتثأر ، وعنزة ضخمته العدد ، فهزمت شمر . ورأى داود أن في هزيمة شمر مضیعة لنفوذه فإن شمر كانت صديقة للبasha ، وأدت له خدمات جليلة ، وانتصار عنزة سيجعل لهذه العشيرة الكبيرة العدد سطوة ترهب . ولا شك أن داود خشى أن تقع أزمة خطيرة مثل تلك التي وقع فيها سليمان الصغير سنة ١٨٠٩ وقضت عليه . ولذلك اتبع سياسة حكيمة لعلاج الموقف ، فقد منح شيخ شمر الحربا ثلاثين ألف قرش دفعة واحدة^(٢) ليضمد جراحها ، وليعيد إليها ثقها بنفسها . وبالتالي قدرتها على مواجهة عنزة . ومع ذلك شهدت السنوات الأربع الأخيرة من حكم داود ثورتين : ثورة عنيفة لشمر — وأغلب الظن أن الباب العالي كان مشجعاً لها على استمرارها في الثورة — وثورة عنيفة قام بها شيخ المتفق كان للإنجليز ولمسقط ولكعب دور كبير في استعارها .

فإن شمر الحربا هذه التي أنقذها الوزير من الانهيار بعد هزيمتها أمام عنزة ثارت عليه ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ م) ولم تهدأ شمر وظلت المشكلة حتى سنة ١٨٣٠ صعبة الحل ، في وقت كان فيه داود في حاجة ماسة لأن يعم الهدوء العراق . وأغلب الظن أن هناك علاقة قوية بين تمرد هذه العشيرة على الوزير واحتدام النزاع بين داود والسلطان . فيذكر لنا لايار Layard أن شمر الحربا نالت عطف السلطان ورضاءه^(٣) ، وكان السلطان يستخدم العشائر في الولاية كأداة من أدوات توهين سطوة الوزير وضربه إن هو فكر في التمرد على خليفة المسلمين . ولكي يقضى الوزير على تمرد هذا سير عليها تشكيلاته العسكرية وبخاصة عندما بلغت غاراتها أطراف بغداد (صيف ١٨٣٠ م)^(٤)

(١) مختصر مطالع السمود : طبعة بمبي : ٥١ .

(٢) المزاولي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٣) Layard: Nineveh, I, P. 94

(٤) Groves: Op. Cit. P. 24

ولم يستطع الوزير أن ينال منها شيئاً ولذلك كانت عوناً كبيراً لعمل رضا خلال الصراع بينه وبين داود . وكان لصفوق - شيخ شمر الجربا - دور كبير في هذا الصراع .

وبينما كانت شمر في أقصى الشمال تعيثُ فساداً في تلك النواحي كانت العلاقات بين داود باشا وشيخ المنتفق حود الثامر تزداد توتراً يوماً بعد يوم . حقيقة ظل حود هادئاً منذ أن تولى الوزير الباشوية ، ولعل ذلك لأن الوزير لم يستشره نظراً لمشكلات الوزير المعقدة مع إيران وكردستان . ويدون حوداً ركن إلى السكنية خلال الحرب الإيرانية نظراً لشدة العداء المستحكم أيضاً بين المنتفق وشيعة إيران . وعلى أي حال ما كان لباشا قوى أن يترك هذه العناثر القوية مسيطرة على جزء كبير من جنوب العراق دون أن يعمل على إعادة قبضته عليها . وكانت السيطرة على عناثر المنتفق تتطلب مجهودات كبيرة ، ولذلك آثر داود أن يترك هذه المشكلة حتى تهدأ الثورات في العراق ويصبح متفرغاً للمنتفق ، فإن هذه العناثر على اتصال قوى بسلطان مسقط منذ أيام سليمان الكبير ، وعلاقاتها بكعب قوية . ولذلك فإن تمرداً لها شكل أخطر من تمرد العناثر الأخرى وبخاصة أن ثوبى شيخ المنتفق وسلف محمود الثامر في مشيخة المنتفق كان أعنف نداء لسليمان الكبير ، بل وكان من المطالبين بباشوية العراق . وكانت مشيخة المنتفق هذه أكثر المشيخات استقراراً فقد تولى ثوبى المشيخة بين (١١٩٣ - ١٢١٣ هـ) (١٧٧٩ - ١٧٩٧ م) مع استثناء سنوات قليلة . وحكم حرد الثامر من ١٧٩٧ إلى ١٨٢٥ م . وطول مدة الحكم هذه وقوة عناثر المنتفق تجعلان هذه العناثر كأنها شبه مستقلة عن الحكومة ، وتقربان فيها روح الاعتزاز بوحدة العناثرية . هذا بينما كانت سياسة داود ترمي إلى تقوية قبضة الحكومة على العناثر واستغلال خيرات البلاد إلى أقصى حد ممكن . لذلك كان لابد من أن يصطلم داود بمحمود ، ولكي يحقق الوزير أهدافه بدأ بنشر دعاية مؤداها أنه بسبيل عزل حود ، وهو يرى من وراء ذلك إلى أن يأتي إياه كل طامع في المشيخة ، فيضرب المنتفق بالمنتفق وهو الأسلوب المتبع حتى

ذلك الوقت في إخضاع العشائر المتمردة . وبالفعل خذ عدد من شيوخ المنتفق يذهبون إلى بغداد ليعيشوا في كنف وزير داود ولينالوا منه المناصب .

رد حود على هذه الإجراءات بأن عمل على جمع شمل أعداء الوزير حوله ، فأرسل عدداً من العشائر التابعة له لتأييد ثورة الحلة رشد أزر محمد أغا — كيخيا داود السابق — في قتاله لداود ، ولكن داود انتصر على محمد أغا وعلى حلفائه ، وأخضع الحلة فقر محمد أغا إلى المنتفق^(١) وكان ينتظر أن يسرع داود إلى شن هجوم عام على المنتفق ، ولكنه لم يفعل .

كانت خطة داود — الذي كان فاهماً تماماً لأصول قواعد القتال عند العشائر المنتفقية — هي أنه كلما طالبت المدة زاد التفكك في المنتفق وأنه لا صبر لعشائر عربية على حرب طويلة شاملة منظملة .

وفي الوقت نفسه كان داود يبحث عن الشيخ القوى الذي يستطيع أن ينازل حوداً . ولذلك وضع شيوخ المنتفق الذين أتوا إليه موضع التجربة فوجه شيوخ المنتفق لقتال عفك وقاسم الشاوي المنتجى إليها . وخلال ذلك اكتشف داود عقيل بن محمد بن ثامر حليفاً فأسند إليه مشيخة المنتفق في ١٤ صفر ١٢٤٢ هـ (سبتمبر ١٨٢٦ م) ، وفي الوقت نفسه سير المبراخور سليمان أغا ليضرب عشيرة الأقوع^(٢) في الدغارة^(٣) ليفتح الطريق إلى المنتفق ، ونال المبراخور نصراً مؤزرأ^(٤) .

أعطى الوزير لعقيل بن محمد التعليمات التي تكفل له النجاح فبين له أهمية التمهّل في قتال غريمه ، وأعطاه الأسلحة الكافية وكتب الباشا لتسلم البصرة أن يعلن عزل حود . فرد حود على هذه الترتيبات بأن استنجد بعشيرة كعب وأرسل رسولا خاصاً إلى السيد سعيد سلطان مسقط ليتعاونوا جميعاً على قتال داود واحتلال البصرة . وقد انضمت كعب إلى المنتفق لما كان بين العشيرتين

(١) المزايى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٩٠ .

(٢) من شمر . (٣) شرق النجف .

(٤) عباس المزايى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٩٠ .

من علاقات اقتصادية وسياسية عدائية أحياناً وسلمية أحياناً أخرى . فقد كانت البصرة دائماً محط آمال كعب ، وكانت لذلك في نزاع مع المتنفق . ولكن في عهد داود أصبحت العلاقات ودية بين المتنفق وكعب نظراً لأن داود قوى قبضته على العراق الأمر الذي يضعف أمل كل من المتنفق وكعب في المحافظة على كيانهما ضد نيات داود ، واستنجدنا بسلطان مسقط لما كان بينه وبين داود من عداوة في ذلك الوقت ولما كان له من أطماع في البصرة .

بدأ القتال بهجوم برى قاده فيصل وماجد - ولدا حمود - على البصرة بينما كانت قطع من أسطول مسقط تهاجم المدينة ، وكانت هذه القوات البحرية البرية المهاجمة للبصرة متفوقة على القوات المدافعة عنها برغم أن النجادات أتنها سريعاً من الزبير . فأرضى الوزير قائد الأسطول العثماني بمبلغ من المال فانسحب إلى قواعده^(١) وبقى ماجد و فيصل وحدهما ، ولم نسمع عن تأييد كعب للمتنفق ويثس فيصل من استمرار الحرب . ولكن ماجداً أصر على استمرارها وعلى الاستيلاء على البصرة والانتقام منها . فذهب فيصل إلى أبيه بينما لم يلق ماجد القتال وحده ، فخاض في النهاية معركة خاسرة عاد على أثرها إلى أبيه وأفل نجمه (١٢٤٢ هـ) فلم يلبث حمود أن فر إلى الصحراء بينما تقدم عقيل بن محمد بن ثامر إلى مقر حكومته . وانتهى بذلك مجد حمود . ويقال إنه ذهب إلى بغداد وعاش فيها حتى توفي ١٢٤٧ هـ - ١٨٣١ م^(٢) ، وأذهب خلال الطاعون إلى حلب حيث مات . ولم يبق من أخبار حمود سوى أن أقول إنه كان برغم صراعه العنيف ضد داود وضد غيره ضريراً^(٣) .

ويبدو أن عقيلاً كان شديداً في توطيد الأمن في منطقة نفوذه فسارت للأمر في عهده هادئة . ولما نشب الصراع بين داود وعلى باشا رضا الذي جاء لخلعه سنة ١٨٣٠ م كان من الطبيعي أن يستعين داود بعقيل شيخ المتنفق ،

(١) سياحاته حمود : ٣٢ ، مختصر مطالع السعد : ص ٦١ وانظر الفصل السادس .

(٢) النزاهي : مشائر العراق : ج ٤ : ١١٢ .

(٣) عبد الله الناصر : تاريخ السملون : ٣٩ / ٤٠ .

ولقد لبى عقيل نداء داود . وقد لعب العداء بين العشائر دوراً هاماً في الكفاح بين داود وعلى رضا . فلا شك أن على رضا قرب صفوق شيخ شمر إليه لعدائهما للوزير ولعدائهما للمتفق . فكان من الطبيعي أن يستमित عقيل بمن بقي معه من عشائري المتفق ضد شمر الجرياً المؤيدة بالوزير الجديد والتي انضم إليها عدد من شيوخ المتفق ، فدارت الدائرة على عقيل وهزم أمام صفوق شيخ شمر وكبا الحصان بعقيل فمات ، بينما أطلق على صفوق سلطان البر^(١) .

سياسة داود إزاء الشيعة :

الشيعة في العراق يمثلون قسماً كبيراً من الشعب العراقي ، بعضهم كان عشائريين ، وبعضهم ينزل كبريات المدن العراقية . فعند من العشائريين العربية شيعي المذهب مثل الخزاعل وبنى لام . وكانت هذه العشائر ذات أثر خطير في بعض الأحيان . فقد تعددت ثوراتها كلما هبت الحرب بين إيران والدولة العثمانية مع أن السلطان سليمان القانوني اتخذ موقفاً كريماً منهم . بعكس موقف الشاه عباس أو موقف الشاه إسماعيل من السنة . وكانت حدة الصراع وطوله قد جعلت العشائريين الشيعة تستمرئ العصيان والتمرد كلما شعرت بضعف القوة العثمانية أو بتأييد إيران^(٢) . وقد ملأت هذه الثورات العشائرية ذات الصفة المذهبية تاريخ العراق وخاصة خلال وعقب الغزوات الإيرانية . ولذلك قبلت عشيرة الخزاعل الشيعة دخالة قاسم الشاوي فأصبح مركز الوزير مهدداً^(٣) . واستطاع الوزير أن يعيدها إلى حظيرة الطاعة والهدوء بل فعل معها أكثر من هذا ، فقد أشرك شيخها في تدبير أمور البلاد . وكان شيخها عوناً له على العشائريين وكان يكلف بأعمال إدارية ومالية هامة^(٤) . ولا شك أن داود

(١) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٧ : ١٨ - ١٩ .

(٢) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٥ : ٢٠ .

(٣) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٨٦ (انظر الفصل الثاني) .

(٤) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٥٢ .

كان يتجه هذا الاتجاه لأمرين : أولهما ضمان تأييد عشيرة قوية له تعينه على العشائر الأخرى ، والثاني أن يسلب الإيرانيين أداة قوية لإثارة المشكلات في وجهه .

ومع ذلك ظلت الاتصالات قوية بين شيوخ العشائر العربية الشيعية وحكام إيران (١) . ونظراً لما كان لهذه العشائر من قوة قادرة على إحراج مركز الوزير وتهديد كيانه في داخل العراق نفسه ، دأبت إيران على تأييد هذه التمردات العشائرية ، وفي الوقت نفسه عملت على كسب ولاء عدد أكبر من العشائر العربية بتحويلها إلى المذهب الشيعي . وكانت الدعاية الشيعية هي وسيلة إيران لتحقيق هدفها ، هذا وقد ظهر هذا الاتجاه خلال حكم داود . فكان دعاة الشيعة يجوبون العراق الأوسط مبشرين بمذهبهم بين العشائر (٢) . وكانت العقيدة الإسلامية لدى هذه العشائر سطحية ومعلوماتهم عن الدين لا تستطيع أن تقارن الدعايات الشيعية . وكانت قوة المذهب الشيعي في إيران والعراق منذ زمن طويل سبباً في تسهيل المهمة على دعاة الشيعة . ولم يواجه داود هذه الدعاية بسياسة إيجابية ، مع أن تحول العشائر إلى المذهب الشيعي قصد به أن يكونوا في متناول أبدي الحكام الإيرانيين الشيعة ليصبحوا أداة هدم وتفكك في كيان الشعب العراقي (٣) .

إن داود عندما كان يتجه إلى توحيد العراق تحت حكمه كان يعالج المشكلة من الجانب السياسي والاقتصادي فقط دون أن يعالجها من الناحية الاجتماعية أو المذهبية . وما كان ليتمكن من القيام بإتمام التوحيد من الناحية الاجتماعية والدينية إلا إذا استطاع أن يقضى على التدخل الإيراني في شؤون العراق وعلى الدعاية الشيعية الإيرانية ، وهذا كان غير ممكن أعداء أمورهم : -

(١) عباس الزاوي : تاريخ العراق . ج ٥ : ٢٠ .

(٢) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبئي : ٦١ .

(٣) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبئي : ٦١ .

١ - إن وجود المزارات الشيعية في النجف وكربلاء وغيرها يجعل عين إيران دائماً على العراق .

ب - إن قوافل الزوار كل عام كانت تعبر العراق إلى المزارات مما يولد في النفوس العطف على أئمة الشيعة والميل إليهم والعراق يستفيد اقتصادياً من هؤلاء الزوار .

ج - اعتماد شيعة النجف وكربلاء على تأييد وحماية إيران فقد هدد الشاه وأوعده عندما هاجم الوهابيون كربلاء (١٨٠١ م) وهدد حينذاك بمهاجمة العراق فكان الشاه هو البطل المدافع عن العراق بينما كان سليمان الكبير المملوك السني الفاضل في الدفاع عن كربلاء (١) .

د - بل كان أئمة الشيعة في النجف إذا أعوزتهم الأموال ذهبوا إلى الشاه يسألونه أن يمدهم بما هم في حاجة إليه أو يطوفون بإيران لجمع التبرعات .

هـ - الإصلاحات المعمارية التي كان يقوم بها رجال شاه إيران في المزارات تقوى الثقة بين الشيعة من يوم لآخربأن هناك من بين أصحاب الصولة من يقف وراء الشيعة .

وقد نشطت هذه الإصلاحات منذ أن تولى فتح علي شاه العرش ، وكانت نشطة أيضاً منذ السنة الأولى التي تولى فيها داود (٢) . وكان من الطبيعي أن يترك داود - مثل أسلافه - هذه الإصلاحات تأخذ مجراها العادي لأن عجم الزوار إلى العراق كان من أركان الاقتصاد العراقي ، وكان أهم هذه الإصلاحات في مزارات النجف وكربلاء .

(١) L. Corancez: Histoire de Wahabites, Paris, 1809. P. 28-9.

(٢) أجرى فتح علي شاه إصلاحات في كربلاء سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٨ م) ووجهة الشيخ جعفر آل كاشغري النطاش الذي توجه لمقابلة الشاه في طهران في أمر تمييز الحائر بعد نكته على يد الوهابيين وأخذ الشيخ يطوف بإيران مشجعاً على التمييز . (الدكتور عبد الجواد الكليدار : تاريخ كربلاء وحائر الحسين عليه السلام بغداد : ١٣٦٨ : ٥٦) وأجرى إصلاح المذبتين بأمر الحاج محمد حسين خان اسفهانى وزير فتح علي شاه سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢٣ م) .

وكانت تشع من النجف وكربلاء والحلة والبصرة روح معادية للمالِك وللأثراك على وجه العموم . وكانت هذه الروح تظهر قوية في الثورات ضد الحكام . تلك الثورات التي كانت تنفجر في كل من كربلاء والحلة والنجف . فلقد ثارت كل من كربلاء والحلة في وقت متقارب عندما اشتدت الحرب بين داود وإيران بين ١٨٢٠ - ١٨٢٣ م . وكانت الثورات في كل من النجف وكربلاء والحلة عنيفة . فأرسل على النجف سنة ١٨١٨ م حملة أدبت طائفتي الزقزق والشمرت المتمردتين بها (١) .

كان موقف داود من هذه الثورات المنهية في أول الأمر حرجاً إذ كانت جيوشه مشغولة بنضال الإيرانيين والدفاع عن بغداد نفسها حتى بدأ يتنفس الصعداء . فالتفت إلى المدن العراقية التي تعاونت مع الغزاة وكانت على رأسها كربلاء والحلة .

وقد بدأ داود أولاً بتحذير أهل كربلاء من الاستمرار في غيهم وأنه عفا عما سلف ، وأن لم أن يعودوا إلى طاعته وأن يدفعوا ما عليهم من أموال لخزينة الباشا وأن يحلوا تشيكلاتهم العسكرية . وأغلب الظن أن المدينة لم تكن تائرة في وجه الباشا من أجل المنهب وحده ، بل من أجل النهب والسلب أيضاً ولذلك جرد عليها داود قواته وحاصرها سنة ١٢٤١ هـ - ١٨٢٤ م حتى اضطرت إلى العودة إلى الطاعة وتعهد أهلها بدفع الأموال (٢) .

وفي السنة نفسها كانت الحلة متآدية في ثورتها (٣) . وكانت إيران هي مدبرة هذه الثورة التي كان على رأسها محمد آغا - الثائر المطالب بالباشوية وكان من الطبيعي أن يلجأ إلى تأييد الشيعة له ، وذلك لأن الباشا الذي رشحه الشاه ليحكم بغداد . وكان من الطبيعي أن يعي داود قواته لمواجهة هذا الخطر ،

(١) وادي السلية : تاريخ الديوانية : ٢٣ - ٢٤ .

(٢) الزاوي : تاريخ العراق : ٦ : ٢٨٨ .

(٣) التريب أن أحداثاً جسيمة وقعت في العراق لم يذكرها لطفى ومع ذلك أورد هذه الثورة واهم بها نوعاً . تاريخ لطفى : ١ : ١١٦ .

وبخاصة عندما دخل حمود شيخ المتفق المعركة ضد داود إذ أن النزاع بين داود وحمود بدأ حينذاك^(١) .

قاد أحمد - كيخيا داود الحديد - قواته إلى الحلة وحاصرها وانتصر على المدافعين فيها ، وفر محمد أغا إلى المتفق بينما استسلمت المدينة للكيخيا . ويقال إن أعوان محمد أغا في كربلاء قتلوا . وبعد ذلك ترك الكيخيا حامية من العقيلين في الحلة وعاد أدراجه^(٢) . ولم تكد تمر فترة قصيرة حتى اندلعت نيران الثورة مرة أخرى . ويقال إن السبب يرجع إلى أن العقيلين ظلموا الأهلين ومسوا شعائهم المذهبية^(٣) . وهذا أمر غير مستبعد إذ أن العقيلين سنة وغلّبوا الشيعة في المدينة على أمرهم . وعلى أي حال لم تستطع الحامية الصمود وأصبحت الحلة بيد أهلها^(٤) فأسرع داود بإرسال جيش جديد لتأديبها واستطاع أن يسردها مرة أخرى ، وفي هذه المرة نالت الحلة تدميراً وتخريباً شديدين ثم عفا الوزير عن أهلها^(٥) .

ويحدثنا مؤلف تاريخ الحلة عن أن حكومة بغداد بعد أن عفت عن أهل الحلة اتفقت معهم على الإيقاع بقبيلة آل قشمر فحاربوهم وأجلوهم عن أراضيهم وفي أواخر حكمه واجه داود تمرد عشيرة كعب الشيعية^(٦) .

إن مجتهدات داود نحو السيطرة على شيعة العراق في سبيل توحيد العراق تحت حكمه لم تتمخض إلا عن وحدة صورية مؤقتة لم تلبث أن تنفك ، ولم يوفق كما لم يوفق في وضع حل حاسم لمشكلة الشيعة التي تمتد جذورها إلى أوائل العصر الإسلامي ، وظلت مشكلة عويصة تقض مضاجع حكام العراق

(١) انظر الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ص ٢٩٠ وما بعدها .

(٢) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٣) يوسف كركوش الحل : تاريخ الحلة : ٧٠ .

(٤) يوسف كركوش الحل : تاريخ الحلة : ٧٠ ، ٧١ .

(٥) يوسف كركوش الحل : تاريخ الحلة : ٧١ .

(٦) في بستان (خوزستان الحالية) . انظر الفصل السادس .

حتى القرن العشرين . هذا إلى أن الفرق في العراق كانت موزعة إلى فرق متعددة ومغالية .

وعقيدة على إلهي^(١) أشد هذه العقائد غلواً في كردستان ومثلها في الغلو الزيدية^(٢) والكاكائية^(٣) والقزلباشية^(٤) . وكانت تعتنق هذه العقائد عشائر قوية . فكان ذلك من عوامل شدة التفكك في العراق .

أهم الإمارات والعشائر الكردية :

الأكراد سلالة منحدرّة من أصل قديم كان يتكلم باللغة الاندو-أوربية . وقد جاءوا إلى كردستان من آسيا عبر إيران ، وحافظوا على أسلوب حياتهم هناك^(٥) . واشتهروا بالاستعداد للخدمة العسكرية ، شأنهم في ذلك شأن سكان الجبال . وغالبيتهم سنيون ، ولكن وحدة الدين والمذهب لم تكن لتغلب على العوامل الطبيعية التي وزعت كردستان إلى إمارات متعددة . ومع أنها عانت ما عاناه العراق من غزوات مغولية كان نصيبها من الدمار أقل . وهي مثل العراق خضعت للدول التركية حتى الاحتلال الصفوي . وقد اعترف السلطان بالعصبيات الحاكمة في كردستان . وكانت أشهر تلك العصبيات العصبية البهدينانية في العمادية التي تدعى أنها من سلالة العباسيين ، وقد بدأ حكمها سنة ٧٤٠ هـ - سنة ١٣٢٩ م^(٦) وأبقاها السلطان سليم على إمارتها سنة ١٥١٤ م والعمادية تقع في أقصى شمال العراق وهي أقرب إلى الموصل منها إلى بغداد .

(١) يقال لم التصيرية أو العلوية . تعتبر علياً إلهاً . انظر عباس الزاوي : الكاكائية في التاريخ ١٠٠ - ١٠٣ ، وكذلك محمد أمين زكي : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان : ٣٠٥ - ٣٠٦ ، محمد أمين زكي : خلاصة تاريخ الكرد : ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢) المرجع السابق : ٣٠٠ - ٣١٤ .

(٣) يقتدون في التناسخ ولا يتلون القرآن - انظر الزاوي : الكاكائية : ٣٥ و ٥٥ .

و ٦٢ و ٨٢ .

(٤) القزلباشية : طريقة مأخوذة من الطريقة الصفوية .

(٥) الذكورة دولت صادق ، الجغرافية السياسية : ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(٦) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٤ : ٢٨٣ .

وكانت منذ البداية تابعة لبغداد^(١). ويبدو أن ضعف باشوات بغداد أبعدها عن دوام سيطرة بغداد عليها. فكانت أحياناً تحت قيادة كركوك وأحياناً تحت قيادة بغداد ، ومرة تعاون الدولة العثمانية ضد إيران ومرة أخرى ضدها^(٢) وفي عصر المماليك كذلك لم تدخل بوضوح تحت نفوذ بغداد القوي^(٣).

أما الإمارة الصورانية في أربيل فقد ضعفت في عهد سليمان القانوني بسبب توليته عليها حاكماً يزيدياً. هذا إلى أن العثمانيين كانوا يضربون الإمارة الصورانية بالعمادية. ولم تنتعش الإمارة الصورانية إلا على يد محمد باشا الراوندوزي (ميركور) أو (كورياشا) في عهد داود في وقت كانت فيه الإمارة البابائية تتدهور بسرعة.

وعدا ما ذكرناه كانت توجد عصابات عشائرية كردية قوية أهمها :

(١) الخفاف ، في منطقة السليمانية على الحدود بين إيران والعراق .
منها من كان ينزل في « زهاو » ، ومنطقة زهاو منطقة نزاع بين إيران والدولة العثمانية . ونظراً لكثرة انتقال عشائر الخفاف عبر الحدود العراقية - الإيرانية كانت سبباً في اضطراب العلاقات بين الدولتين^(٤).

(٢) بشدر : في منطقة السليمانية ، ومنها تكونت أسرة بابان في السليمانية^(٥).

(٣) البلباس : عشيرة كردية قوية في منطقة أربيل أزعجت كلا من إيران والدولة العثمانية^(٦).

(٤) الديزة بي : وهذه كانت إمارة قوية قبل العهد العثماني وزاحمت إمارة طلي في منطقة أربيل^(٧).

(١) الزاوي : تاريخ العراق ج ٥ : ١٣١ و ٢١٩ و ٢٦٣ و ٢٧٩ .

(٢) صديق السملوجي : إمارة همدان : ص ٣٧ - ٣٨ .

(٣) صديق السملوجي : إمارة همدان : ٤٠ - ٤٧ .

(٤) الزاوي : عشائر العراق : ج ٢ : ٢٨ - ٢٩ .

(٥) الزاوي : عشائر العراق : ج ٢ : ٩٨ - ١٠٠ .

(٦) المصدر السابق : ١٠٩ .

(٧) الزاوي : عشائر العراق : ج ٢ : ١٤٤ - ١٤٥ .

(٥) الهماوند : عشيرة في منطقة بازيان : قرب السليمانية نافست

البابائين^(١) .

(٦) عشائر الزيدية : وهم من الأكراد لهم شخصيتهم القائمة بنفسها لمعتقداتهم الغربية الغامضة^(٢) ولأسلوب حياتهم الذي يختلف عن أسلوب بقية الأكراد ولاعتقاد الحكام العثمانيين والبغداديين أنهم كفرة يجب قتلهم ، وذلك يرجع إلى فتوى صدرت من شيخ الإسلام في القرن السادس عشر . وكان ذلك سبباً في عمق الكراهية بين الزيديين وحكام العراق ، وبخاصة أنهم كانوا يستطيعون قطع الطرق الهامة المارة بين الموصل والشام ، ولذلك كان خطرهم يتردد صداه في العراق كله وفي الآستانة ، وكانت الموصل عاجزة عن السيطرة عليهم ، فكلفت بغداد بدمه خطرهم وجعلت ماردين تابعة لبغداد لهذا السبب^(٣) . ولكن الحملات العنيفة لم تكن تنتهي أبداً بإخضاعهم الإخضاع التام لأن جباهم منعة فلا يلبثون أن يستأنفوا نشاطهم المعادي ، وهم وحدهم الذين تمسكوا بمعتقداتهم الخاصة بينما معظم كردستان سنى المذهب . تلك كانت العشائر الكردية الكبرى التي لعبت أدواراً هامة في تاريخ كردستان والعراق ، وخاصة في عهد المماليك ، وكانت تلك العصبية الكردية هي الحاكمة بينما كانت الرعية في القرى تسمى كرمائج .

وعندما استولى السلطان سليم على كردستان خلال حربه ضد إسماعيل الصفوي لاحظ أن الكرد كرهوا الحكم الصفوي بسبب الخلاف المنهجي بين أهل السنة والشيعة وبسبب أن الشاه إسماعيل فرض عليهم حكماً إيرانيين . فأبقى السلطان سليم العصبية الحاكمة على حالها ، وأعاد الحكام الأكراد إلى حكوماتهم في إطار التبعية للسلطان العثماني^(٤) .

(١) الزاوى : عشائر العراق : ج ٢ : ٧٧ - ٧٨ .

(٢) الزاوى : تاريخ العراق : ج ٤ : ٤٣ .

(٣) إسماعيل جول : الزيدية قديماً وحديثاً بيروت ١٩٣٤ : ص ١١٢ - ١١٣ .

تاريخ ماردين ورقة ١٣٨ - ١٤١ . Olivier : Op. Cit. Iv. p244 .

(٤) رحلة المثني البغدادي : ٥٦ .

وكان الأمراء الأكراد على وجه العموم يقدرون قيمة موقع بلادهم الجبلية الصعبة الممرات بين بلاد السلطان وبلاد الشاه ، ولذلك كانوا يستعينون بالإيرانيين إذا هددتهم العثمانيون، ويستعينون بالعثمانيين إذا ما هددتهم الإيرانيون ولا يهجمهم في ذلك كون الدولة في حرب أم في سلم مع إيران^(١) . وهذا لا يتناقى مع مذهبهم السنّي القوي . فإن الأمراء كانوا يقبلون المساعدة الإيرانية لغرض سياسي معين لوقت معين حتى إذا ما تحقق للأمر حلمه في التخلص من الضغط العثماني انقلب على حلفائه الإيرانيين ليطردهم من بلادهم . ولقد اشترك الأكراد في الحرب ضد إيران تحت قيادة حسن باشا والحماس المذهبي وكرهية الحكم الإيراني يدفعانهم إلى التضحية في هذه المعركة فلما اصطدم الجيش البغدادي بجيش الأفغانيين السنين لقيت دعاية الأفغانيين كل ترحيب لدى الزعماء الأكراد وتحولوا عن قائدهم أحمد باشا (١٧٢٦ م) ، حتى لا يشهر سنّي السيف في وجه سنّي . وفي الوقت نفسه كان الأكراد قد شعروا بوطأة الحكم البغدادي على يد حسن باشا وأحمد باشا فعملوا على التخلص منه ، فوقمت المعارك الطاحنة بين حكام بغداد والعصبيات الكردية ومن يأتي من الإيرانيين .

ولذلك كانت كردستان ميدان صراع لا يهدأ ، وكانت عبئاً ثقيلاً على كاهل بغداد . وكانت إيران تستخدم العصبيّة الكردية — التي كانت تحت حكمها — في إثارة القوضى هنالك . وكان موقف حكومة إيران بموقف المهاجم غالباً في كردستان ؛ وكانت جيوشها تخرج فيها حتى يشتد الأمر على العراق فتندفع قوات باشا بغداد لتأديب الكرد الذين كانوا يسمحون لهذه الجيوش بأن تحتل أجزاء من الإمبراطورية العثمانية . ومع ذلك كان باشوات بغداد كثيراً ما يحتاجون إلى القوة الكردية ليضربوا بها العرب المتمردين أو ليضربوا المطالبين بالباشوية . فكانت هذه الحاجة من أسباب ضعف سيطرة بغداد على كردستان .

(١) محمد أمين زكي تاريخ الكرد وكردستان : ٢٢٢ .

ومن ناحية أخرى كانت بلاد الكرد مهياة كل التبولقيام أسرات حاكمة متعددة متجاورة متنافرة . ومن تلك الأسرات التي دوت أحداتها في التاريخ الأسرة البابانية التي أسسها شخصية كردية حفظتها لنا الأساطير ، وهي شخصية فقيه أحمد الذي ينسب إليه تأسيس وجاق بابان .

وقد تفوقت هذه الأسرة على جيرانها ولمع نجمها عندما منح السلطات سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ - ١٦٧٠ م) سنجق « قره جوالان » (١) إلى أحد أحفاد فقيه أحمد (٢) . وكان وجود الدولة الإيرانية الطامعة المتربصة على حدوده الشرقية سبباً في أن يشعر البابانيون بأن هناك قوة يمكن أن يعتمد عليها إذا ما شقوا عصا الطاعة على السلطان ، وكانت إيران من ناحيتها مستعدة في معظم الأحوال لأن تمدد اللاجئ إليها بقوات إيرانية ليتولى قره جوالان ، وكانت طبيعة بلاد الأكراد في الوقت نفسه — مثل جغرافية اليونان — سبباً في توزيع الحكم هناك إلى إمارات صغيرة ، وسبباً في أن تصبح عدة مدن ووديان ذات حصانة تكفل لصاحبها أن يدافع عنها . وأخذت الأسرة البابانية تتوسع على حساب الإمارات المجاورة لها مثل الصورانية والبهدينية حتى أصبحت تسيطر على راوندوز وكفرى وحرير وقزله وسروجك وقره طاغ وأربل ، وامتد نفوذها إلى كركوك . وكانت عشيرة الجاف كذلك تتبع البابانيين ، وكانت هناك مصاهرة بينهما . وامتدت حدود البابانيين حتى نهر تاهت في الشمال وإلى زنكباد والدرند الغربي حيث كانت الحدود بين باشوية بغداد وسنجق السليمانية مبنية بخط من الحجارة ، كما امتدت تلك الحدود بين الزاب ونهر ديبالي (سيروان) (٣) . ولذلك يمكن أن نسمي الباشا الباباني بإشاك كردستان . وأبلغ دليل على قوة الباشوات الأكراد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر

(١) السليمانية فيما بعد .

(٢) محمد أمين زكي : تاريخ السليمانية : ٦٠ .

(٣) محمد أمين زكي : تاريخ السليمانية : ٦٢ .

أن أحدهم استطاع أن يبنى مدينة السليمانية (١) لتكون قاعدة جديدة بتلك
الأملاك الواسعة . ولقد أصبح الباشوات البانيون بالفعل الند الخط للماليك .

سياسة داود إزاء الأسرة البانية :

كانت لهذه الأسرة أحداث جسام زعزت غير مرة مركز الماليك
وظهرت خالة الكرد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كقوة ذات
بأس شديد وذات أهمية كبرى للماليك في أوائل عهدهم . ولا شك أن
استخدام الماليك لخيانة الكرد في ضرب المتمردين وشعور البانيين
بقوتهم بعد تفوق إيران على الماليك سنة ١٧٧٦ م والفوضى التي طحنت
العراق بين عهدي عمر وسليمان الكبير ، كل هذه العوامل كانت سبباً في أن
يشعر الأكراد بأن تبعيتهم لبغداد وعهد الوزراء العظام قد انتهت ، وأنه آن
لهم أن يطالبوا بباشوية بغداد وإن لم يستطيعوا عملوا على الاستقلال عن بغداد
وعلى الاتصال مباشرة بالسلطان (٢) . ولقد حاول عبد الرحمن الباني غير مرة
أن يحقق هذه الأهداف ولكنه فشل في محاولاته لأنها كانت في وقت شباب
حكومة الماليك . على أن الحكم الباني وصل إلى ذروته عندما أصبح
عبد الرحمن هذا من القوة بحيث أنه هو الذي نصب الوالي المملوك عبدالله باشا
على بغداد . ولكن الباب العالي ما كان ليوافق مطلقاً على أن يحقق رغبة
عبد الرحمن في تولى باشوية بغداد، نظراً لما عرف عن البانيين من ميل سريع
لإيران ، ولعل عبد الرحمن حاول أن يحقق هدفه الآخر بأن يستقل عن بغداد
وأن يكون متصلاً رأساً بالباب العالي ليحقق تتممه بالحكم الذاتي وليكون على
قدم المساواة على الأقل مع حاكم بغداد الذي تولى الحكم بوساطة السيف
الكردى . ولكن هذه المحاولة أخفقت أيضاً على يد داود عندما ثبت هو ومن

(١) بناها إبراهيم بابان باشا ، بدأ في تشييدها ١١٩١ هـ - ١٧٨٤ م ، وسماها السليمانية
تيمناً باسم سليمان الكبير والي بغداد من (١٧٨٠ - ١٨٠٢ م) .
(٢) انظر : محمد أمين زكي تاريخ السليمانية : ١٦ .

معه من رماة الممالك في موقعة كبرى (١٢٢٨ هـ - ١٨١٢ م) (١). ويمكننا أن نقول إن عهد عبد الرحمن باشا الباباني كان الوقت الذي استطاع فيه البابانيون أن يبلغوا ذروة مجدهم وأن آمالم في عهده ومن بعده انحصرت في التخلص من الضغط الإيراني والملوكي ما أمكن ، بالاستعانة بكل منهما في سبيل تحقيق هذا الهدف .

وتولى محمود الحكم على السلمانية عقب وفاة أبيه عبد الرحمن (١٢٢٨ هـ - ١٨١٣ م) برضاء الشاهزاده محمد علي ميرزا ، فأدى عزل سعيد باشا لمحمود باشا إلى تعاون إيراني - كردي ضده ، وانفصمت عرا هذا التحالف عندما تحالف داود مع محمود ضد سعيد باشا سنة ١٨١٥ م على أساس أن يتخلى محمود عن حلفائه الإيرانيين . وعقب تولى داود الباشوية وجد الباشا أن محموداً - وقد عجز عن مقاومة ضغط الشاهزاده - قد مال إلى إيران . فأدى ذلك إلى الصراع بين داود ومحمود وتطور الأمر إلى حرب مع إيران (٢). وقد كانت القوة الكردية حينئذ خطراً شديداً على داود وهو لم يكد يثبت أقدامه بعد . ولم يكن هذا الخطر كامناً وراء قوة البابانيين العسكرية فحسب ، بل كان أيضاً وراء ذلك التعاون الكردي الإيراني الذي يحط من قدر الباشا الملوكي في نظر الباب العالي ويصمه بالعجز عن ضمان ولاء الكرد للسلطان . ولم يكن في استطاعة داود في هذا الموقف المبكر من حكمه إلا أن يتبع الأساليب القديمة في مواجهة التمردات الكردية عندما أراد أن يقلم أظافر محمود بالطريقين المعهودين وهما :

١ - تضيق الخناق عليه بالسيطرة على بعض المواقع الكردية الاستراتيجية الهامة مثل كوى وأربل وألتون كويري (٣) .

ب - اجتذاب أحد الأمراء البابانيين إلى جانبه (٤) .

(١) انظر الفصل الأول .

(٢) محمد أمين زكي : تاريخ السلمانية : ١٠٢ - ١٢٥ - ١٢٨ .

(٣) المزاري : تاريخ العراق ج ٦ : ٢٥١ .

(٤) جردت : ج ١١ : ٣٠ .

وكلنا هاتين الخطتين العسكرية والسياسية سهلة التحقيق في البداية نظراً
لأن قرّة باشا كردستان مهما عظمت مهددة بمخاطرين :

١ - الجيش البغدادي المملوكي .

ب - خيانة أعضاء الأسرة البابائية للباشا البابائي الحاكم .

وهكذا كانت التربة خصبة لتدبير المؤامرات ضد محمود باشا ولعثور
داود على حلفاء أقوياء له من بين أعضاء الأسرة البابائية نفسها ، فحالفه
عبد الله باشا المطالب بحكم السليمانية ، وكذلك حسن بك - أخو محمود -
الذي كان بسيله ليكون رهينة محمود باشا لدى الشاهزاده في كرمشاه ، إلا أن
الحرب سارت لصالح محمود البابائي وحليفه الشاهزاده^(١) فاضطر داود إلى
أن يبقى محموداً على السليمانية سنة ١٨١٨ م وعلى كوى وحرير وكاننا قد منحتنا
لحسن بك الذي استدعاه داود إلى بغداد .

وبعد ذلك النصر الذي أحرزه محمود نجده يطالب داود بأن يعيد إليه
أخاه حسن بك كما طالبه ببعض المناصب الأخرى مثل ضم أربل وآلتون
كوبرى إليه . وأرسل محمود أمه للتفاوض مع داود في هذا الشأن^(٢) . وفي
الوقت نفسه كانت الظروف في السليمانية وبغداد تقضي بتعاون محمود وداود
ضد الخطر الإيراني المتزايد في مايو - يونيو سنة ١٨٢٠ فقد كان في بلاط
السليمانية مبعوث إيراني يدعى « باقرخان » يطالب محموداً بدفع ثلاثين ألف
تومان^(٣) للشاهزاده ، وكان هذا عبثاً مالياً ثقيلاً على محمود . وكانت مطالبات
الإيرانيين لا تنتهي . ومن ثم كان محمود في حاجة إلى داود في هذه الأزمة
كما كان داود في حاجة إلى محمود ليخلص العراق الشمالي من النفوذ الإيراني ،

(١) اضطر داود إلى عقد الصلح مع الشاهزاده ومع محمود بسبب فرار صادق بك
إلى زبيد . جودت : ج ١١ : ٣٠ .

(٢) رحلة ريج : ٧٥ - ٩٠ - ٩٢ - ٢٦١ .

(٣) عملة إيرانية فضية .

كان أمل الشاهزاده أن يكون له رأى دائماً فيمن يتولى حكم كردستان . لذلك كان تأزر باشا كردستان مع باشا بغداد أمراً ضرورياً إذا أراد كل منهما أن يتخلص من الضغط الإيراني . ولم يكن أمام محمود باشا من قوة أخرى يستطيع أن يعتمد عليها لمواجهة الضغط الإيراني غير قوة داود العسكرية لأن كردستان تابعة لبغداد ، وبغداد تابعة للإمبراطورية العثمانية ، وغزوها غزو للدولة العلية . وإذا لم تتخذ الدولة في بعض الأحيان الإجراءات الكفيلة بإنقاذ كردستان من الجيوش الإيرانية فلا يرجع ذلك إلا لأن المهمة فيما يرى الباب العالي ملقاة على باشا بغداد ، الذي عليه أن يحمي العراق بأسره من الخطر الإيراني ، وكان محمود باشا قد تألم كل الألم من مطالبة الشاهزاده له بالأموال ^(١) . وقد آن الأوان لأن يتفاهم الطرفان وأن يواجهوا الخطر الإيراني وفق خطط مشتركة . ولما كان وجود حسن بك في بلاط داود واستبعاد أوربل وآلن كون كوبري من نفوذ محمود باشا من دواعي الفرقة بين محمود وداود ، فإن هاتين المسألتين كانتا أساس المفاوضات التي جرت بين داود وأم محمود سنة ١٨٢٠ .

وقد كللت المفاوضات بين داود وأم محمود بالنجاح ، وكان من نتائج هذه المفاوضات أن أرسل داود حسناً إلى أخيه محمود . وينحى ريتش Rich باللائمة على داود لتسليمه حسن إلى أخيه الموتور منه فيقول إن داود عندما علم أنه « لا خير يرجى من حسن بك » قبل أول عرض عرضه عليه محمود باشا وسلم حسن بك إلى أخيه دون الاكتراث بمصير حسن بك . ويستطرد ريتش Rich معرضاً بموقف داود فيقول إن داود سلم أيضاً عبد الله باشا وبالآخرى غدر به غدرأ شنيعاً بتسليمه إلى محمود باشا فأصبح عبد الله تحت رحمة ابن أخيه الذي لو كان في موقف المنتقم منه لأسرع إلى القضاء عليه سرأ وعلناً . ولكن لم يخطر على بال محمود باشا شيء من هذا القبيل بل عامله بالحسن ومنحه منطقة من أحسن مناطق كردستان ^(٢) .

(١) رحلة ريج : ٧١ . (٢) رحلة ريج : ١٠٤ .

واضح مما سبق أن ريتش يحمل داود وزر خيانة الخليف لحليفه ، وأن داود في نظره باع حسناً محمود ، وأن سلوك الممالك جرى على هذا النحو من الغدر والخيانة . فهل حقاً خان داود عهده لحسن وتخلي عنه فعلاً وسلمه لأخيه الموتور ؟ وأن داود سلك السلوك نفسه نحو عبد الله ؟.

ليتضح لنا الموقف يجب أن نتذكر أن داود وريتش كانا قد دخلا في المرحلة الختامية من صراعهما (وأنه متحامل على داود فيما كتب) .

ولا شك أن هذه الصورة التي رسمها ريتش لداود (١) – والتي أراد بها أن يشوه أعمال داود – ليست موجودة إلا في تخيلة ريتش ، فإن محموداً كان يعمل على أن يقضى على النزاع الدموي المدمر بين الأمراء البابانيين ، وشعر أن من واجبه توحيد كلمة الأسرة ، وأن ذلك يتأتى عن طريق جمع كبرائها ، وتبصيرهم بالهوة التي ينزلون نحوها باستمرار تناحرهم هذا ، لعله يقضى على المؤامرات البابانية التي تدبر في كل من كرمشاه وبغداد، وذلك يجلب الأمراء البابانيين من كل من كرمشاه وبغداد إلى السليمانية (٢) ، وأن يكون هؤلاء تحت عينه ، وأن يمنحهم من المناصب ما يكفل لهم حياة كريمة ، ولذلك استدعى محمود أولئك البابانيين الذين كانوا في كرمشاه ، كما استدعى حسناً من بغداد وأتى بعمه عبد الله من بغداد وطلب إليه أن يبتعد عن مجال المؤامرات الإيرانية . وكان محمود يقصد تماماً أن الشاهزاده لاشك سيؤلب عبد الله أو عثمان عليه إذا ما رفض أن يدفع الثلاثين ألف تومان ، ولذلك اجتمع عبد الله وعثمان ومحمود أمام شيخ خالد النقشبندی (٣) ، وأقسموا على أن يسلم كل من الثلاثة أى كتاب يأتي إليه من الترك أو من الإيرانيين إلى الشيخ خالد وأن يفتحوه في دار الشيخ خالد وبحضور جميع من اتفق على ذلك (٤) . ولكن

(١) كلاوديوس ريج : رحلة ريج في العراق : ١٠ .

(٢) رحلة ريج : ١٠ .

(٣) انظر الحديث من الشيخ خالد في الفصل الثامن .

(٤) رحلة ريج : ١٠٣ .

عبد الله تسلم كتاباً من الشاهزاده يستقدمه فيه إلى كرمشاه لينيط به حكم السلطانية . وكنتم عبد الله الأمر عن محمود لحاجة في نفس يعقوب . ولكن مخابرات داود التي اكتشفت خيانة سيد عليوى (١) كشفت أيضاً العلاقات السرية بين عبد الله والشاهزاده فأسرع داود إلى إخبار محمود باشا بما يكتبه عبد الله ويدبره الشاهزاده . فوضعه محمود تحت المراقبة ليتأكد من خيانتة للعهد حتى إذا ما تأكد من اتصاله بالشاهزاده ومن استعداده للفرار إلى كرمشاه ألقي القبض عليه (٢) . ولقد ثبتت خيانتة بالفعل فألقى محمود القبض عليه ثم أخذته الشفقة فأفرج عنه برغم معارضة داود . وكان داود محقاً في أن يتمسك باستمرار باعتقال عبد الله ، فقد فر بعد ذلك إلى كرمشاه . ومع هذا كله لم يتورع ريتش Rich فيما كتبه من اعتقال عبد الله ثم الإفراج عنه عن أن يتهم الوزير بأنه باذر بنور الشقاق والتنافر بين أفراد الأسرة البابانية .

ويشير ريتش إلى أن عثمان بك - أخا محمود الكاره للنفوذ المملوكي ، والذي كان يحقر داود ، والذي كان لا يميل للأتراك - رجل شريف في كل ما عمله من حيث رغبته عن تولى السلطانية لاعن طريق الشاهزاده ، وإنما عن طريق تنازل محمود نفسه له . فلن ريتش يروى أن محموداً كان يلح في التنازل عن حكم السلطانية لعثمان بك ، وأن عثمان من جانبه بصريقة على عدم قبول هذا التنازل لأنه كان يرى في أخيه الأكبر الزعيم السيامي القادر على أن يقبل البلاد من عثرتها ، وأن محموداً في حاجة إلى أن يبقى عثمان إلى جانبه وأن داود هو الذي يعمل على إبعاده عن السلطانية حتى يفرد بمحمود فيكون القضاء على محمود سهلاً ما دام عثمان بعيداً عنه (٣) .

وقصة رغبة تنازل محمود باشا لعثمان لم يروها سوى ريتش ، وإنني لا أكذب ريتش فيما ذكره من أن محمود باشا أبدى أمامه رغبته في التخلي

(١) انظر الفصل الطاف .

(٢) رحلة ريج : ١٠٣ .

(٣) رحلة ريج : ٢٢٤ .

عن الحكم وأن ريتش سأله أن يستمر في القيام بأعباء منصبه لصالح آلاف الرعية ، فقد يكون ما أظهره محمود أمام ريتش نفثة مصدور عبر بها عما يعمل في صدره من ألم محض بسبب سوء أحوال أسرته . وهذا لا يدل على الرغبة الحقيقية في التنازل . وهذه الرغبة لا تستقيم مع التيار الذي كان يندفع فيه محمود نحو التحالف مع داود ولا تستقيم مع اعتقال محمود لعثمان في هذا الوقت بالذات كما لا تستقيم مع ما عرف عن محمود من شدة تمسكه بالمنصب^(١) . ولقد اغتر ريتش بما ذكره محمود من أنه لن يتخلى عن داود مطلقاً ، فأسف كل الأسف على ذلك الباشا الكردي الطيب القلب الذي كان يلعب به داود ويغدر به ثم يكسبه بوضع كلمات طيبة^(٢) . ولقد مد الله في عمر ريتش قليلاً حتى رأى أن الكارثة التي حلت بجيش كيخيا داود في حربه ضد إيران ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ - ١٨٢١ م) كان لمحمود دور أساسي فيها .

إن التحامل واضح فيما كتبه ريتش عن داود ، وهو في كتابته هذه يبين الجانب الرئيسي من اتجاهاته السياسية نحو استغلال الأقليات ، وما الأكراد إلا أقلية كبيرة وسط المجموع العراقي . ولذلك يعمل ريتش Rich جاهداً على أن يكون باشا السليمانية متعاوناً معه و متمشياً مع أهداف سياسته . ومتى أصبح باشا السليمانية مع القنصل الإنجليزي أصبحت لديه قوة رهية تستطيع أن تزلزل كيان باشا بغداد . وقد كان نفوذ ريتش Rich قوياً في كل من الموصل والبصرة أيضاً . ومعنى هذا أنه يصبح قوة عسكرية وسياسية على جانب عظيم من الخطورة تستطيع أن تبقى الباشا في كردستان أو أن تعزله ، وبخاصة إذا ما كانت العلاقات بين القنصل وكرمنشاه قوية أيضاً . ولقد كانت علاقات ريتش Rich مع الفرس ودية^(٣) . وكان يعطف على عبد الرحمن الباباني وعلى أماله ، وكان صديق عثمان ويكبر فيه ثقته على الترك^(٤) . وهكذا كان يعمل

(١) محمد أمين زكي : تاريخ السليمانية : ١٤٩ - ١٥٩ .

(٢) رحلة ريج : ٢٢١ .

(٣) Rich: Narrative of a Residence. Vol. II P. 18 .

(٤) رحلة ريج : ٦٧ ، ٦٨ .

ريتش على إثارة الروح القومية في الكرد لا لمصلحة الأكراد أنفسهم ، ولكن لجعل منها قوة خطيرة يعتمد عليها في مناهضته باشا بغداد أولاً وفي تفكيك قوى العراق ثانياً .

وأياً كان الأمر فقد استمرت كردستان في طريقها المعتاد خلية لمؤامرة مرشح باباني للسليمانية تواجهها مؤامرة لمرشح بغداد ، واستمرت كردستان تعاني أشد العناء من اجتياح الجيوش لبلادها ، ثم جاءت الكوآبرا سنة ١٨٢١ فقضت على عدد ضخم من سكان كردستان ، وبالتالي وهنت قوى باشا السليمانية العسكرية . وفي الوقت نفسه استمر النفوذ الإيراني في كردستان (١) . وعلى هذا النحو كان تاريخ بابان ،

ولم تشذ عن هذا المجال سوى حركة ذات مغزى قام بها أحمد بك ، أخو داود وكبيخاه . فقد جهزه داود بجيش كبير وكلفه بتنظيم شئون كركوك ، فارتعدت فرائص محمود وفر إلى إيران . ويصور لونجريج (٢) الهجوم الذي شنه أحمد هذا بأن النية كانت تتجه إلى إسناد السليمانية إلى أحمد بك . وهذه خطوة لها أهميتها من حيث توطيد حكم أسرة داود في أكبر مركزين في العراق ، وهما : بغداد والسليمانية . وليس هذا إلا نتيجة لرغبة داود في توحيد العراق في يده . ولكن داود قدر صعوبة بقاء أحمد في حكم كردستان وما قد ينجم عن ذلك من فتن واضطرابات تثرها العصبية الكردية فعاد إلى السياسة التقليدية وأسند السليمانية إلى عبد الله باشا .

لقد كانت المصلحة الشخصية والمصلحة العامة معاً تقتضيان العمل على إبعاد النفوذ الإيراني عن كردستان ، وذلك الأسلوب من السياسة هو الذي كان يستطيعه داود في ذلك الوقت . فلا شك أن معاهدة أرضروم (سنة ١٨٢٣) التي عقدت بين الدولة العثمانية وإيران وحددت الحدود لم تنفذ بحذافيرها ، فقد ظل الإيرانيون يحتلون لواء حلوان (٣) ، وظلت مؤامراتهم مستمرة في كردستان فلم تغير المعاهدة من العلاقات العراقية - الإيرانية شيئاً .

(١) محمد أمين ركي : تاريخ السليمانية ١٥١ - ١٥٦ .

(٢) Longrigg: Four Centuries p 246.

(٣) رحلة المثنى البندقي ٤٣ - ٤٤ .

وكان من الطبيعي أن تضعف السليمانية نتيجة لهذه الحركات العسكرية المتكررة المدمرة وأن تقوى على حسابها جارة ناشئة . وهذا ما حدث عندما تولى حكم راوندوز محمد باشا^(١) كور الصلب العود والذي تطلع إلى أن يحل محل البابانيين في كردستان . ولعل داود مال إليه لأنه كان ضد إيران وكان ضد البابانيين الذين وضعوا كردستان غير مرة تحت أقدام إيران ، ولم يعد داود ينتظر كبير فائدة من السليمانية المخربة المحتضرة فقوى أواصر العلاقة بينه وبين باشا راوندوز الذي كان أشبه بالباشا الشبه المستقل الذي لم يخضع للشاه ولا للسultan^(٢) . وأخذ محمد باشا كور يوسع نفوذه حتى استطاع أن يستولى على سورجك وخوشنا وحرير ورائيه ، والأخيرتان كانتا للبابانيين^(٣) ، وتدخل بشكل سافر في شئون العمادية التي تصطرع فيها قوى المدينة كأخواتها من المدن الكردية للاستيلاء على الحكم^(٤) .

وكانت سياسة داود لإزاء إمارات كردستان المتنافرة شبيهة إلى حد كبير بسياسة الباب العالي لإزاء باشوياته ، يضرب باشوية بأخرى . ولذلك نجد داود يحضّر محمد باشا الراوندوزى على مقاتلة محمود باشا باباني . بيد أن محموداً استطاع بمساعدة الجيش الإيراني إرجاع جيش راوندوز القهقري^(٥) . وكان ذلك سبباً في توتر العلاقات بين إيران والدولة العلية ، فأرسلت الدولة العثمانية أسعد أفندي للتحقيق في هذه المشكلة ، وأراد أسعد أفندي أن يستجوب محموداً ولكن هذا أبى أن يأتي إلى بغداد . ويفسر صاحب تاريخ السليمانية عدم حضوره

(١) أسس محمد باشا الراوندوزى هذه الإمارة سنة ١٨١٠ م في راوندوز وكبر شأنها على يد محمد باشا الكبير (١٨٢٦ - ١٨٣٤) ولكن الدولة قضت على إمارته وفق سياستها نحو إعادة الحكم المباشر إلى ولايتها (تاريخ السليمانية : ٢٤٢ - العزوي : تاريخ العراق ج ٧ . ٣٢)

(٢) تاريخ السليمانية : ١٥٠ - ١٥١ (Porter: Op. Cit. II. P. 470 - ١)

(٣) السلجوقي : هديتان ٤٤ - ٤٥ .

(٤) السلجوقي : هديتان ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ .

(٥) تاريخ السليمانية ١٥١ .

بأنه خشي من غدر داود به . على حساب المثل القائل : « اتق شر من أحسنت إليه » (١) . ولعل هذا أيضاً من التجني على داود .

وعلى أي حال فإن انتصار محمود باشا الباباني على محمد باشا الراوندوزي واتباع داود تلك السياسة التقليدية غير المجدية واستمرار التدخل الإيراني في كردستان لم يكفل لأي من المتنازعين كسب نصر دائم في كردستان . ولكنه لاشك أكد للدولة العثمانية أن داود غير قادر على فرض سلطة الدولة العثمانية على كردستان وتطهيرها من القوات الإيرانية .

فهل كان في استطاعة داود أن يشن حرباً في كردستان تدين على أثرها لوالى بغداد بصورة كاملة تامة ؟

الواقع أنه لم يكن في استطاعة داود أن يشن حرباً على نطاق واسع ضد كردستان ليفرض عليها حاكماً يدين فقط بالولاء لبغداد لما يتطلب ذلك من حملة تمتاز مضايق كردستان وتحتاج جبالها وتستولى على معاقها معقلاً إثر معقل (٢) . وما كانت لدى داود من القوات ما يكفل له نصراً مؤزراً في هذه العملية الحربية الخطيرة التي ربما تنتهي بكارثة مروعة على أثر استنجاد البابانيين بإيران . ولم تستطع حكومة من الحكومات أن تسيطر على العراق الشمالي سيطرة كاملة إلا بعد أن عينت الحدود بدقة بين العراق وإيران، وأصبحت ولايات العراق تحت الحكم المباشر للباب العالي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث وجه السلطان ضربة حاسمة — لم تتدخل فيها إيران — إلى البابانيين قضت عليهم . فقد كان سقوط بغداد سنة ١٨٣١ في يد علي رضا باشا مقدمة للقضاء على دربيكات العراق . وكانت السلطانية مهياة بضعفها وشيخوختها السريعة

(١) تاريخ السليمانية ١٥١ .

(٢) عيّننا Gibb أن الباب العالي لم يكن في استطاعته أن يخضع المصبيات الكردية الحاکمة بسبب تضاريس مناطقها الجبلية وهذا كان شيئاً بموقف داود .
Gibb & Bowne: Islamic Society and the west. Lt. I, P. 175.

لأن تسقط سريعاً في يد العثمانيين ، ولكن مناعة جبالها واضطراب العلاقات
الإيرانية - العثمانية أجل القضاء عليها إلى سنة ١٢٦٧ هـ (سنة ١٨٥٠ م)^(١) .

أهم الطوائف المسيحية :

كانت العناصر الأساسية لشعب العراق هي العشائر العربية والكردية
وسكان المدن من عرب وكرد وأتراك في بعض الأنحاء ، وإلى جانب هذه
التشكيلات البشرية الكبيرة توجد أقليات مسيحية ويهودية وهذه منتشرة في
البلاد العراقية كلها .

ومنذ الفتح الإسلامي كان أهل الذمة يكونون طبقة الزراع وأصحاب
الحرف وقد تركهم الإسلام على دينهم واشتهر منهم عدد اشتغل في الشؤون
المالية والتجارية والطب^(٢) . ولم يكن هؤلاء الذميون في العراق على مذهب
واحد، بل كانوا موزعين إلى مذاهب شتى ، فكان منهم نساطرة^(٣) وكاثوليك
ويعاقبة^(٤) . وكانت الموصل من أهم معاقل المسيحية في العراق ، وقد لعب
المسيحيون دوراً في الدفاع عنها ضد قوات نادر شاه (١٧٤٣) كما لعب إخوتهم
مسيحيو البصرة دوراً نشيطاً في الدفاع عنها ضد قوات كريم خان الزندي
(١٧٧٥ - ١٧٧٦) .

وكانت منازل مسيحي الموصل في أوائل حكم داود حوالى ١٦٠٠
منزل، وكان عدد منازل الموصل كلها عشرة آلاف منزل تقريباً . وكانت لهم
ثلاث عشرة كنيسة هناك^(٥) .

(١) تاريخ السليمانية : ١٦٢ .

(٢) سقى : تاريخ العرب : ج ٢ : ٤٤٩ .

(٣) النساطرة : أصحاب نسطور الذي ظهر في عهد المأمون العباسي ، قال إن الله واحد
ذو أقانيم ثلاثة : الوجود والعلم والحياة وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي هو :
الشهرستاني : الملل والنحل : ٥٣٥ .

(٤) اليعاقبة : نسبة إلى يعقوب وقالوا بما قاله النساطرة من حيث الأقانيم الثلاثة إلا أنهم
قالوا : انقلبت الكلمة لحاً ودماً فنصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده بل هو : الشهرستاني
الملل والنحل : ٥٤١ .

(٥) Heude: Op, cit, P. 218

وفي صاوج بولاق^(١) كان يعيش ثلاثائة نسطوري وكانت عقائدهم المسيحية واهية مثل إخوانهم قرب الموصل وبحيرة وان^(٢) « Van » ومعظم مسيحي العراق من هؤلاء النساطرة ولم بطريقان : واحدة في الإمارة البهديتانية وهي تسمى بطريقتة سان سيمون ، والثانية في دير « رهبان هرمز » بالقرب من الموصل ، ويعتمد نفوذ بطريقتة سان سيمون إلى معظم أجزاء العراق باستثناء ماردين وديار بكر. أما بطريق النساطرة الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكي الكلداني فقره بغداد ويتولى براءة المنصب من بابا روما مباشرة ، وسكان قرقوش أكثرهم مسيحيون من الكنيسة السريانية (البقوبية) .

وكانت بغداد تحتوى على ستين أسرة من الكاثوليك المتمين لكنيسة روما وإلى جانبهم كان يوجد أرمن ونساطرة^(٣) . وكان للكاثوليك معبد يعمل فيه الرهبان الكرمليون ، أما بطريقتة الأرمن الكاثوليك فقرها لبنان^(٤) . كذلك يوجد في بغداد مسيحيون كلدان^(٥) هاجروا إليها من تلكيف^(٦) طلباً للعمل . وبطريق الكلدان الموجود في « قوج هانته » يشترك في أى حرب يقودها أمير حكارى ضد إيران^(٧) . هذا بينما يهاجر كاثوليك بغداد ، بل وكاثوليك حلب إلى البصرة حيث كانت لهم أعمال تجارية واسعة هناك ولم فيها كنيسة ألحق بها مستشفى الآباء الكرمليين^(٨) . وينتشر المسيحيون كثيراً في كركوك وأربل،^(٩) وخاصة الأرمن فينتشرون في طول البلاد وعرضها : بعضهم

(١) وقع صاوج بولاق على الحدود العراقية الإيرانية .

(٢) هذا رأى الرحالة الإنجليزي بوتر ، Porter ، انظر : Porter : II, 485-6 .

Dupré: Op. cit. I, P 98 (٣)

Grant: the Nestorians, London, 1841, P. 27, 34 (٤)

Heude: Op. cit. P. 182. (٥)

Dupré: Op. cit. I. P. 176 (٦)

(٧) Narrative of a Residence, II p. 104 (في حكارى شمال العمادية) .

(٨) رحلة ريج : ١٩٧ .

(٩) Buckingham: Travels in Assyria, II, 155-6

في بغداد هاجر إليها من إيران بسبب سوء الأحوال الاقتصادية هناك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وبعضهم في البصرة وكرديستان (١) وماردين (٢) والموصل (٣) . ووصف أرمن البصرة بالذكاء وبأعمالهم الاقتصادية الناجحة وهم يعملون كتجار أو سماسرة وقد كفلت لهم معرفتهم باللغة العربية والتركية والفارسية ميزات تجارية هامة لا شك أنها كانت من عوامل تقدمهم التجاري وخاصة أن بعضهم كان يتكلم الإنجليزية والبرتغالية والهندية أيضاً . وكانت هذه الميزات سبباً في أن يكونوا مفيدين للمقيم البريطاني في بغداد ، ولذا نجده يعطف عليهم ويتخذ منهم موظفيه . فكان منهم أغامينااس المخلص الوفي للمستر ريتش وللإنجليز (٤) وكان وكيل ريتش في ماردين الأسقف الأرمني جيوشينوتاباس .

وزاد من ارتفاع شأنهم أنهم كانوا تحت الحماية البريطانية . وكان القنصل البريطاني ريتش لا يعطف عليهم وحدهم في الواقع ، بل كان يعطف على المسيحيين بوجه عام (٥) .

وغير هذه من الطوائف المسيحية يوجد البعاقبة في بلاد الكرد ولهم بطريقهم في ديار بكر ويصفهم دوبريه Dupré بأنهم أميون جهلة (٦) .

سياسة داود لإزاء الطوائف المسيحية :

وكانت معاملة المسيحيين في العراق طيبة في العهد العثماني وفي عهد داود فلم نسمع عن أي شكوى أو اضطهاد ديني أو ضغط مالي ، ولكن كانت هناك أمور داخلية دعت الوزير ورجاله إلى التدخل فيما يحدث بين الطوائف من نزاع ، والطوائف المسيحية في نزاع لا يتقطع .

(١) رحلة المرى : ٢٤ .

(٢) Heude : Op. cit. P. 200 .

(٣) Dupré : Op. cit. T.I. P. 80 .

(٤) رحلة المتشي البندادي : ٧٩ .

(٥) Groves : Op. cit. P. 26 .

(٦) Dupré : op cit. I. p. 81—100 .

فاردین كانت حافلة بالمنازعات بین المسیحیین فیها ویقول جروفز Groves إن ویوده ماردین كان یشجع تلك الخلافات لیحصل من الطرفین علی الأموال (١) . ولا نستبعد ذلك علی حاکم ماردین ، ولكن ننكر علی جروفز إبراز حکام العراق بصورة مثيری الفتن بین المسیحیین ، وكانت أحوال المسیحیین فی ماردین مینة بسبب الفتن العبدیة ، وکثیراً ما كان یستعر القتال وتسفک الدماء بین العاقبة والکلدان (٢) .

وكان لذلك النزاع بین الکلدان والعاقبة صدی قوی فی بغداد وفی دوائر المسیحیین فإن جروفز Groves — وهو مبشر بروتستانی — یتم الأسقف الکاثولیکی بعزل بطریق الكنيسة یعقوبیة فی ماردین . وكان هذا الأسقف الکاثولیکی أكثر من غیره قرباً من باشا بغداد . ویتهم جروفز أيضاً بأنه هو الذی أوعز إلى أئمة مساجد بغداد بنشر فكرة علم استلام الکتب المطبوعة بقصد عرقلة نشاط جروفز Groves . إن العداء بین جروفز وذلك الأسقف الکاثولیکی ترجع إلى ما بین الکاثولیک والبروتستانی من عداة مذهبی مستحکم وإلى أن جروفز كان أول مبشر بروتستانی إنجلیزی یستقر فی العراق . ولم یجد جروفز أی اعتراض من جانب داود ورجاله (٣) بل سمح له بفتح مدرسة لتعلیم الصغار . وسمح له ببيع الإنجیل وعقد الاجتماعات الدینیة فی حرية تامة . وكان من الطبیعی أن تتسع دائرة معارف جروفز بسرعة نظراً لأن المقیمة البریطانیة احتضنته فهو مبشر إنجلیزی بروتستانی وهذا ما لم یکن متوفراً لها من قبل . وقد تعدی نشاطه حدود بغداد فوصل إلى حلب وماردین والموصل ویوشیر . وأصبحت حلقات اتصالاته واسعة کما كانت آماله کبریة فی أن یفتح مدرسة فی الموصل ، ولكن کل هذه الآمال جاءت فی سنة ١٨٣٠ — ١٨٣١ وهی سنة الحروب والأوبئة والفیضانات فتوقف نشاطه التبشیری وقد زوجته

(١) Groves: op. cit P. 8, 27—8

(٢) Groves: op. cit. P. 31—43.

(٣) انظر من التعلیم الأجنبی فی العراق فی الفصل الثامن .

ورحل مع رجال المقيمة عن بغداد وترس المسيحيون وراء الأبواب خوفاً من الوباء ومن اللصوص . وقد أمضى جروفر حياته في العراق في وضع أسس نشر المذهب البروتستانتي ومقاومة المذاهب الأخرى ، وبخاصة المذهب الكاثوليكي الذي كان مبشروه في العراق يعملون منذ أمد طويل ، والكاثوليك — كما هو معروف — يتطلعون إلى فرنسا ، ولذلك لم يكن عداء جروفر للكاثوليك خالصاً لله فقد كان النزاع بينه وبين الكاثوليك تلهيه الأهداف السياسية لكل من فرنسا وإنجلترا . وكان طبيعياً أن نجد القنصل الفرنسي بهم بالكرملين وأن نسمع عن شائعات من الجانب الكاثوليكي تحاول إساءة سمعة الإنجليز^(١) .

حقيقة كان المسيحيون يعانون نوعاً من الضغط وكانت لهم حياتهم الخاصة . داخل إطار المجتمع العراقي^(٢) ، ويمكن أن أؤكد أن ذلك الضغط ليس براجع إلى تعصب ديني ، بل لأن الأقلية المسيحية دائماً كانت تعمل في نطاق عصبيتها وشعورها بالضعف يقودها إلى التماسك والتآزر فيما بينها مع شعور بالخوف والرهبة في المحيط الإسلامي الكبير الذي يعيشون فيه ، وكان ذلك الشعور بالضعف من العوامل التي جعلتهم يتقربون أو يتقرب إليهم القنصل الإنجليزي فكان منهم عيونه ، ومنهم من تولى مناصب الحكم في الموصل ، وكان من رجال ريتش من قبل^(٣) . وكانوا يحضرون ديوان ريتش وحفلاته الرسمية^(٤) . ولا شك في أن ذلك يزيد في كراهية بعض الأهالي لهم نتيجة للشك في مثل تلك العلاقات . والواقع أن تلك الشكوك كانت أيضاً تساور الفرنسيين الذين كانوا يعتقدون أن الإنجليز لا يسعون فقط إلى احتلال العراق ، بل أيضاً إلى تحويل أهلها إلى الدين المسيحي . وللفرنسيين — برغم ما نعرفه من مبالغتهم في مثل هذه الأمور لتشويه سمعة وأعمال الإنجليز أعدائهم في السياسة والمذهب — حق

Groves: op. cit. p. 138 (١)

Rich: Narrative of Residence, II, P. 24 (٢)

Alexander: op. cit. P. 289 (٣)

Ainsworth: A personal Narrative, II, P. 76 (٤)

في أن يعتقدوا ذلك . فلقد كان ريتش Rich نفسه يعتقد أن الدين الإسلامي هو العقبة في سبيل إصلاح أمور العراق^(١) . ويعتقد جروفرز Groves أن عدداً كبيراً من مسلمي الموصل قابل للتحويل إلى الدين المسيحي . وكان جروفرز نشطاً في حماية المسيحيين وإبقائهم على دينهم ، وكذا تابلور القنصل الإنجليزي الذي حمى ابنتين ليستانجي داود باشا لأن أباهما الذي أسلم أراد منهما اعتناق الدين الإسلامي مثله^(٢) .

وعلى أي حال يدل عدم اتهام الرحالة المسيحيين أو المسيحيين في العراق لداود ورجاله بالتعصب على أن التسامح الديني كان أساس معاملة الحكومة للمسيحيين .

سياسة داود لإزاء اليهود :

الأقلية الثانية الهامة غير المسلمة في العراق هي اليهود ، وهؤلاء استوطنوا العراق منذ عهود صحيحة وربما كانت أحوالهم في العهد العباسي أحسن من أحوال المسيحيين^(٣) .

وقد وفد على العراق في ذلك العهد عدد كبير من اليهود وتولوا مناصب خطيرة وكانت لهم في بغداد مستعمرة^(٤) ظلت مزدهرة حتى سقوط بغداد في يد المغول سنة ١٢٨٥^(٥) .

وكانوا يعيشون في العراق دون أن تحدث بينهم خلافات مذهبية^(٦) ، وقدر عددهم في مطلع القرن التاسع عشر في بغداد بحوالى ٢٥٠٠ أسرة يهودية^(٧) . ويقدر عددهم في عهد داود في السليمانية بحوالى ٣١٠ بيت أي حوالى

(١) Groves: Op. cit. P. 53

(٢) Ibid: 22 — 3

(٣) المقدسي : ١٨٣ (عن فيليب حتى تاريخ العرب : القاهرة ج ٢ : ٤٤٩) .

(٤) ياقوت : ج ٤ : ١٠٤٥ (عن فيليب حتى تاريخ العرب : ج ٢ : ٤٤٩) .

(٥) فيليب حتى تاريخ العرب . الطبعة الثانية : القاهرة ١٩٤٩ : ج ٢ : ٤٥٠ .

(٦) Heude: Op Cit. 182

(٧) Olivier: Op. Cit. IV. P. 324—5, Dupré, Op. Cit. I, 173—4

١٥٠٠ - ١٨٠٠ نسمة^(١). وفي ماردين يوجد منهم حوالى ثمانمائة يهودى^(٢) ، ويوجدون بنسب مختلفة فى عانة^(٣) . ولم جالية وكنيسة فى كبرى وهم فى بنجوين يتاجرون بين سنة وهمدان^(٤) ، وهم حوالى الألف فى الموصل^(٥) . ويحدثنا كدورى عن مشاعر وإحساسات اليهودى فيقول إنه لا وطن له ، وإن هذا الشعور بعدم الاستقرار يدفعه إلى أن يعمل لنفسه ولبنى جلدته فقط دون أهل البلاد التى ينزل فيها ويتنفع منها وأن الخيانة عنده ليست خيانة السلطان أو الباشا أو الجار المسلم ، وإنما الخيانة هى تلك التى تكون موجهة لإسرائيل^(٦) . فهم يتطلعون إلى أرض الميعاد ولكنهم كانوا أضعف من أن يرفعوا سلاحاً فى وجه الدولة العثمانية فى سبيل هدفهم هذا^(٧) .

وكان اليهود يشتغلون بأخطر الأعمال التجارية والمصرفية وفى الوقت نفسه يشتغل بعضهم بأحق أنواعها ، وهم فى عملهم شريون غشاشون نفعيون لا يهتمون بالمبادئ . ويكونون فى البصرة وبغداد جماعة مستقلة شأنهم فى ذلك شأن إخوانهم فى مدن العالم قاطبة لا يزوجون من غير جنسهم ، فحافظوا على صحتهم المعروفة .

وقد امتازوا بمهارة فى أعمالهم التجارية والمصرفية ، وكانوا يتكلمون بالعربية وأحياناً يكتبون بالعبرية . وقلة منهم تعرف الفارسية والتركية فتفوق عليهم أرمن البصرة الذين كانوا يعرفون عدداً آخر من اللغات الحية إلى جانب ما ذكر . وكان تلاعب اليهود فى أعمالهم التجارية^(٨) لا يثير الحكام فى عهد داود

(١) النضى البندادى : ٥٩ .

(٢) Dupré: Op. Cit. I, p. 80.

(٣) Ainsworth: Op. Cit. II. P. 409

(٤) Rich: Narrative of a Residence I.P. (٥)

Oliver: Op. Cit. IV. P. 268—9.

(٦) E. Kedourie: England and The Middle East. London. 1956, P. 84

(٧) رحلة تيبور : ٤

(٨) فى مختلف الصور كان اليهود موصومين بهذه الصفة .

فحسب ، بل كانوا أيضاً يثيرون الوكيل الإنجليزى فى البصرة ، ومع ذلك يمكن أن نقول إن هذه الأقلية كانت ذات فائدة كبيرة لكل من حكام العراق ووكلاء شركة الهند الشرقية البريطانية فى العراق . فمنهم من دبر المؤامرة^(١) التى أودت بسعيد ، ومنهم من كانوا صرافى داود ومن كان يتآمر معه ضد صادق أفندى^(٢) ومنهم من كان يتعاون مع ريتش فيعطيه إحصاءات عن دخل إحدى مدن العراق الهامة . ذلك الميل المتبادل بين اليهود وريتش يرجع إلى أن الأقلية اليهودية تسعى دائماً إلى حماية أجنبية وتاريخها الطويل يؤكد هذه الحقيقة . ويرجع ذلك إلى أن الأقلية اليهودية تخشى ذلك المجتمع العربى الإسلامى الضخم الذى تعيش فيه وتبذره ولا تشاركه آلامه وآماله ولا يفهم إلا مصالحهم . وأروع مثل على ذلك فى العراق مؤامرة عزرا فى مسألة سك النقود باسم سعيد باشا . وهذه المسألة تؤكد لنا أنه كان لليهود مركز هام فى الآستانة يجعلهم قادرين على تحقيق آمالهم فى بغداد ، ويؤكد لنا أيضاً أن الآستانة كانت من مصلحتها أن يتولى أمر الشؤون المالية والتبادل المالى وسك العملة يهودى لأن اليهود أقدر على نقل الأموال من بغداد إلى الباب العالى وإلى أصحاب النفوذ فى الآستانة . ومن ناحية أخرى كان اليهود بالفعل رباطاً بين بغداد وأجزاء الإمبراطورية من الناحية المالية ، كما كانوا ينقلون أنباء بغداد إلى الآستانة وبالعكس .

ومنذ أن تولى داود الحكم كان عليه أن يرسل بعض الأموال إلى الباب العالى وأن يكون تحت يده مبالغ كافية لسد حاجاته ، وذلك يوجب عليه أن يكون فى سرعة فوق العادة . ولم يكن أمامه سوى اليهود ، فطلب منهم أن يملؤه بالأموال على (كيبالات) تستحق الدفع فى مواعيد محددة ، ولكن أثرياء اليهود امتنعوا عن ذلك . فقبض على عدد منهم وطالبهم بتقديم الأموال بسرعة ، وكان الصراف

(١) راجع النزاع بين سيد وداود (الفصل الثانى) .

(٢) راجع مقتل صادق أفندى (الفصل السابع) كان صادق قد جاء من الآستانة ليزل

داود من باشوية بغداد .

باشى قد استغل من قبل يهود بغداد في سبيل سد مطالب كبار الموظفين وكان حساب يهود بغداد مع يهود الأستانة قد توقف لارتفاع دين يهود بغداد ولكن لم يثن رجال داود عن الاشتداد في مطالبهم معتقدين أن اليهودى لا بد أن يكون لديه من الأموال مهما ساءت الحالة العامة ما يفك به ضائقته . وفلا أفاد التهديد في إرغام اليهود على تقديم المال نظير كيبالات وهم يعتقدون تمام الاعتقاد أن هذه الكيبالات لا تساوى عندهم قيمة الورقة التي كتبت عليها (١) . وهنا لم يختلف داود عن أسلافه في معاملة اليهود وهو موقف قد يلام عليه ولكن تاريخ اليهود وعقلية داود التي شابهت عقلية على بك الكبير من حيث جمع الأموال اللازمة للإصلاح عن طريق المصادرة حفزته على أن يقوم بهذا العمل . على أن دور اليهود السياسى والاقتصادى دور غير شريف في معظم فصوله . فهم كانوا تحت الحماية البريطانية (٢) ولعبوا دوراً غير شريف في الأزمة بين داود وريتش إذ كانوا له عضداً ويعبر ريتش عن أسفه بعد خروجه من بغداد لمصير هؤلاء اليهود . ويقول إن أملهم الوحيد هو الفرار من بغداد (٣) ولقد عمل داود فاعلاً على الانتقام منهم فصادر أموال جماعة كثيرة منهم حتى اضطر بعضهم إلى ترك بغداد (٤) . وفروا إلى مسقط حيث كان يحكم السيد سعيد (٥) عدو داود وحليف الإنجليز الذين يدعون حماية الأقليات . على أن هذا لا يدل على أن هجرة يهودية على نطاق واسع قد نظمت للفرار من ضغط داود . فإننا نجد يهودياً على رأس نقابة الصرافين وهو إسحاق اليهودى الذى كان من مستشارى داود والذى اشترك اشتراكاً فعالاً في مأساة مقتل صادق أفندى (٦)

(١) بغداد كوله من : ٤٤ .

(٢) Groves: Op. Cit, P 26

(٣) Rich: Narrative of Residence, II, p. 183

(٤) الأعظمى : مختصر تاريخ بغداد . ٢٣١ - ٢٣٢

(٥) J.R. Wellsted: Travels in Arabia-London, 1839-Vol. I. P. 15, 22

(٦) بغداد كوله من : ٤٤ .

وهكذا كان لليهود أدوار خطيرة في مشكلات العراق الكبرى . في مصرع سعيد ، وفي النزاع بين داود وريتش ، وفي مصرع صادق أفندي ويقال إن أول إصابة بالطاعون ظهرت في الحى اليهودى القلدر (١٨٣١ م)^(١)

سياسة داود لإزاء آل عبد الحليل في الموصل :

· دانت الموصل للحكم العربى منذ الفتوح الإسلامية وعاشت تحت تأثيرات مختلفة كالعصبية الكردية في كردستان والعشائر العربية النازلة بالقرب منها بين دجلة والفرات كعقيل وطى وغيرها . كذلك عاشت تحت تأثير الأقوياء من حكام الشام حتى ارتفع شأنها بتولى عماد الدين زنكى الحكم فيها وقيام إمبراطورية نور الدين محمود التى خلفتها إمبراطورية صلاح الدين الأيوبي التى بلغت الموصل . وهى بذلك تكون المنطقة العراقية الوحيدة التى كانت تولى وجهها نحو الشام فى أوقات عديدة من التاريخ الإسلامى الوسيط . ولكن اتجاه الموصل هذا لم يلبث أن تحول عن الشام عندما ارتبط مصيرها بمصير العراق فى إبان الدولة الإيلخانية والقره قوينلية والآق قوينلية والصفوية . حتى كان الفتح العثمانى فأكد للموصل كيانها وجعلها ولاية من ولايات الدولة العثمانية . ولكن ضعف سلطة الباشوات وضعف السلطنة نفسها أديا إلى أن تصبح العصبية المحلية هى المسيطرة على المدينة . وكان هذا الوضع سبباً فى نزاع لا ينقطع بين زعماء المدينة وبين الطامعين فى الحكم . ولما كانت الدولة غير قادرة على أن تعالج بالقوة كل فتنة فى ولاياتها المتعددة الكثيرة الفتن فلأنها كانت تلجأ إلى أسلوب آخر لتهذبة الأمور فى ولاياتها . فكانت تستقدم أشرفاً من سلالة النبى أو علماء من الحرمين إلى المدينة التى تستعربها الفتن مثل الموصل ، فقد استقدمت بعض العمرين إلى الموصل لهداية الناس إلى الطريق القويم^(٢) . ولكن لإصلاح أمر ولاية كهذه لا يتم عن طريق حديث التقوى والإصلاح لأن الإصلاح يجب أن يقوم على أساس فهم مشكلات المدينة

(١) Longrigg : Four Centuries, p. 265

(٢) سليمان صانغ : تاريخ الموصل : ٢٦٦ .

وأَسبابها ووضع العلاج على أساس هذه الدراسة . ولذلك استمرت أسباب الفتن قوية لا في الموصل وحدها ، بل في معظم مدن العراق أيضاً ، لأن المشكلات عميقة في تاريخ العراق والحلول ارتجالية وقتية غير مدروسة . ولكن التطور التاريخي لكل مدينة على هذه الشاكلة لابد أن ينتهي إلى ظهور شخص قوى قادر على مواجهة مشكلات المدينة وبسط الأمن في ربوعها فيكسب بذلك عطف الناس وجهم . وهذا ما حدث في الموصل وهو ما حدث في معظم أقالام الدولة من حيث قيام أسرات أو عصابات حاكمة . ولقد قدم الجليليون (١) خدمات كثيرة للدولة العثمانية خلال غزو نادر شاه للعراق وكان لهم الفضل الكبير في مقاومته مقاومة مجيدة توجت بانسحاب جيوشه عن الموصل ثم عن العراق (٢) . ولذلك نالت هذه الأسرة عن جدارة حكم الموصل ونالت الموصل تحت حكم حسن باشا الجليل الطويل (١٧٣٠ - ١٧٥٧) أسعد أيامها وأمجدها ثم لم تلبث أن أخذت تعاني مر العناء - مثل أخواتها في العالم العثماني - من الصراع بين أفراد الأسرة الواحدة في سبيل الحكم ومن استمرار تعدى الأكراد على المدينة (٣) . فأخذت الموصل تنهار بسرعة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر واجتاحها طاعون سنة ١٧٧٢ ففُضي على خمس سكانها تقريباً (٤) . ولكن ظلت للجليلين سمعة قوية في الآستانة التي كانت تنظر إليهم كعميون لها على باشوات بغداد . بل كانت الموصل النقطة الحساسة التي كانت تنبه الباب العالي إلى قوة باشا بغداد ، وما وصل إليه من أطماع . فلقد كانت بغداد منذ عهد حسن باشا قد فرضت زعامتها على العراق واختل التوازن بين الولايات

(١) بدأ حكم أسرة الجليل سنة ١٧٢٦ م (١١٣٩ هـ) وكان عبد الجليل الجد الأعلى للأسرة مستوطناً ديار بكر ثم نزع إلى الموصل . واشتهر بيته بالبراء والنجابة . وكان لوقوفهم الرابع من هجوم نادر شاه على الموصل صدهاء العميق التأثير في الآستانة (١٧٢٦) انظر تاريخ الموصل : ٢٧٥ .

(٢) تاريخ الموصل : ٢٧٤ .

(٣) تاريخ الموصل : ٢٠٢ .

(٤) تاريخ الموصل : ٢٩٢ .

تمام الاختلال في عهد حسن باشا وأحمد باشا . وكان هذا التفوق لبغداد أمراً تحتمه طبيعة التطور . فإن مقاومة إيران أُلقيت على كاهل بغداد ولا يمكن أن تسند إلى باشا الموصل أو إلى باشا البصرة لأن موقع بغداد هو الذي يتحكم في هذا الصدد . ومن ناحية أخرى كان لبغداد ماض تليد لا في زعامة العراق وحده ، بل في زعامة العالم الإسلامي فلا تستطيع مدينة في العراق أن تدعى ما لبغداد العاصمة القديمة من أحقية في السيادة الأدبية التي كانت تسير معها الأحقية في السيادة العسكرية والإدارية في القرن الثامن عشر .

على أن الموصل شاطرت بغداد مجد الدفاع عن العراق ضد جيوش نادر شاه . وبذلك حفظت لنفسها مكانة وتاريخاً تفوقت به على مدن العراق الأخرى . ولكنها لم تستطع التفوق على بغداد لأن التطور كان يقضي أن تتحول الموصل إلى التبعية لبغداد نظراً لتفوق حكام بغداد على حكام الموصل منذ ولاية حسن باشا الذي ضم ماردين ونصيبين^(١) — وكلتاهما وراء الموصل من الغرب — إلى نطاق حكمه . أضف إلى هذا أن العمادية وأربل — وهما وراء الموصل أيضاً من شرق وشمال — تابعتان لبغداد . ولذلك كانت الموصل مشمولة بنفوذ باشا بغداد الذي كان يسعى دائماً إلى توحيد العراق تحت حكمه . وهي خطوة سار عليها باشوات بغداد منذ حسن باشا ، ومن ثم كان ضغط بغداد على الموصل ملحوظاً في عهد المماليك لتنضوي الموصل تحت جناحهم مثلما انضوت شهرزور والبصرة من قبل . وللموصل مثل تلك الأيالتين لم تستطع مواجهة الأخطار التي تهددها إلا بوساطة مساعدات بغداد . ولذلك كان لباشوات بغداد فرص عديدة للتدخل في شئون الموصل ومحاولة السيطرة عليها . وتلك الخطوة سار عليها على باشا (١٨٠٢ — ١٨٠٧) إذ كان يولي ويعزل الحكام في الموصل^(٢) . وسار عليها سليمان باشا الصغير (١٨٠٧ — ١٨١٠) فكان بذلك من العوامل التي أدت إلى إرسال خالد أفندي إلى العراق . فقد كانت

(١) تاريخ ماردين : ورقة ١٣٨ — ١٣٩ .

(٢) مختصر المضاد ١٦٣ — ١٦٤ .

الموصل نقطة النهاية لما كان يتحمله الباب العالي من تفوق للنفوذ المملوكي في العراق . وإن تدخل باشا بغداد في الموصل بشكل عسكري عنيف معناه أن نفوذ باشا بغداد قد وصل إلى ذروته وأنه آن للباب العالي أن يتدخل ، وبخاصة أن موقع الموصل على الطريق بين بغداد والشام ووسط العصبية الكردية المتأرجحة بين تركيا وإيران كان يمنح من يستولى عليها قوة عظيمة من حيث السيطرة على كردستان وعلى الياشوات العثمانية الأخرى شمال الموصل وغربها . وكان هذا الموقع بلا شك يغري باشوات بغداد بالموصل ، وبخاصة أنهم مضطرون إلى إرسال الحملة إثر الحملة ضد البابانيين في كردستان وضد اليزيدية في سنجار . فإذا ما استولى على الموصل باشا بغداد أصبح قادراً على أن يضرب البابانيين بقوة أشد وأعنف دون الاعتماد على عود باشوات الموصل من آل عبد الحليل بتقديم المساعدات لحملات بغداد ضد السليمانية وهي عود لم تكن تتحقق في معظم الأحيان^(١) .

هذا إلى أن باشوية الموصل كانت كبيرة نسبياً ويمكن أن تقدم ٦٠٠ فارس و ٢٠٠ من السباهية ، وكان تعداد الإنكشارية من ٦٠٠ - ٧٠٠ مقاتل عدا حرس الباشا^(٢) ، وكانت تضم عدداً ليس بالقليل من السكان كان يقدر بحوالي خمسين ألف نسمة^(٣) . وكان معظم دخل الموصل من الجمارك ومعظم تجارتها مع بغداد . فقوتها الاقتصادية والسياسية مستمدة من بغداد وهذا مما يجعل الموصل تحت عين بغداد . ولا شك أن هذا الوضع يجعل بعض حكام الموصل من الجليليين يعمل على التخلص من نفوذ حكام بغداد عليهم . ويتجلى هذا في التعاون بين باشا الموصل وباشا السليمانية مع خالده أفندي ضد سليمان باشا الصغير (١٨١٠ م) ذلك التعاون الذي كلل بالنجاح من حيث طرد سليمان

(١) الزاوي : تاريخ العراق : ٦ : ٢٦٢ .

(٢) Dupré: Op. Cit. I, P. 177, 119, 121

(٣) موزعين كالآتي : ٢٥٠٠ كاثوليكي ، ٥٠٠ نسطوري ، ٢٦٠٠ يمني و عدد

من اليهود والباقي عرب وكرد وترك .

الصغير من بغداد . ولكنه لم ينجح في تخليص السليمانية أو الموصل من نفوذ المماليك . فقد انتصر عبد الله (باشا بغداد ١٨١٠ - ١٨١٣) على عبد الرحمن باشا الباباني في كفرى سنة ١٨١٢ بفضل داود ، فقصى على أمل عبد الرحمن في الاستقلال عن بغداد . ثم قام عبد الله باشا بتأديب باشا الموصل لتفاعسه عن معاونته في ضرب الباشا الكردي الثائر (١) .

ولا شك أن السليمانية والموصل — وقد شعرتا بأنهما تعانيان ضغطاً واحداً مصدره سيطرة بغداد — عملتا على التعاون ضد بغداد . ولكن ظروف كل من البلدين لم تسمح بهذا التعاون على نطاق واسع ؛ وذلك لأنهما كانتا في حاجة ماسة إلى عقلية تدبر أمور هذا التعاون وفق خطة مشتركة وترتيبات متناسقة . وهذا ما فشل فيه حكام السليمانية وحكام الموصل . وبذلك استطاع باشا بغداد أن يضرب السليمانية تارة والموصل أخرى :

وكان من الطبيعي أن تفر حركة التوحيد في عهد سعيد الضعيف ولكن عندما تولى داود الحكم تطلع إلى الموصل ، وكان عليها أحمد باشا الجليلي ، وهذا الأخير كان يسعى إلى التخلص من نفوذ والي بغداد . ولا شك أن ضعف سعيد أطمعه في ذلك ، لكن داود كان يرمى إلى توحيد العراق وتقوية قبضته عليه ، فاصطدم الطرفان ولجأ داود إلى الآستانة يطلب عزله من منصبه ولم يكن بوسع داود إلا أن يسلك هذا المسلك نظراً لأن مشكلات العراق في أول عهده كانت خطيرة ومتعددة ، فلما كان رأى باشوات بغداد معتبراً في الآستانة بشأن من يتولى حكم الموصل وكان داود مخلصاً للباب العالي وبخاصة أن وجود خالد أفندي بين رجال الحكم كان يسهل لداود تحقيق أهدافه ، فإن الباب العالي لبي طلب داود وأرسل إليه فرماناً خالياً من الاسم ليملاه داود حسب ما يراه ، فأستد الباشوية إلى حسن الجليلي (٢) . ولكن هذا الباشا لم يتمتع بمنصبه إلا بضعة

(١) المزوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢١٣ .

(٢) للماليك في العراق : ١٦٤ - ١٦٥ .

أيام لقي ربه في نهايتها بينما أحمد باشا الوالي السابق التجأ إلى داود طالباً منه العفو والوساطة لدى السلطان ليستعيد ثقته ومنصبه . فقام داود بواجب الضيافة وكتب إلى السلطان طالباً العفو عنه وإسناد المنصب إليه فأعيد إلى منصبه^(١) . وحقق داود غرضه الأول وهو وجود حاكم على الموصل يتبع بغداد . ويفهم القنصل ريتش Rich هذه المسألة من زاوية أهدافه السياسية في العراق فهو يلقي التبعة على داود فيما يقع في الموصل من اضطراب . ويقول إن يده وراء كل مؤامرة أو اضطراب^(٢) . والحق إن ريتش Rich كان لا يقبل مطلقاً أن يتم توحيد العراق تحت حكم هذا الباشا المعادى للنفوذ الأجنبي ، وكان استمرار النزاع بين الموصل وكرديستان من جهة ، وبغداد من جهة أخرى ، هو من مصلحة ريتش ، وكانت علاقة ريتش قوية بباشا الموصل^(٣) . ثم إن الموصل كانت تعج بالمسيحيين ، وهؤلاء كما ذكرت كانوا أقرب إلى القنصل من غيرهم ؛ ومن ثم كان من الممكن جداً أن تستخدم الموصل كعقبة كأداء أمام أهداف داود نحو تأكيد وحدة العراق وأنه لأمر ذو مغزى أن يقيم ريتش أربعة أشهر في الموصل قبل أن ينفجر النزاع بينه وبين داود^(٤) . والحق إن ريتش لم يكن في حاجة لخلق مشكلات بين الموصل وبغداد فقد كانت المشكلات موجودة تنتظر من يستغلها .

ولكن طرد ريتش سنة ١٨٢٠ من العراق قضى على الفتنة في الموصل وهى في مهدها وفشلت محاولات ريتش في الوقيعة بين الموصل وبغداد . وبعد رحيله استمر نفوذ داود قوياً في الموصل . وفي خلال الحرب ضد إيران سنة ١٨٢٠ وضعت قوات الموصل تحت قيادة داود القائد العام للجبهة العراقية ولكن الموصل في ذلك الوقت كانت تسير نحو الانهيار السريع نظراً لاحتدام

(١) جودت : ١١ : ١٢ - المزاولى : ٦ : ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) Alexander: Op. Cit. P. 257

(٣) Rich: Narrative of Residence in Koordistan, II. P. 24-28

(٤) انظر الفصل الخامس .

الزراع بين الأسرة الجليلية والطبقة العليا من رجال الشعب المطالبة بالاشتراك في الحكم، وبخاصة أن الباشوات الجليليين في هذه الفترة كانوا يستغلون الشعب الموصل استغلالاً اقتصادياً سيئاً . فقد كان رجال الحكومة يحتكرون تجارة الغلال ، واشتد ضغط الأهالي حتى بلغ الثروة خلال حكم يحيى باشا الجليلي (١٢٤٢ هـ) - (١٨٢٦ م) .

وقد أدى هذا الاحتكار إلى ضيق اقتصادي شديد حل بالأهالي ولذلك انفجرت ثورة شعبية عنيفة ضد يحيى باشا ولم يستطع الباشا أن يقف في وجه هذا الانفجار الشعبي الذي كان يقوده العمريون في المدينة فاضطر إلى الخروج منها والالتجاء إلى داود (١) .

كان داود كما قلنا يسعى إلى تحقيق وحدة العراق ، ولكن تولية حكام في الموصل برضا الشعب وبقوة الشعب وطرده الوالي الذي كان ينال رضا داود أمر يؤدي غالباً إلى ضياع نفوذ داود إذا ما اعترف هو بالأمر الواقع وأبقى من اختاره الشعب والياً على الموصل . لقد كان أمل داود هو السيطرة على الموصل ، لكن قيام حكم قتي جديد لاشك سيوقف هذه الوحدة لأن الحكم الجديد سيتخذ من الموصل مركزاً للتوسع لا للخضوع للحاكم آخر . ومن ثم كان قيام هذا النوع من الحكم ضد أهداف مياسة داود في توحيد العراق . ولكن بقاء حكم الجليليين الضعفاء على الموصل يؤدي إن أجلاً أو عاجلاً إلى ضم الموصل إلى بغداد .

رأى داود الخطر يهدد نفوذه في الموصل ، وأن بقاء هذا النفوذ هناك مرتبطاً بعودة يحيى باشا إلى منصبه ولكنه لا يستطيع أن يتدخل عسكرياً في الموصل ليفرض باشا عليها ، فهذا أمر من صميم أعمال السلطان . وتدخل داود على تلك الصورة سياساً فهمه في الآستانة مثلما أسمى فهم حركات سليمان الصغير في الموصل من قبل . ولذلك عمل أولاً على أن يصل إلى أهدافه عن

(١) تاريخ ماردين : ١٦١ ، لطن ج ١ : ٢٣٤ .

طريق موافقة الباب العالي على تثبيت يحيى على الموصل . فكتب للباب العالي بهذا المعنى . وقد أدرک الباب العالي أن وراء تأييد داود ليحيى باشا أهدافاً أخرى وأصبح الباب العالي يعتقد أن داود هو سبب هذه القن وخاطبة أن خالده أفتدى كان قد أعدم ولم يعد بالآستانة من يدافع بحجارة عن وجهة نظر داود . ومن ثم كان الباب العالي في قرارة نفسه يريد أن يكف يد داود عن أمور الموصل ، وأن تعامل الموصل كأبالة مستقلة بنفسها . ولكن الظروف ما كانت لتسمح للباب العالي أن يقف في وجه هذه النيات التي كانت لدى داود . فقد كانت الحروب في أوروبا ومشكلات الدولة لا تسمح للدولة بأن تتخذ في ذلك الوقت خطوات جريئة قوية لوقف حركة توحيد العراق تحت حكم باشا بغداد . ولذلك رأى الباب العالي أن بغض الطرف عن أهداف داود في الموصل وأن يوافق على تثبيت يحيى في حكمها^(١) ، حتى يأتي الوقت الذي يستطيع فيه الباب العالي أن يعيد التوازن بين الأيالات العراقية أو بسط حكم السلطان المباشر على العراق كله .

وهكذا نال داود موافقة الباب العالي على إعادة يحيى باشا إلى الموصل فأمدد داود بقوة عسكرية استطاع بها أن يشق طريقه عنوة إلى الموصل^(٢) . ولكن فرض يحيى على شعب الموصل لم يكن إلا حلاً مؤقتاً للمشكلة فلم يلبث الثوار أن طردوا يحيى نفسه في شوال ١٢٤٤ هـ - ١٨٢٨ م على أثر ثورة تزعمها قاسم العمري وعدد من أعيان المدينة^(٣) . وعزم شعب الموصل على أن يبعد هذه الأسرة عن حكمه فنصبوا عليهم أحد أعيان الموصل^(٤) .

وكان قاسم العمري يهدف من وراء طرد الجليليين إلى أن يحل هو محلهم في حكم المدينة . ولما كان داود قد أصبح له الكلمة العليا في تنصيب ولاية

(١) تاريخ لطف : ١ : ٢٢٤

(٢) تاريخ هاردين : ١٦١

(٣) الممالك في العراق : ١٨٨

(٤) المزوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢٩٩

الموصل ، فإن الثوار يعموا وجوههم شطر بغداد طالبين منه الموافقة على إبعاد الجليليين عن الحكم . ولكن داود لم يكن لي طرح أهدافه في الموصل بمثل هذه السرعة . فاتخذ جانب الأسرة الجليلية حتى أعيدت إلى حكم الموصل فعلا سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٥ هـ) وكان من الطبعي أن ينتقم الجليليون من الموصلين من أتباع العمرين . فأنزلوا أشد العقاب بأعدائهم ونفوا بعضهم إلى تلعفر ، ولكن هؤلاء الثوار أبوا أن يضعوا السلاح وأخذوا يعملون على إعداد قوة ضاربة من أبناء تلعفر نفسها ومن العرب ، ثم دبروا هجوماً على الموصل كلل بالنجاح بعد حرب دارت في شوارع المدينة . وعلى أثر هذا النصر الدموي أعلن الشعب الموصل « قاسم العمرى حاكماً عليه » . وفي هذه المرة التجثوا إلى الباب العالي مباشرة ملتجئين منه أن يصادق على تولي قاسم باشا حكم الموصل ، ولم يلتفتوا هذه المرة إلى داود . فجاء تعيين قاسم من السلطان . ولم يسع داود أمام هذا الوضع إلا أن يقبل الأمور على علاتها مؤقتاً . ولا شك أن تولية قاسم كانت من الخطوات الأولى التي اتخذها الباب العالي للحد من نفوذ داود ، فلقد أوشك النزاع بين داود والسلطان أن يندلع لهيبه ووجد السلطان أن إبعاد الموصل عن متناول يد داود أمرًا يحتمه ظروف النزاع المقبل ، بل إن هذا النزاع يتطلب وجود باشا على الموصل يكون معادياً لداود . وهكذا كانت سياسة الباب العالي في ذلك الوقت ترمي إلى وقف عملية توحيد حكم العراق تحت يد باشا بغداد كوسيلة من وسائل إضعاف نفوذ داود . ولم يسع داود إلا أن يخضع لأوامر السلطان بتولية قاسم على الموصل ، ولكن إلى حين . فقد حاول أن يعزله من منصبه مستغلاً ما كان لباشوات بغداد من حقوق في هذه الناحية وقيل إن السلطان أجابه إلى مطلبه ولكن قائماً استطاع أن يتحایل على التتار الذي كان يحمل فرمان عزله وأخلده منه فيق في المنصب (١) . وهي قصة غير مستساعة لأن الباب العالي لو كان جاداً في عزله لأصدر فرماناً آخر ولكن هذا لم يحدث فربما كانت خدعة لتضليل داود لأن السلطان كان قد قرر

التقصاء على ممالك العراق : ولم يستطع داود بعد ذلك أن يعود إلى محاولاته لانشغاله بمشكلة صادق أفندي^(١) . فقد تعاونت مشكلة تدخل داود في أمور الموصل وأمتناعه عن تقديم المساعدة المالية للسلطان في حربه ضد روسيا^(٢) والشائعات الضخمة عن التدخل الكبير للبasha^(٣) على إقناع الباب العالي بأن داود في العراق يهدد السلطان بخطر شديد إذا ما اندلعت نيران الحرب بين السلطان ومحمد علي - وإلى مصر - ولذلك أمرع السلطان بإرسال علي رضا باشا لطرده من العراق . وكان من الطبيعي أن يستعين علي رضا بعدو داود اللدود ، قاسم العمري :

وأغلب الظن أن قاسماً في تعاونه مع علي رضا ضد داود كان يرمى إلى أن يتولى بغداد نفسها . وقد جردها الطاعون من جيشها وشل رأسها المفكر داود؛ وكان داود يعلم أن مصيره الموت إن وقع في يد قاسم ، ولذلك عمل على ألا يقع في يده ولقد اتهم بأنه دبر مؤامرة لإدخال قاسم إلى بغداد ثم قتله . ومن المظنون جداً أنه لم تكن هناك مؤامرة وإنما خشي داود على نفسه فأراد أن يختفي حتى تعهد له وجهاء بغداد ألا يستسلم إلا إلى علي رضا نفسه . والشعب البغدادي رأى ما حل بالمدينة من خراب فاستقدم قاسماً دون حرب أو جدال ليتولى أمر بغداد . ولكن تمسك قاسم بالانتقام من داود؛ وتعدت قوات قاسم على بغداد مما أكد للشعب البغدادي أن قاسماً يعمل على فرض نفسه عليهم وأنه يضممر نيات خطيرة نحوهم . فكان ذلك من العوامل التي جعلت الناقمين على قاسم يلتفون حول داود وصهره صالح بك ليتخلصوا من هذا المنتقم وأدى ذلك إلى أن بصر البغداديون على مقاومة علي رضا ما دام هو ورجاله على تلك الشاكلة .

(١) جاء صادق أفندي سنة ١٢٤٥ هـ (١٨٣٠ م) لمزل داود فقتله داود فكان ذلك من أسباب الحرب بين داود وجيش السلطان بقيادة علي رضا وإلى حلب .

(٢) ١٨٢٩ م .

(٣) تاريخ لطف ج ١ : ٢٩٣

وعلى أى حال ظلت الموصل تعاني من الصراع الداخلي ، وكان عليها أن تواجه محاولة جديدة لتوحيد كردستان الشمالية تحت حكم واحد . وكان القائم بهذه العملية محمد باشا أمير راوندوز ، ولكنه لم يستطع أن ينجح لافى الموصل ولا فى الدفاع عن نفسه أمام الجيش العثماني الذي كان يعمل على إعادة الحكم العثماني المباشر فى العراق كله . وبذلك عاد حكم الباشوات العثمانيين إلى كردستان بعد القضاء على قوة بغداد^(١) .

ولم تستطع الموصل أن تقف وحدها على قدميها فظلت تابعة لنفوذ باشا بغداد حتى انتهى حكم الأمرة الحليلية نهائياً سنة ١٢٤٩ هـ - سنة ١٨٣٣ م وأصبحت منذ ذلك الوقت تحت الحكم العثماني المباشر^(٢) .

سياسة داود لإزاء ماردين :

وإلى الشمال الغربي من الموصل تقع مدينة ماردين^(٣) . وكانت من المدن ذات المكانة الممتازة فى الدولة العثمانية . ولذلك رفع منصب حاكمها إلى رتبة « الويوده »^(٤) . وكانت سلطته تمتد إلى نصيبين حتى منطقة الزبيديين الذين ينزلون منطقة جبل سنجار . وكانت ذات قلعة حصينة بموقعها لا يبقاها ، وبها عدد من المدافع ، وحرس للويوده يتكون من خمسين جندياً ؛

(١) سليمان صايغ ج ١ : ٣٠٦ - ٣٠٨

(٢) الزراوى : تاريخ العراق : ج ٧ : ٢٦

(٣) هى ماردى Mardes .

انظر :

I. Kinnier: Voyage dans L'Asie mineure et le Kourdistan, Paris, 1819, Vol. II, P. 228

(٤) الويوده : حاكم منصبه أعلى من منصب المسلم وأقل من منصب باشا من الدرجة الثانية ، والويوده يحكم ولاية صغيرة أو مدينة لا تكون جزءاً من إحدى الباشويات . وقد تكون أحياناً تابعة للسلطان مباشرة . والويوده يتمتع بكل ميزات الباشا من الدرجة الثانية ولكن أقل منه نوعاً ، وهو يقود قواته تحت القيادة العليا لباشا الكبير (أى الباشا ذو الثلاث أطول) .

انظر :

Oliver: Travels in the Ottoman Empire, London, 1801, Vol. I. 189

وكانت في بداية الحكم العثماني للعراق تابعة لديار بكر^(١) ولكنها لم تلبث أن اقتطعت منها وأضيفت إلى باشا بغداد ثم عاد العثمانيون وأضافوها إلى ديار بكر مرة أخرى سنة ١٠٥٨ هـ - ١٦٤٨ م^(٢).

ولما تولى حسن باشا باشوية بغداد سنة ١٧٠٤ م عمل على توحيد العراق تحت حكمه وقلد قيمة ماردين كنقطة هامة تسيطر على المواصلات بين بغداد والآستانة ، وكقاعدة هامة تستخدم في تأديب عشائر الزيدية التي لا تهدأ ثورتها . وكانت بغداد دائماً هي المكلفة بالخضاع هذه العشائر الممتنعة بجهالها الصعبة الاجتياز . ومع ذلك ظل الباب العالي ينهز الفرصة المناسبة لإبعاد ماردين عن النفوذ البغدادي ، إلا أنه أخفق في محاولاته وظلت ماردين تابعة لممالك بغداد^(٣).

وفي أوائل القرن التاسع عشر كانت المدينة على جانب من الأهمية فقد قلدر ديري Dupré تعدادها بحوالى سبعة وعشرين ألف نسمة تقريباً . منهم ٢٠ ألف تركي إلى جانبهم أقلية مسيحية ويهودية ضئيلة^(٤) . ولكنها - مثل معظم المدن الموجودة في الدولة العثمانية - كانت تقاسى فوضى الحروب الأهلية حتى إنها من جراء ذلك أشرفت على الخراب . فقد كان أهلها منقسمين إلى « يعقوبية » و « مليه » فإذا حكم على طارد خصومه وهكذا دواليك^(٥) . وزاد في شدة هذه الفوضى أن حكام بغداد منذ عهد سليمان الكبير كانوا غير قادرين على السيطرة على ماردين . وخاصة في عهد سعيد باشا^(٦) . وبسبب تلك الفوضى أصابها الشيء الكثير من الخراب والدمار ، وهذا ما كانت عليه

(١) Dupré: Op. Cit. I. P. 79, 80

(٢) تاريخ ماردين ، ورقة ١٣٨ - ١٣٩

(٣) تاريخ ماردين : هذه الناحية واضحة فيما كتبه عبد السلام أفندي المعنى المارديني عن تاريخ ماردين منذ تولية حسن باشا (١٧٠٤) وبعد وفاة أحمد باشا (١٧٤٦ م) .

(٤) Dupré: Op. Cit. I p. 80

(٥) تاريخ ماردين : ورقة ١٤٠

(٦) H. Garnier: Voyage en Perse, Toux, 1854, P. 81-2

عندما تولى داود الباشوية . وكان موقفه كذلك من يزيدية سنجار الذين كانوا دائماً في حالة ثورة ضدالحكام برغم الضربات الشديدة التي نزلت بهم في عهد كل من سليمان الكبير وعلى باشا وسليمان الصغير . ولقد واجه داود هذا التمرد نفسه من عشيرة اليزيدية وهي الممتنعة في جبالها ، هذا إلى أن ماردين لم تعد قادرة على أن تقوم بهذه المهمة ولا الموصل القريبة من هؤلاء اليزيديين . ولم يستطع داود في أوائل عهده أن يتخذ إجراء كفيلاً بوقف تلك الفوضى المدمرة في ماردين وفي بلاد اليزيديين . وذلك بسبب حروبه ضد البابانيين وضد إيران وضد العشائر العربية وضد الثوار عليه في مختلف بقاع العراق . ومع أن ماردين بعيدة جداً عن بغداد وتحتاجها تلك الفوضى الطاحنة كان أمر العزل أو النصب فيها واجب الطاعة . وما أشبه هذا الموقف بموقف ولاية بغداد من فرمانات السلطان الواجبة الطاعة . ونظراً لهذا الضعف الذي كان عليه ويودة ماردين لم يكن داود يعتمد عليه إلا في التافه من المساعدات العسكرية . وكان هذا الضعف أيضاً سبباً في أن يعالج الويودة مشكلات ماردين عن طريق الالتواء ليثبت على قدميه أمام الأحزاب المتعارضة في المدينة^(١) . وقد استطاع أن يسلك هذا الطريق بنجاح في كثير من الأحيان لأنه كان من حقه تعيين بعض شيوخ العشائر الكردية الواقعة في نطاق نفوذه مثل عشيرة الكرد المالية . ولكن أحياناً تقوم فتنة دموية لأن الويودة فضل شيخاً على آخر . ولسنا في حاجة لأن نروى كل ما كان يدور في ماردين من فتن وثورات متشابهة الأهداف محدودتها . وغالباً ما تقتصر على عزل شيخ وتنصيب آخر . واستمر هذا الحال حتى (١٨٢٠ م - ١٢٣٦ م) .

في تلك السنة اتخذ داود سياسة معينة نحو ماردين وقرّر أن يقضي على الفتن فيها . وكلف الويودة سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ م) بأن يقوم بهذه المهمة . وجمع داود أبناء الفتن هناك وخرج من ذلك إلى أن حزب « الداشية » هو سبب الفتن والفساد . فأمد الويودة بقوة من الجيش ليقضي على هؤلاء المتمردين .

ولكى ينجح الوجود في مهمته استعان بالمليين واستطاع أن يهزم الثوار في ذى الحجة ١٢٣٦ هـ - أغسطس ١٨٢١ م (١).

ومن ناحية أخرى قدر الوزير أهمية بقاء الحاكم في منصبه مدة طويلة . لأنها تكسبه خبرة بالحكم وتبصره بمشكلات المحكومين . ولذلك كان تعيين عبد القادر سنة ١٢٣٦ هـ ويودة على ماردين - وهو الذي خبر مشكلات ماردين من قبل - لمدة ثلاث سنوات أمراً ينطوي على بعد نظر في حكم هذه المدينة الثانية المتعددة المشكلات (٢).

وتيجة لما أصاب العراق من إرهاب مالى بسبب الحرب الإيرانية ، ولما كان يقوم به داود من إصلاحات مكلفة ولرغبته القوية في تقوية قبضة الحكومة على ماردين وعلى الزيدية - الذين حووا قاسماً الشاوي الأثر على الوزير - عمل داود على أن يقضى على الفتن التي تثيرها عشيرة الزيدية وعلى الفتن في ماردين نفسها ليجمع على ما يظن - ما يمكن جمعه من أموال من المدينة ؛ ولذلك أرسل سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ م) الوجود خليل أفندي البغدادي الذي كان يشغل منصب متصرف في بغداد . فقام هذا بفرض ضرائب ورسوم جديدة وضاعف الضرائب على التجار فأدى ذلك إلى ثورة الأهالي عليه فعزله الوزير واستقدمه إلى بغداد (٣).

وفي ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) زاد اهتمام داود بتلك النواحي المضطربة ، ولكنه في هذه المرة كان يبغي لإصلاح أمورها بأموال من بغداد تنفق عليها ؛ وفي الوقت نفسه كان يرى في استمرار تمرد الزيدية ووجود قاسم الشاوي بينهم خطراً يهدده . ولذلك نصب أحد الممالك عليها وزوده بخمسمائة مقاتل وأعطاه مبالغ وفيرة وكلفه بأن يعيد الأمن إلى نصابه وأن يصلح اقتصاديات تلك المنطقة ؛ ويبدو أن الوجود لم يقم بالمهمة خير قيام (٤) . وفي السنة نفسها

(١) تاريخ ماردين : ورقة ١٥٧

(٢) المصدر السابق : ورقة ١٥٧

(٣) تاريخ ماردين : ورقة ١٥٧

(٤) تاريخ ماردين : ١٦٠

أيضاً جرد داود حملة على عشائر الزيدية وأدبها وطارده المتمردين منها ، ومع ذلك يمكن أن نقول أن إخضاع عشائر الزيدية ^(١) والقضاء على فتن ماردین لا يمكن أن يتم بتلك الأساليب التقليدية مطلقاً ، ولقد كان أمر الإصلاح المتمر بعيداً عن تناول يد داود لعدة أمور .

١ - إن داود لم يفرغ من مشكلات الحرب والفتن إلا لفترة لا تزيد على العامين بينما عملية ربط العشائر العنيفة مثل الزيدية محتاج إلى سنوات طويلة إن لم نحتاج إلى قرن على الأقل .

٢ - إن السياسة الاقتصادية التي كان يري داود من ورأها إلى تحسين أمور ماردین لم تكن تحت رقابة كافية وكانت لفترة محدودة .

٣ - أن رواسب الماضي الكثيفة كانت تحول بين داود والقيام بإصلاحات مجدية .

وهكذا كان العلاج الذي قام به داود في نواحي ماردین وفي منطقة سنجار وقتياً واستمرت ماردین - مثل غيرها من مدن العراق - عرضة للفتن المدمرة التي لا تنقطع : وزاد من ضعف وأهيار تلك المنطقة اجتياح الطاعون لها سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ م) . وعندما زحف على رضا باشا على بغداد لطرده داود منها اشترك ويودة ماردین في الحملة ضد داود سنة ١٢٤٦ هـ - ١٨٣٠ م وكلف قاسم باشا العمرى - وإلى الموصل - بأن يذهب بقواته أولاً لاستلام بغداد التي قضى عليها الطاعون ، فذهب معه ويودة ماردین ، ودخل المدينة ، ولكن إصرار قاسم باشا على استلام عدوه داود أدى إلى ثورة بغداد وإلى مقتله هو ويودة ماردین ^(٢) .

وعلى أي حال ظلت ماردین بعد استيلاء على رضا على بغداد تابعة لها حتى ١٢٥٧ هـ (١٨٤١ م) ولكنها ظلت أيضاً في انهيار مستمر بسبب استئراء الحروب الأهلية .

(١) تاريخ لطفى : ج ١ : ١١٦ - ١١٧

(٢) انظر تفصيل مقطوعاً في الفصل السابع .

الفصل الرابع

داود وميثاقه الدخلى لإيراني

أطماع إيران في العراق - السياسة الروسية - القتال بين داود
ومحمود - الحرب بين الدولتين الفارسية والممانيّة - محمد علي
يمسك عن نجدة داود - معاهدة أرضروم الأولى - استمرار
النزاع .

داوود وميثاومة التدخل الإيراني

أطماع إيران في العراق :

كان العراق غاية من غايات الفرس في العصر الحديث مثلما كان في العصور الوسطى والقديمة . فنذ أن انزعت جيوش السلطان سليمان القانوني العراق من الصفويين كان العثمانيون والإيرانيون — على السواء — يقرعون السيف بالسيف أو المؤامرة بالمؤامرة فكانت الحروب عديدة ونتائجها في كثير من الأحيان لا تداني تكاليفها . فإيران تغدق بالجيش لآثر الجيش والدولة العثمانية تحض ولائها على الدفاع وتشحن المدن بالحاميات (١) وتدفعها إلى اجتياح الأراضي الإيرانية إذا اشتت ربح ضعف في حكامها أو قواتها الدفاعية ، فكان أن اجتاحت حسن باشا — والى بغداد ١٧٠٤ — ١٧٢٣ مقاطعات إيران الغربية فلقب بقاتح همدان وارتفع بذلك إلى مصاف العظماء في تاريخ العراق . ومن بعده نال ابنه أحمد شهرة مدوية لمواقف البطولة التي وقفها خلال اسمائه في مقاتلة نادر شاه (٢) .

ومع ما كان عليه ذلك الصراع من عنف فقد وقعت معاهدتا سنة ١٦٣٩ و ١٧٤٦ ولم تشأ العقليّة الإيرانية أو العثمانية أن تعين الحدود العراقية — الإيرانية أو أن تحدد تبعية العشائر الكردية الشامية في إيران الصائفة في كردستان . وكانت المعاهدات بين البلدين قد شطرت الشعب الكردي بينهما ، كما كانت هناك ثغرات كبيرة تسبب نزاعاً لا يفتّر وتجعل المعاهدات وقتية وغير ذات قيمة فعلية . ومعاهدة ١٦٣٩ م — وهي التي اتخذت أساساً للمعاهدات التالية لها

(١) Longrigg: Op. lit., P. 51-74-137-162.

(٢) الزاوي : تاريخ العراق — ج ٥ فيه تفصيل لحوادث حروب حسن باشا وابنه أحمد ضد إيران . وحديقة الوزراء غير المؤلفات الموثوق بها عن عصر حسن باشا وأحمد باشا .

حتى ١٨٤٧م - خير مثال لما أقول^(١) فقد تركت سقر وزهاب ودرنة في هذه المعاهدة دون أن تعين حدودها بدقة^(٢) كما كانت الهجرات تثير ارتباطاً شديداً في تحديد تبعية القبائل وهذا الارتباك في التحديد كان فرصة لتقلب القبائل على الطرفين ، وكان هناك نوع آخر من الهجرات الموسمية يثير أيضاً مشكلات معقدة بين حكام العراق وإيران في العراق مزارات الشيعة المقدسة . هذا إلى أن بغداد والبصرة أصبحتا أسواقاً كبيرة للتجارة الأوربية الإيرانية - الهندية فيتقاطر التجار إلى العراق في قوافل ضخمة ، كما تتقاطر عليه قوافل الزوار التي تحمل رفات من أسعدهم الحظ - في نظر الشيعة - بتحقيق أمنيتهم وهي أن يدفنوا بجوار حفيد النبي عليه الصلاة والسلام^(٣) وكان هؤلاء الزوار يعاملون أحياناً معاملة سيئة^(٤) من فرض رسوم باهظة إلى تهديد القبائل لهم بنهبهم مما كان يثير في نفوس حكام الفرس روح الانتقام وهم الحاققون على ما يتمتع به الحكام المماليك من أموال العراق الكثيرة . ويوضح لنا عدد الزوار السنوي لمزارات العراق وهو بين ١٥ - ٢٠ ألف زائر مدى خطورة هذه المشكلة من الناحيتين الدينية والاقتصادية^(٥) . على أن هذه الناحية الحساسة التي كانت في كثير من الأحيان مصدر تهديد للسلام بين البلدين - كانت أقل خطورة من المشكلة الكردية . فنذ فتح سليمان القانوني العراق كان الأمير الكردي الذي لا يتال مآربه في بغداد يفر إلى إيران لينال هدفه بحد السيف الإيراني^(٦) وعلى هذا النحو سارت الأمور خلال العهد العثماني والمملوكي . وكانت السياسة الإيرانية ترى من وراء ذلك إلى أن تشارك الأتراك في حكم

(١) نصوص المعاهدة موجودة في Hurewitz: Diplomacy in the Middle East, Vol. I

وانظر كذلك محمد أمين زكي : تاريخ السليمانية : ٦٥ المزاول : عشائر العراق .

ج ٢ : ٢٩

(٢) Ibid

(٣) Fontanier: Op. Cit. I, P, 323

(٤) راجع موقف سعيد وداود من مشكلة الزوار - الفصل الثاني .

(٥) سعاد المعري : ص ٤٢ .

(٦) تاريخ السليمانية : يوضح هذه الفكرة غير وضوح .

شهرزور وبأن يكون لها رأى فيمن يتولى باشوتها . فكانت هذه الأمانى من أسباب كثرة الاصطدام حتى أصبحت محكاً لقياس قوة استعداد الحكام فى بغداد لمواجهة المواقف^(١) .

وفى عهد عبد الله باشا (١٨١٠ - ١٨١٣) كان الشاه أشد رغبة من ابنه محمد على ميرزا فى الاستيلاء على بغداد ويعبر أحد ساسة القرس عن مشاعره فى هذا الصدد فيقول : وأأسفاه على وقوع تلك البلاد الجميلة بين أيدى ذلك الشعب؟؟ لو أنها كانت لنا (والله سيمنحن إياها) فبالها من بلد منصير فردوساً . وكانت التيارات السياسية فى أوروبا من العوامل التى أشعلت نار حقد الإيرانيين على الأتراك لأن السلطان عقد معاهدة صلح مع قيصر روسيا فنكرت إيران لتصيد العراق . لكن السفير الإنجليزى استطاع أن يلطف الجو بين الدولتين بأن أقنع الشاه بسحب ترشيح عبد الرحمن بابان للسليمانية^(٢) وهكذا كانت للإنجليز قدرة على وقف أو تأجيل حرب بين إيران وبغداد . فقد كان نفوذهم فى إيران قوياً وكذلك كان فى بغداد أيام سعيد ، فهذا الباشا الضعيف سمح للنفوذ الإنجليزى الفارسي أن يشتد فى العراق حتى إن الشائعات كانت ترددها هناك عن أن العراق على شفا الوقوع بين يدي الشاهزاده محمد على ميرزا حاكم كرمنشاه^(٣) .

ولما كانت العراق محط آمالم ، وما كان الشاه لينسى كارثة كربلاء (١٨٠١) ، وكانت الثمرة قد آن اقتطافها ، فإن الشاهزاده محمد على ميرزا أخذ ينظر من جديد إلى فتح العراق كله لا السيطرة على شهرزور فقط . وكانت مقدمات هذا الاتجاه عدواناً إيرانياً مستمراً على الحدود العراقية - الإيرانية

(١) ظهر هذا واضعاً منذ حكم على باشا (١٧٠٢ - ١٨٠٧) النزوى تاريخ العراق ج ٦ : ٣٢٥ - تاريخ السليمانية : ٦٥

(٢)

J. Morier: A Second Journey through Persia, Armenia and Asia Minor, le Constantinople, London, 1812, P. 364 / P. 222

(٣) راجع علاقة داود بمسجد وأسباب الثورة عليه فى الفصل الثانى .

منذ انتصار داود في موقعة كفري (١٨١٢) على عبد الرحمن الباباني ،
كما ازدادت العراقيل في وجه المفاوضات العثماني . وكانت العقوبات الكبرى الى
تواجه المتفاوضين هي :

- (١) مطالبة إيران بأن يكون لها رأى في تعيين حكام السليمانية .
 - (ب) دفع حكام السليمانية مبالغ سنوية لإيران .
 - (ج) مشكلة القبائل الرحل المتنقلة بين الأراضي العثمانية والإيرانية .
 - (د) مشكلة معاملة حجاج العتبات المقدسة .
 - (هـ) المشكلة الكردية وقبول اللاجئين^(١) .
- ونظراً لتعقد تلك المشكلات كانت المفاوضات غالباً ما تنتهى دون
الوصول إلى الهدف المنشود فتظل بذرة النزاع نابتة .
- على ذلك النحو دارت المفاوضات بين الباب العالي والشاه بشأن تلك
المنازعات ، وانتهت المفاوضات دون أن تثبت بتاً قاطعاً في أية مشكلة من تلك
المشكلات إلا من حيث تنازل إيران عن الأموال التي كانت تأخذها سنوياً
من عبد الرحمن بابان وكانت حوالى عشرة آلاف تومان .
- وفي حياة عبد الرحمن نالت إيران تفوقاً كبيراً جداً في كردستان حتى إنها
كانت تحتل معظم المناطق المشكوك في تبعيتها لكل من الطرفين وبعض المناطق
التابعة للعراق . فقد كانت تحتل لواء حلوان وهو يشمل « زهاو » ودرتلك
وقصر شيرين^(٢) .

وكان عبد الله باشا وسعيد باشا أضعف من أن يقفا موقفاً حازماً من
إيران وكانت سياسة داود مناهضة منذ البداية لإيران فتحالف داود مع محمود
الباباني ضد سعيد على أساس تحيّل محمود عن الإيرانيين . ومنذ أن تولى داود

(١) جودت : ج ١٠ : ١٢١ - ١٢٢

(٢) جودت : ج ١٠ : ١٢٢

باشا الحكم لم يحضر في أية مناسبة يحتفل بها معتمد الشاه في بغداد . وكانت أسس حلفه مع محمود بابان مضیعة للتفوذ الإيراني في كردستان وقد منحه داود كوي وحریر مكافأة له على تخليه عن إيران (١) . وكانت إيران متحفزة لتلهم العراق ، وتحول هذا التحفز إلى رغبة جاححة أثارتها السياسة الروسية ، التي بدأت تنفذ سياسة مرسومة في الشرق الأدنى . وكانت إيران قد تلقت مندوق وجيز صفقة معاهدة كلستان المهينة حتى أصبحت كتابعة لسانبوسرج (٢) وهذا هو العامل الجديد الذي ظهر في المشكلة العراقية الإيرانية وأعنى به مؤامرات عملاء روسيا في إيران لإثارتها ضد الدولة العثمانية .

السياسة الروسية :

ففي سنة ١٨١٧ م لم يكن هناك أمل للإيرانيين في أن يستردوا شيئاً من ممتلكاتهم المفقودة بمساعدة حلفائهم القدماء (الإنجليز) . بينما أرسل القيصر الجنرال يارمولوف Yarmoloff الحاكم الجبار والقائد العام للقوقاز على رأس بعثة دبلوماسية مهيبة إلى طهران ، وبدل أن يتنازل الجنرال عن ش. من الممتلكات التي استولت عليها روسيا من إيران قدم اقتراحاً بعقد حلف إيراني - روسي ضد الدولة العثمانية . وطالب في هذا الحلف بأن تمنح القوات الروسية ممراً عبر الأراضي الإيرانية في استراباد وخراسان لتصل هذه القوات إلى خيوه ، كما اقترح أيضاً إمداد الجيش الإيراني بالضباط والقيادة الروسية . ولكن كل هذه المقترحات رفضت في هدوء وعادت البعثة الروسية إلى بطرسبورج محملة بالهدايا وإن كانت ممتلئة غيظاً من إيران (٣) ، ولا شك أن هذه التلميحات عن التوسع في ناحية الغرب كان لها صداها في البلاط الإيراني .

(١) جودت : ج ١١ : ٣٠ .

(٢) Hoskins: British Routes to India, London, 1926, P. 137

وانظر نصوص معاهدة كلستان في Hurewitz: Op. cit., Vol. I. وانظر .

ظروف عقدها في Sykes: A History of Persia, London, 1951, Vol. II P, 313, 315

(٣) Ibid

على أن العوامل الأخرى المؤدية إلى النزاع بين إيران والدولة العثمانية كانت على صورة أشد خطورة لأن خطة كرمشاه لم تقف عند مؤامراتها في كردستان فقد نشطت كرمشاه في جمع الأعوان من كبار الحكام ومن الزعماء العرب أيضاً وهي ترى من وراء ذلك إلى السيطرة على كردستان بالضغط العسكري والسياسي . وبشغل الباشا في بغداد بالمؤامرة تلوا المؤامرة حتى يعجز عن منازلة كرمشاه ويضج العراق من عجز الباشا فيثور ويضطرب ويخلع الباشا ليأتي آخر ربما يكون من المماليك المواليين لإيران . ومصدق ذلك اشتداد المؤامرات الإيرانية داخل بلاط داود نفسه ، ولذلك قضى على الرؤوس الخائنة وعمل على أن يبعد محموداً عن الشاهزاده بالنصح والترهيب^(١) فأرسل مهرداره عبد الله أغا إليه لينصحه بالابتعاد عن الشاهزاده وعبثاً حاول المهردار^(٢) لأن محموداً كان يعتقد أن قوة كرمشاه عظيمة بينما تولى داود الحكم منذ وقت قصير بمجد السيف الكردي ثم إن الباشا لا يستطيع أن يشن ضده حرباً في هذه الظروف ولكن محموداً أخطأ التقدير لأن داود باشا كان مصراً على الإصرار على ضرورة القضاء على النفوذ الأجنبي في العراق أياً كان مصدره ، الفرس أم الإنجليز . وكان الباشا قد زود مهرداره بالتعليقات التي يجب أن يسير عليها إذا ما رفض محمود العودة إلى حظيرة الدولة العثمانية فكلفه بالاستيلاء على كوي وحريز في هذه الحالة ، فقام عناية الله بمن معه من قوات معززة بمجندين كوي وعشائر الشامك^(٣) وديزه في واستولى على كوي وحريز^(٤) ، وأسندها إلى حليفه حسن — أخى محمود البابائي — الذي انضم إلى داود .

القتال بين داود ومحمود :

وكان من الطبيعي أن يستنجد محمود بحليفه الشاهزاده فأمدّه هذا بعشر آلاف مقاتل وكانت هذه العمليات العسكرية السياسية المبدئية الناجحة التي

(١) ، (٢) جودت : ١١ : ٣٠

(٣) الشمالك والديزة في عشرينان كردستان وقفهما داود على الخدمة العسكرية .

(٤) جودت : ١١ : ٣٠

وجهها داود إلى محمود تنذر بأن محموداً يكاد يفتق فاستنجد مرة أخرى بالشاهزاده فلباه هذا بسرعة ليضمن السيطرة على الموقف وأخلت قوات الشاهزاده تفرح أبواب العراق بعنف^(١).

وهكذا أصبح لزاماً على داود أن يخوض الحرب مرغماً مع جارتها الكبيرة ومن ورائها إيران بأسرها . وكانت إيران في ذلك الوقت قد سبقت الدولة العثمانية في إدخال النظم العسكرية الحديثة في جيوشها بالقدر الذي سمح به ظروف إيران، وبخاصة أنه لم يكن لديها فرق إنكشارية لتعرقل هذا التطور . فكان لدى الشاهزاده محمد علي ميرزا - وأخيه عباس ميرزا - من الجيوش النظامية والمدفعية المدربة ما يستطيعان أن يخوضا بها معركة ناجحة ضد حاكم شرق . ولاشك أن توزيع الولايات على أولادالشاه قوى الرغبة في أن يستولى الفرس على العراق . وكانت بغداد هي الاتجاه الذي يمكن أن يسير فيه محمد علي ميرزا إن أراد التوسع . ولتتحقق أمنيته هذه يجب أن يخوض حرباً عنيفة ضد الدولة العثمانية ، وهذا يحتاج إلى إعداد وتنظيم جيوش كبيرة . نعم إن نشاط الشاهزاده محمد علي ميرزا وأخيه عباس في تنظيم الجيوش إنما كان نتيجة درس تلقوه من الروس خلال المعارك التي خاضها الفرس ضد الروس في العقدين الأول والثاني . من القرن التاسع عشر ، واستغلوا هذه القسوات الحديثة التنظيم أولاً في قتال الدولة العثمانية^(٢) ، فأخذ الفرس يعملون على استبدال فرق نظامية بالقوات العشائرية ، واعتنى عباس ميرزا بالمدفعية . وكان تحت قيادته وحده جيش قدر تعداده بحوالى ١٠ر٦٤٠ مقاتلاً ، عدا القوات غير النظامية . أما إذا خاض الشاه الحرب بنفسه فإن عدد الجيش الإيراني يرتفع إلى ١٠٠ ألف بل وإلى ٣٠٠ ألف مقاتل . وهذه جيوش كفيفة في الحقيقة باجتياب العراق . فلم يكن في العراق من الباشوات متسلمين الكبر من استقرار في حكمه هادئاً لمدة كافية يستطيع خلالها أن ينظم جيشاً على الطراز الحديث^(٣) . ولذلك

(١) محمد أمين زكي : تاريخ السليمانية : ١٤٠

A. Wilson: Persia, London, 1922, P. 321

(٢)

(٣) تفصيلات وافية عن الجيش الإيراني في :

Fraser: Narrative of a journey in Korasan, 211, 225 — 227 Wilson: Persian Gulf P. 321. Heude: Op. cit. P. 186

كانت قوى بغداد هزيلة أمام عدوتها كرمشاه . ويصور لنا الرحالة الإنجليزي « هود Hode » قوة بغداد العسكرية تصويراً يؤكد أن العراق سيجثو على ركبتيه عند أول لقاء بين الجيشين البغدادي والإيراني وأن قوة العراق أضعف من أن تقف في وجه المؤامرات الداخلية العنيفة (١) .

إن هذه الحرب التي استعد لها أمير كرمشاه بقواته الكثيفة لم تكن حرباً على نطاق ضيق مثلما حدث أيام أسلاف داود منذ أيام سليمان الكبير ، وإنما كانت حرباً على نطاق واسع . ونطاقها كان أكبر من نطاق تلك التي شنّها كريم خان الرندي وإن اتفقت معها في الدوافع والأسباب . حرب قصد بها الوصول إلى بغداد والاستيلاء عليها لتكون عاصمة الشاهزاده الواسع الآمال . ولاشك أن هذه النيات هي التي طورت أساليب العلاقة بين الإيرانيين والعراقيين ، فلقد تكشفت المؤامرات الفارسية في بلاط سعيد ثم في بلاط داود من بعده عن أن تيار النفوذ الإيراني بعد أن ملأ كردستان بدأ يصب في بغداد لتغمرها مؤامرات لفظت دوا ماتها علاقات لحمها المنفعة الشخصية وسداها خيانة مصالح البلد ، إما لعدم تقدير قيمة تلك الحيوانات أو لمصلحة دولة أجنبية . وكان على رأس المتصلين بالشاهزاده القنصل الإنجليزي رينش ، وكانت لهذا القنصل أهداف تتعارض مع مصالح داود (٢) . جاء هجوم جيش الشاهزاده على الأرض العراقية من ثلاث جهات : (١) جيش بقيادة محمد علي أغا البياتي على رأس عشرة آلاف جندي موجه إلى كردستان .

(ب) وجيش بقيادة حسن خان القبلي (٣) وعساكر اللمهاجة مندى :

(ج) وجيش ثالث بقيادة علي خان كلهر (٤) لمهاجمة بدره جسان .

فأسرع داود إلى إخماد دولته بهذا التعدي العنيف وحشد قواته ووضع

(١) انظر الفصل الثاني .

(٢) انظر الفصل الخامس داود ومقاومة النفوذ الأجنبي .

(٣) القليلة عشيرة كردية .

(٤) عشائر الكلهر (الكلور أو الكلهور) كردية تابعة لإيران .

خطته على أساس صد كل هذه القوات المتقدمة . فبعث بقوة على رأسها خليل أغا كمتخذا البوابين إلى منلى . وأرسل عبد الفتاح الباشي أغا السابق إلى بدره وجسان : وتولى الكيخيا محمد أغا قيادة القسم الأكبر من جيش داود وزحف به في اتجاه السلجانيه ليمنع الاتصال بين الجيوش الإيرانية وقوات محمود الباباني .

وبينما كان داود يعد الخطط لمواجهة الهجوم الإيراني ويكلف القوات بالمهمات والواجبات انفجر خطر شديد في العراق العربي ، هدد داود وهزهزة عيفة . ذلك أن صادق بك فر إلى شيخ زبيد ليحقق آماله في تولي الباشوية وصادق بك هو صهر داود وكان يطمع في الحكم .

وكان لابد لداود أن يعدل من خطته لمواجهة هذا الخطر الجديد ، فسحب داود كيخياه ووجهه بقواته صوب زبيد ووجه عبد الله باشا الباباني في اتجاه السلجانيه - كركوك ، وأرسل محمد باشا ابن خالده. باشا وعشائر الدينزه في والشمامك للتعاون مع عبد الله . فاجتمعت هذه القوات في كركوك . فكان اجتماعها هناك من الأسباب التي منعت محمود باشا من الزحف على كوى لما كان ينطوى عليه ذلك الزحف من تهديد بقطع خطوط مواصلات محمود الباباني أما القوات الإيرانية في منلى وبدره وجسان فلنما اكتفت بذلك الانتصار المبني الذي أحرزته . وقيل إن الشاهزاده كان يستعد لقيادة قواته بنفسه لهجوم عام فعسكر في باي طاق ومع ذلك فقد بدأ الفتور يسود معظم ميادين القتال . وبدأت مراسلات عقد الصلح بين الطرفين .

يقول جودت إن قوات محمود والشاهزاده عجزت عن إحراز النصر أو التقدم في وجه المقاومة العنيفة التي صادفها حتى إن الشاهزاده آثر أن يوقف الحرب ويعقد الصلح^(١) .

(١) جودت : ج ١١ : ٣٠ - ٣٢ - المزوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٥١ .
تاريخ السلجانيه : ١٤١ .

واعتقادی أن الأمر كان على غير ما يرويه لنا جودت ، فالوقوف كان لصالح الشاهزاده ، وأن داود هو الذي وقع في مركز في منتهى الحرج فقواته كانت مشغولة في شمال وجنوب العراق ولم يستطع أن يحرز نصراً. ولو كان الأمر ينطوي على عجز من جانب الشاهزاده وحليفه محمود لكانت شروط الصلح متعادلة بين الجانبين على الأقل ، ولكنها كانت في حقيقة الأمر ضد مصالح داود في غالبيتها العظمى فلقد اشترط الشاهزاده أن يبقى محمود بابان حاكماً على السليمانية وأن تضم إليه ثانية كوى وحرير، وأن يمنع عبد الله من متابعة تقدمه نحو السليمانية وهذا كله في مقابل إعلان محمود الخضوع لباشا بغداد (١) .

ومن ناحية أخرى كان النفوذ الإيراني على أشده في كردستان عقب هذا الصلح - فقد ائتمنت الأمرة البابانية بفضل الوساطة الإيرانية ونال حليف الوزير - أي عبد الله الباباني - كوى وحرير عن طريق معتمد الدولة الإيرانية (٢) وسلم حسن بك إلى أخيه محمود (٣) ولم ينل شيئاً من المناصب، وهكذا كان توزيع المناصب بيد الإيرانيين . وخفت يد داود باشا كثيراً عن كردستان .

على أن هناك سبباً قوياً آخر دفع الوزير إلى سرعة الموافقة على هذا الصلح الخامس . فلقد لبث الآستانة نداء داود وكلفت ولاية الموصل وحلب ومرعش وسبواس وأطنة بأن يخفوا لمساعدة باشا بغداد في قتاله ضد إيران . ونظر الباشا إلى هذه المساعدة من زاوية أخرى . فقد اعتقد أن وجود تلك القوات العثمانية الكثيفة في بغداد من شأنه إضعاف هيبة الباشا والمماليك وتهديد كيانهم في العراق . وكانت هناك سابقة خطيرة على هذه الصورة وقعت أيام عمر باشا سنة ١٧٧٥ عندما استنجد هذا الباشا بالسلطان لصد

(١) جودت : ج ١١ : ٣١ - ٣٢ تاريخ السليمانية : ١٤١

(٢) الزاوي : تاريخ العراق : ٦ : ٢٥٥

(٣) رحلة ريج : ج ١ : ١٠

هجوم كريم خان الزندي ، فما كان من الباب العالي إلا أن أرسل باشواته بقوات كثيفة إلى بغداد ، ولم تقم هذه القوات بقتال الفرس وإنما عزلت الباشا وقتلته ، وحرمت الممالك من الحكم زهاء أربع سنوات ولعل داود قدر أن الصورة قد تتكرر ومحاولات الباب العالي للتخلص من حكم الممالك كامنة تنتظر الفرصة . ففضل داود أن يعقد ذلك الصلح مع الشاهزاده وكتب إلى الباب العالي بأن لا حاجة به إلى قوات أولئك الولاة (١) .

ولكن لماذا أسرع الشاهزاده إلى الدخول في مفاوضات الصلح مع أنه كان يتطلع إلى العراق ومزاراته ولديه من القسوات ما يمنحه شرف الحصول عليها ؟

لقد دخل الشاهزاده هذه الحرب وحده دون أن يقف من ورائه الشاه بقواته ، وقاتل داود والاستيلاء على درة من درر الإمبراطورية العثمانية يتطلب حرباً شاملة ضد الدولة العثمانية ، هذا بينما كانت العلاقات الفارسية العثمانية لاتدعو لإعلان حرب في تلك الفترة ، بل كانت الدولة الإيرانية قد بعثت إلى السلطان وإلى محمد علي وإلى مصر بقبيلين وسفراء لتكتيل القوى الإسلامية ضد العدو المشتركة الروسية التي أخذت تحتك بإيران ووضعت إيران على بساط البحث المشكلات المعقدة بين البلدين وهي مشكلات الحدود العراقية وزوار العتبات المقدسة واتفق على أن تحل هذه المشكلات وأن تكف إيران عن الضغط على كردستان وأن ترفض قبول اللاجئين إليها وأن يعامل تجار الدولتين معاملة متساوية (٢) . وهذا يفسر لنا غضبة حكومة بمباي على القنصل الإنجليزي ريتش لعلاقته بمحمد علي ميرزا وميله إليه فإن خطة محمد علي ميرزا في ذلك الوقت كانت مناقضة لخطة الشاه كما هو واضح بل كانت للشاهزاده أطماع في العرش الإيراني وفي العراق أغضبت أباه (٣) .

(١) جودت : ج ١١ : ٢٢

(٢) جودت : ج ١١ : ٣٤ - ٢٥

(٣) Alexander: Op. Cit. P. 254

على أن ذلك الصلح الذى عقد بين داود والشاهزاده لم يحل بالدقة المشكلات المثيرة للنزاع بين البلدين فكل المشكلات ظلت كما هى دون حل ، وكذلك انتهت المفاوضات الفارسية - العثمانية فى الآستانه دون أن تضع الأسس السليمة لحل المشكلات . ولذلك لم تلبث العلاقات أن عادت إلى توترها السابق .

الحرب بين الدولتين الفارسية والعثمانية :

فداود كان يكره أن يرى نفوذه منهاراً فى كردستان، وكان الشاهزاده يريد أن ينجى ثمار نجاحه الجزئى فى حملته السابقة التى أبقت محمود البابانى فى منصبه . فأرسل من لدنه من يطالب محموداً بالأموال^(١) وطلب محموداً بأن يحصل عبدالله على كوى^(٢) . ولكن عبدالله رفض هذا المنصب الصغير وفر إلى الشاهزاده ، فى الوقت نفسه الذى كانت فيه قوات أمان الله خان^(٣) حاكم سنة تغير على زهاو . ولاحظ أن وجود مبعوث إيراني يطالب محموداً بالأموال ويطالب بمنح عبد الله كوى ثم فرار هذا الأخير إلى كرمنشاه قد أدى إلى العداء بين محمود ومحمد على ميرزا . وبالتالي أدى إلى تفاهم بين محمود وداود وبدأت العلاقات الإيرانية - العراقية تشتد توتراً يوماً بعد يوم. وكلما اشتدت الأزمات تلوى المؤامرات الخطيرة ومن تلك المؤامرات مؤامرة ترمى إلى عزل داود دبرها يحيى خازندار داود المتصل بالشاهزاده فأعده داود بسرعة^(٤)، وراقب بدقة حركات ريتش المعادية^(٥)

(١) رحلة ريج فى العراق : ج ١ : ٧٥

(٢) تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٥٥

(٣) كان أمان الله خان يحكم سنة وهى على مقربة من الحدود العراقية الإيرانية ولعب دوراً كبيراً فى المؤامرات ضد حكام السليمانية .

تفاصيل النزاع بين محمود باشا وعبد الله باشا، ونشل محاولات محمود سبيل ترابط الأسرة البابانية فى الفصل الثالث .

(٤) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٥٢

(٥) التفصيل فى الفصل السابع .

وبطبيعة الحال فتحت كرمشاه أبوابها للفارين من العراق برغم ما كان قد اتفق عليه من عدم تدخل إيران في أمور كردستان ومن عدم قبول اللاجئين بل إن كرمشاه أصبحت أيضاً معقلاً للحاققين على داود باشا (١).

شعر داود بأنه مقبل على حرب أخرى وكانت العلاقات بين عباس ميرزا والباب العالي قد عادت إلى التوتر الشديد ، وأخذ الباب العالي يستعد للحرب مع إيران وكانت تلك السفارات بين الدولتين أموراً مظهرية تحق وراءها استعدادات كل منها للتيل من الآخر ، فكانت الدولة تعمل على تقوية جيوشها في العراق ، فأرسلت إلى داود فرقة من المدفعية والخيالة تضم خمسة عشر مدفعاً وخمسية حمل محملة بالعتاد . والدولة في الواقع كانت عاجزة عن أن تخوض حرباً شاملة واسعة النطاق بسبب ثورة المورة وعلى باشا ينيانا Yantina وعصيان عبد الله والى عكا . وكانت إيران تقدر ما وقعت فيه الدولة من أزمات واضطرابات فعملت على أن تنتهز الفرصة لتتال من غريمها هذه المرة . وكانت حوادث الحدود من الأسباب المباشرة التي أدت إلى إشعال نيران هذه الحرب .

فقد حدث أن عشيرة كانت تابعة للديار بكر أخذت تنتقل بين الأراضي العثمانية والإيرانية واستقرت في نهاية مطافها في الأراضي العثمانية . فطالبت إيران بإعادتها إليها . ولم تتمهل في سبيل الحصول على غرضها فهاجمت الأراضي العثمانية ١٢٢٥هـ - ١٨٢٠م . وبينما كان الموقف يتطلب إجراء حاسماً من جانب الدولة لم تظهر بمظهر القوة في لزاء العدوان الإيراني . وإنما أرسلت السفارات إلى بلاط الشاه، والشاه يعلم ما وقع فيه السلطان من ورطة فتلاعب الإيرانيون بسفراء السلطان ، وأثاروا مشكلة الزوار الإيرانيين والحجاج ، وأنهم يعانون كثيراً من ابتزاز حكام الدولة العثمانية لهم ، ويرد جودت على هذا الادعاء بأنه لم تحدث تعرضات للزوار منذ أيام سعيد باشا وأن طريق الحج كان آمناً . وبدا واضحاً أن

(١) أمين زكي : تاريخ السليمانية : ١٤٢ - ١٤٣ . ومختصر مطالع السعود : طبعة

يمسى : ص ٥٢

إيران تسعى لتقحم حرباً على الدولة العثمانية ويدفعها السفير الروسي إلى هذه الحرب دفْعاً، والحق أن قيام تلك الحرب يرجع إلى الدور الذي لعبه الوكيل الروسي في إيران فقد أدرك الوكيل الروسي مازاروقتش Mazarovitch قيمة استغلال أطماع عباس ميرزا في التوسع والفتح لتوجيهها ضد الدولة العثمانية حتى يكون هذا التوسع على حساب الدولة العثمانية عدوة روسيا ويبد إيران عدوتها أيضاً . وآمال عباس ميرزا كانت واسعة . كانت قواته مجهزة لحرب مع السلطان ، فاستولت قواته على طوبراق وعلى «بتليس» و«أرجيش» (صفر ١٢٣٦هـ) (نوفمبر ١٨٢٠م) ، وكانت الدولة العثمانية قد أعلنت الحرب وحشدت الجيوش ووحدت القيادة العامة تحت قيادة والي أرضروم وكلفت ديار بكر بالتعاون مع والي بغداد لقتال الفرس (رجب ١٢٣٦هـ) ، (١٨٢١م) . وكان الشتاء قد أوقف العمليات الحربية بين الطرفين حتى إذا ماهل الربيع بدأت القوات العثمانية بالقيام بهجوم مضاد فحو صرت قلعة طوبراق وانصرفت قوات عباس ميرزا على والي ديار بكر ، ولكن تفشى الكوليرا أضعف قواته وأضاع عليه ثمرة انتصاراته فطلب الصلح^(١) . وأما في الجبهة العراقية فقد عبأ داود قواته لتلبية أوامر الباب العالي في قتال الإيرانيين والمحافظة على ولايات السلطان الشرقية . فسير جيشاً إلى زهاو وأصدر أوامراً إلى عبد الفتاح آغا بأن يغادر بغداد بقواته بلاد بى لام ويتوجه إلى زنكباد^(٢) فذهب إليها وعسكر على رأس ألف وخمسمائة خيال . وفي هذه الحرب كان الشاه أشد رغبة من ابنته في الاستيلاء على العراق^(٣) فالجرب هنا عامة بين أكبر قوتين إسلاميتين في الشرق الأوسط وكان على كل من محمد علي ميرزا وداود أن يحافظ على كيانه في ولايته وأن يحافظ على الإمبراطورية التي يتبعها .

كانت العمليات الأولى التي اتجه إليها الشاهزاده هي أن يخلع محموداً

(١) جودت : ج ١٢ : ٣ - ١٢

(٢) في كردستان .

(٣) لونكريك : أربعة قرون : ص ٢٤٤

باشا السليمانية الموالي لبغداد ليضع مكانه عبد الله باشا فجهزه الشاهزاده بالقوات وسيره إلى كردستان ، فأمرع الكرخيا إلى كردستان (رمضان ١٢٣٦هـ) فعسكر في شروانه ، ولم يستطع الكرخيا أن يعبر بقواته نهر ديبالي لنجدة محمود وكانت قوات محمود في الوقت نفسه تضعف نظراً لانسحاب كيخسرو - أمير الجلف - من جيش محمود وانضمامه إلى جيش عبد الله .

وكانت قوات عبد الله في الوقت نفسه أيضاً تتلقى إمدادات من الشاهزاده ومع ذلك لم يستطع أن يشن هجوماً مباشراً على السليمانية ولا على جيش الكرخيا المعسكر في «باريكه»^(١) فانقض على زهاوونكباد ونهبها . وبعد عيد الفطر (١٢٣٦هـ) كان الجيشان مستعدين لخوض معركة حاسمة أعد لها كل من الطرفين ما يستطيعه من عتاد . ومع ذلك لم يكن الفصيل في المعركة حركة عسكرية بارعة أو شجاعة نادرة وإنما كانت الكوليرا هي القاضية^(٢) .

كان معسكر الكرخيا في «باريكه» في مكان سيئ المناخ قارى ، وكانت تمرينات الجيش مختلة وانتشر الوباء في المنطقة فاستشرى بين صفوف الجيش وأفنى منه أعداداً كبيرة وعجزت البقية الباقية عن الحركة لما أصابها من ارتباك فكانت هذه ظروفًا خدعت عبد الله أجل خدمة^(٣) ، إذا لم يبق مع الكرخيا إلا حوالي ٣ آلاف مقاتل وأربعين مدفعاً^(٤) وهي مدفعية قوية نسيلاً ، ولكنها لا تجدى لضعف قوة المشاة .

كان على الكرخيا أن يؤجل خوض المعركة مع عبد الله بعد أن أصيب جيشه ب تلك الكارثة . ولكنه أصر على خوض المعركة ، وهنا اختلف المؤرخون في تفسير هذه الخطة السيئة التي أجهزت على البقية الباقية من جيش داود في كردستان .

(١) في كردستان وتقع شرق تورخورماتو التابعة للسليمانية .

(٢) التزاوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢٧١ - ٢٧٣

(٣) المصدر السابق .

(٤) تاريخ السليمانية : ١٤٤

يقول عثمان بن سند إن داود وقد أدرك مدى الضعف الذي أصاب قواته في الشمال ، أرسل الإمدادات إلى ميدان المعركة يقودها أخوه أحمد بك ، وكتب داود إلى الكيخيا بمنعه من الاشتباك مع العدو لما في ذلك من خطر على بقية القوات ويستدعيه ليتباحث معه في بعض الأمور السرية . وشعر الكيخيا أن هذه التعليمات الجديدة صلت من الوزير لأنه غير راض عنه ، وخشى الرجل على نفسه فرفض تلبية رغبة الوزير وأصر على خوض المعركة وعدم الذهاب إلى بغداد . وهنا يهجم عثمان بن سند بالخيالة والتواطؤ مع عبد الله باشا والشاهزاده على إبادة البقية الباقية من جيوش داود في كردستان . وفي مقابل ذلك يزحف الجيش الإيراني على بغداد فيفتحها وينصب عليها الكيخيا والياً بدلاً من داود (١) .

وقد وقعت المعركة فعلاً في يوم الإثنين ٢٠ ذي الحجة ١٢٣٦ . (أغسطس ١٨٢١) فكانت كارثة خسر فيها الكيخيا الراجل والراكب وسقطت المدفعية في يد العدو ، وفرت القلول المتعسة إلى كركوك وفي أعقابها القوات الإيرانية المنتصرة (٢) .

وعلى الوتر نفسه يضرب مؤلف دوحة الوزراء (٣) . أما سليمان فائق فيختلف عن هذين المؤرخين فهو يرجع هزيمة الكيخيا إلى نفسي الأمراض في الجيش وإلى عدم خبرة الكيخيا بالحروب الشاملة وأنه لما عثر حظه في الموقعة شعر أن داود سيصيب عليه جام غضبه لأنه به يمته تلك فتح الطريق أمام العدو إلى بغداد دون عائق . فآثر أن يفر إلى الشاهزادة (٤) ويبدو لي أن رواية مؤلف تاسخ التواريخ « يمكن أن تعطى أصدق صورة لما حدث فلانه يقول إن محمود الباباني هو الذي اتصل قبل المعركة بالشاهزاده واتفق معه على أن ينضم إلى قوات إيران عندما تبدأ المعركة فهزم الكيخيا . وعلى هذا الأساس

(١) مختصر مطالع السعود : ٥٣

(٢) تاريخ السليمانية : ١٤٦ (٣) رسول الكركوكي : ص ٢٩٧

(٤) سليمان فائق : مرآة الوزراء عن النزاع : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٧٥

وضعت الخطة الإيرانية ونجحت لأن محموداً نفذ وعده وبعد ذلك توجه محمود والكيخيا إلى نواحي كركوك^(١) .

فأغلب الظن أن الكيخيا شعر بمسئولية إضعاف الجيش بسبب اختياره لمعسكره في باريكة وبسبب الوباء ، وأدرك أن التراجع يفقده مركزه فأصر على خوض المعركة فإن كان نصرأ نال المزيد من رضاء الوزير وأظهر أنه كان على حق ، وإن كان هزيمة فليس لديه إلا أن يولى وجهه شطر أعداء داود لأنه مقضى عليه لا محالة إن هو ذهب خائباً إلى بغداد ، ومن المستبعد أن يعمل الكيخيا على تشتيت القوات التي بقيت تحت يده في معركة يديرها ضد الشاهزاده وهذه القوات في الوقت نفسه كانت ضعيفة والاتفاق في ناسخ التواريخ ثم بين محمود والكيخيا وليس بين الكيخيا وعبد الله كما يقول عثمان بن سند ورسول حاوي . (٢)

وأغلب الظن أنهما فهما أن الكيخيا خان منذ البداية لأن كلا منهما كتب الحادثة بعد وقوعها وظهور نتائجها فاعتقدا أن هناك اتفاقاً سابقاً بين الكيخيا وعبد الله والشاهزاده، ولاشك أن هذه العلاقة — إن كانت صحيحة — لم تظهر إلا بعد هزيمة الكيخيا وإلا لما خاطر داود بإرساله على رأس جيشه إلى الشمال . ومن ثم كانت حركة الكيخيا هذه دون سابق إصرار ولكن الظروف اضطرت له إلى أن يفر من وجه داود، وأخطأ الكيخيا حين اختار محموداً حليفاً له ، فقد عاد محمود حليفاً لإيران. وإيران كانت في حرب مع الدولة العثمانية، ولذلك كان من المستحيل أن يبلغ الكيخيا هدفه في تولي أرفع منصب في العراق إلا بجذ السيف الإيراني ، ولاشك أن هذا التطور الجديد في تدخل إيران كدولة محاربة تعمل على تنصيب أحد المماليك على بغداد كان اتجاهاً جديداً في السياسة الإيرانية : وهذا الاتجاه الجديد يفسر لنا الحق الشديد الذي ظهر جلياً في دوائر الباب العالي حتى صدر فرمان بقتال الإيرانيين وبقاتل الكيخيا الخائن (٣) .

(١) ناسخ التواريخ : قسم الفاجارية : عن المزوى : تاريخ العراق : ٦٦ ص ٢٧٦-٢٧٧

(٢) مؤلف دوحة الوزراء .

(٣) مختصر مطالع السوء : بمبى ص ٥١

وأياً كان الأمر فإن هزيمة الكيخيا فتحت الطريق أمام الإيرانيين إلى بغداد وجعلت كردستان تحت قدمي الجيش المنتصر (١). ولم يستمر في المقاومة سوى قلعة كركوك ، ووجد الشاهزاده أن في ضرب الحصار على كركوك مضیعة للوقت وأن الأجدي هو ترك هذا « الجيب » خلفه ليظفر بالهدف الأكبر ، فزحف في اتجاه كفري ودلي عباس حتى نزل الخالص (٢) .

أخذ داود يعمل على مواجهة هذا المرقف الخطير بأن اتخذ موقع الدفاع وطلب من حكومة الآستانة أن تمدّه على جناح السرعة بالإمدادات اللازمة لعصديوش إيران . وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت منهكة في حربها مع إيران في الجهة الشمالية وفي حروب المورة وثوارت باشواتها ولم يكن في وسعها أن تمد داود بجيش كبير .

محمد علي يسلك عن نجدة داود :

ولذلك اتجه السلطان إلى جلب العون من الوالي الذي شق طريقه إلى الولاية عن طريق الشعب الذي يحكمه وانتزع فرمان التولية من السلطان انتزاعاً ذلك هو محمد علي والي مصر . إذ ليس في استطاعة أحد من ولاة الدولة سواه أن يقوم بتلك المهمة الخطيرة . وهذا ما قيل في محمد علي باشا قبل أن يفتح الجزيرة العربية ويصل إلى الأحساء . وقد تألّق نجمه بعد ذلك ، وتفوق على غيره من باشوات الدولة العثمانية بتغلبه على الوهابيين (٣) وكان محمد علي يعمل على إعداد جيش وطني وأسطول كبير .

وأغلب الظن أن السلطان عرض على محمد علي باشا أن يقدم المعونة

(١) يحدّثنا المنشور البغدادي أن كردستان أصبحت في حكم العمّ وتؤدي لإيران كل سنة عشرين ألف تومان عدا الهدايا . رحلة المنشور البغدادي : ٦١

(٢) محمد أمين زكي : تاريخ السليمانية : ١٤٦

(٣) ذكرى البطل الفاتح إبراهيم : إبراهيم باشا في بلاد العرب الدكتور عبدالحيد البطريق .

لوالى بغداد (١) لنفس الأسباب التي من أجلها كلف السلطان محمد على بمحاربة ثوار المورة (٢) وبخاصة أن محمد على أصبح مسامحاً للبصرة فعلاً لأن قواته التي فتحت البلاد الوهاية وصلت إلى قرب أطراف العراق الجنوبية وهذه المنطقة من الناحية القبلية وقعت تحت الإدارة المصرية فهو بذلك من أقوى وأقرب الولاة من ميدان المعركة في العراق . أما من الناحية العسكرية فإن خطوط المواصلات بين العراق ومصر طويلة جداً ، فكانت تكاليفها ضخمة هذا إلى أن محمد على في ذلك الوقت لم يهتم لا بالأحساء ولا بنجد وانسحب منها على اعتبار أن إدارتها ترهق الحكومة المصرية .

وكان محمد على قد شعر بأن السلطان على وشك أن يكلفه بمهمة مساعدة داود . ونلاحظ هذا فيما جاء في كتاب محمد على لابنه إبراهيم :

« إن . . . عباس ميرزا قد نقض العهد وأعلن الحرب
وإن ما هو مجمع للأشقياء من جزر المورة وكريد . . . قد غرض الطرف عن النظر في أمرها . . وإن مسألة على باشا التي دلتى لما تنته على صورة يمكن وصفها بها . فتبين لنا من كل ما تقدم أن قد نفخ في بوق الحرب ضد العجم وأن قد أتى جبل الجزائر المذكورة على غاربها وأنه بهذه الصورة قد هبت علينا ريح العمل في سبيل الدولة والملة وتبدت لنا صفحات الخدمة إما في إحدى هاتين الجهتين أو في كليتهما معاً . . . غير أنه لما كان أمر تأدية هذه الخدمات وتسوية هذه المصالح متوقفاً على وجود العساكر الوفيرة فلأن همتك وإن أعز مأمولى لهُو أن تفضلوا بالمبادرة وتوجيه العناية إلى تحريك ابننا إسماعيل باشا . . . و . . . الدفردار . . . للقيام بغزوات طيبة نافعة لكى

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ : مئة تركى : صحيفة ٣٥ أمر رقم ٧٦ من محمد على باشا إلى الصدر الأعظم بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ .

(٢) كانت الدولة العثمانية تلتقي عبء القضاء على الثورات والحروب التي تشن ضدها على كاهل الولاة في الأقطار المجاورة لتلك الحروب وهي في الوقت نفسه تستخدم هذا التكليف في إضعاف الولاة ليستمروا خاضعين للسلطان العثماني .

ترسلوا هؤلاء السودانيين في هذه الأيام على الوجه المطلوب وأن تصرفوا
لآلئهم في عمل ما فيه الخير لنا (١) .

وكان لهذا التوقع أثره الكبير في فتح أبواب جديدة أمام محمد علي
فكان عليه أن يحدد بالضبط الخطر الذي يهدد العراق ، ومدى تقدم
الإيرانيين . ومن الحليف ومن العدو وهو من وراء (٢) هذا كله يرى
إلى هدف ثان وهو حماية نجد والبلاد الواقعة تحت الحكم المصري من المؤامرات
التي قد يدبرها له الفرس لأنه عضو في قوة الدفاع العثمانية، بل عضو
خطير (٣) .

ولذلك أصدر محمد علي أوامره بالتحفظ على الإيرانيين الذين يوجدون
في بلاد تحت الحكم المصري (٤) وكتب إلى عماله في البلاد العربية محذراً
من المؤامرات الإيرانية ، وطلب منهم في الوقت نفسه أن يمدوه بما لديهم
من أنباء القتال في الجبهة العراقية . وهذا كل ما فعله محمد علي بالنسبة للقتال
ضد الفرس ، فعندما طلب منه السلطان بعد ذلك أن يبعث بابنه إبراهيم باشا
وإلى جدة إلى بغداد عمل « محمد علي » على التخلص من هذه المهمة ولذلك كتب
للصدر الأعظم يقول :

« ... إن سفر المشار إليه بمأمورية إلى جهة بغداد مع عساكر كثيرة يكون
متبعاً لفوائد عظيمة، ولكن بما أفي مشغول بـ ... مشكلة كريد و... « مخا »
فإن ذلك الصدد يلزم الاستعلام عنه أولاً من عبدكم غير أنه حيث

-
- (١) الوثائق التاريخية : دفتر ١٠ : مئة تركي أمر رقم ٤٠ تحريراً في ٤ ربيع الأول
١٢٣٧ (٢٠ نوفمبر ١٨٢٢) من محمد علي إلى والي جدة .
(٢) الوثائق التاريخية : دفتر ١٠ : مئة سنية وثيقة ٤٦ صفحة ٢٩ بتاريخ ١١ ربيع
الأول سنة ١٢٣٧ من محمد علي إلى محافظ المدينة المنورة حسن بك .
(٣) الوثائق التاريخية : دفتر ١٠ : مئة سنية وثيقة ٤٥ صفحة ٢٩ بتاريخ ربيع الأول
١٢٣٧ . من محمد علي إلى حسن بك محافظ المدينة المنورة .
(٤) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ : مئة تركي صحيفة ٣٥ - ٣٦ بتاريخ ١٥ شعبان
١٢٣٨ .

يلزم الذهاب بعساكر كثيرة وتداورات قوية وإجراء التدابير الضرورية لدى المقابلة نظراً لبعد مسافة بغداد وكثرة الأعجام وقوتهم، فإذا صلرت الإرادة السنية بتهيئة لوازم السفر والمهمات الحربية في هذه السنة المباركة والذهاب بعساكر ومهمات كثيرة في السنة الآتية فإني أذهب في السنة الآتية بنفسى (١)

وهكذا أمسك محمد على حتى نهاية الحرب عن إمداد داود باشا في حربه ضد أعداء الدولة العثمانية ولعل السبب في التخلص من هذه المهمة أن ولايات العراق لا تعنيه كثيراً في ذلك الوقت إلا فيما يتعلق بنجد وما يهددها من أخطار ، فوقفه من هذه الحرب سلبي تماماً ، يجمع الأخبار عن طريق رجاله في بلاد نجد ويهتم جداً بتتبع ما يحدث في العراق . ولكن كل هذا دون أن يقوم بعمل إيجابي في الحرب العراقية - الإيرانية .

تخلص من هذا كله إلى أن محمد على باشا لم يطلب منه رسمياً التدخل العسكرى لتأييد داود إلا في شعبان ١٢٣٨ (أبريل ١٨٢٣) (٢) وأن محمد على حتى في هذا الوقت المتأخر من الحرب مع إيران تخلص من هذا التكليف .

فكان على داود أن يوطن نفسه منذ البداية على مواجهة الموقف وحده فإن وصول الإمدادات إلى داود في بغداد من مصر أو من الآستانة يتطلب وقتاً ليس بالقليل ، وهذا إذا كانت هناك إمدادات .

أدخل داود قواته في قلعة بغداد وأغلق أبواب المدينة ووزع مسئوليات الدفاع على الفرق المسلحة وكانت مسئولية الدفاع عن المدينة ملقاة أساساً على كاهل الإنكشارية وفي الوقت نفسه جمع عدداً من المتطوعين وجهاز حرسه الخاص بصورة تجعله مستعداً لخوض المعركة الفاصلة الوشيكة الوقوع ، وما

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ : مئة تركى صحيفة ٣٥ أمر ٧٦ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ . من محمد على باشا إلى الصدر الأعظم .

(٢) الوثائق التاريخية : دفتر ١٣ : مئة تركى : صفحة ٣٥ أمر ٧٦ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ من محمد على باشا إلى الصدر الأعظم .

ثبت دعائم هذا الدفاع ما أبداه الأهالي البغداديون من رغبة صادقة في التعاون مع الباشا في قتال الفرس والدفاع عن مدينتهم . هذا بينما أخذت عشائر العراق تتدفق على الوزير وكانت حصون بغداد وأسوارها لا تزال متينة .

ولا شك أن شحن المدينة بالرجال والعتاد والمؤن ووجود أموال كثيرة بين يدي الباشا قد قوى ثقته في أن ينجح دفاعه وأن يعجز محمد علي ميرزا عن فتحها مثلما عجز نادر شاه من قبل (١٧٣٢) م بعد أن سيطر على معظم العراق . على أن داود - برغم انحصاره في بغداد - كانت لديه قوة هجومية لها بأسها في شغل قوات العدو بعيداً عن أسوار المدينة فيخف الضغط عنها ، فإن عشائر العراق التي وقفت إلى جانبه صدقت عزمها في قتال « الروافض » فكان لصفوف - شيخ شمر الجريا - مواقف انتصر فيها على قوات الكيخيا السابق محمد آغا (١) .

على أن الامتحان الذي كان يمكن أن يكشف لنا مدى قوة داود الدفاعية لم يقع ، فإن الحصار لم يلبث أن أخذ يخف شيئاً فشيئاً لأن الكوليرا وقد أصبحت من العوامل الحاسمة في الحروب العراقية تفشت بين الجيش الإيراني وقامت بالمهمة التي عجز عنها جيش داود (٢) .

ومن حسن حظ داود أن الكوليرا لم توهن قوى الشاهزاده فحسب ، بل أصابته هو نفسه أيضاً وكان القدر شاء أن يصرع بالكوليرا ألد عدوين لداود : الشاهزاده محمد علي ميرزا ، والقنصل السابق ريتش . وكان هذا التطور من الأسباب التي دعت الشاهزاده إلى طلب الصلح

(١) أما المدينة فقد ظلت أمورها عادية حتى قرعت أسماع الشعب البندادي أنباء وصول الجيش الإيراني إلى هبب على مسيرة يوم واحد تقريباً من بغداد وعندئذ كثرت حركات الفرار من بغداد إلى الجهات الآمنة في الغرب كالحلة مثلاً . وفي الوقت نفسه بدأت الأزمة الاقتصادية تشتد وتضيق حلقاتها إلا أن داود كان لديه أموال كافية وخزائنه ممتلئة بالذخائر والمؤن ولم يكن يخشى

الحياة الداخلية . المزوي : ج ٦ : ٢٨٠ - ٢٨١

(٢) تاريخ السليمانية : ١٤٧

ويقال إن الشاهزاده كتب إلى أحد كبار رجال الدين^(١) في بغداد وهو الشيخ موسى بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء . وهنا رواية أخرى تقول إن الوزير هو الذي طلب من الشيخ موسى المذكور التوسط في عقد الصلح وليس أمر المبادرة بخطير لكي يحدد من منهما طلب الصلح أولاً . فالظروف في الجهة العراقية كانت تتجه نحو السلام إذ وضح أن استمرار الحرب غير مجد للطرفين فداود ممتنع في قلعه وليس لديه قوة هجومية كافية لهزيمة الشاهزاده وقوات الشاهزاده فقدت قدرتها على ضرب حصار مجد على أسوار بغداد التاريخية :

اختار داود اثنين من المدرسين ليتفاوضا مع الجانب الإيراني في تفاصيل الصلح^(٢) . فرض الجانب الإيراني على الجانب البغدادي تعيين عبد الله على السليمانية كما أن المفاوضات الإيرانية عمل على أن يكسب شيئاً لمحمد أعما - الكيخيا السابق - فطلب إسناد كوى وحرير إليه . فكتب داود إلى السلطان بما اشترطه الإيرانيون، وكان من الطبيعي أن يشتد السلطان في رفضه المطالب المتعلقة بالكيخيا السابق . فقد أصبح في نظر المعسكر التركي خائناً خطراً يهدد تعيينه في منصب ما بوقوع اضطرابات قد تنتهي بوقوع العراق في يد الفرس^(٣) . فعزل الإيرانيون مطالبهم وجعلوا كوى وحرير من نصيب محمد باشا بن خالد باشا البابائي ، فعقد الوزير اجتماعاً ضم علماء بغداد وأعيانها، وانتهت المداولات إلى الموافقة على عروض الشاهزاده ، على أن ينسحب الجيش الإيراني من الأراضي العراقية وعلى أن يعيد العشرة آلاف رأس التي كانت قد نهبها قوات الشاهزاده من الخالص .

ولما كان المرض يشتد على الشاهزاده كان الجيش الإيراني يزاد ارتباكاً وخاصة أن الشاهزاده أمر بالانسحاب وعبر نهر ديبالى وتعرضت قواته خلال

(١) كانت المفاوضات بين إيران وبغداد تتم أحياناً بواسطة كبار رجال الدين في الدولتين
مطلعا حدث أيام نادر شاه - حبيقة الزوراء : ٢٤٠ - ٢٦٣

(٢) هما محمد أعما بن أبي ديس ومحمد سعيد بن النائب الكرركوي المزوي ج ٦ : ٢٨١/٢

(٣) الأعظمي : مختصر تاريخ بغداد : ٢٢٦

الانسحاب لهجمات قوات صفوق، وأخيراً صرع المرض الشاهزاده في أواخر
صفر سنة ١٢٣٧ م أكتوبر ١٨٢١ م. (١)

على أن الهدوء الذي خيم على الجبهة العراقية لم يكن إلا لفترة وجيزة ،
وذلك لأن القتال كان لا يزال مستمرّاً في كردستان الشمالية وأرضروم ، ولم تكن
وفاة محمد علي ميرزا لتفت في عضد الإيرانيين أو لتجعلهم يتخلون عن أملهم
في الاستيلاء على العراق . فقد خلف محمد حسين ميرزا أباه على كرمشاه
وكان هذا أشد من أيّيه رغبة في الاستيلاء على بغداد . وكان نشاط الشاه في
ذلك الوقت قد اشتد عن ذي قبل (٢)

قابلت الدولة العثمانية هذه الاستعدادات الإيرانية الواسعة بإصدار
أوامرها إلى ولاية ديار بكر والموصل وبغداد بمهاجمة الأراضي الإيرانية
والاستيلاء عليها (ربيع الأول ١٢٣٧) (٣) فاستعد داود — للجولة التالية
مع الإيرانيين — وأصبح قادراً على أن يؤلف قوة هجومية وأمر عليها كيخياه
الجديد الحاج طالب كيخيه (٤) .

زحف الحاج طالب على رأس عشرة آلاف مقاتل نحو الحدود، ولكن
سرعان ما شن محمد حسين ميرزا هجوماً مضاداً بأربعين ألف مقاتل ، وإزاء
هذه القوة المتفوقة أثر الحاج طالب أن يتجنب الدخول في معركة مع جيش
حسين ميرزا .

ولما كان عبد الله قد أعيد إلى السليمانية خلال مفاوضات الصلح بين داود
ومحمد علي ميرزا فإن محموداً الباباني كان يتحين الفرصة ليعود إلى الميدان
ويجلس مرة أخرى على كرسي الحكم ، وكان الضعف الذي أصاب جيش
الشاهزاده محمد علي ميرزا ووفاته الشاهزاده نفسه من العوامل التي جعلت

(١) المزوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٨١ - ٢٨٢

(٢) تاريخ السليمانية : ١٤٧

(٣) المزوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٨٢

(٤) من الممالك .

محمود الباباني يعود إلى الجانب المتفوق ، وفعلا جهزه داود بالقوات لمهاجمة السليمانية وعبد الله حليف إيران وانتصر محمود عليه ودخل السليمانية في ١١ شعبان سنة ١٢٣٧ هـ (أوائل مايو ١٨٢٢ م) ولكن السليمانية كانت تقامى أشد انهيار اقتصادى ومعنوى بسبب الأمراض وأخذ عبد الله ومحمود يتبادلانها بالحرب والمؤامرات (١)

أما في جبهة القتال بين الميرزا والكيخيا فإن جيش الميرزا أصابه ما أصاب جيش أبيه، وبدا كأن المفاوضات بين طهران والأستانة مستكملت بالنجاح وفعلا اتفق على شروط معاهدة الصلح (ذى الحجة ١٢٣٨ - أغسطس ١٨٢٣ م) (٢) واختير محمد نجيب أفندى قيوكتهدا محمد علي باشا - والى مصر - سفيراً للدولة العثمانية للتصديق على المعاهدة (٣) وهى المعاهدة التى عرفت باسم « معاهدة أرضروم الأولى » .

معاهدة أرضروم الأولى :

تقضى هذه المعاهدة بتأكيد معاهدة سنة ١٦٣٩ . وبعدم تدخل إحدى الدولتين فى شئون الأخرى، وبخاصة فيما يتعلق بالکرد، وألا تقوم الدولة الإيرانية بفرض سيطرتها على الرعايا التابعين للدولة العثمانية . وإذا ما عبرت إحدى عشائر الدولتين الحدود إلى الدولة الأخرى خلال هجراتها الصيفية أو الشتوية فعلى باشا بغداد وممثل ولى العهد الإيرانى أن يتفقا على الضرائب التى تفرض على هذه العشائر ولإيجار المرسى حتى لا يترتب على ذلك سوء تفاهم بين الدولتين، ونصت المعاهدة على أن يؤخذ من التجار والحجاج الرسوم المعتادة دون ان يطالبوا بأى شئ من المغارم فلا يدفع الحجاج الذين لا يحملون متاجر

(١) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ١٤٨ - ١٥١

(٢) جودت : ج ١٢ : ١٣

(٣) الوثائق التاريخية : محفظة ٩ : بحرا برا تركى وثيقة رقم ٥ ورقة رقم ٥ - بتاريخ

شيئاً من الرسوم ، وأما الذين يحملون معهم تجارة فتجني على هذه التجارة الضريبة الجمركية فقط . وكذلك تعامل إيران التجار العثمانيين بالمعاملة بنفسها . ويدفع الرعايا والتجار الإيرانيون الضرائب نفسها التي يدفعها رعايا و تجا الدولة العثمانية وهي ٤٪ من قيمة التجارة ، ويمنح التاجر تذكرة تثبت دفعه للضرائب القانونية المطلوبة منه .

ولما كان انتقال العشائر سبباً جوهرياً أدى إلى هذه الحرب فقد وضعت في المعاهدة نصوص تقضى بأن تضع الدولتان حداً لتذبذب العشائر بين إيران والدولة العثمانية . كما نصت المعاهدة على اتفاق الدولتين على عدم قبول أى دولة منهما للأشخاص الفارين من الدولة الأخرى ، كما اتفق على أن تعاد ممتلكات الإيرانيين في الآستانة إلى أصحابها وأن البضائع التي كانت تحت التحفظ (تحت الحراسة) أو صودرت بأوامر من باشوات الدولة العثمانية ترد إلى أصحابها بعد إثبات حقهم فيها .

كذلك نظمت المعاهدة طريقة حصول الوارث الإيراني على إرث الأب المتوفى ببغداد ، والتحفظ عليه . ولكي تم الأمور في بساطة وعلى بساط البحث المتبادل الودى اتفق على أن يرسل كل بلاط كل ثلاث سنوات وزيراً إلى بلاط الطرف الآخر .

كذلك نصت المعاهدة على إعلان العفو عن أولئك الذين فروا من إحدى الدولتين إلى الأخرى على ألا يعاقبوا على خيانتهم السابقة وعلى ألا تطالب إحدى الدولتين الأخرى بتعويضات عن الخسائر التي سببتها الحروب أو تكاليفها^(١).

استمرار النزاع :

لم تأت هذه المعاهدة بشيء جديد ، ووضعت في صورة خطوط عامة بينا الحدود العراقية - الإيرانية في حاجة إلى نظرة جغرافية دقيقة من حيث طبيعة هذه الحدود ومناخها وأسلوب حياة العشائر الكردية النازلة هناك ومدى قوة

(١) انظر نص المعاهدة في مجموعة الوثائق التي نشرها Hurewitz

Diplomacy in the Near and Middle East. Vol. ١, pp. 90-92

الحكومة المركزية وتبعية تلك العشائر لها . ولم تكن العقلية السياسية الإيرانية والعثمانية إلى الآن قد ارتقت بعد لتضع معاهدة تفصيلية للحدود المشتركة . فلم يثر انتباه الدولتين إلا مشكلة العشيرة التي كانت السبب المباشر في الحروب وأما تنظيم أمر العشائر على حدود العراق مع إيران والتدخل الإيراني في كردستان فإنه كان يتطلب تحديداً دقيقاً ينص على تبعية كل عشيرة وعلى أراضيها ووضع خريطة مفصلة للحدود لتكون مرجعاً عند الخلاف :

فكان من الطبيعي أن تعود الخلافات بين بغداد وكرمنشاه بشأن المشكلة الكردية وبشأن الحدود بين الدولتين . فلقد بقيت القوات الإيرانية تحتل لواء حلوان مع أن معاهدة ١٨٢٣ تجعله تابعاً لبغداد وكانت زهاو وحدها تؤدي عشرة آلاف تومان للشاهزاده وهو مبلغ جسيم نسبياً^(١) . على أن النزاع الذي دب في كردستان بين محمود باشا وعمه عبد الله باشا وما ترتب عليه من تدخل إيراني سافر حطم ركنا هاماً من هذه المعاهدة^(٢) . وزاد المشكلة تعقيداً ظهور « قوة راوندوز » في ذلك الوقت وتوسعها على حساب البابانيين^(٣) . ولقد شكّا داود هذا التدخل الإيراني إلى الباب العالي فبعث الباب العالي بأسعد أفندي للتحقيق في هذه المشكلة .

ويروى لنا أسعد أفندي بالتفصيل المحادثات السياسية التي دارت بينه وبين داود والإيرانيين وهي محادثات أظهرت أن المشكلة الكردية لم تكن مستقلة في حد ذاتها، وإنما كانت مرتبطة بمشكلة زوار العتاب المقدسة . فقد اتهم المفاوض الإيراني داود باشا بأنه يأخذ « الباج »^(٤) على الزوار الإيرانيين ويفرض ضرائب مستحدثة على رفات من يدفنون في العتبات المقدسة^(٥) . وقام أسعد أفندي بتحقيق المسألة وكان من الطبيعي أن يرى داود ساحته في

(١) رحلة المثني البغدادي : ٤٣

(٢) جودت : ج ١٢ : ١٥٣ - ١٥٤

(٣) محمد أمين زكي : تاريخ السليمانية : ١٥١

(٤) ضريبة تفرض على المسافرين في أماكن معينة .

(٥) جودت : ج ١٢ : ٢٨٢ - ٢٨٤

هذا الصدد (١) . ولاشك أن المهمة التي كان يرمى إليها أسعد أفندي من هذه المفاوضات لم تكن فقط لإقرار الأمور بين طرفي النزاع داود والشاهزاده ، بل كان يهدف إلى كسب إيران عضواً في الجامعة الإسلامية التي تعمل الدولة العثمانية على تحقيقها للوقوف في وجه التكتل الأوربي ، ذلك التكتل الذي ظهر بأجلى معانيه الدينية والسياسية في ثورة اليونان ، وبرزت فيها روسيا كأعنف خصم للدولة العثمانية وأن الدول الإسلامية يجب أن تتعاون ضد هذا الخطر المشترك (٢) محادثات تبذلت فيها الآراء السياسية العالية ونوقشت المشكلات بكل صراحة ومودة ، وكان الحلف على وشك أن يوقع وإذا بالسفارات تذهب وتعود دون الوصول إلى حل عملي للمشكلات أو إلى قيام تعاون حقيقي بين الدولتين وهذا يرجع إلى عدة أمور :

١- عدم الثقة المتبادل بين الدولتين .

٢- إن الحكم في كل من الدولتين موزع على حكام لهم سياستهم شبه المستقلة عن سياسة الحكومة المركزية .

٣- عمق الكراهية المذهبية بين الشيعة والسنة حينذاك .

٤- عدم وضع الفريقين يدهم على الداء نفسه وعلاجه بدقه واستخدام عبارات « عدم التدخل » و « عدم قبول اللاجئين » . فقد كانوا ينظرون إلى النتائج قبل أن يدرسوا مسببات هذه النتائج . إن علاج المشكلة الإيرانية ليس في المعاهدات التي تعقد بين إيران والدولة العثمانية ، وإنما في دراسة مسببات تلك النتائج أولاً ، وهذا هو الذي حدث بعد ذلك على يد خورشيد باشا ودرويش باشا عندما درسا شئون العراق من الناحية الجغرافية والاقتصادية والبشرية والسياسة . . . الخ ووضعوا التقارير والبحوث في ضوء هذه الدراسات الدقيقة التي نظمت الحدود بين الدولتين سنة ١٨٤٧ م . (٣)

(١) جودت : ١٢ : ٢٨٣

(٢) جودت : ١٢ : ٢٩١ - ٢٩٢

(٣) يعتبر كتاب سياحته حودو كذلك تقرير درویش باشا دراسة قيمة للعراق ومشكلة الحدود الإيرانية العراقية .

وعلى الرغم من أن الباب العالي كان يعمل على توحيد كلمة المسلمين لقتال الكفار، وعلى وجه الخصوص روسيا ومع أن الظروف كانت تخدّم الباب العالي في مساعاه هذا نظراً للتوتر الشديد الذى وضح بين القيصر والشاه الذى كان ينظر إلى معاهدة كلستان نظرتة إلى وصمة عار في جبين الدولة الإيرانية . أقول إنه على الرغم من كل هذا ظلت سياسة كرمشاه ثابتة نحو كردستان وبغداد من حيث قبول اللاجئين وإمداد البابانيين بالقوات (١) . وكان من الطبيعي أن تتوزع قوى الإسلام فحرب بين روسيا وإيران منذ ١٨٢٦ — ١٨٢٨ لا يشترك فيها السلطان ، وأخرى بين روسيا والدولة العثمانية بعد موقعة نافارينولا يشترك فيها الشاه ونتيجة كل من الحربين كانت نصراً عسكرياً ودبلوماسياً للروسيا (٢) وتمثل ذلك في معاهدتي تركمانجاي (فبراير ١٨٢٨) ومعاهدة أدرنه سبتمبر ١٨٢٩ (٣) .

ولم يبق ما يستحق الذكر من أمر العلاقات بين داود وإيران عدا تلك المنازعات بشأن الكرد . ولكن يحدثنا أحد المبشرين الأوربيين في بغداد — المستر جوفز Groves نقلاً عن أحد مدرسي مدرسته وكان من المسلمين فيقول إن داود — وقد أعلن عدااه للسلطان بقتله صادق أفندي سنة ١٨٣٠ — سيقبى بنفسه بين يدي عباس ميرزا وإن بغداد ستقع بذلك في أيدي الفرس (٤) . وليس لدينا رواية أخرى تؤيد هذا القول مع العلم بأن داود بعد أن حلت كوارث الطاعون والفيضان بجيشه وبمدينته أراد أن يستمر في القتال بما بقي تحت يده من قوات ولم يذكر أحد أنه ألقى بنفسه في أيدي الفرس فهذا البناء واحد من تلك الأنباء التي كان يلقى بها بعض الأفراد للأجانب فيكتبونها دون تثبت .

(١) تاريخ السليمانية : ١٤٩ — ١٥٥ .

(٢) Morfill: The Story of Russia 1930 PP. 286—287

(٣) انظر الماحلثين نصوص في: Hurewitz: Op. Cit. Vol, I

(٤) Groves: Op. Cit. P. 65

آلْفَصْلُ الْخَامِسُ

دَاوُدَ وَمُتَاوَمَةُ الْنِفُوذِ الْأَجْنَبِيِّ

تطاور النفوذ الإنجليزي - النزاع بين سليمان الصغير وريتش -
نمو نفوذ ريتش - النزاع بين داود وريتش - طرد ريتش -
تسوية الأزمة - مشروع الملاحة البخارية .

داود وممتاومة النفوذ الأجنبي

تطور النفوذ الإنجليزي :

قامت الدولة العثمانية على أنقاض الدولة السلجوقية الإسلامية وعلى أنقاض الإمبراطورية البيزنطية المسيحية ، فألحظ سقوط القسطنطينية الروح الصليبية التي لم تهدأ قط في أوروبا ، وانطلقت عاتية في شبه جزيرة ايبيريا التي خرجت منها المحاولات الأولى الناجحة في مهاجمة جناح المسلمين من الخلف على متن البحار إذ أثبتت التجارب مناعة الإسلام في البر (١) فكان أن اكتشفت البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح وأن تدفقت الجيوش العثمانية على الطرق العالمية القديمة لعلها تترك جناح الإسلام قبل أن ينكسر ، ولكنها لم تدركه إذ وصلت إلى ميدان القتال متأخرة فلم تبلغ غرضها وأصبحت دول الشرق الأدنى بشلل اقتصادي مؤقت ولم يقض عليها نظراً لأن الطرق القديمة كانت منافساً له قيمته لطريق رأس الرجاء الصالح . ولأن بلاد ما بين النهرين ووادي النيل ينتجان ما يكفي سكانها وما يستدعي جلب تجارة أجنبية تستبدل بمنتجات وطنية أحياناً .

وكانت أوروبا في القرن السادس عشر تنقب عن كل ميناء يمكن أن يفتح للتجارة ، فصدرت الامتيازات الأجنبية التي منحت أولاً لفرنسا حليفة السلطان ، ثم حصلت عليها بقية الدول الأوروبية. وأخذت العلاقات الاقتصادية بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية تقوى ، فأنشئت الوكالات الأجنبية في موانئ الخليج العربي الهامة وفي ميناء البصرة على أن هذه الحركة لم تثر في العراق روحاً جديدة ، فظل العراق متعباً يسير حسب نظام معين لا يوقفه من سباته إلا جيش

Pannikar: Asia & Western Dominance, P. 28 (١)

فأرسل جرار يلقى بعنف أبوابه حتى يدفعه إلى الوراء جيش عثماني ضخم . ثم يعود العراق إلى مشكلاته الداخلية التقليدية . بينا الأوروبيون في الخليج العربي في صراع هو جزء من ذلك الصراع الكبير في أوروبا وفي مياه الهند . ولا تصل إلى الخليج من تلك الأعاصير إلا ذيوها القوة نوعاً ما عند مدخله والواهة عند نهايته . ولذلك شاهدت مسقط من الصراع العنيف بين الفرنسيين والإنجليز ما لم تشهده البصرة . وبخاصة في غضون حرب السنوات السبع التي كشفت للإنجليز عن أهمية الطريق بين أوروبا والهند عبر العراق وبادية الشام وحلب ، فقد كان أسرع طريق لنقل الأخبار والبريد ، فدخلت علاقة الإنجليز بالعراق في دور جديد^(١) .

وكان العراق بدوره قد دخل في دور جديد ، فإن انحلال إمبراطورية نادر شاه الهجومية خلف وراءه في الخليج وفي العراق أسرار أثبتت مقدرتها في صد وإبعاد الخطر الفارسي . كأسرة البوسعيد في مسقط والمماليك في العراق . ونظراً لتلك الأهمية التي أصبحت للعراق جعل الإنجليز وكالهم في البصرة قنصلية سنة ١٧٦٤ م . فلم تعد مهمة الوكيل البريطاني أن يرعى الأمور التجارية فحسب ، بل كان عليه أيضاً أن يضمن سير التارحالي البريدي حتى حلب وهذا يتوقف على وجود باشا قوى على علاقة طيبة بالإنجليز يتعاون معهم ويتعاونون معه . ولذلك نجد هذه العلاقات تنشط جداً خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر . فكم من حملة مشتركة شنتها القوات البرية المملوكية وقطع بحرية إنجليزية ضد بني كعب ، وكم من مرة يستنجد فيها سليمان باشا الكبير بالقنصل الإنجليزي ليتولى باشوية بغداد أو ليزيل من طريقه المطالبين بها وليصنى العلاقات بينه وبين صاحب مسقط ، وكان سليمان باشا في الوقت نفسه في حاجة إلى الأسلحة لصعد الخطر الوهابي ، فكان الإنجليز يمدونه بها ، بل إن سليمان نفسه كان مديناً للقنصل الإنجليزي لاتوش ، وهكذا كان الذهب من أساليب الإنجليز في كسب صداقة حكام الشرق^(٢) .

(١) الدكتور صلاح المقداد . الاستثمار البريطاني في الخليج الفارسي : ٢١

(٢) Longrigg: Op. cit. 197 — 206 وأحمد الصوفي : المماليك في العراق ٨٩

وفي نهاية القرن الثامن عشر هز بونايرت الشرق بحملته على مصر وبمكائباته إلى تبو صاحب حاكم ميسور وسلطان مسقط ونياته الواضحة لضرب الإنجليز في مستعمراتهم الشرقية . فأسرت حكومة الهند إلى اتخاذ التدابير السريعة لمواجهة هذا الموقف الجديد فاحتلت ميسور ، واستغلت الضغط الاقتصادي على مسقط لإبعادها عن مجال الفرنسيين بينما بقي ممثل فرنسا في العراق لا يقوى على القيام بعمل إيجابي نظراً لسابق خدمات الإنجليز لسليمان باشا الكبير . على أن هذه التطورات وما تلاها من أحداث جسام كانت تتطلب من الإنجليز اهتماماً أكبر . ولذلك قام اللورد إلجين Elgin سفير إنجلترا لدى السلطان بمساع ناجحة في سبيل الحصول على براءة تولية هارفارد جونز Harford Jones Brydges قنصلاً في بغداد سنة ١٨٠٢ (١) إلا أن العلاقات العثمانية - الإنجليزية لم تلبث أن توترت وتفاقمت النفوذ الفرنسي في الآستانة . وبدأ سبا ستياي - السفير الفرنسي - يلعب الدور الذي كان يلعبه من قبل السفير الإنجليزي . فكان تعيين سليمان باشا الصغير (١٨٠٨) برشيع وتأييد منه (٢) ولكن سرعان ما تلاشى النفوذ الفرنسي في الآستانة وطهران بسبب معاهدة تلس (Tilsit) التي منحت للإنجليز فرصة ذهبية لاستعادة نفوذهم في الخليج وفارس والعراق وكانت حكومة الهند قد أرسلت كلاوديوس جيمس ريتش (٣) Claudus Rich في ذلك الوقت قنصلاً في بغداد . وفي العام التالي وقعت معاهدة الصلح بين السلطان وإنجلترا (١٨٠٩) .

(١) كانت هذه البراءة تنص على أن يعين هارفارد جونز بريدجز Harford Jones Brydges قنصلاً في بغداد ليحمي مصالح البريطانيين في الباشوية والمسافرين تحت العلم الإنجليزي وأن تجدد الفريضة : ٣٠ / من ثمن البضائع ولا يتدخل في شئونه ولا يسجن ولا يغتصبه ولا يفتش بيته ولا يوضح فيه قوات ويمنع معاونوه وخدمه من الخراج والضرائب وأي شكوى منه تحال على السلطان وحده وأن يسمح له بالتسلق في المناطق الخطرة وأن يساعد رجال السلطان في عمله .

راجع نصوص المعاهدة في : Aitchison : A Collection of Treaties, Vol. X

(٢) جودت : ج ٨ : ١٧٠ - ١٧٢

(٣) ولد المستر ريتش في سنة ١٧٨٧ وتعلم اللغات العربية والتركية والفارسية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى وكانت شركة الهند في حاجة إلى مثل هذه الكفاءة فمينة الشركة سكرتيراً =

النزاع بين سليمان الصغير وريتش :

أرسل ريتش إلى بغداد في ظروف حرجية محملاً بأعباء ثقيلة . كان عليه أن يقضي على النفوذ الفرنسي في بلاط باشا بغداد ، وأن يقاوم مشروعات فرنسا في هذه البلاد ، ويراقب حركات رجالها وخططهم ، وأن يستقن الأخبار التي تهمة وتهم مصالح الشركة التي يمثلها عن طريق شبكة واسعة من الجاسوسية وكان عليه أخيراً أن يعنى بنخط البريد بين الهند وحلب والأستانة . ومع ضخامة المهمة الملقاة على عاتقه فإنه لم يكن قد تجاوز الحادية والعشرين . بينما كان المستر مانستي Manesty القنصل الإنجليزي في البصرة حينذاك قد أمضى عشرين عاماً في منصبه (١) . فكانت دهشة رجال المقيمة كبيرة عندما شاهدوا قنصلهم الجديد الشاب الذي كان عليه أن يقبل النفوذ الإنجليزي من عثرته في بغداد (٢) التي كانت نقطة الارتكاز في مشروع فرنسا لغزو الهند . وكان التفكير الاستعماري في الهند يعمل على إحباط هذا المشروع عن طريق كسب صداقة إيران بتقديم بغداد لها كمنن لتخليها عن فرنسا (٣) .

لا شك أن ذلك الموقف يدفع القنصل الشاب إلى إثبات شخصيته أمام سليمان باشا الصغير الفرنسي الميول وأمام مانستي Manesty الذي يريد أن يطويه تحت جناحه ، وأمام رجال المقيمة الذين شكوا في مقلته ، وبدأ يضع لنفسه أسساً للسياسة التي يجب أن يتبعها ليحقق أهدافه السياسية الكبرى وأهدافه الشخصية وكان ريتش متشبعاً بأفكار وأساليب جون مالكولم Malcolm

= المستر لوك قنصل بريطانيا العام في البحر المتوسط فلما توفي عين مساعداً للمستر ميست Misser في مصر وأقام فترة في الإسكندرية واختلط بالمماليك وتعلم اللباب الفروسية ثم سافر إلى حلب متنكراً في زي ملوك ثم إلى مكة واستطاع أن يدخل الكعبة ثم رحل إلى الهند عن طريق العراق الذي عاد إليه قنصلاً سنة ١٨٠٨

Constance Alexander: Bagdad Bygone days, P. 5-31

Alexander: Op. cit, P. 38 (١)

Ibid, 32 (٢)

Ibid, 51 (٣)

السياسية (١) فكل منهما كان يؤمن بأن الأتراك والشرقيين على وجه العموم حريصون كل الحرص على التقاليد الشرقية وعلى أساليب الأبهة والعظمة ، وأن كسب احترام الشرقيين يجب أن يكون على أساس احترام تقاليدهم واتباع أساليبهم في الأبهة والعظمة (٢) .

وهو مثل مالكولم أيضاً يؤمن بضرورة اتباع سياسة أكثر حزماً لإزاء الأتراك . ومن خطابات أرسلها لصهره في بمباي في صيف ١٨٠٩ م يمكن أن نكتب منها الخطوط الأساسية للقواعد السياسية التي كان يتبعها ريتش ، فهو يقول إن الدولة العثمانية في ذلك الوقت كانت على أسوأ حال من الفوضى والعصيان (٣) وأن التركي لا يقف مؤزراً لآخر إلا إذا استشعر من وراء ذلك فائدة له ، أو كان مضطراً إلى ذلك .

وعلى هذا الأساس قرر ريتش أن يكون مهيباً في المدينة حازماً مع السلطات الحاكمة فيها وذا الصلابة والإجلال في الاحتفالات ، وصاحب الأبهة والفخامة في غزواته وروحاته في المدينة وخارجها . واستطاع أن يظهر بهذا المظهر الفخم فعلاً . وأصبح الناس يحتشدون في الطرقات لمشاهدته بملابسه الرسمية يتلألأ في حالة من العظمة والأنفة على صهوة جواد أصيل ومن أمامه وخلفه الخدم والأتباع (٤) .

وهو في سبيل تحقيق نظريته هذه ابتعد عما يحيط من هيبة ، أو يشير الريب حول ممثل دبلوماسي لدولة كبرى . فلم ينزل مثل سابقه إلى الميدان التجاري وطالب حكومة الهند بأن تبذل له بسطاء لكي يقوم بمهمته خير قيام ، وكان هذا من أسباب النزاع بينه وبين شركة الهند الشرقية التي كانت تعارض الإسراف في نواحي الأبهة والمظاهر (٥) .

(١) سياسى إنجليزى مشيع يروح مدرسة الهند السياسية الاستعمارية ويرجع إليه الفضل في توطيد أقدام الإنجليز في الخليج العربي .

Alexander: Op. Cit., P. 39 (٢)

Alexander: Op Cit., P. 39, 42-46, 48, 53 (٣)

Ibid: 62-3 (٤)

كانت مظاهر تلك العظمة تثير في المدينة حديثاً يفاضل فيه بن الباشا والقنصل ويتناول وصف خيالاته ونظامها ورونقها حتى رأى البعض أن عشرة آلاف منهم كفيلون بالقضاء على الوهابيين (١) ويبدو أن سليمان باشا الصغير لم يشعر بخطورة هذا القنصل إلا بعد أن تم التفاهم البريطاني العثماني سنة ١٨٠٩ . فقد كانت علاقاته مع القنصل طيبة ، ولم يقطع علاقاته بالإنجليز خلال الحروب بين الدولة العثمانية وإنجلترا (١٨٠٧) لأن المصالح التجارية كانت تتطلب منه ذلك . فإن قطع تلك العلاقات يؤدي إلى عدم تدفق الأموال على خزانة بغداد . وهكذا كانت الأحوال السياسية في بغداد غير تلك التي في الآستانة (٢) بل إن صلح ١٨٠٩ قابله نزاع شديد بين الباشا وريتش . فقد أصبحت رغبة الباشا ملحة في الحد من تلك المظاهر ، فاصطدم سليمان باشا الصغير بريتش . ولم يكن من السهل الوصول إلى حل سريع للأزمة ورغم تفاهة مظهرها لأن ذلك من أسس السياسة التي يتبعها ريتش وليست مجرد رغبة شخصية . هنا إلى أن ريتش كان يعتقد أنه يقوم بواجب إنساني وهو مقاومة الدكتاتورية المملوكية وأن يقف في وجه الباشا الطاغية . وأغلب الظن أن ريتش كان يسمع كلمات التشجيع والتعظيم من أفواه حاشيته التي تتألف من يهود وأرمن ووطنيين مرتزقة بغية كسب ثقته (٣) . على أن ريتش كان على علاقة ببعض الشخصيات الكبرى في المدينة ، وهؤلاء لم آملهم ولم أسلوهم الخصاص في المختلة في مدينة تعج بالمؤامرات التركية والفرنسية والمؤامرات البريطانية أيضاً . ونظراً لما وصل إليه ريتش من مدى في سبيل تحقيق أهدافه كان الباشا المملوكي المتأثر بمجمل الفرنسيين قد أخذ يعمل على وقف القنصل عند حده ، وذهب سليمان الصغير إلى حد أن أهمل تعنيف الباب العالي له بخصوص الإساءة

Rich: Narrative of a residence in Koordistan Vol. II, P11 (١)

Duprés: Voyage en Perse, Vol. I, 192-3 (٢)

Alexander: Op. cit., P. 53 (٣)

إلى القنصل، بل وهدد ريتش بال عزل . وتدخل في أمر البريد البريطاني (١) فكما وضع لنا Duprés لم يكن باشا بغداد يتقيد باتجاهات السلطان السياسية دائماً . (٢) بل كلما اشتد الباب العالي في الضغط على الباشا زاد هذا في التضييق على ريتش ضارباً — بالامتيازات التي وافق عليها السلطان (٣) سنة ١٨٠٢ — عرض الحائط ، ولكن الاتجاه العام للسياسة الأوربية وصددها في الآستانة كان يسير ضد اتجاه الباشا الذي أصبح مكروهاً من السلطان لوهابيته ولعدم دفعه لما تعهد به للسلطان من أموال (٤) فاضطر سليمان باشا إلى مهادنة القنصل ووافق على تسوية اقترحها عليه البريطانيون في سنة ١٨١٠ تأيدت لهم فيها جميع الامتيازات التي سبق أن حصل عليها الإنجليز (٥) .

ولم يكن تراجع سليمان هذا بسبب التهديد العثماني له فقط ، بل كان أيضاً بسبب اقتصاديات العراق إذ أنها تتأثر بشكل واضح لو توقفت التجارة العراقية الهندية ، وكان هذا السلاح من أمضى الأسلحة التي استخدمها ريتش في نزاعه مع الباشا فقد كتب ريتش يقول « إن الباشا لن يخضع ما لم يتأكد من فقدته للبصرة » (٦) . وهكذا لعبت التجارة الهندية ، دورها في إخضاع باشا بغداد للنفوذ الإنجليزي ، وفي ارتفاع أسهم ريتش ، وقد ازداد مركزه قوة عندما جاء خالد أفندي مكلفاً بعزل الباشا . فاتصل خالد بريتش وأبدى القنصل له أسفه لما وقع فيه العراق بسبب غياب الوزير ورجاه أن يبقى بغداد — برغم ذلك — تحت حكم الباشا إذ نعمت بغداد في عهده بأيام سلام وأمن : وكان من الطبيعي أن يحسن الباشا علاقته بريتش لعل في دفاعه عنه خيراً وقد تصديق

(١) Alexander: Op. cit. P. 53—7

(٢) Duprés: Op. cit. 192—3

(٣) انظر الملحق رقم (٢) عن سلاطين الدولة العثمانية .

(٤) Alexander: Op. cit. 55—8 ج ٨ : ١٧٠ — ١٧٢

(٥) C. Atchison: A Collection of treaties, engagements and sanads, Vol. (٥)

XI, P. 10—11.

(٦) Alexander: op. cit. p. 59

وساطته مثلما صدقت وساطة أسلافه من قبل . ومع هذا يتهم ريتش بأن له دخلاً في مصير الوزير المظلم^(١) وواقع الأمر أن خالد أفندي كان مكلفاً بعزل الباشا وكان ريتش قد بلغ هدفه بتوقيع سليمان باشا الصغير على التسوية السالفة الذكر . ولم يعد ريتش في حاجة ملحة إلى أن يستقي في وزارة بغداد باشا كان ممثلاً للفرنسيين أعداء إنجلترا والوهابيين أعداء الدولة العثمانية الذين عكروا صفو الخليج على الإنجليز . حقيقة إنه حتى ديوان أفندي أحد موظفي سليمان باشا ، ولكن هذا من صميم سياسة ريتش . لأن ديوان أفندي اليوم قد يكون باشا الغد^(٢) ومن ناحية أخرى كان عبدالله باشا (المطالب بالباشوية) من مرشحي المقيم البريطاني لتولي الباشوية بعد وفاة سليمان باشا الكبير^(٣) فلا شك والأمر هكذا أن ريتش لعب دوره بمهارة ، فكان طرد سليمان الصغير على هوى ريتش. والظروف هيئت لأن يظهر ريتش بمظهر الشخصية الكبرى التي تعادى فتنتصر ويقع غرمها في أزمة فتعمل على إقائلته من عثرته ، وهو في خلال ذلك يضع أهدافه فوق كل اعتبار .

تمو نفوذ ريتش :

وبطبيعة الحال ازداد نفوذ ريتش قوة على قوة خلال حكم عبد الله باشا . فنشط ريتش في ربط البلاد بشبكة جاسوسية واسعة وفي التدخل في أمور الباشوية الداخلية ، مستغلاً حقه في حماية من يلجأ إليه ، فحمى فيمن حمى سعيد بك ابن سليمان الكبير من بطش عبد الله باشا سنة ١٨١٣^(٤) فكانت فرصة استغلها سعيد ليعاود الكرة فيهاجم عبد الله واستطاع أن يدخل بغداد على جثة سلفه وأصبح لاجئاً الأمس باشا اليوم ، فتعالت مكانة القنصل في بغداد كما تعالت مكانة دولته في أفق السياسة الأوروبية بعد وائرلو . وكان ريتش

(١) زكي صالح : موجز تاريخ العراق : الطبعة الأولى ١٠٥ - ١٠٦

(٢) وكان ديوان أفندي هذا من قدم لريتش مساعدات إبان نزاعه مع الباشا .

(٣) Longrigg: Op. cit P. 2/5

(٤) يعقوب سرقيس : مباحث عراقية : ج ١ : ١٠ عن وثيقة كتبها معاصر .

خلال هزائم نابوليون الأخيرة في زيارة لأوروبا وعاد منها شامخ الأنف وبخاصة إنه أصبح وكيل بريطانيا في بلاد تركيا العربية ووضعت البصرة تحت إشرافه^(١) ثم إن علو كعب أمته أتاح له أن يحصل على المزيد من النفوذ والعظمة فقد عاد من أوروبا وقد أسند إليه حق الحماية والإشراف على دير النساوين Austrian Monastery فاستطاع بذلك أن يكف يد ريموند Raymond^(٢) ممثل فرنسا في بغداد — عنهم .

وبينا كانت حكومة لندن تضيئ هكلنا على قنصلها ذلك الرواء من العظمة والأهمية كانت حكومة الهند لا تزال ترى فيما يقوم به ريتش من مظاهر الأبهة إسرافاً يفوق حدود مهام وظيفته^(٣) .

ولقد قدم لنا الرحالة الأوربيون صورة صادقة واضحة لنفوذ وعظمة القنصل البريطاني في بغداد في عهد سعيد ، وعندما تولى داود الباشوية كانت المقيمة البريطانية من أكبر مباتي المدينة وأحسنها^(٤) رونقاً وتطل على دجلة حيث يرسو أمامها تحت مستعد للقيام برحلات القنصل في كل لحظة . وفي كل صباح يعقد القنصل ديوانه وفيه تدبر وتناقش الموضوعات المهمة — على غرار ديوان الباشا — ويحضره كبار رجال المدينة وكثير من المسيحيين ويؤمها في الحفلات وفي مختلف الأوقات فرس وترك ويهود ودراويش وأرمن وبالمقيمة سكرتيران وجراح وترجمة وسائسو خيول وخدم من عرب وفرس عدا حرس المقيمة العجم بطبوله وأبواقه فتضرب « النوبة » في كل صباح ولعل ريتش أراد أن يجعل من المقيمة « سرايا » أخرى تدبر فيها شئون البلاد :

(١) Alexander: Op. Cit P. 244—245

(٢) كانت فترة الهزائم البابلية فترة ضعف لتنفيذ الفرنسي إلى حد كبير في العراق حتى جاء الكونت فيجورى Vigeroux ممثلاً لبلاده في بغداد سنة ١٨١٦ — وكان شخصية محبوبة مثيرة ولكن انهيار مركز فرنسا لم يسمح له بأن يقف على قدم المساواة مع زميله ممثل إنجلترا في العراق .

(٣) Buckingham: Travels in Mesopotamia II. P. 212—3

(٤) نقلت المقيمة في سنة ١٨١٨ إلى المبنى الحالي على دجلة .

ويبدو أنه طبق أفكاره نفسها في البصرة التابعة له . فكانت وكالة البصرة صورة مصغرة من مقيمة بغداد ، وكان لدى مساعد ريتش هناك من أربعين إلى خمسين فارساً من أحسن الفرسان الذين شاهدتهم هود (أواخر ١٨١٦) .
ومهما بلغت قوة نفوذ ريتش في عهد عبد الله باشا فلأنها لم تصل إلى ما وصلت إليه في عهد سعيد باشا . فيحدثنا الرحالة الإنجليزي بكنجهام Buckingham عن أن كلمة ريتش هي المسموعة بغض النظر عن رأى الديوان . وأصبحت المقيمة ملجأً للقارين من وجه السلطات الحاكمة خلال الصراع الذي نشب بين سعيد وداود .

وقد وقف ريتش على الحياد خلال الصراع بين داود وسعيد لأن داود كان قد حصل على فرمان توليته وعلى عزل سعيد ونفيه . ولذلك اكتفى ريتش بأن يتبع سياسته في تكميل زعماء بغداد بمعرفة . فكان يقبل اللاتنيين به والقارين من وجه أعدائهم في المدينة . فقد حمى مثلاً درويش باشا كيخيا سعيد السابق (١) وريتش بهذه السياسة يهدف إلى أن تكون هذه الشخصيات الهامة طوع الإنجليز فيما بعد . ولتأكيد معنى هذا الحياد المظهرى أمضى ريتش الفترة الحرجة بين يناير ومارس ١٨١٧ خارج المقيمة . وكان في الوقت نفسه على اتصال بالباشا الجديد . وعندما عاد ريتش إلى المدينة نشد معونته كل من الغالب والمغلوب فكانت النسوة يلقين بأنفسهن على أقدام ريتش متضرعات أن ينقذ أزواجهن أو أبناءهن أو إخوتهن من صارم العقاب أو من سيف الانتقام الذي يتوقعون امتشاق داود له حتى إن زوجة ريتش افتخرت - بقولها : إن الناس يرون ريتش ثابتاً في مكانه بينما الباشا يقتل فيخلفه آخر وهكذا (٢) .

هذا النمو في النفوذ البريطاني كان يسير جنباً إلى جنب مع نمو المصالح السياسية والاقتصادية بين العراق والهند والخليج . فقد دارت في رعوس ساسة

Alexander: P. Cit. PP. 85-86, 25, 251

(١)

Buckingham: Travels in Mesopotamia, II. PP. 210, 214

Heude: Op. Cit. P. 49, 137, 166-167

Alexander: op. cit. p. 251

(٢)

حكومة الهند اتجاهات قوية نحو احتلال جزر معينة من جزر الخليج العربي لتأمين طرق التجارة وكانت هذه سياسة مالكولم وهي سياسة آمن بها ريتش .
 فقد نادى باتباع سياسة أكثر قوة وعنفاً لكي تستطيع إنجلترا أن تنجز أعمالها في الخليج، ولكي تحترمها فارس . ولكي تحول دون نجاح المؤامرات في فارس وتركيا فقد نادى بهذه الخطوة أيضاً بعض موظفي حكومة الهند حتى يتمكن الإنجليز من السيطرة على طرق التجارة عبر العراق ومن جعل التجارة البريطانية في الخليج مرتكزة على قواعد ثابتة ، وكانت هذه الأفكار تلتقي مع آراء ريتش ، ولاشك أنه كان يشعر تمام الشعور بأهداف الإنجليز في الخليج .
 بل لاشك أن ريتش تباحث مع هود Hende في خطة غزو العراق في أسرع وقت وبأقل التكاليف . وما كان واضع خطة الغزو هذه ليستطيع أن يضعها على أساس سياسي دقيق دون أن يكشف له ريتش عن هذا الجانب السياسي .
 ومن ثم فقد وجد ريتش من يشاطره آراءه من حيث سهولة وقوع العراق تحت الحكم البريطاني ولاشك أن تبلور هذه الفكرة في عقلية بعض الإنجليز يثير في القنصل الشاب - الذي يرى في الحكم الإنجليزي للعراق إنقاذاً له مما هو فيه من سوء حال - روح القيام بالدور الذي لعبه أمثاله في الهند . وبخاصة أن فكرة فتح العراق واستغلال النزاع بين والي الموصل وبغداد من أجل تحقيق تلك الفكرة كانت واضحة أمامه (١) على أن هذا يتطلب توطيد الصلات القوية بينه وبين باشوات العراق وبخاصة الموصل وكرديستان ليزل باشواتها على نزاع دائم مع باشا بغداد كما يتطلب تفكيك المجتمع العراقي تفكيكاً أكثر مما هو عليه فكلما زاد تفكك المجتمع العراقي سهلت السيطرة عليه ، وهذه السياسة تتطلب من القنصل عدة أمور :

(١) أن يسيطر على الجهاز الحكومي تماماً .

(١) رحلة ريج : ٣٦

Alexander: op. cit. pp. 39, 251, 256.

B. Fraser: Narrative of journey in Koodistan, pp. 2-7.

Rich: Narrative of a journey to Babylon. pp. 52-53.

Heude: Op. Cit. pp. 44, 45, 180-181.

(٢) أن يستغل العصبية والأقليات الموجودة :
 (٣) أن تكون لديه شبكة واسعة من الحاسوبية تمدّه بالمعلومات اللازمة
 وسيصبح لنا أن هذه هي السياسة التي سار عليها ريتش في العراق حتى
 أدت إلى طرده منه على يد داود باشا .
 كان ريتش على اتصال وثيق بالأقليات المسيحية الأرمنية واليهودية في
 بغداد وخارجها . فاليهودى مثلاً يجد في الحماية امتيازات اقتصادية أو تسهيلات
 تجارية في مقابل تقديم المعلومات السياسية والاقتصادية إلى القنصل ، وهي
 معلومات ذات قيمة كبيرة ، وبخاصة إذا كانت صادرة من يهودى اشتغل
 بالتجارة والمال منذ مدة طويلة في العراق حتى خبر منتجات البلاد ومكاناتها
 ودخلها وخرجها . ومن المسيحيين من يدفعه الشعور بالضغط إلى التعاون
 المزرى مع القنصل وبخاصة أولئك الذين وفدوا على البلاد فراراً من قسوة
 مواطنهم الأولى في أرمينيا فكان منهم جواسيس ورجال المقيمة المخلصون (١).
 والمسيحيون والأرمن واليهود منتشرون في طول البلاد وعرضها ويعرفون
 دقائق أمورها السياسية والاجتماعية . ففي البصرة أيضاً كان المقيم البريطانى ينشر
 جناح حمايته على كل من اليهود والمسيحيين ، بل كانت أمور البلاط مكشوفة
 أمام القنصل عن طريق بعض اليهود فإن اليهودى عزرا — الذى دبر مؤامرة
 سلك النقود أيام سعيد وأصبح بتوصية من خالد أفندى في منصب صراف
 ياشى — كان على اتصال قوى بريتش حتى بعد طرده هذا الأخير من بغداد؛
 وكانت مجتمعات مسيحية ذات شأن على اتصال قوى بريتش ، ومن تلك
 المجتمعات مسيحيو ماردين — فزعيم طائفتهم كان وكيل ريتش في ماردين
 ولا شك أن ريتش كان على وجه العموم يعطف على الأقليات العراقية الوطنية
 منها والوافدة ويعطف على المسيحيين فهم أقرب الناس إليه إذ أن هذه الأقليات
 المسيحية كانت أسرع من غالبية سكان البلاد إلى قبول الأفكار الغربية .
 ويعطف ريتش على اليهود لأنهم أعرف الناس بأمور البلاد وهم في حاجة إلى

نوع من الحماية ، بل يعطف على الزيديين ، وكان هؤلاء يحترمون المسيحيين لأن الأتراك عنهم المشترك^(١) .

وكان حق الحماية واللجوء إلى المقيمة من أقوى الأسلحة لا لبسط النفوذ الإنجليزي في العراق فحسب ، بل أيضاً لإظهار الباشا بصورة أنه غير حر التصرف في كل شيء وأن هناك من يحد من سلطته ويكفها في بعض الأحيان . ولا يغيب عن الذهن أن القنصل ورجاله كانوا يقومون بأعمال سياسية اقتصادية تبشيرية في آن واحد ونستطيع أن ندلل على هذا بأن ريتش كان يختار بعض وكلائه من زعماء الطائفة المسيحية^(٢) وكان أغا ميناى يقوم بأعمال تبشيرية^(٣) وريتش نفسه كان يشجع منذ صباه على إرسال البعثات التبشيرية إلى الشرق^(٤) وإنه لأمر ذو مغزى أن يكون المنشئ البغدادي الفارسي الأصل وميناى الأرمني وعزرا اليهودي من أشد المخلصين لريتش وللإنجليز على وجه العموم .

الزراع بين داود وريتش :

ذلك ما كان عليه ريتش من نفوذ عندما تولى داود الباشوية . وكان ريتش يعتقد أن داود تولى الباشوية على جثة صهره سعيد^(٥) ومع أن حكم سعيد كان يعج بالمساوي فإن ريتش لا يهاجم حكم سعيد . ولا شك أن ريتش أراد أن يكون له نفس النفوذ القوى الذى كان يتمتع به أيام سعيد ولذلك قرر أن يذهب في زيارته الرسمية للداود على أروع صورة .

تحدد يوم ٢٦ مارس سنة ١٨١٧ ليخى القنصل الباشا الجديد بمنصبه فبدأ الموكب في ذلك اليوم من المقيمة يتقدمه ضاربو الطبول وعازفو القلوت وستة من الخيالة وعدد من الأتباع يفسحون الطريق وفرقة من حرس المقيمة ،

(١) Rich: Narrative of a Residence. II. p. 184. Alexander: op. cit.

pp. 239, 284. Ernest: Background. p. 122.

Alexander: Op. Cit p. 229 (٢)

Groves: Op. P. 53 (٣)

Alexander: op. Cit p. 7.8 (٤)

(٥) إن سيد عيسى - في الواقع يتحمل ثمة مصرع سعيد .

ويرافقه الضابط هود ومساعد ريتش الأول ، وسكرتيره وجميعهم يمتطون صهوة جباد أصيلة وفي مؤخرة الموكب عدد من الأتباع ومن ورائهم رعاع المدينة يصفقون، وعلى جانبي الطريق وقف أهل بغداد يشاهدون روعة القنصل وحاشيته .

وعندما بلغ الموكب الفناء الخارجى للسراى ترجل المقيم وصحبه وساروا إلى حيث يجلس الباشا مجتمعاً بديوانه (١) وعلى هذا النحو ظهر ريتش بهذا المظهر القمقم ولكن العهد قد تغير فعلاً فلان داود كانت له مشروعاته وكان يقدر مدى خطورة قنصل من هذا الطراز على مستقبل البلاد السياسى . وكانت لديه من الدوافع ما يجعله يسىء الظن بريتش ، فقد كانت العلاقات بين داود ومحمد على ميرزا منذ البداية متوترة وتطورت إلى نزاع سافر . وخلال هذه الأزمة التى تهدد كيان الباشا — الذى لم يثبت مركزه بعد فى حكم البلاد — كان ريتش على اتصال بمحمد على ميرزا (نهاية ١٨١٧) وطلب منه حاكم كرمنشاه أن يمدّه بضباط إنجليز وبالسلاح ، وتحمس ريتش لهذا العرض ، فهو لا شك يقدر خطورة وجود ضباط فرنسيين يقودون وحدات الجيش الإيرانى . ويقدر مدى النتائج المترتبة على كسب الإنجليز لصداقة محمد على ميرزا، فكتب ريتش إلى بمباى عارضاً عليها اقتراح الشاهزاده وعلق على هذا مقترحاً بأن تعمل حكومة الهند على توطيد أواصر الصداقة بينها وبين أمير كرمنشاه وأن تبعث إليه بهدية صغيرة . وأن يلبي طلب الشاهزاده جزئياً . فأسّرت حكومة لندن إلى الرد السريع الحاسم على قنصل بريطانيا فى بلاد تركيا العربية وبصرته بحقيقة مركزه وأنه لا يحق له التدخل فى اختصاصات الوزير البريطانى فى طهران ثم بصرته بالموقف السياسى على حقيقته وهو ما لا يستطيع أن يلم به كما يلم به سفير الملك لدى بلاط الشاه أو كما تلم به حكومة بمباى فقد كانت هناك إشاعات قوية عن نيات ابن الشاه العدوانية نحو العراق .

وهكذا كان رد حكومة بمباى صفقة قوية لريتش لم يستطع إزاعها إلا أن يغفر
فاه دهشة وحسرة (١) .

وهناك وجه آخر لهذه المشكلة التي أوقع ريتش نفسه فيها ، فلقد كان
محمد علي ميرزا علو داود الأول وكان داود يستشعر خطورته منذ البداية
وكان تعاون داود مع محمود باشا البابائي يقوم على أساس تخلي الأخير عن
حلفائه الإيرانيين ، وتم لداود ما أراد ولما غير محمود تبعيته حمل عليه داود (٢)
ولما علم داود أن أغا الإنكشارية سيد عليوى كان على اتصال بالشاهزاده فصل
رأسه . ولا شك أن داود علم بما كان من اتصالات بين ريتش والإيرانيين فقد
ردد ريتش أن داود سيتهمه بأنه يعمل على إثارة الفرس والكرد ضده (٣) ولقد
ثبتت لداود اتصالات ريتش بالشاهزاده وكانت مواقف ريتش في هذا الصدد
ضد مصلحة داود . وفي الوقت نفسه الذي كان فيه ريتش ينادى بمساعدة
الشاهزاده كان يصور حكم داود لحكومته على أسوأ صورة (يوليو ١٨١٩)
(شوال — ذو القعدة ١٢٣٤) فهو يقول إن أمور الباشوية في انحدار سريع
نحو الفوضى الطاحنة لتهور وسوء تصرف الباشا (٤) .

والواقع أن ريتش كان مستاء من داود ومن حكومته . ولما أراد أن
يذهب إلى كردستان في رحلة ظن داود أن وراء هذه الرحلة ما وراءها فهو
ذاهب إلى بلاد بنرة المؤامرة فيها سريعة الإنبات والتوريق ، وروح العصيان
هناك في غير حاجة إلى إثارة ، والمتغلبة فيها ضعاف ولكن في جموح . ومع ذلك
سمح له داود بالسفر فليس له أن يمنعه على اعتبار ما يتوقع منه ، وذهب
ريتش إلى السلجانية (مايو ١٨٢٠) حيث التقى بمحمود باشا بعد أن عاد الأخير
إلى حكومته بفضل قوات الشاهزاده . ويؤكد ريتش في غير موضع أنه

(١) Alexander: Op. Cit. P. 251.

(٢) انظر الفصل الثالث : الفصل الخامس :

(٣) Rich: Narrative of a Residence II, P. 180.

(٤) Alexander: op. Cit. 266, 295-6

كان يتحاشى ، كما يقول المتحدث فى السياسة^(١) ، ولكن لم يحدث مطلقاً أن حدثاً بينه وبين محمود باشا خلا من الناحية السياسية، وقد كان فى بلاط محمود فى ذلك الوقت مبعوث من قبل الشاهزادة يطالب محمود باشا بثلاثين ألف تومان، وأوضح محمود لريتش عجزه عن مقاومة الشاهزاده وإن الأتراك الذين يشتدون فى ضغطهم على الكرد للتخلى عن الإيرانيين لا يستطيعون صد جيوش كرمشاه^(٢). وإبان تلك المحادثات كان بلاط محمود يروج بالمؤامرات ، ويرجع ريتش الاضطراب الذى عم كردستان إلى داود باشا وإلى خداع باشا بغداد لباشا السليمانية وأن هذا الخداع من طابع الحاكم التركى. وريتش خلال كل هذا كان يعمل على تحريك الشعور القومى فى قلب محمود باشا ، ولكن مساعيه هذه باءت بالفشل وهو بتحريكه الشعور القومى فى قلوب الكرد يبقى الكرد بعيدين عن الاندماج فى الوطن العراقى الكبير تحت حكم بغداد فيزداد تفكك هذا الوطن وتكون الفرصة مناسبة لبريطانيا للسيطرة على العراق ومهما كانت أغراض ريتش من تحريك هذا الشعور القومى فلا شك أنه كان ضد مصالح باشا بغداد .^(٣)

وميل ريتش للكرد واضح كل الوضوح وهو ميل له مغزاه فهو يرفع من قدرهم فوق الأتراك ويبرز زعماءهم فى إطار رائع عظيم^(٤) . وما هذا إلا لأنه يعمل على جعل الكرد يلتفون حول قوميتهم لينفصلوا عن بغداد فيتحقق هدفه مع العلم بأن الكرد كانوا أسوأ حالا من غيرهم من سكان العراق. على أن عملية تفكيك العراق إلى وحدات صغيرة مستقلة يجب أن تشمل فيما تشمل الموصل وكانت الموصل - مثل السليمانية - لا تزال تقاوم نفوذ بغداد وكانت هذه البقية الباقية من المقاومة لنفوذ بغداد هى التى حاول ريتش استغلالها لتفكيك العراق، وبخاصة أن الموصل كانت معقلا من معازل المسيحية. هذا بينما كان

(١) رحلة ريج : ٥١

(٢) رحلة ريج : ٢٢٩

(٣) رحلة ريج : ٢٢٩

(٤) رحلة ريج : ٦٨

داود مثل سلفه سليمان الصغير يحاول أن يطوى الموصل تحت جناح بغداد . وكانت حركة التوحيد هذه تتعارض مع أهداف ريتش : والواقع أن الموصل كانت هي الأخرى تروج بالمؤامرات . وكان لريتش فيها أعوان من خدامه ولذلك كان الوزير معذوراً في اتهامه لريتش لأن لهذا الاتهام شواهد قوية تبرره حيث إنه كان يثير الفتن بين باشويي الموصل وبغداد (١) .

ولكي يحقق ريتش أهدافه كاملة كان عليه - كما سبق أن ذكرت أن يسيطر على الجهاز الحكومي ، وكان حق حمايته للأفراد أقوى وسيلة استخدمها لبلوغ هدفه هذا . ولقد مرت بنا أمثلة قوية لهذه الناحية . ولقد استطاع بهذه الوسيلة أن يكون لنفسه حزباً في داخل المدينة إلى جانب أولئك الذين يقدم لهم خدمات على صور أخرى كالحصول على منصب مثلاً . فكان سيد عليوى ممن لجأ إلى الإنجليز (٢) وكذا درويش باشا (٣) كيخيا سعيد وغيرهم وكان باشا الموصل (٤) من أصدقائه وكذلك المتولى السابق للإمام الأعظم (٥) هذا إلى جانب عدد ليس بالقليل من شيوخ القبائل ووجوه المدينة (٦) .

وعلى هذا النحو ظهر نفوذ ريتش الخطر على أمن البلاد وما كان للبasha وقد راقب هذا الخطر خلال سني اشتداده أن يسكت عنه فلم يكن هناك بد من صدام شديد بين القنصل والبasha الذى يريد أن تعود قبضة الحكومة قوية على البلاد وأن يرد القنصل إلى مركزه الطبيعي وأن يجد من عقوانه ويخفف قواته العسكرية التى ربما كانت تشد أزرها مدفعيه موجودة في المقيمة (٧) .

(١) رحلة المثنى البغدادى : هاشم ص ٢٤٩ Rich: Narrative of a Resident II, p. 24

(٢) يقوب سركيس : مباحث عراقية : ج ١ : ص ٢٠

Alexander: op. Cit. pp. 295-296

(٣) Heude: Op. Cit P; ١37, ١66-١67

(٤) رحلة ريج : ص ٢٠٢

(٥) رحلة ريج : ص ٣٢

(٦) إن من يتبع رحلة ريتش في العراق يجد أن أصدقاء ريتش كانوا من كبار رجال العراق ومن أصحاب النفوذ فيه .

انظر : Rich: Narrative of a Residence in Koodistan, London, ١836

(٧) Fontunier: Voyage dans l'Inde, Vol. I, p. ١75

هذا في وقت كانت فيه التطورات السياسية العسكرية في الخليج العربي تسير في تيار من العنف والفوز الذي أحرزه الأسطول البريطاني في رأس الخيمة وغيرها وقد رفعت هذه التطورات حرارة العمل لدى ريتش فألبس الجوارب في العراق بجرائه وتحرشه بالوزير لعله بذلك يدخل العراق في حظيرة النفوذ البريطاني ويكون له الفضل في أن سياسة العنف والاحتلال التي نادى بها ملكوم وآمن بها ريتش تكون قد تحققت سنة ١٨٢٠ بل كانت الإشاعات تتردد هنا وهناك عن قرب احتلال الإنجليز أقمارس (١).

هذا الالتهاب الذي عم الخليج كان له صدهاء في العراق، ولا شك أن نشوب النزاع بين داود وريتش في هذه الظروف كان سيتخذ صورة عنيفة وكان اندلاع النزاع كما هي العادة — في حاجة إلى سبب مباشر فكانت المشكلة الاقتصادية هي ذلك السبب .

كان من المعروف — حسب الاتفاقيات السابق عقدها بين باشوات العراق والإنجليز — أن الضريبة الجمركية على البضائع الإنجليزية هي ٣ ٪. بينما كان الوطنيون يدفعون ٧ ٪. ومعنى هذا أن السوق التجارية كانت لصالح التجار الأجانب وكانت الباشوية في حاجة إلى كل قرش، وكانت الامتيازات الأجنبية تخرج مركز الباشا المالي والسياسي، وبينما كان ريتش في كردستان (صيف ١٨٢٠) انفجر شغب في البصرة بين العرب والمتسلم فكتب تايلور (وكيل ريتش في البصرة) إليه بما وقع . فطالبه ريتش بالوقوف على الحياض وبأن ييسر حمايته على رعية بريطانيا وأن ينسحب إلى بوشير في حالة وقوع عدوان على هؤلاء يهدد الوكالة البريطانية . وهكذا يبدو لنا أن ريتش كان يتوقع حدوث صدام عن قريب فوضع خطة لإخراج مركز الباشا . وعلم ريتش وهو في الموصل — من أحد جواسيسه — أن ممتلكات سكوبودا Scooboda التاجر الأوربي تحت الحماية البريطانية — قد صودرت بأمر الباشا وأن الباشا فرض ضريبة بلغت ١١ ٪ على بضائع التاجر الإنجليزي ستورمي Sturmy

وكان الباشا قد قام بذلك فعلاً وهو بذلك لا يكثرث لا بالاتفاقات ولا بالامتيازات. بل إن الباشا اشتد في معاملة الرعايا الإنجليز وسرت هذه المعاملة السيئة لهم إلى رجاله من حكام العراق مثل حاكم ماردن .

أسرع ريتش إلى الاحتجاج على تلك الإجراءات وشكا الأمر إلى بمباي والآستانة ولندن . وقدم شكواه إلى أحد اللوردات - فرفع هذا الأخير شكوى ريتش إلى كاسلريه ليحيطه علماً بما أصاب الامتيازات البريطانية في العراق وليفتح عينيه على الموضوع قبل أن تأتيه شكوى عثمانية ضد ريتش قد يساء فهمها . ثم عقب ذلك اللورد على هذا العمل بأن بعث إلى ريتش صورة لما كتبه إلى كسليريه لكي يشجعه في موقفه من داود (١) وكان لهذا التشجيع أثر قوي في نفس ريتش إذا ازداد صلابة فأصبح الموقف أكثر تعقيداً وبخاصة بعد عودة ريتش من الموصل إلى بغداد ، وبدا كأن العاصفة على وشك الوقوع وكان اليوم الذي أعد ريتش له ترتيبات واسعة النطاق قد جاء ، وأن لريتش أن يستخدم ما في جعبته ، وأن يقدم له أعوانه في المدينة ما ينتظره منهم من فداء ، والموقف في ظاهره يوحي بانتصار القنصل ، فلم يكن داود تحت مطرقة واحدة بل تحت مطارق عديدة وعنيفة . وها قد هب القنصل ضده ، ومعنى قيام القنصل ضده أن الباشا على خطأ والناس جميعهم سيدركون أن الباشا هو الخطئ . ذلك ما كان يتصوره ريتش (٢) .

طرد ريتش :

أما داود فقد قدر ما قد يثيره القنصل من اضطراب في المدينة بعد عودته إليها ، وأنه سيقوم باتصالات مع البغداديين ، ولريتش بينهم أصدقاء ولداود فيهم أعداء ، والأرض خصبة للمؤامرات ولذلك لم تعبد المعركة بين داود وريتش مقصورة على المشكلة الجمركية بل أصبحت أيضاً صراعاً من أجل

Alexander: Op. Cit, p. 295-6

(١)

Rich: Narrative of a residence in Koordistan, II, p. 180.

Alexander: Op. Cit. p. 297

(٢)

البقاء في بغداد . فإن انتصار القنصل على الباشا لا يعنى في هذه الظروف سوى الضياع لداود نهائياً . وانتصار داود على القنصل يسمح له بالتفرغ للقضاء على التمرد الداخلي والخطر الإيراني .

واشتد داود في ضغطه على ريتش منذ عودته حتى اضطر ريتش إلى أن يطلب من داود التصريح له بمغادرة بغداد ، وكان داود قد رفض أن يمنحه التصريح ، وبينما كان ريتش في طريق عودته إلى المقيمة سمع من أحد جواسيسه أن الباشا في سبيل ضرب الحصار على المقيمة فأسرع ريتش إلى العمل وأعد خطط الدفاع ، وقسمت المقيمة إلى قطاعات ووزعت القيادات العسكرية على عدد من ضباط شركة الهند كانوا في ضيافة المقيمة في ذلك الوقت ، ووزع الجند على المواقع الاستراتيجية في المقيمة ، وأشرف هو على جميع مواقع الدفاع (١) . وكأنه في ميدان القتال ينتظر وائرلو أخرى . وخطط القائد الماهر يجب أن تمتد إلى ما واره خطوط القتال ليثير الفوضى في أراضي العدو . ولقد كان ريتش يعتقد أن أهل بغداد المغبونين سهبون لمشاركته شرف قتال الباشا الطاغية وأن ثورة عارمة ستندلع عقب انطلاق الرصاصة الأولى (٢) وأياً كان الأمر فقد كان على داود أن يسرع إلى اتخاذ تدابير تكفيه شر ما قد يقدم عليه ريتش بعد أن أوقف الملاحاة في البصرة ، وحصن المقيمة وأعلنها حرباً شعواء ، فأرسل داود ثلة من جنده لحصار المقيمة وسد منافذ المدينة لمنع من عساه أن يفر من الإنجليز ، ووضع مدفعاً على الضفة المقابلة للمقيمة ليسيطر به عليها (٣) وتقدمت ثلة الجند إلى قرب المقيمة . وتحدثنا مترجمة حياة ريتش عن الرعب الذي نزل في قلوب هؤلاء الجند عندما شاهدوا استحكامات المقيمة فانقلبوا على وجوههم وارتدوا إلى مفهى مجاور . ولسنا في حاجة إلى تفنيد كل تلك المبالغات . فن الواضح أن قوة القنصل لا تكمن وراء ما كان

Alexander: Op. Cit, p.222, Llyod, Foundation in the dust, London.(١)

1947, p. 44.

Alexander: Op. Cit, p. 299, Fontainer: Op. Cit, I, p. 176. (٢)

Alexander: Op. Cit, p. 298-9. (٣)

بعده من خطط دفاعية وإنما كانت في علو كعب دولته وفي الامتيازات التي حصلت عليها . وخلال ذلك كانت محاولات تبذل لتسوية النزاع . وذهب بعض رجال الحكومة لمفاوضة ريتش فما كان من القنصل إلا أن انفل وهاج وماج والتقط عصا وطلق يطارد بها من أتى لمفاوضته حتى طردهم شر طردة من المقيمة (١) وعلى أي حال فإن ريتش عاد وغير خطته إذ اعتقد أن بقاءه ينجباً لا يفيد إلا الباشا الذي ربما يريد أن يحتفظ به رهينه . وعلى هذا الأساس أراد ريتش أن يفوت على الباشا غرضه ، وقبل وساطة الدفتردار وعزرا اليهودي وذهب لمقابلة الباشا الذي منحه تصريح الخروج في مقابل حصول الباشا من ريتش على اعتراف من الأخير بأنه عومل معاملة حسنة وأنه يغادر البلاد بمحض إرادته . ولا يستبعد أن يكون داود قد ضغط على ريتش حتى اضطره إلى كتابة هذا الاعتراف فلا شك أن داود قدر ما ستكون عليه العاصفة الدبلوماسية التي سيثيرها ريتش بعد خروجه من بغداد فاحتاط للأمر وأخذ هذا الاعتراف طوعاً أو كرهاً .

إن المنشئ البغدادى صور لنا النزاع على صورة برر بها نكبة ريتش في آماله وفي قيام البغداديين لنجدته فقال : « لو كان يريد إثارة الفتنة آنئذ .. لفعل ولوجود عون له الينكجارية والأعيان ورجال بغداد وسائر الناس ممن كانوا معه فينقادون لرغبته ويستولون على بغداد لما يحملون له من ود ، إلا أن الرجل كان محباً للسلام وعمل الخير بدرجة قصوى (٢) » . إن شواهد الأمور تشير إلى أنه لو استطاع لفعل وإلى أنه قد غرر به ولم يدرك أنه في بلد إسلامي ينظر إليه نظره إلى كافر مندوب دولة كافرة لا تسعى إلا لتقويض أركان الإسلام ، أضف إلى هذا أن الانكشارية لم تهب لنجدة ريتش ولم يحدث شيء من هذا القبيل . على أن موقف داود من إلغاء الامتيازات الأجنبية يعتبر بعيداً عن الأصول

(١) Alexander, Op. Cit. 298-9

(٢) المنشئ البغدادى : ٢١ .

الدبلوماسية فهذه الامتيازات لم تكن مقصورة على العراق ، بل كانت تشمل الدولة العثمانية بأسرها وفارس أيضاً ، فشملت الشرق الأوسط كله تقريباً ، وأصبحت كالمبدأ العام المولى لا يمكن التغاضي عنه في مكان والتمسك به في آخر ومن ثم كان خروج ريتش من العراق أمراً تقبله الدبلوماسية الإنجليزية ، ولكن حقوق الإنجليز يجب ألا تمس في نظرهم وما كان داود بقادر على ذلك ، فلم يكن وقت إلغاء الامتيازات الأجنبية قد أوف بعد ، بل كان يعيش في عصر تستغل فيه هذه الامتيازات على أسوأ صورة ، فإن الامتيازات عندما منحت سنة ١٥٣٥ لم تكن تضر الدولة العثمانية ولا الشرق في شيء لأنه كان قوياً ، ولكنها أصبحت كارثة على الشرق الأوسط عندما ضعف وبخاصة في وقت أصبحت فيه المصالح البريطانية تقوم على أساس إمبراطوري ، وأصبح الشرق الأدنى عموده الفقري (١) .

ومن ناحية أخرى كانت تجارة العراق مع الهند البريطانية قد بلغت درجة من الأهمية لا يستطيع معها داود أن يستغنى عنها باستمرار عدائه للإنجليز . فكانت التجارة الهندية سبباً في تراجع سليمان الصغير أمام ريتش (١٨٠٩ ، ١٨١٠) وكان داود أيضاً مضطراً إلى أن يتراجع بسببها وأن يعمل سريعاً على إعادة التجارة إلى نشاطها السابق ولذلك طالب داود ريتش - قبل خروجه من بغداد - بأن يفرج عن البضائع الموجودة على السفن في البصرة (٢) . وأخيراً غادر ريتش بغداد وهو يتكلم أشد التكلم لما خلفه وراءه من قلوب مفعمة بالحزن على فراقه (٣) وهذا في الواقع صحيح بالنسبة لليهود ومن كان يتعاون معه ، فلم يكن أمام أمثال هؤلاء إلا أن يفروا من بطش داود بهم .

(١) Ernest: Background of the Middle East, P. 121, 123.

(٢) رحلة المنشئ البغدادي : ١٩ . أحسن من كتب في هذه الناحية المتعلقة بالامتيازات .

Scott: The law Affecting Foreigners in Egypt.

(٣) رحلة المنشئ البغدادي : ٢٠

Rich, Narrative of a residence in Koordistan, II, p. 184.

وصل ريتش إلى البصرة بعد ثمانية أيام من مغادرته لبغداد (١٩ مايو ١٨٢١) وبقي فيها أربعة وعشرين يوماً قام خلالها بتصفيه أعماله في العراق ، فحل العصبة التي كانت تلتف حوله وسرح بعضها واستبقى سباهة البصرة ثم رحل إلى بوشهر ومنها ذهب في رحلة أثرية إلى شيراز كانت خاتمة رحلاته فقد أصابته الكوليرا ومات في ٧ محرم ١٢٣٧ (١٨٢١) .

تسوية الأزمة :

أسدل الستار على حياة ريتش ولكن المشكلة التي أثارها ظلت تدوى في الهند والآستانة ولندن وبغداد . فلقد كان للاحتجاجات البريطانية أثرها القوي في الآستانة فضغطت على داود ، وهو في الوقت نفسه محاصر بالقوى الإنجليزية أو القوى المخالفة ، ومهدد بغزو إيراني عنيف فقبل تسوية سنة ١٨٢٢ (١)

وكانت هذه التسوية تقضي بما يلي :

- ١ - الاعتراف بالفرمانات والمعاهدات السابق عقدها بين الإنجليز والدولة العثمانية أو أسلاف الباشا .
- ٢ - ضمان سلامة وكلاء الحكومة الإنجليزية ومن كان تحت حمايتهم :
- ٣ - تأكيد حق القنصل البريطاني في منح (الحماية) .
- ٤ - من حق القنصل البريطاني أن يحتفظ بما يراه ضرورياً من خلع
- ٥ - عدم فرض أية ضريبة على السفن الإنجليزية بعد مغادرتها البصرة في طريقها إلى بغداد .
- ٦ - تحديد الرسوم الجمركية بـ ٣٪ .
- ٧ - إذا فر بحار إنجليزي أو هندي من السفينة لا يضطر إلى اعتناق الإسلام وإذا فعل يعاد إلى السفينة حتى لا يتعطل سيرها .
- ٨ - بالبحث وجد أن الضرائب التي فرضت على بضائع المستر ستوري

(١) التاريخ هنا تقريبي ، ولم يذكر اتشسون Aitchison تاريخ تقديم وثيقة التسوية ولا تاريخ توقيعها . انظر الملحق رقم (٥) .

Sturmy وما فقدته المستر سكو بودا Scooboda قد حدثت بمحض الصدفة وليست لخطئة موضوعة ، وقد أعيدت إليهما حقوقهما^(١). ومعنى هذا أن داود لم يستطع الصمود أمام الضغط البريطاني ، ويقول أحد المؤرخين إن الإنجليز لم يكسبوا شيئاً جديداً ، وإنهم لم يحصلوا منه إلا على الاعتراف بحقوق قديمة^(٢) وإلحق أن هذا الرأي ينطبق على الناحية الرسمية فقط أما من الناحية الفعلية فقد كسب الإنجليز عدم التعرض لهم أو لمشروعاتهم فيما بعد ، وكسبوا استمرار اعتبار المقيمة ملجأً للقارين من وجه داود لأسباب سياسية أو اقتصادية وكسبوا^(٣) استمرار ظهورهم بمظهر فخم على الأسلوب الذي ، وضع ريتش نظامه^(٤) وهو نظام أصبحت القناصل في البلاد العربية الأخرى يطالبون بتطبيقه في مزارق قنصلياتهم على غرار ما هو مطبق في بغداد ، مثلما حدث في عكا^(٥) . ومجموع هذا كله يمثل رسوخ قدم الإنجليز وأنهم في طريق السيطرة على العراق .

حقيقة سارت العلاقات البريطانية - العراقية على أسلوب ودي ، ولم يظهر بعد ذلك ما يعكر صفو هذه العلاقة بين داود والمستر تايلور Taylor خليفة ريتش ولكن في خلال ذلك كان داود لا يسلم قياده لهم ، مع أنه كان في حاجة ماسة إلى عقلية أوربية لتدبر أمر تدريب الجيش الجديد وإعداده . فلم يستدع قيادة إنجليزية وإنما أسند الأمر للفرنسي ديفو Devaux ولقد جاهد تايلور في سبيل إحلال إنجليزي محل الفرنسي وعرض على الباشا أن تشكل له فرقة من السباهية الهنود لتكون نموذجاً للنظام المقبل للجيش ولم يوفق تايلور في محاولاته^(٦) . ومع ما نعتقده من مبالغات فيما كتبه فونتانييه Fontanier

(١) راجع الملحق .

(٢) زكي صالح : ١٢٠

(٣) Groves: Op. Cit. 22, 23, 60

(٤) سعاد المبري : ٥٨

(٥) الوثائق التاريخية - محفلة ١٦ - بحرأ . برأ - وثيقة ٨٢ (مقتبسة من المكاتبة الواردة من قنصل إنجلترا العام في مصر إلى استر اتفورد كاتنج سفير إنجلترا في الآستانة) .

(٦) Fontanier: Op. Cit. I, p. 192.

عن السياسة الإنجليزية في العراق ، فإن ناييلور لا شك كان يعد العراق لوضع جديد كان في طريقه إليه إذ أن الانقلاب الصناعي لم يترك بلداً إلا وكان له فيه أثر ضخم ، وصاحبه صراع استعماري طبع أحداث القرن التاسع عشر بطابعه فجعله عصر التوسع الاستعماري :

مشروع الملاحة البخارية :

ففي العراق نشطت بريطانيا في تحقيق مشروع تسير السفن البخارية في نهري العراق إذ آمن كثير من الساسة الإنجليز بأن طريق العراق بين الهند وأوروبا يبدل لطريق السويس وأقصر منه وأقل تكاليفاً وأكثر أمناً . ولهذا النشاط الإنجليزي دافع آخر وهو مقاومة الخطر الروسي . وقد أدرك الإنجليز قيمة الإرهاصات الأولى لهذا الخطر الروسي^(١) حقيقة كانت الأطماع الروسية في الهند وإيران وفي بلاد ما بين النهرين ضعيفة إلى أيام القيصر بولس الأول الذي قويت في عهده تلك الأطماع . ثم اشتدت في عهد إسكندر الأول وخبر مثل لها معاهدة تلتس .

وابتداء من انهيار نابليون أصبحت للروسيا في الشرق الأوسط سياسة توسعية واضحة المعالم . فكانت تلك الفتوحات الواسعة في إيران^(٢) سنة (١٨١٣) ولم تعارض إنجلترا في هذا التوسع لأنها كانت تعمل على عقد معاهدة « كاليش » مع روسيا واستمر التحالف حتى سنة ١٨٢٢ عندما خرجت بريطانيا من الكونسورتو الأوروبي^(٣) وكانت روسيا خلال الفترة الواقعة بين واترلو وخروج إنجلترا من الكونسورتو الأوروبي تقوم بنشاط في العراق ، فكانت لها يد في المؤامرات التي دبرتها إيران ضد سعيد باشا (١٨١٣ - ١٨١٧) لعزله^(٤) وما كانت هذه إلا لبداية للنشاط الروسي الواسع في الشرق ، إذ كانت روسيا في ذلك الوقت

(١) Alexander: Op. Cit. p. 42.

(٢) راجع معاهدة كلتسان (١٨١٣) في Hurewitz: Op. Cit. Vol. I

(٣) زكي صالح : ١٢٠

(٤) حسين مؤنس : ٣٦٢

تنظر بعين نهمة إلى الأراضي الواقعة وراء حدودها الشرقية (١) : وكانت يد القنصل الروسي في تبريز وراء عدوان محمد علي ميرزا وعباس ميرزا على أراضي الدولة العثمانية ولا ريب أن هذا النشاط الروسي كان يقصد من ورائه حيثئذ مناوأة الإنجليز في مناطق نفوذهم . (٢)

وعلى أي حال شعر ريتش بالخطر الروسي المهدد للعراق فكتب مبصراً أولى الأمر من الإنجليز بضرورة السيطرة على طريق العراق المؤدى إلى الهند (٣) والواقع أنه كان للروس في العراق عيون على شاكلة أولئك الذين كانوا يعملون مع الإنجليز (٤) . وكان الكردي يرهبون الخطر الروسي (٥) وأخذ النشاط الروسي يتزايد سنة بعد أخرى حتى قال أحد الساسة البريطانيين إن ما لا يفعله الإنجليز في العراق من مشروعات سيقوم الروس بعملها ، فقد أصبح للروس سفن بخارية في القوبلجا وبحر الخزر وسيصبح لهم كذلك في بحر آرال . وعلى أغلب الفلز في دجلة والفرات أيضاً . فهم سيعملون في آسيا كل ما لا نقوم نحن بعمله من الأمور النافعة (٦) . ويقصد بالفقرة الأخيرة مشروع الملاحة النهرية في الرافدين . والواقع أن بعض الساسة الإنجليز كانوا منذ أوائل العقد الثالث من القرن التاسع عشر في نشاط ضخم لتأكيد فكرة صلاحية الفرات للملاحة النهرية وأنه خير من طريق السويس من حيث قلة التكاليف وتوفير الزمن ، إذ أن طريق الفرات يختصر عشرة أيام والسفن فيه تسير من ٥ - ٧ أيام في نهر على جانبيه حياة نشطة فتمتكن من التزود بالمؤن وبالوقود إما من الخشب أو فحم البتومين الذي كشف عن بعض مواطنه في العراق . أضف إلى هذا أن طريق الخليج والفرات غير معرض لمثل تلك الأعاصير

(١) Alexander: Op. Cit., pp. 250, 256

(٢) Sykes: A Hist. of Persia, II, p. 316

(٣) Alexander: Op. Cit., p. 256

(٤) Groves: Op. Cit., p. 66

(٥) Rich: Narrative of a residence in Koordistan, II, p. 180

(٦) نقلاً عن زكي صالح : ١٢٣ .

Chesney: Narrative of the Euphrates, p. 76.

التي تهب على البحر الأحمر ، ثم إن السفن ستنتجه مباشرة من البصرة إلى بمباى دون المرور على كولمبو ولن تسير القوافل في طريق العراق في الصحراء إلا يومين فقط بينما تسير خمسة أيام في طريق مصر . أما في الفرات فإنه — إذا ثبت أنه صالح للملاحة — فتسير المراكب حتى يبره جك ومنها برأ إلى حلب فالإسكندرونة ، وأما في دجلة فإلى بغداد فديار بكر فسيواس وطرابزون ومنها إلى الآستانة . وطريق الفرات يفضل طريق مصر نظراً لبعده الخليج والعراق عن ميدان التنافس بين الدول الأوروبية . ولكن يثبت الإنجليز عند رأى واحد قررت لندن وبمباى تكملة البحوث التي بدأها Ormsby, Eliot وكان جيمس تايلور من المتحمسين لنجاح المشروع ودراسة ما قد يقف في وجهه من عراقيل . وكانت هناك فعلاً بعض عقبات اعتقد أنها ستقضي على المشروع ومنها خطورة العرب على الملاحة ولكن ثبت أن هذه الخطورة غير ذات قيمة إذا كانت السفن سائرة في وسط النهر . هذا إلى أن مستوى الأراضي المزروعة على جانبي النهر منخفضة فيمكن للسفن أن تسيطر عليها بمدافعها . مع العلم بأن سلاح العرب كان في الغالب السيف والحرية ، وإذا ما وجد أحد الباشوات على علاقة ودية مع الإنجليز مؤيداً لمشروعاتهم فلا شك أن الأمور تسير على ما يرام^(١) .

وقد كان داود باشا فعلاً مقتنعاً تمام الاقتناع بأهمية هذه الخطوط النهرية وقد عرضت عليه إحدى الشركات الإنجليزية أن يشتري سفينة بخارية لتعمل بين بغداد والبصرة . ومن ناحية أخرى وضع هو مشروعات لتسهيل هذه الملاحية النهرية ، فشق قناة جديدة بين دجلة والفرات طولها حوالي ٣٠ ميلاً وعلى هذا الأساس قدر تايلور Taylor أن الرحلة من بغداد إلى إنجلترا تستغرق ٢٣ يوماً ومن بغداد إلى بمباى ١٢ يوماً فقط وكانت سفن البريد تستغرق ١٥ يوماً من البصرة إلى بمباى إبان هبوب الرياح الموسمية

J. R. Wellestd: Travels in Arabia. London 1839. pp. 297, 303 (١)

Groves: Op. Cit., Oliver, Op. Cit., pp. 4-10, 437.

Mignan: Travel in Chaldeae. pp. 35-36.

بينما كانت السفن الصغيرة تستغرق أسبوعين وستكون هناك رحلتان شهرياً
بين الهند والعكس^(١)

ولاشك أن هذا التفاهم حول تنشيط التجارة عبر العراق وفق الأساليب
الحديثة قوى العلاقة بين داود والإنجليز، ولذلك نجد الضباط الإنجليز— إلى جانب
ديفو الفرنسي — يتولون قيادة الجيش الجديد^(٢) ويبدو أن تايلور Taylor
أراد أن يفتز القرصة لينال من داود أكبر قسط من الامتيازات فإن الباشا كان
في حاجة ماسة إلى الأسلحة والذخائر التي ترد إليه من الهند وفي حاجة إلى
استمرار الجهود الإنجليزية نحو تحقيق مشروع الملاحة البخارية. ولذلك
تقدم تايلور يطلب مطلباً جد خطير وهو التصريح بإنشاء نقط مراقبة على
الفرات توضع فيها قوات إنجليزية حتى يمكن إخضاع العشائر العربية المهددة
لخطوط المواصلات الحديثة. وهذا معناه سيطرة الإنجليز على العراق^(٣).
ولم يلب داود مطلب الإنجليز هذا، وليس بصحيح أنه وافق على منح مثل
هذه الامتيازات الخطيرة لأنه لم يظهر بعد ذلك أن الإنجليز نالوا شيئاً من هذا
القبيل^(٤). على أن هذا التفاهم بين داود وتايلور لاشك كان له أثره القوى
في أن يدفع الإنجليز إلى الإبقاء عليه في بغداد وفي أن يتخلى السلطان عن فكرة
عزله وفي أن يدافع سفير إنجلترا في الأستانة عن داود^(٥).

ولكن كيف يستقيم هذا مع امتناع حكومة الهند عن إمداد داود بالأسلحة
والذخائر قبيل عزل السلطان له؟

ويقول المؤرخ الإنجليزي Coke^(٦) إن حكومة الهند كانت تعلم ما يبتته
السلطان لداود ولذلك رفضت هذه الحكومة أن تمد داود بما طلبه من سلاح.

(١) Groves: Op. Cit., p. 11

(٢) Groves: Op. Cit., p. 29

(٣) Fontanier: Op. Cit., I, p. 193

(٤) لم يثبت أن داود وافق على هذه الامتيازات.

(٥) الزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج ٦: ص ٣١٠

(٦) Coke: Bagdad. p. 156

والواقع ان حكومة الهند كانت ترى في داود قوة ناهضة قوية ستهدد النفوذ الإنجليزي والمصالح الإنجليزية عندما تم مشروعات داود الإصلاحية . وهي قوة كان الإنجليز لا ينظرون إليها بعين الارتياح مثل نظرتهم إلى قوة محمد علي . ولقد كان موقفه من ريتش سابقة خطيرة أبرزت نوايا هذا الباشا المصلح ولكن بما أنه أصبح متفاهماً - في الفترة الأخيرة - مع رجالها حول مشروعاتهم في العراق فلا مانع أن يبقى في الحكم لتتم مشروعاتهم على ألا يقوى إلى الدرجة التي يصبح فيها خطراً على مصالحهم . ولذلك امتنعت حكومة الهند عن إمداده بالسلاح . وعندما ظهر أن الباشا الجديد على رضا هو الآخر مقتنع بأهمية مشروع الملاحة البخارية لم يعد للإنجليز حاجة في بقاء داود في بغداد فإن جسنى F. Chesney سنة ١٨٣٠ كان يستعد في ذلك الوقت للقيام برحلة نهريه لاختبار صلاحية الفرات للملاحة ، وبدأ جسنى Chesney الرحلة إلى حلب حيث كان على رضا باشا هناك وعرض على جسنى Chesney تطهير ميناء سليوكيا القديم^(١) وأن يعيد فتح الفرات للملاحة^(٢) فلا يحتاج الإنجليز إلى داود ولن ينالوا خيراً إذا وقفوا إلى جانبه ضد جيوش على رضا . ولذلك لم تكن هناك فائدة ترتجي من وجود تايلور Taylor إلى جوار داود خلال الأزمات التي انتهت باستسلام داود إلى على رضا في ١٨٣١ م^(٣) .

(١) السويدية .

F. Chesney, Expedition for the Survey of the rivers (٢)
Euphrates and Tigris, London, 1850, Vol. I, p. 447.

J.B. Fraser: Mesopotamia and Assyria, p. 255. (٣)

سياسة داود في الخليج العربي

ارتباط البصرة والأحساء ببغداد - علاقة البصرة بمسقط -
الأحساء بين داود ومحمد علي - النزاع بين داود وسلطان مسقط
نهاية حكم داود في البصرة

سياسة داود في الخليج العربي

ارتباط البصرة والأحساء ببغداد :

البصرة مفتاح العراق الجنوبي . وميناء العراق الكبير على الخليج العربي وكانت لذلك على علاقة قوية بالقوى المتصارعة في الخليج^(١) . كانت علاقتها قوية خلال حكم أسرة أفراسياب البرتغاليين وبالإنجليز وبييران . ولما كان البرتغاليون أعداء الشاه فإنه تحالف مع الإنجليز ضد البرتغاليين ، وهؤلاء البرتغاليون وجدوا في آل أفراسياب حلفاء طبيعيين لهم نظراً لأن الشاه كان يطمع — مثل أسلافه — في البصرة . وعلى أي حال كان مصير السيادة في الخليج للأقوى أي للإنجليز . وأصبح للإنجليز وكالة نشطة في البصرة منذ ١٦٣٥ . ولم تسهم البصرة في سياسة الخليج إلا في الناحية البرية فقط . فإن أمر الخليج كان بيد الأساطيل القوية بينما كان أسطول العثمانيين في البصرة قد هوى إلى مستوى منخفض جداً . ولذلك سار توسع أسرة أفراسياب في اتجاه الأحساء حتى أصبحت الأحساء تابعة للبصرة ، ولذلك عندما أعيدت البصرة إلى حكم السلطان المباشر بعد طرد أسرة أفراسياب منها سنة ١٦٦٨ م أصبحت بغداد مسيطرة أيضاً على أمور الأحساء وإن كان حكمها غالباً مستنداً لبني خالد^(٢) . وهكذا أصبحت بغداد مسئولة عن مشكلات البصرة والأحساء معاً .

وكانت البصرة مهددة — مثل الأحساء — في النصف الثاني من القرن الثامن عشر — بقوة إيران المتزايدة منذ ارتقاء كريم خان الزندي العرش الإيراني وبقوة الوهابيين السريعة النمو . وكان الخطر الإيراني سبباً في توحيد

(١) فتح العثمانيون البصرة سنة ١٥٤٦ لكى يقاتلوا البرتغاليين في الخليج وفي مياه الهند وبعد ذلك استولى العثمانيون على الحسا وعل ساحل عمان أيضاً .

Longrigg: Op. Cit. pp. 103-111 (٢)

قوى المنتفق وبني خالد المتعاضدين ضد الجيش الإيراني (١٧٧٥) . فكان أن استعان سليمان أغا - متسلم البصرة - بالمنتفق وبني خالد في الدفاع عن البصرة .

وكان هذا التعاون بين المنتفق وبني خالد مع سليمان أغا - متسلم البصرة ١٧٧٥ - يرجع إلى مقت المنتفق الشديد للإيرانيين ، ولأن في وقوع البصرة في يد إيران تهديداً خطيراً لاقتصاديات وكيان المنتفق وفيه نصر مؤزر لعشيرة كعب عدوة المنتفق . ولما كان لعشيرة كعب أسطول قوى - ولم يكن لدى سليمان أغا أسطول يذكر - فإنه اتصل بسultan مسقط^(١) وطلب منه أن يشد أزر المدافعين عن البصرة بأسطوله ، وكان الممالك من قبل قد رفضوا تأييد هجوم كريم خان على مسقط ، وكانت لمسقط مصالح اقتصادية في البصرة^(٢) ولذلك تعاونت مع الممالك ومع المنتفق وبني خالد ضد هجوم كريم خان على البصرة . على أن هذا الهجوم الإيراني لم يكن يهم فقط القوى العربية الموجودة على شواطئ الخليج ، بل كان يهم أيضاً القوة الإنجليزية فيه ، وذلك لأن التجارة البريطانية كانت تستلزم تطهير الخليج من القراصنة ، بينما كانت عشيرة كعب تشغل بالقراصنة . وفي الوقت نفسه كان كريم خان يضيق الخناق على ممثلي الشركة لديه^(٣) . وهكذا التقت مصلحة الممالك مع مصلحة عشائر جنوب العراق مع مصلحة مسقط والإنجليز .

تعاونت هذه القوى ضد الغزاة الإيرانيين وثبت في الميدان حتى النهاية أسطول مسقط والمنتفق وبنو خالد والأهالي بزعامة سليمان أغا ، ولكن انسحاب المقيم الإنجليزي كان مخجلاً^(٤) . ومع أن البصرة استسلمت بعد دفاع مجيد

(١) كانت مسقط تحت حكم أسرة سعيد منذ طرد مؤسسها أحمد الفرس من عمان ومسقط سنة ١٧٤٩ وكان اتجاه مسقط نحو الخليج الفارسي قاهتمت بأسطولها .

(٢) انظر الفصل الرابع عن العلاقة الاقتصادية بين مسقط والبصرة .

(٣) Wilson : Persian Gulf. London 1951. p. 185

(٤) انظر الفصل الأول .

كان المتفق قد ثابر على حمل لواء الكفاح ضد الإيرانيين حتى غادر الجيش
الإيراني العراق سنة ١٧٧٩ (١) .

وعلى أى حال أظهرت هذه الحرب عدة نواحي ضعف في إمكانيات
البصرة الدفاعية وفي أحوالها السياسية :

١ - أظهرت المماليك كأنهم غير قادرين على صد الهجمات الإيرانية
عليها وبالتالي أن البصرة يمكن أخذها من المماليك .

ب - كانت عشائر المتفق وبنو خالد تكون الجزء الأكبر من قوة
الدفاع عن المدينة .

ج - إن الدفاع من البحر كان موكولا لأسطول مسقط ولقطع الأسطول
الإنجليزي التي أرسلتها شركة الهند الشرقية .

وكانت هذه النواحي الثلاث هي التي سيطرت - بل وجهت - تاريخ
البصرة فإن سليمان أغا كوفي - لما أبداه من جلد في دفاعه عن البصرة - بباشوية
بغداد وشهرزور والبصرة . ومع أن الإنجليز لعبوا دوراً مزدوجاً في تلك
الحرب وجد سليمان الكبير أنهم أصبحوا قوة سياسية وعسكرية واقتصادية
لا يستهان بها فوطد علاقته بهم (٢) . هنا بيننا حظى سلطان مسقط بمكافأة
رصدها السلطان العثماني له من خزانة البصرة لتعاونه الصادق في الدفاع عن
بلاد السلطان (٣) . أما المتفق فقد طمعوا في البصرة على اعتبارهم حائماً ، بل تطلع

(١) عباس المزوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ص ٨٠

(٣٠٢) إن جيليان Guillian يرجع تاريخ أمر السلطان العثماني بمنح حاكم مسقط تلك
المكافأة السنوية إلى زمن سلطان - إمام عمان منذ ١٨٠٠ - وذلك لإسهامه في الدفاع عن البصرة
ضد الوهابيين . هذا بيننا يرجع رودلف Rudolf Reute تاريخ منح هذه المكافأة إلى سنة
١٧٥٦ م (١١٧٠) ولا شك أنه نقل عن يادجر Badger ولم يحدث في ١٧٥٦ حصار البصرة
أو شيء استلزم مساعدة مسقط لها ولا حتى في العقد الخامس من ذلك القرن ، ولم تحاصر البصرة بعد
ذلك إلا سنة ١٧٧٥ عندما هاجمها جيوش كريم خان الزنفي واشتركت مسقط اشتراكاً ضالاً
في المعركة .

أنظر : Guillian: Documents sur L'histoire, la géographie et le commerce
de L'Afrique Orientale, Paris, Tome Premier, Deuxieme Partie p. 188, Rudolf,
Reute : Said bin Sultan, London, 1929, p. 44, Badger, hist. pp. 169-170

شيخ المتفق ثويني إلى الحصول على الباشوية . فدار كفاح شديد بين سليمان الكبير وثويني ، انتهت بعجز الأخير عن متابعة الصراع ضد الباشا ، بل بضرورة التعاون بين سليمان الكبير وثويني ضد خطر الوهابيين الداهم . فقد استولوا على الأحساء سنة ١٢١١ هـ ولجأ بنو خالد إلى العراق وتعاون الباشا الكبير والمتفق وبنو خالد مرة أخرى ضد هذا الخطر الخارجي ، ولكن دون جدوى^(١) . وخلال هذه الأزمة ظهرت أيضاً مسقط على المسرح مرة أخرى (١٧٩٨) .

علاقة البصرة بمسقط :

فقد حدث فقر شديد بعمان سنة ١٢١٣ (١٧٩٨) وأصبح الإمام في حاجة ماسة إلى الأموال^(٢) ولذلك تطلع إلى المكافأة السنوية التي كانت مقررة له من خزانة البصرة ليستعين بها على أموره ، ولكن لم يجد صبراً رجباً في العراق فاضطر إلى أن يصالح القواسم ليتفرغ للبصرة وليشن عليها هجوماً بحرياً ، فاحتج سليمان الكبير على هذه الاستعدادات وعلى هذا التهديد . وعمل على أن يواجه هذا التهديد بتقوية أسطوله البحري فطلب من شركة الهند الشرقية البريطانية أن تمدّه بسفینتين ليستخدمهما في صد أسطول مسقط . ولكن مصالح الشركة فرضت عليها ألا يقع الإمام والباشا الكبير في أزمة حادة لأن كليهما من أصدقاء الإنجليز فتوسط مانستي Manesty المقيم البريطاني في البصرة وقتذاك بين الإمام والباشا الكبير وسويت المشكلة بين الطرفين^(٣) .

ثم عاود إمام مسقط المطالبة بحقوقه مرة أخرى وبأن تتعاون بغداد ومسقط تعاوناً جدياً ضد الوهابيين ولكنه لم يجد أي تعاون صادق من « علي باشا بغداد » (١٨٠٤) فإما كان من الإمام إلا أن هدد بالانضمام للوهابيين إن لم يتفق معه الباشا^(٤) . ولكنه نال المكافأة ولم ينل الحلف مع بغداد^(٥) .

(١) ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد : ج ١ : ١٠٨ - ١٠٩

(٢) Badger: Hist. of the Imams and Sayyids of Oman, p. 238

(٣) Selections: Op. Cit., Vol. XXIV P. 172-3

(٤) Conancez: Op. Cit., P. 58 (٥) Badger: Op. Cit., P. 238

وكان من الطبيعي أن يستفيد سعود الكبير من هذا النزاع فعمل على أن يضرب البصرة بالأسطول العثماني، ولكن تدخل الإنجليز بمدحهم المعونة لسلطان مسقط أبعده عن التحالف مع الوهابيين، بل انجبه إلى التخلي عن مشروعاته في البصرة والتحول إلى معاودة القتال ضد الوهابيين^(١).

وكان الوهابيون في الواقع يمثلون أشد الأخطار على إمام مسقط ولكن هذا لم يمنع مسقط من أن تستمر في تجارتها الواسعة التي كانت تدور عليها دخلا كبيرا. فكان هذا الدخل الكبير والإمكانات المادية الواسعة والموقع البحري الممتاز والاتصال السياسي العسكري بدول أوروبا بشكل قوى ووجود أسطول عثماني كبير يمحرم عباب البحر من البصرة إلى بندر عباس إلى بمباي وسواحل الهند حتى أملاك الإمام في شرق إفريقيا كان كل هذا قد أدى إلى أن تصبح مسقط ذات أهمية كبرى في ميدان التنافس الدولي في البحار الشرقية.

فكان العمانيون يتخذون جانب الفرنسيين تارة والإنجليز تارة أخرى حتى رجحت كفة الإنجليز الذين أصبحوا القوة الأولى في مياه الهند والذين كانوا ينظرون بعين القلق إلى قراصنة الخليج، وخاصة بعد أن ارتبط القوام القراصنة بالدعوة الوهابية. وفطن السيد سعيد - سلطان مسقط - منذ أوائل حكمه^(٢) إلى أهمية الهند له من الناحيتين التجارية والعسكرية وقد تيقن أنه لا يستطيع أن يحقق أهدافه السياسية والعسكرية، وبخاصة في البحرين بدون تأييد الإنجليز^(٣). وعندما كان الإنجليز يتخلون عنه كان يبحث عن أي حليف آخر مثل الفرنسيين أو الإيرانيين^(٤) ولكننا لم نسمع عن رغبته في التحالف مع باشوات بغداد، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الممالك لم يظهروا تمسسا فيما سبق للتحالف مع مسقط، وإلى أن سبيل تحقيق هذا التحالف غير ممكنة لأن البحرية المملوكية ضعيفة ومقاومة الممالك للوهابيين كانت تعتمد على الجيوش

(١) Aitchison: Op. Cit. Vol. XII. PP. 178-180

(٢) تولى السيد سعيد الحكم سنة ١٨٠٤.

(٣) Rudolph Reute: PP. 29, 34, 35 (٤) Aitchison: XII, P. 188

البرية ولأن أهداف السيد سعيد كانت إقليمية في نطاق الخليج العربي نفسه وفي البحرين بالذات، وهذه أهداف لا ارتباط لها بأهداف الممالك، وكان المنتظر أن يتحالف السيد سعيد مع محمد علي ضد الوهابيين، لأن الوهابيين كانوا خصوم مسقط ومصر معاً. ولكن السيد سعيد رفض هذا التحالف مع أن محمد علي كان في حاجة إلى أسطول مسقط^(١). ولا شك أن السيد سعيد كان يخشى هذه القوة الفنية المصرية التي كانت تقترب من الخليج والتي لا بد أن تزامحه. ولذلك كان موقفه من تقدم القوات المصرية معادياً بدليل أنه قبل اللاجئين الوهابيين^(٢).

الأحساء بين داود ومحمد علي :

وبينما كان السلطان سعيد قد اتخذ هذا الموقف المعادي من محمد علي ورفض التعاون مع جيشه الزاحف على الخليج العربي كان داود أيضاً قد أعلن إرسال قواته إلى الأحساء ليطهرها من الوهابيين فاتحاً بذلك جبهة ثانية ضدهم كان سلطان مسقط قد رفض أن يفتحها^(٣).

حقيقة كان من واجب داود - كباشا من باشوات الدولة العثمانية - أن يقدم المساعدة اللازمة لجيش إبراهيم. ولكن كانت هناك اعتبارات قوية قد دفعت داود لأن يسرع إلى احتلال الأحساء قبل أن تصلها قوات إبراهيم التي كانت تحوض المعركة الحاسمة على أبواب الدرعية بنجاح. فقد قرر داود أهمية الأحساء وأهمية ارتباطها بالعراق، وهو في الوقت نفسه كانت له آمال واسعة في توحيد العراق من كردستان إلى الموصل وكركوك والبصرة تحت الحكم المركزي في بغداد. ومهل الأحساء امتداد لسهل العراق وتابع له :

وقدر داود أيضاً خطورة وجود قوات باشا عثماني آخر قوى ترابط

(١) Durant-Viel: Les Campagnes Navales. Paris 1935. T.I.P. 116

(٢) Reute: Op. Cit. P. 36

(٣) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبئي : ٥٠

على مقربة منه وفي أراض كانت تحت سيطرة بغداد طيلة القرنين الماضيين ، وخاصة أن جيش محمد علي باشا الذي كان في طريقه إلى الأحساء بقيادة إبراهيم هو الذي قضى على الممالك في مصر ويخشى أن يقع الصدام بين النظامين ، النظام الجديد في مصر والنظام المملوكي في العراق ، ويترتب على ذلك موقف خطير . وهذه القوة المجاورة الجديدة يمكن أن يستخدمها السلطان إذا أراد بداود شراً^(١) .

وفي الوقت نفسه كان إبراهيم باشا يقدر أهمية الأحساء كمقاعدة استراتيجية ذات مصادر طبيعية وبشرية كبيرة يمكن أن تمنح الوهابيين فرصاً كبرى لاستمرار المقاومة . فقد كتب لأبيه يقول « وبعد فتح الدرعية . . : تضبط الحسا وميناء القطيف »^(٢) .

ولكن أهمية الأحساء لإبراهيم في ذلك الوقت كانت استراتيجية فقط ، ومن ناحية أخرى كان بنو خالد حكام الأحساء لاجئين لدى باشا بغداد ، ينتظرون اليوم الذي يعودون فيه إلى مقر حكومتهم ، ولذلك كانوا عند إشارة داود لما كلفهم بفتح الحسا وأرسل معهم قوات من المنتفق تشد أزرهم . وقد عرف عن المنتفق أنهم أشد أعداء الفرس والوهابيين كما كانت الأحساء ملاذاً للمنتفق غير مرة . وعلى أي حال كانت العمليات الحربية التي قامت بها القوات المنتفقية وقوات بنو خالد سهلة ناجحة واستولوا على الأحساء دون عناء سنة ١٨١٧م^(٣) .

ولم يكد ينهي إبراهيم من تلميز الدرعية حتى أخذت قواته تتجه صوبه

(١) جودت : ١١ : ٥٩

(٢) الوثائق التاريخية : محفلة ٥ : مئة مئة - بحرأ برأ وثيقة ٩٤ (٩ رمضان ١٢٣٦ هـ) من إبراهيم إلى محمد علي ، ويملل ضآن بن سند رغبة إبراهيم في الأحساء بأن وسوس له بعض الوهابيين وحسن له ملك الحسا وأخبره بما فيها من الأموال والنخيل والزكوات التي كادت تحاكي بعض بلاد النيل وهو تمليل لا يحتاج إل تعليق - مختصر مطالع السعود : طبعة بمبي : ٥٠ .

(٣) جودت : ١١ : ٥٩

الأحساء وقد ظهرت من الوهابيين ، فاحتلتها ووضع الحاميات المصرية فيها . ورفض يد عامل داود عن الأحساء . فكان لهذا الإجراء صدى قوى في بغداد ولكن الأحساء كانت من بلاد السلطان وتقرير نوع الحكم فيها من شأن السلطان وإن الأولى كما يقول داود نفسه «أن يشرب العاقل من أعلى النهر» فكتب للسلطان طالباً كف يد إبراهيم عن الأحساء . ويقول عثمان بن سند إن السلطان محمود الثاني أرسل فرماناً إلى محمد علي - وإلى مصر - يأمره فيه بأن يخلي إبراهيم الأحساء ، وأن إبراهيم يحجب قواته فعلاً بسرعة من الأحساء وسلمها إلى عامل داود فيها (١٨١٧) (١) .

والواقع أن الباب العالي كان راضياً عن منح الأحساء لداود، وكان إبراهيم في حاجة إلى الأحساء ليقضى قضاء تاماً على قواعد الوهابيين ثم يعود إلى الحجاز ليستريح من عناء الحرب الشاقة فسحب قواته من الأحساء بعد انتهاء العمليات الحربية فكان ذلك من عوامل التقاء رغبات كل من بغداد والآستانة ولذلك استعاد بنو خالد الحكم في الأحساء بعد خروج إبراهيم منها .

ولم تكن عودة إبراهيم إلى الحجاز تعني أن السياسة المصرية تركت أمر الخليج لشأن النازلين حوله ، فقد كانت الأطماع والحركات السياسية والعسكرية الإنجليزية عملاً للخليج العربي - حتى باب المنتدب ومخا - ضجة وانفعالا . فقد اتخذت سياسة الإنجليز في العقدين الأول والثاني من القرن التاسع عشر طابع العنف واشتدت في عنفها هذا عندما ظهرت القوات المصرية على شواطئ الخليج العربي وبلغ ذروته عندما شنت قطع الأسطول الإنجليزي - تؤيدها قطع من أسطول مسقط هجوماً مدمراً على رأس الخيمة سنة ١٨١٩ . وأعقب ذلك تعاون عماني لإنجليزى ضد بنى عجلان الثائرين على سلطان مسقط . وهذه العشرة العربية تنزل في أقصى جنوب غرب سلطنة عمان (٢) .

(١) مختصر مطالع السعود : طبعة بمبي : ص ٥٠

(٢) هذه العشرة تنزل في جنوب غرب سلطنة عمان وجعلان مكانها .

ونتيجة لهذه الحركات العسكرية العنيفة اهتزت دوائر الآستانة والقاهرة وبغداد ، وبدأ كان الخليج العربي وما يطل عليه وساحل بلاد العرب مقبل على مستقبل غامض تطل من ورائه مدافع الأسطول الإنجليزي ولا قدرة لأية مشيخة أو إمارة عربية أن تدافع عن تلك السواحل . أما الدولة العثمانية وولايتها بغداد ومصر فلم يكن لديها أسطول في الخليج ، ولذلك كان خطر الإنجليز كبيراً . ومن ذلك الوقت عملت بريطانيا على بسط سيطرتها على البلاد الساحلية الهامة في الجزيرة العربية وعلى السواحل المطلية على باب المندب .

تنبه الباب العالي ومحمد علي وداود إلى هذه الأخطار ، فقد كان محمد علي يخشى من وقوع تلك المناطق في يد الإنجليز فيسهل احتلالهم لباب المندب ومنه ينقلون إلى السويس (١) .

أما الباب العالي فكتب لمحمد علي يقول : « إنه لا يجوز إثبات الدول الأجنبية ولا الاعتماد على أقوالهم . . . وإنه لا يجوز نسيان أصول استعماراتهم » (٢) . وخشى الباب العالي وداود أن تمتد أطماع الإنجليز إلى الأحساء حيث ميناء القطيف ذات الموقع العسكري الهام وهي في الوقت نفسه مواجهة للبحرين التي يطمع فيها السيد سعيد سلطان مسقط (٣) ، وكان داود يشك كل الشك في نيات الإنجليز وبعد النظر السياسي يؤيده في ذلك . ونتيجة لهذه المخاوف كتب داود إلى الباب العالي مبيناً الخطر الذي يهدد القطيف . وكان لكتاباتة تلك صدى قوى في الآستانة إذ أنها أكدت مخاوف السلطان الذي تلقى في الوقت نفسه من السفير الفرنسي ما يؤيد رسائل داود (٤) .

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ٤ : مئة لركى : صفحة : ٦٣ بتاريخ ١٣ (رمضان ١٦٣٦) .

(٢) الوثائق التاريخية : محفظة ٦ : مئة سنية مسلسل ٢٠٨ (٢٦ ذى الحجة ١٢٣٤) .

(٣) Cherny: Expedition, I. P. 469

(٤) الوثائق التاريخية : محفظة ٧ : مئة سنية مسلسل ٢٠٩ بتاريخ (٩ جمادى الآخرة ١٢٣٦) .

النزاع بين داود وسليمان مسقط :

وهكذا كانت الاتصالات قوية ومستمرة بين العواصم الثلاث (الآستانة - بغداد - القاهرة) لتتبع حركات الإنجليز في الخليج العربي ، وكان داود عين الباب العالي في الخليج . وكان محمد علي عينه وجنديه المنفذ في مياه البحر الأحمر حيث كانت أزمة أخرى تتعقد في « مخا » على يد الإنجليز أيضاً . وهي أزمة اعتقدت دوائر الآستانة وبغداد والقاهرة - أن السياسة الاستعمارية هي التي خلقتها لتحويل تلك الإمارات كلها إلى وضع شبيه بذلك الوضع الذي صارت إليه إمارات الهند وكان يساعد بريطانيا على ذلك وجود قوة بحرية عربية على جانب من الأهمية تتعاون مع الإنجليز وبذلك يصبح لهم حليف يعملون باسمه وقد أصبح إمام مسقط (السيد سعيد) فعلاً بأسطوله وبتأييد الإنجليز أقوى قوة عربية في الخليج وفي بحر العرب حتى زنجبار وبلغت قوته ذروتها في الخليج العربي في أوائل العقد الثالث من القرن التاسع عشر وتطلع سلطان مسقط إلى مجد عريض - وفي تاريخ أسرته ما يدفعه إلى السيطرة على أهم المواقع على جانبي الخليج . وبدأ السيد سعيد في تنفيذ خطته فعلاً .

كان أول ما تطلع إليه السيد سعيد في تحقيق سيطرته على الخليج هو تأكيد سيادته على أملاكه القديمة كبوشهر^(١) . وأراد غير مرة أن يحقق هدفه في البحرين ولكن السياسة البريطانية لم تكن مستعدة للذهاب في تأييد السيد سعيد إلى حد تشجيعه على الاستيلاء على البحرين .

وزادت مخاوف داود من استمرار زيادة النفوذ العماني والإنجليزي في الخليج وزيادة النفوذ الإنجليزي في العراق وبخاصة عندما وصل الأمر إلى أن ريتش القنصل البريطاني - كان يسعى إلى أن يقيم حكومة لنفسه داخل حكومة العراق . ومن ثم كان داود ينظر إلى حلفاء الإنجليز بعين الريبة والسخط

في آن واحد ويعمل على عرقلة خطط مسقط في الخليج وفي مياه بحر العرب وبلاد العرب نفسها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وفي الوقت نفسه عمل على أن يقضى على الامتيازات الاقتصادية التي كانت للإنجليز ولمسقط في البصرة . فلما وجد أن هذا الخطر لا يهدده وحده ، بل يهدد محمد علي أيضاً عمل على إيجاد تعاون بينهما ضد هذا الخطر المشترك والباب العالي من ورأيهما بدفعهما إلى مقاومة هذه الأطماع الاستعمارية بكل ما في وسعهما (١) . ولذلك أخذ داود يكتب لمحمد علي باشا عن عدد السفن الإنجليزية التي أبحرت من بمباي ويحدد خط سيرها ويكتب له بتفاصيل ما حدث بين قوات سلطان مسقط - المؤيدة للإنجليز - وبني جملان (٢) وهذا التأثر العماني الإنجليزي الواضح في ضرب بني جملان فيه خطورة بلا ريب على داود وهو قد قرر أن يقضى على النفوذ الأجنبي في العراق ما أمكن (٣) .

وكان من الطبيعي أن يلتهم الجواب داود وريتش - الوكيل السياسي البريطاني في بغداد - ويتحول الأمر إلى نزاع سافر بينهما وانتهى الأمر بطرد ريتش من العراق ، وكان من الطبيعي أن يتعاون الإنجليز وسلطان مسقط ضد داود حتى يستعيد الامتيازات الاقتصادية التي كانت لهما في البصرة وكان داود قد ألغى هذه الامتيازات ليجمع موارد البلاد كلها في خزانة بغداد . وكان هذا يتطلب منه تقوية قبضته على العراق كله وعلى البصرة بنوع خاص فقد أصبحت هي محط النزاع بينه وبين الإنجليز . ولكن وجود إمارة المتنفق يحول دون تحقيق هدفه هذا . وكان المتنفق في منطقة البصرة هم أصحاب اليد الطولى في خارج البصرة وداخلها . ومقاومة التدابير الإنجليزية تتطلب تركيز القوة

(١) الوثائق التاريخية : مجلدة ٧ : مئة سنية : مجرأ برأ : مسلسل ٢١١ بتاريخ

٢٢ ربيع الأول (١٢٣٦) .

(٢) دقر ٤ : مئة تركي : صفحة ٢٢٩ من الجناح العالي إلى الصدر الأعظم بتاريخ

(١٢ رمضان ١٢٣٦ هـ) .

(٣) انظر الفصل السابع ، مقاومة داود للنفوذ الأجنبي .

في يد الحكومة وإخضاع العشائر التي يمكن أن يستغلها أعداء البلاد^(١) . ولما كان نفوذ مسلم البصرة منذ أيام سعيد ضعيفاً جداً وأضعف من أن يقف على قدميه أمام الوكيل الإنجليزي أو أمام حمود شيخ المنتفق — عمل داود على تقوية مركز المسلم ، فنحى سلطات واسعة جعلته يقف قوياً أمام الإنجليزي خلال الأزمات بين داود وريتش ، بل إن داود اتجه إلى أن يربط البصرة به ربطاً أسرياً فأرسل أخاه مسلماً عليها ، ولكن داود فضل تنصيبه في منصب الكتختاثة^(٢)

وعلى أي حال كان المسلم في عهد داود أكثر قوة ومقدرة من أسلافه . وكان هذا نتيجة للتطور الجديد الذي دخل على أهمية البصرة . وكان من الطبيعي أن يتحين سلطان مسقط والمنتفق والإنجليز الفرصة لتوجيه ضربة إلى داود . وفرض التدخل في العراق المتعدد المشكلات واسعة فقد اتخذ النزاع بين داود وحمود شيخ المنتفق وسيلة لتدخل مسقط ، بل وكعب^(٣) التي أزعجها ازدياد نفوذ داود ، وعندما اشتد ضغط داود على المنتفق وكعب استجداً بمسقط وأطمعوا سلطانها في البصرة وحرصوه على امتلاكها . ولا شك أن السيد سعيد سلطان مسقط كان يتطلع إلى السيطرة على البصرة أو على الأقل يتطلع إلى أن يحكمها أحد أعوانه لصالح مسقط ، وكان لدى المنتفق مطالب بياشوية بغداد أعنى به محمد أغا الكيخيا الثائر على داود . وتولية محمد أغا على بغداد بتأييد المنتفق والأسطول العماني يعنى عودة عهد سعيد باشا (١٨١٣ - ١٨١٦) بامتيازاته الوافرة للمنتفق وللمسقط وللإنجليز ولذلك اشتد النزاع بين السيد سعيد وداود منذ ١٨٢٥ وبدأ سلطان مسقط يستعد لنجدة كعب والمنتفق .

كان سلطان مسقط لا يقوم بحركة عسكرية في الخليج العربي إلا بعد أخذ رأى الإنجليز . ولذلك اتصل سلطان مسقط بالمقيم البريطاني في بوشهر

(١) كان المنتفق على علاقة مستمرة بمسقط منذ أيام سليمان الكبير .

(٢) عباس الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٨٦ .

(٣) لقد أزعجتها مطالبة لها بالأموال : غورشيد : سياحته جلد ٣١ - ٢٢ .

وأبدى رغبته في محاصرة شط العرب وكما هي عادة الإنجليز ظهرها أولاً بمظهر الوسطاء بين بغداد ومسقط. وقبل السيد سعيد وساطهم، فكتب القيم في بوشهر لزميله في البصرة المستر تايلور أن يتفاوض مع داود باشا بشأن دفع المكافأة للسيد سعيد، وكانت تعليقات حكومة الهند البريطانية تقضى بأن تكون التسوية عادلة وودية. ولما كان تايلور قد فشل في الوصول إلى تسوية مع داود فلان الإنجليز أبلغوا سلطان مسقط أنه في حل من أن يتدخل ويتخذ الإجراءات المناسبة. ولكن الإمام لم يستطع أن يقوم بحملة على البصرة بسبب تهديد أتاه من جانب محمد علي في هذه السنة (١٨٢٥) (١).

وفي يوليو ١٨٢٦ عاود السيد سعيد استعداداته العسكرية ليقوم بحملة في الخليج فتوجه إلى بوشهر ليسوى بعض الأمور هناك، ثم أبحرت قطع أسطول له إلى البصرة لتبلي نداء قبيلة كعب والمتنق، وقام الأسطول العماني بالضغط على البصرة من ناحية البحر بينما كانت القوات المتنقية تضغط في قوة على المدينة من ناحية البر ولم يكن لدى داود أسطول بحري يمكنه أن يواجه الهجوم البحري العماني فاحتسب المتسلم بأسوار المدينة حتى تطول مدة الحصار فتفتكك قوات المتنق. وفي الوقت نفسه عمل المتسلم على تفكيك القوة المهاجمة بأن قدم بعض الأموال لقائد الأسطول العماني الذي اكتفى بهذه المكافأة وأثر السلم مع بغداد. وقد جاءت هذه الحملة في الوقت الذي أخذ فيه يشتد اهتمام السلطان سعيد بممتلكاته في شرق إفريقيا. وبذلك كتب لهذه الحملة العمانية الفشل وأدى تراجع أسطول مسقط إلى انهيار آمال المتنق ومن بعد ذلك أخذت قوة مسقط في الخليج تنهار وتتفكك فضعف تهديد مسقط للبصرة وضعفت الروابط السياسية بينهما (٢).

Aitchison: XII, 192 (١)

(٢) صلاح السفاد : ٩٢ - ٩٣ .

نهاية حكم داود في البصرة :

وقد كشفت هذه المعركة عن نقص خطير في قوى الدفاع عن البصرة . فإن عدم وجود أسطول للدفاع عن ميناء العراق الكبير أمر يتنافى مع مركز العراق الجديد ومع الأطماع المتعددة التي تهدده ولذلك عمل داود على أن يكون له أسطول يدافع عن البصرة . ولكن لم يكن لديه قواعد لبناء السفن ولا فنيون ليقوموا بذلك وليس هناك من مصدر لشراء السفن منه إلا بمباى . فطلب منها ولكنها رفضت طلبه . ويعلل لونجريج^(١) هذا الرفض بأن بمباى شعرت بأن صراعاً على وشك الوقوع بين داود والسلطان . ومع ذلك كان من مصلحة الإنجليز أن تبقى البصرة مجردة من حماية بحرية ، وبذلك فشل داود في الحصول على أسطول للبصرة . ولكنه مع هذا عمل على أن يعوض حرمين البصرة من أسطول قوى بمتسلم قوى حازم يستقر مدة طويلة في البصرة فيمكنه أن يحل تلك المشكلات التي تتعرض لها المدينة من وقت لآخر . فقد كان قصر مدة الحكم من الأسباب الجوهرية التي تضعف نفوذ المسلم وتعرض تطبيق النظام في المدينة ولذلك نجد عزيز أغا بحكم البصرة من ١٨٢٦ - ١٨٣١ (أي حتى عزل داود باشا)^(٢) .

وقد حدثت فتنة في المدينة خلال الصراع بين داود وعلى رضا ووقف المسلم يدافع عن مركزه ، ولكن مصير البصرة كان معلقاً بمصير بغداد . فلما سقطت بغداد أسقط في يد متسلمها وفر إلى إيران . ونظراً لما كان بين البلدين من صلح فقد سلمته إيران لعلي رضا^(٣) . وبذلك انتهت حكومة داود في البصرة وفي بغداد في آن واحد . ولكن على رضا جني ثمار التوحيد وظلت البصرة متسلمية منضمة إلى باشا بغداد . كما ظلت الأحساء تابعة للعراق حتى استولى عليها محمد علي بعد ذلك .

(١) Longrigg: Four Centuries. P. 265

(٢) عباس الزاوي : تاريخ العراق : ج ٧ : ٢٥ .

(٣) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٧ : ٢٥ .

الفصل التاسع

الصراع بين داود والسلطان

محاولات السلطان طرد الماليك - مصرع صادق ميجوث السلطان
حل رضا يتولى مهمة طرد الماليك - الطامعون والقيضان -
بغداد تقاوم - استسلام داود - ملجئة الماليك .

الصراع بين داود والسلطان

محاولات السلطان لطرده المالك :

إن عهد داود الذي عرفت عنه الرغبة الصادقة في الإصلاح الشاه كان ينطوي على رواسب كثيفة من الماضي البعيد والقريب . رواسب حالت دون الإسراع في ذلك الإصلاح وعرقلته ، بل منحت القوى الكارهة للحكم المملوكي المصلح فرصاً واسعة للتيل منه ثم القضاء عليه . ولقد كان السلطان منذ قيام حكم المالك يعمل جاهداً على إعادة حكمه المباشر على إيالة بغداد ، بل على العراق كله . فحاول محاولته الفاشلة في منع أبي ليلة (١٧٤٩ - ١٧٦١) من أن يستهل قائمة الولاة المالك .

ومنذ هذه المحاولة الفاشلة والباب العالي يفكر جدياً في إعادة حكمه المباشر على العراق كلما توفي الباشا المملوك في بغداد أو قتل أو وقع في أزمة زعزت مكانته . فكان الباب العالي يعين ولاة من عنده ليحكموا العراق حكماً مباشراً وليقضوا على الحكم المملوكي في العراق^(١) . وهذه التعمينات ليست إلا حركات سياسية ترمي إلى جس نبض أحوال العراق ، ومدى قوة الفرصة للتخلص من الحكم المملوكي فيه ، وإلى جانب هذه المحاولات السياسية السلمية كان الباب العالي لا يتوانى عن استخدام القوة في سبيل تحقيق هدفه هذا . وقد سنحت له فرصتان لاستخدام القوة . وذلك عندما نشبت الحرب بين كريم خان الزندي وعمر باشا بغداد (١٧٦٤ - ١٧٧٥) . ولكن الباب العالي لم ينجح إلا في إبعاد المالك نحو ثلاثة أعوام عن حكم بغداد . فقد عجز « ولاة الخارج » عن أن يثبتوا أقدامهم في حكم العراق وعن أن يكسبوا ثقة

(١) حدث هذا بعد وفاة أبي ليلة سنة ١٧٦١ م وبعد مقتل علي باشا سنة ١٨٠٧ م .

الأهالى الذين وصل بهم الوعي إلى تمسكهم في معظم الأحيان بالموافقة على من يتولى الباشوية . ولما كان التخلص من الحكم المملوكى أمراً صعب المنال بعد ذلك كان هدف المحاولة الثانية — التى قام بها خالد أفندى سنة ١٨١٠م — التخلص فقط من الباشا المملوك وإحلال والى عراقى من غير المماليك ، عسى أن يكون ذلك مقدمة للقضاء عليهم . ولكن الحكم المملوكى قد استعاد مكانته لأن خالد إنما اعتمد على القوة المملوكية وعلى قوى عراقية أخرى .

ونظراً لأن خالد أفندى كان هو المختص بشئون العراق فى الآستانة وقد خبر بنفسه صعوبة التخلص من المماليك فى العراق ، ولأن داود تولى الباشوية بموافقة الباب العالى دون وساطة أجنبية ، وأنه ليس هناك من فرق بينه وبين أى باشا عثماني تعينه الدولة برغبتها هى سوى أنه كان مملوكاً ، ولأنه قاوم جهد المستطاع العلوان الإيراني كما قاوم الخطر الإنجليزي العماني فى الخليج العربى نامت فكرة الباب العالى فى إقصاء المماليك عن الحكم حتى قتل خالد أفندى سنة ١٨٢٣ م . هذا إلى أن الباب العالى كان مشغولاً فى ذلك الوقت بالمشكلات الأوربية المعقدة .

ثم تجددت فكرة القضاء على النظام المملوكى حينما وضحت للسلطان نيات داود نحو توحيد العراق كله تحت حكمه واستغلال إمكانات العراق الاقتصادية لتنفيذ مشروعاته التجارية والعسكرية ، وقد كان محمود الثانى على عرش آل عثمان فى ذلك الوقت وكان يؤمن — كما آمن داود — بإنشاء جيش جديد وفق الأساليب الحديثة وبنظام الحكم المركزى . وكان داود قد سبق السلطان إلى تكوين القوات النظامية ، ولكن وجهة النظر اختلفت فى نقطتين أساسيتين :

١ — أن السلطان كان يعمل على تطبيق نظام الحكم المركزى المباشر بأن يقضى على حكم العصبية ، ومنها العصبية فى الروم ايلي وفى العراق وفى ليبيا .

٢ - أن داود كان يعتقد أن تحت حكمه تتوحد الباشويات العراقية وتستغل إمكانياته لجعل العراق الموحد قوة عسكرية على غرار ما كان يقبمه محمد علي في مصر .

إن فكرة داود كانت ترمى إلى القضاء على الدرييكات^(١) في العراق وفكرة السلطان كانت ترمى كذلك إلى القضاء على الدرييكات في دولته . ولذلك كان تدخل داود - وهو درييك كبير - في أمور الموصل يمنع داود قوة يستطيع بها مقاومة سياسة السلطان نحو إعادة الحكم المباشر إلى العراق كله - بشكل أقوى . ولذلك عمل السلطان على أن يحول دون سيطرة داود على الموصل .

ثم إن الحكم المملوكي في نظر السلطان عبارة عن عصبية تحكم وفق نظام قديم مكروه ، ويقول بعض المؤرخين إنه بينما كان السلطان يقضى على النظام الانكشاري في كل الإمبراطورية ظل داود محتفظاً بحرسه المملوكي ومعنى هذا أن يظل النظام القديم على حاله^(٢) . والواقع أن الحرس المملوكي لم يكن وحده هو القوة التي تثبت دعائم النظام المملوكي في العراق ، فهو عبارة عن جزء من القوة التي ألقها داود ، فقواته كانت تتألف من كتائب الانكشارية المنحلة التي أصبحت من الفرق النظامية ومن القوات العشائرية التي أوقفها على الخدمة العسكرية . هذا في وقت توقف فيه ورود الممالك من جوزجيا منذ أن استولت عليها روسيا ، فالخطورة على السلطان ترجع إلى الاتجاه الشعبي الإصلاحى الذى كان داود قد اتجه إليه .

ولا شك أن السلطان كان ينظر إلى النفوذ الأجنبي في الدولة العثمانية وفي الولايات التابعة لها والشبه مستقلة منها بنوع خاص - على أنه أداة لهم

(١) الدرييك تركية بمعنى أمير الوادى . وقد فطن عثمان بن مند إلى خطورة هؤلاء الدرييكات على مستقبل العراق . ولكنه لم يذهب إلى أنهم خطر على الإمبراطورية العثمانية كلها ربما لأنه لم يستطع أن يعمق المبدأ على الدولة كلها لأن الأمر فوق تفكيره المحدود بمحاذات العراق .

الدولة وتفككها إلى ولايات مستقلة أو شبه مستقلة يسهل على الدول الاستعمارية ابتلاعها .

فقد شوهت الحملة الفرنسية على مصر والنفوذ الفرنسي بعد ذلك سمعة ولاية العراق وكذلك سمعة الوالي في طرابلس فلم يتخذ سليمان الكبير أى إجراء معاد ضد القنصل الفرنسي ، كما وقع يوسف باشا بطرابلس سنة ١٨٠١ م معاهدة مع الفرنسيين ليفتح طريق الاتصال بين فرنسا ومصر عن طريق ليبيا (١) .

وتولى سليمان الصغير الباشوية سنة ١٨٠٨ م بتأييد النفوذ الفرنسي . وبدا واضحاً أن حكومة الآستانة في واد وولاياتها في واد آخر وأن الدولة قد تمزقت فعلاً ولم يبق إلا أن يعلن هؤلاء الدريكات الكبار استقلالهم عن الدولة . . . ولا شك أن ازدياد نفوذ القناصل في الولايات العثمانية قد أزعج السلطان ، وخاصة على عهد ريتش Rich في العراق وعلى عهد معاصره الأمريكي لينتون في تونس وفي طرابلس (٢) .

حقيقة وقف داود في وجه الأطماع الإنجليزية وقاومها . ولكنه في نهاية حكمه توقف تحقيق أهدافه الاقتصادية على ما يقوم به الإنجليز من مجهودات فنية واقتصادية ، وأقبل داود على مشروع الملاحة البخارية بكل جوارحه . ومن شأن هذا المشروع أن يربط العراق بحلقة المواصلات الإمبراطورية البريطانية وتصبح العراق بذلك محط آمال الاستعمار البريطاني . ولا يمكن أن تصمد ولاية لأطماع إمبراطورية ، وخاصة أن هذه المواصلات بين الهند وأوروبا لم تعد مشكلة تخص العراق وحده ، بل أصبحت مشكلة دولية تعنى روسيا وفرنسا وبريطانيا . ومن ثم وجب أن تكون العراق تحت عين الباب

(١) نقولا زيادة : محاضرات في تاريخ ليبيا : ١٩٥٨ : ص ٤٦

(٢) نقولا زيادة : محاضرات في تاريخ ليبيا ٤٧ - ٤٩

العالي وفي متناول يده لتدبر الأمور وفق مصالح الدولة العثمانية كلها لا وفق مصالح ولاية بعينها .

والحق أن العراق كان أضعف من أن يقف وحده في وجه السياسة الاستعمارية الأوروبية . فقد كان العراق لا يزال يعاني الصراع بين الكرد فيما بينهم ، والعدوان والمؤامرات الإيرانية هناك ، والعشائر العربية ما زالت على أسلوبها في الغزو والتنقل بسرعة ومصرعة التمرد . والباشا لا يسعه إلا أن يضرب العشائر المتمردة والعصبيات الكردية بعضها ببعض وفي الوقت نفسه ينظر إلى الصحراء نظرة الوجمل لما تقذفه إلى وادي الرافدين من عشائر قوية فينقق الأموال لمقاومة هذا الخطر ، والباشا - مثل أسلافه - كان يشعر أن المماليك يعيشون في محيط معقد التشكيل والتفكير ، فليس بين الكرد والعشائر العربية من هو بقادر على أن يتولى حكم العراق ، ومع ذلك فالأكرد يحرقون - مثل العرب - المماليك وهم لذلك كله يمنحون السلطان فرصة لأن يحاول القضاء على المماليك الذين كانوا يشعرون بأن السلطان يضمر لهم نية سوء دائماً . ولا شك أن عصبية كهذه تعيش في هذا الجو المضطرب ولا تحس بالاستقرار لابد وأن تكون مجهوداتها هي الأخرى مركزة حول تثبيت أقدامها في حكم العراق في وجه تلك الصعوبات الخطيرة ، حتى إن داود نفسه قضى طوال حكمه يكافح لإيران والعشائر العربية والأكرد والمطالبين بالباشوية والنقوذ الأجنبي ولكنه امتاز عن أسلافه بالإصلاحات الاقتصادية والعسكرية الواسعة النطاق وباحتفاظه بخزانة مكتظة بالأموال . وكان السلطان في حاجة إلى الأموال وينظر بحقد شديد إلى المماليك في بغداد وقد استأثروا بأموال العراق .

فقد سليمان الكبير كانت بغداد لا ترسل إلى السلطان إلا مقادير بسيطة من دخلها السنوي . وكان داود يرسل الأموال بانتظام إلى السلطان لعدة أعوام ، ثم امتنع عن ذلك الدفع^(١) ولعل ذلك الامتناع كان بسبب الحروب الإيرانية

(١) الأمطى : مختصر تاريخ بغداد ٢٨٨ .

والمشكلات العشائرية والإصلاحات الاقتصادية والعسكرية . وخاصة أنه وقف وحده في وجه إيران تقريباً . ومادام الأمر كذلك فليتول أمر العراق وحده في نطاق التبعية للسلطان ، وأن يقوم بالإصلاحات التي يتطلبها رقي العراق بأموال العراق ، وذلك يستدعي أن يقلل داود من الأموال المرسلة إلى السلطان فكان هذا الاتجاه سبباً في صدام خطير بين داود والسلطان . وحدث أن انجلي تأييد روسيا والفرنسيين وبريطانيا لثوار المورة عن موقعة نوارين البحرية وأعلنت الحرب بين الدولة الروسية والدولة العثمانية ، ونودى في النفي العام أن يهب المسلمون من شتى وسنة ليكافحوا عدو الله والإسلام وأن يقدم كل مسلم ما يستطيعه . ونظر الباب العالي فيما يمكن أن تقدمه باشوية بغداد الفتية . وكانت لدى الباب العالي معلومات عن دخل خزانة داود باشا . وقدر هذا الدخل بحوالى ٢٤ ألف كيس بعد المصروفات . فقرر الباب العالي أن تقدم بغداد ستة آلاف جندياً ولكن الباب العالي رأى تعلل إرسال بغداد لهذه القوات - أو ربما شعر أن داود لن يزصل جندياً من عنده فقرر على بغداد ستة آلاف كيس فقط (١) ولكن داود تقاعس عن إمداد السلطان بالأموال . إن موقف داود هذا لا يفسر في الأستانة إلا على أنه عصى السلطان وأن التابع تخلى عن سيده في أخرج الموافف . وأن هية السلطان تقتضى عزله ولكن الدولة العثمانية لم تنزل محمد على باشا - والى مصر - وقد وقف موقفاً مشابهاً لموقف داود من السلطان والسبب في ذلك يرجع إلى أن السلطان كان قد أضمهر أن يقضى على داود ومحمد على وعلى الأسرة القرمطية في ليبيا . وكان الأمر أمر محين للفرض . فلما كان لدى محمد على باشا جيش ضخم وأسطول قوى ومركز ممتاز فإن ضربه بالقوة العسكرية العثمانية يحتاج إلى وقت أطول وإلى تدبير أدق وإلى دبلوماسية فطنة لأن محمد على لم يعد والى مصر فحسب بل أصبح إحدى القوى الرئيسية التي يدها مصير النصف الشرقى من البحر المتوسط على الأقل .

والأسرة القرمتلية أمرها يمكن أن يؤجل لأن خطرهما ليس بالدهام ، بينما كانت قوة داود العسكرية حديثة التكوين ، ولم تكن قد خاضت بعد معارك شاملة واسعة النطاق مثل جيوش محمد علي باشا . وكانت جيوش داود أقل عدداً والعشائر العربية والكردية والانشقاق في صفوف المماليك - يشجع على أن تبدأ الدولة بـداود حتى لا يكون من العوامل المؤثرة على الحرب بين السلطان ومحمد علي باشا ، ثم إنه في العراق تربة صالحة للمؤامرات والفساد والوقيعة وعصبيات قوية تنتظر الإشارة للخروج على الباشا :

ولا شك أن داود - مثل محمد علي - نظر إلى الدولة العثمانية نظرتة إلى قوة شاخص وإن القوة الفتية تنبع من الولايات . وهذه السياسة غير مقبولة إطلاقاً لا في الآستانة ولا في العواصم الأوربية الكبرى . فإن السياسة الأوربية والسياسة العثمانية في ذلك الوقت كانت تلتقي عند هدف واحد وهو مقاومة ثورة الأتباع والولاة أو تمردهم ، وإن التابع أو الولي ينبغي أن يظل رهن إشارة سيده . ولكي تحاسب الدولة داود على موقفه أرسلت إليه صادق أفندي .

مصرع صادق ميغوث السلطان :

كانت الدولة العثمانية تعاني أشد العناء من الاضطرابات الداخلية والخارجية فحسبت أن تصل إلى هدفها في إخراج داود من بغداد بالحسنى ، ولعلها اعتقدت أن في إمكان رسول عثمان قدير أن يقوم بعمل يشابه ذلك الذي قام به خالده من قبل ، فيكفيها مائة تجيش الجيوش ونفقات حملة غير مؤكدة النتيجة : فاختار الباب العالي الدفتر دار صادق بك لهذه المهمة .

ويبدو أن صادقاً كان يعتقد أن المهمة جد خطيرة وأراد أن يستطلع رأى الباب العالي في بعض نواحي مهمته وأن يستعجل الأسس التي سيتبناها في بغداد وهو في قرارة نفسه يود لو تخلص من هذه المهمة . كما يبدو أن الباب العالي كلفه بهذه المهمة في خطة غامضة تركت بعض الأمور لقطته ولقدرته على مواجهة ما يجد من ظروف وعقبات . وكان صادق قد اتهم من الباب العالي التنحي عن هذه المهمة ، ولكن الباب العالي رفض في إصرار طلبه هذا ، ويرغم

الإصرار لم تكن لدى صادق تعليقات ذات قيمة سوى أن يتصل بيعي^(١) .
 (وحسب رواية صاحب بغداد كوله من) غادر صادق أفندي
 الآستانة في ربيع الأول ١٢٤٦ (أغسطس ١٨٣٠) ومعه أحد رجال الديوان .
 ولما علم داود بأن مبعوث السلطان في طريقه إلى بغداد وهذا لا يكون إلا لأمر
 جلل - عمل على أن يكسب ثقة هذا المبعوث ويحتذبه إلى جانبه بالوسائل
 التي كانت مألوفة في ذلك العصر وهي المال والهدايا ومظاهر التعظيم والتضخم .
 ورأى داود أن ينفق في هذا الموقف بسخاء . وأرسل داود باشا محمد أفندي
 المصرف ومعه عربية فخمة تقودها أربعة جياد وحمله بالهدايا القيمة . ولكن
 عندما التقى محمد المصرف بالمبعوث السلطاني لم يلق منه إلا معاملة جافة .

ويفسر سلوك صادق هذا بأنه نتيجة لأحد أمرين :

١ - فلما أن يكون صادق قد التزم التزم والكبرياء ليثبت خطورة
 مقامه .

ب - أو أن يكون بيعي باشا قد ذكر له ما يسيء إلى الماليك في العراق
 فحقد صادق على الماليك مقدماً^(٢) .

وأياً كان الأمر فقد أحس داود باشا بامتهان كرامته نتيجة لامتهان كرامة
 مبعوثه ، وثيقن الباشا أن وراء بعثة صادق هذه ما وراعاها ، وأن الرجل ليس
 من أولئك الذين يلعب المال بقولهم ، فبدأ يغير من أسلوبه في معاملته له
 وبخاصة بعد أن ثبت أن صادق أفندي لا يعبأ حتى بالباشا نفسه عندما دخل
 المدينة مباشرة دون أن يتبع التقاليد الرسمية في استقبال ودخول مبعوث السلطان^(٣)

(١) عباس الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٣٠٢ - ٣٠٣

(٢) يقول لونغريج Longrigg إن كلمات بيعي باشا عن سفك داود اللماء كانت سبباً في ذلك
 الاستقبال الجاف الذي استقبل به صادق أفندي محمد المتصرف .

(٣) كان المتبع منذ أيام حسن باشا أن ينزل مبعوث السلطان في الأعظمية وفي اليوم التالي
 يدخل المدينة في احتفال مهيب وبعد أن يستقبله الباشا .

فإنه ما كاد يصل إلى قرية الكاظمية حتى ألح في الدخول حالاً إلى بغداد ، فلم يعترض الباشا على هذا السلوك الشاذ في ذلك الوقت ، بل إن الباشا أعد له مراسم الاستقبال اللائقة بمركزه .

فاصطفت فرق المشاة على جانبي الطريق ، ولكن كان المبعوث السلطاني قد أصر على أن يحرق الباشا ، وأن يتعالى عليه وزاد من امتحان صادق لداود أن صادقاً ترك داود منتظراً قدمه عليه دون أن يذهب إليه ففرق الوزير في عرقه ولا شك أن هذا السلوك أفصح عن مهمة المبعوث السلطاني وأن ليس فيما يحمله خير على الإطلاق . ولا شك أن الوزير شعر أن مركزه أصبح حرجاً أمام هذا المبعوث الكبير المتخضم الخطر . كما لا شك في أن لين الباشا في هذا الموقف يقوى مركز صادق ، ووجد داود أنه لا بد أن يرد عليه بمثل أسلوبه فقد تغاضى المبعوث عن مراسم اصطلاح عليها ، ولذلك تغاضى داود عن هذه المراسم عندما ذهب صادق لمقابلته في اليوم التالي لمجيئه فمع أن داود أعد كتيبة لاستقباله في السراي عند حضوره فإنه تباطأ متعمداً في التهوؤ لصديق . فكان ذلك سبباً في تبرم المبعوث وضجره وانتهت المقابلة الأولى في جفاف الرصميات وفي التافه منها بدون أن ينبس صادق ببنت شفة في الموضوع الذي جاء من أجله ومن ناحية أخرى لم يظهر داود أى تحمس لمرة أهداف مجيئه إلى بغداد وهو بذلك يظهر عدم اكتراث به أو بما جاء من أجله . وعلى هذه الصورة انقضت المقابلة الثانية بين صادق وداود ، بل إن داود من جانبه تمادى في إهانة المبعوث السلطاني فقد انتظر صادق - دون جدوى - أن يرد الباشا الزيارة له ، وفي آخر الأمر ذهب صادق إلى داود وقد حزم أمره على أن يكون في هذا اللقاء فصل الخطاب . فعندما اجتمع الطرفان أتى صادق قنبلته ، فأعلن عزل الباشا ، فما كان من داود إلا أن طلب من صادق أن يكتم الأمر حتى يرد السلطان على رسائل داود إليه ولكن صادق أبى أن يوافقه على هذا الاقتراح المشوب بروح الماطلة وطالبه بالتخلي عن إدارة شئون الولاية فالتهب جو المناقشات وانتهت بخروج صادق نائراً ولم ينجح الرجل إلا في زيادة حدة التوتر .

رأى صادق أن الوزير لن يخضع بالمفاوضة فعمد إلى الأسلوب الذي سلكه خالد أفندي من قبل بنجاح وهو استغلال الانشقاق الحادث في صفوف المماليك وأعداء الباشا في تكوين حزب حوله وحول مرشح السلطان الجديد للباشوية . فاستعرض صادق كبار رجال حكومة داود ليختار منهم الباشا الجديد ومن يتولى أمر القيام بالانقلاب يودى بداود .

وقع اختيار صادق على سليمان الميراخور^(١) ليقوم بهذه المهمة . والحق إنه كان أقدر شخصية يمكنها أن تقوم بانقلاب ناجح ضد الباشا . فإن سليمان كان من خلصاء داود وقائده المظفر وكان محبوباً لكرمه وسخائه . وهو في الواقع اختيار روعى فيه مقدرة الشخص على القيام بالانقلاب ولم يراع فيه رغبة الشخص في القيام بمثل ١٠٠ العمل الخطير فإن صادق لم يكن يقدر أن سليمان يرفض الباشوية وفاء لسيدته ، وكان يعتقد أن دوائر المماليك في عهد داود مثلما كانت في عهد سليمان الصغير مليئة بالمؤامرات والفتن . ولما كان هذا هو اعتقاد صادق فقد بنى بيته على الرمال ، فإن سليمان أغا عندما التقى بصديق ليتبدل الحديث عن خطط الانقلاب سايره سليمان فيما يقول وخرج من عنده متظاهراً بأنه ذاهب للتشاور مع أعيانه ومن سيشاركه في الانقلاب ، وذهب إلى داود وأفضى إليه بنيات صادق السيئة وبينما كان داود يعمل الفكر في هذا الأمر أقبل عليه قائمقام النقيب خائفاً وجلاً وأنبأه بما يقوم به صادق في المدينة من مؤامرات إذ أن صادقاً كان يقدر قيمة ثورة أهل المدينة على الحاكم وأهميتهم في مظاهرة الانقلاب ووقوفهم إلى جانب رجل السلطان ومرشحه للوزارة .

بدأ الوزير خطته لمواجهة الخطر الداهم فرأى أن يظهر أمام الشعب بالمظهر العادى وأن يحتج أغراضه حتى لا تبطل الأفكار وتضطرب المدينة فطلب من قائمقام النقيب أن يكتم الأمر على اعتبار أن المياه لن تلبث أن تعود

(١) من حلقاء داود .

إلى مجاريها بين داود والسلطان لما يقوم به داود من مفاوضات مع السلطان .
وقد لعب داود دوراً خطيراً مزدوجاً ليخرج من هذه المؤامرة
وكان في هذا الدور يرى إلى :

أ - استصدار فرمان تثبيتته من السلطان عن طريق استرضائه .

ب - التخلص من صادق بسرعة ليقتضى على المؤامرة في مهدها وليجعل
السلطان أمام الأمر الواقع ليضطر إلى الإبقاء عليه .

وعلى هذا الأساس بعث داود بالتماسات إلى السلطان طالباً تثبيتته واعدأ
بإرسال الأموال الكثيرة إلى خزانة السلطان معلناً الولاء والخضوع لحليفة
المسلمين .

وليقضى داود على رأس المؤامرة بنفس السلاح الذى كان سيطعنه به
خصمه أبى سليمان أغا الميراخور تحت عينيه وعقد مجلس طوارئ لبحث
لوقوف وتحديد الخطة التى تتبع .

ضم هذا المجلس - علما سليمان سالف الذكر - محمد المصرف وإسحاق نقيب
الصرافين اليهودى وتكلم محمد المصرف أولاً ، فقال إنه لا أمل فى الخلاص من
هذه الأزمة إلا بقتل صادق فاعترض داود على هذه الفكرة الخطرة لما ستتره
من عاصفة هوجاء فى الآستانة قد تهب عليه عاتية وأعيد النظر فى هذه الخطة
ولكن المجتمعين أجمعوا على أن بقاء صادق فى بغداد خطر داهم على حياتهم
وأن مقتله يسيل دماء فرد واحد أما إذا ترك طليقاً فإنه سيثير المؤامرات فى كل
ناحية وتسيل الدماء فى خضم ما تولده المؤامرات من اضطراب وقتال . ولاشك
أن أيام خالد عادت إلى الأذهان بما دار فيها من قتال فى داخل بغداد نفسها
وخارجها أتعب الحاكم والمحكوم على السواء . ولاشك أن خالد جاء من
الآستانة وهو مسلح بفرمان السلطان فقط ، فكان للفرمان صبر عظيم عباً الحيوش
وجلب العشائر وأطاح برأس سليمان باشا الصغير . سابقة لاشك أنها كانت
تمت أنظارهم دائماً رأوا نتائجها التى وضعت المماليك فى كفة القدر .

وزاد من ثقة المجتمعين بضرورة القضاء على صادق أن اليهودى إسحاق

أخبر المجتمعين بأنباء أخته من أبيه في الآستانة وكانت تلك الأنباء تؤيد خطة المجتمعين في قتل صادق أفندي . وهكذا أجمع الحاضرون على قتله ووافق داود على هذا الإجماع (١) .

ولا شك أن اعتقال صادق وهو مبعوث السلطان وتحديد إقامته لابد أن يؤديا إلى إظهار داود بمظهر الثائر العاصي كما أن التفاوض عنه حتى تأتي أوامر السلطان الجديدة يفسح الوقت لمؤامرات قد تنجح وتقضي على الوزير فكان لابد أن تعود بغداد إلى هدوئها حتى يأتي أمر السلطان وذلك بأن تخمد أنفاس صادق أفندي بأسلوب بعيد الريبة ما أمكن عن الوزير ، ولذلك كلف داود سليمان أغا بالذات ليكون منفذ حكم الإعدام في صادق . ولا شك أن سليمان أغا قدر ما سيعانيه كمقاتل لقوات داود — من عناء إذا ترك صادق حراً فيؤلف صادق جيشاً ويكلف داود سليمان أغا بقتال صادق . وعلى وجه العموم يمكن أن يقال إن المبدأ الذي ساد ذلك المؤتمر الخاص هو خذه قبل أن يأخذه .

وأخذ المجتمعون يضعون الخطط لقتل صادق بصورة تبعد الشبهة عن الوزير وتعم مبعوث السلطان بسوء استغلال السلطات المخولة له . فاتفق على أن يتظاهر ضابطان من الجيش بالفرار إلى حمى صادق وفي أثرهما ضابطان أعلى رتبة للقبض عليهما فيطالبان المبعوث السلطاني بتسليم الضابطين الفارين فتأخذ النخوة المبعوث فيعلن حمايته لهما ويدور جدل بين صادق وبين الطالبين بتسليم الفارين ويستخدم الجدل حتى يثيرا حفيظة صادق ويقابل العنف بعنف مثله ويشدد الجدل ويستغل لتوجيه طعنة قاتلة لصادق . وعقب ذلك يكتب تقرير عن الحادث تلقى فيه التبعة على المجنى عليه ، وهي خطة دبرت تفاصيلها على أساس قبول صادق حماية اثنين من الضباط الفارين ولكن صادق أفسد الخطة حين رفض أن يحمي الضابطين الفارين وسلمهما إلى الضابطين اللذين اقتفيا أثرهما ، وهكذا فشل تدبير داود وأعوانه .

(١) بغداد كرهه من : ٤٣ - ٤٥ .

أدى ذلك الفشل إلى أن يضع الوزير وأعرانه خطة أخرى سريعة لقتل المبعوث السلطاني وأن يعلن للناس غير ما يقع وفي مساء اليوم نفسه أحاطت كتيبة بمنزل صادق ودخل رجال داود عليه دون استئذان ومن بينهم سليمان أغا ومحمد المصرف ورمضان (الحوقدار الثاني) فسألم صادق عما ينوونه وقد بدا الشر في وجوههم فأفهموه في وضوح أن ساعته قد أتت فسألم الرحمة وأعلن أنه «ستعد كل الاستعداد لأن يوقع على أي قرار يملونه عليه وأنه سيعمل كل شيء يرضى الباشا واستعطفهم أن يعودوا إلى سيدهم ليخبروه بأنه تحول كل التحول عن أغراضه السالفة فإذا أصر الوزير على قتله فليفعلوا . وما كان لاستعطافه أي أثر في قلوب جلاديه ، وخاصة أن محمد المصرف كان شديد التحمس لقتله فحسم الموقف بأن أمر بالإجهاز عليه فقتل خنقا .

في ذلك الوقت كان داود ينتظر أنباء مقتل صادق في المأول المواجه للمنزل الذي وقعت فيه المأساة فما أن علم بانتهاء المهمة حتى ذهب بنفسه إلى الغرفة المسجى فيها جثمان صادق ولما تأكد من موت غريمه أمر بدفنه تحت طابية الصابونجية .

هذه صورة من الصور العديدة التي كانت تحدث في الشرق كاسلوب من أساليب السياسة والحكم . السلطان يرسل من يتأمر ضد الباشا فيواجه بمؤامرات مضادة . تارة تنجح وتارة تفشل وعلى أي حال فإنه أسلوب يدل على أن الشرق كان لا يزال يعيش على أساليب العصور الوسطى ، وأن حاكم بغداد كان يعتقد أن العصر يقبل مصرع مبعوث السلطان وأن ينال مقابل هذا فرمان التثبيت مثلما كان يحدث من قبل عندما كان السلطان مضطرا إلى قبول الأمر الواقع في ولاياته التي يعجز عن السيطرة عليها تمام السيطرة .

حقيقة كان السلطان قد أرسل مبعوثه ليعزل داود ولكن هذا الرسول استخدم أساليب التآمر والخداع وكان هذا الأسلوب من وضع مدرسة الأستانة التي كانت تموج بالمؤامرات الداخلية ، حقا إن صادق جاء بأمر العزل ، وليس من حق داود أن يرفض الاستجابة لأمر السلطان وإن صادق

كان على حق في أن يتخذ التدابير الكفيلة بعزل داود ولكن كيف نفهم إرسال الباب العالي لقررد واحد مع الاعتراف بأنه من ذوى الشخصيات الهامة - ليعزل باشا ثبت دعائم حكمه في بغداد منذ خمسة عشر عاماً دون أن توحى التعليقات المبهمة التي كان يحملها صادق باستخدام تلك الأساليب السياسية الوضيعة .

ولم يترك داود المسألة عند هذا الحد، بل عمل على أن يموه على الرأي العام، وعلى الباب العالي في آن واحد . فأعلن أن صادق مريض وأنه يرسل إليه يومياً من بعوده ، ولكن سرعان ما انتشر في أرجاء المدينة نبأ مصرع مبعوث السلطان^(١) وأخذ الناس يتوقعون صراعاً بين داود والسلطان فاستعدوا لمواجهة بشراء الضرورات الغذائية فارتفعت الأسعار^(٢) .

وكان النبأ قد بلغ الآستانة أيضاً^(٣) وكان داود يعتقد أنه مقبل على صراع مرير ضد الباب العالي فبدأ يجمع القوات حوله واستدعى شيخ المنتفق بقواته إلى بغداد^(٤) ، وغيرها ومضت عدة أشهر اضطربت فيها أعصاب الناس لما توقعوه بين داود والسلطان وخشيت بعض الأقليات مغبة هذا الصراع فأكرت أن تترك بغداد قبل القتال^(٥) .

كان لمصرع صادق أفندي صدى ملو في الآستانة وفي بقية الولايات العثمانية . وقد استغله محمد علي باشا في كتابه إلى أحد كبار رجال الآستانة الاستغلال الهادف . إذ يقول في ذلك الكتاب إنه لو كانت له قوة عسكرية مجاورة للعراق لأسرع بإصدار الأمر إليها بأن تتدخل في العراق وتقبض

(١) بغداد كوله من : ٤٥ - ٤٧ .

(٢) Groves : Op. Cit. P. 64, 81

(٣) بغداد كوله من : ٤٨ .

(٤) كان قبوحي آخر ينتظر في الموصل نتيجة مفاوضات صادق مع داود .

(٥) Groves : op. t. p. 65

على داود وتسلمه للسلطان بدون انتظار لأوامره^(١) وواضح أنه كان يقصد بهذا أن يمرر مقدماً هجومه فيما بعد على والى عكا بدون الحصول على أمر السلطان . والواقع أن محمد على باشا لم يكن متجهاً في ذلك الوقت إلى العراق وما كان السلطان ليكلفه بتلك المهمة لما كان بينهما من نزاع يكاد ينفجر ، فكان من الطبيعي أن يتجه السلطان إلى باشا آخرواً أن يستخدم القوة المسلحة لطرد داود من بغداد وللقضاء على النظام المملوكي ، فأصدر السلطان أولاً أوامره إلى الباشوات بأن يقطعوا علاقاتهم مع هذا الباشا المتمرد ، ونظر السلطان حوله ليكلف أحد باشواته مهمة قهر داود وقهر مماليكه والتغلب على تشكيلاته العسكرية الجديدة التي نظمها وفق الأساليب العسكرية الحديثة وقد كانت هذه المهمة شاقة ، وخاصة بالنسبة لباشا يتمتع بمحب الأهالي ويمتاز بالرغبة الصادقة في الإصلاح .

على رضا يتولى مهمة طرد المماليك :

عرض السلطان أمر القضاء على داود ومنصب الوزارة في بغداد على قائد عرف عنه الجرأة والمخاطرة وهو يوسف باشا ، ولكنه طالب بأموال كثيرة وإمدادات عسكرية كبيرة^(٢) أدت إلى أن يتحول السلطان إلى عروض أخرى تقدم بها أحد باشواته المخلصين . وهو على رضا باشا والى حلب . وكانت حلب على علاقة قوية ببلاد العراق والتبادل التجاري والثقافي بين البلدين يكشف أسرار الولايتين ويربطهما برباط المصلحة الاقتصادية التي قويت بشكل ملحوظ عندما بدأ الإنجليز يهتمون غاية الاهتمام بطريق القرات كطريق دولي بين الهند وأوروبا . وتعتبر حلب أحد أركان هذا الطريق الهامة . وكان واليا على رضا باشا يميل كل الميل إلى هذا المشروع الإنجليزي ، وكان هذا الوالى قد عرض على جسنى Chesney

(١) الوثائق التاريخية : دفتر ٤٠ : معية تركي أمر ٥٤٧ بتاريخ ٩ رجب ١٣٤٦ (ديسمبر ١٨٣٠) من محمد علي باشا إلى برتو أفندي .
(٢) كان يوسف باشا والياً على حلب سنة ١٢٤١ - سنة ١٢٤٢ (١٨٢٥ - ١٨٢٦ م)

تطهير ميناء سلوكيا القديم (السويدية) (١) وهكذا كان لدى السلطان وال
يُجاور العراق (٢) ، ويود بإخلاص أن يفتح بغداد لحكم السلطان المباشر
كما كان يوافق الإنجليز على مشروعاتهم في العراق . ومع أن علي رضا
كان مملوكاً قوقازياً كان غير متأثر بهذه الصفة عندما هاجم النظام المملوكي
في العراق . وقد كان معروفاً بالفطانة (٣) ، كما كان من رجال الحكم
المجربين وعلى اتصال بأحوال بغداد والعراق بصفة عامة ويعتقد بأن رؤساء
العشائر في بغداد والبصرة وتجارها ساخطون على داود ، وكان كذلك
يعتقد أن المهمة سهلة وهو كفيل بها ، فطلب أن توجه إليه أيلة بغداد
وتوابعها ، مضمومة لحلب ، وأن يدفع الباب العالي له ستة آلاف كيس
على أن تسترد من واردات بغداد بعد ذلك ، وأن يزود أيضاً ببعض المهمات
وبقوات من متميزي أهالي الأطراف ، فوافق السلطان على طلباته (٤)
بل رفعه إلى منصب « سر عسكر » أو « القائد العام » تقوية لنفوذه ،
وأضيفت إليه ديار بكر أيضاً . وكانت ولاية الموصل قد أسندت إلى قاسم
العمري (٥) أعدى أعداء داود باشا منذ أمد (٦) .

(١) Chesney: The Expedition, Vol. I, P, 645

(٢) الواقع أن حلب كانت نقطة استراتيجية هامة لشن هجوم على العراق .

(٣) وصفه لنا أنزويرث Ainsworth بأنه وسيم المظهر متقدم في السن ضمن الجلفة
ذو هيون تم على الفطنة .

(٤) عباس الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ٣٠٨ .

(٥) أسرة العمري أسرة عريقة آتت بها المماليك إلى الموصل في النصف الثاني من القرن
السادس عشر لتسكن الفتن في الموصل وكانت مشهورة بالصلاح وكان موطنها الأول الحرمين
الشريفيين . انظر سليمان صائغ : تاريخ الموصل ج ١ : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٦) يحدثننا سليمان صائغ أن الباب العالي كلف قاسماً بأن يقبض على داود وأن البغداديين
غدروا به وقتلوه وأجزء الأول من حديث سليمان صائغ غير صحيح إذ أن قاسماً كان قد هينه على
رضا قائمقامه هذا بينما يفهم من كتابة سليمان صائغ أن الدولة أرسلت قاسماً أولاً فلما فشل وقتل
أرسلت على رضا باشا . انظر سليمان صائغ : تاريخ الموصل ج ١ : ٢٠٦ و الزاوي : تاريخ
العراق ج ٦ : ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٣ .

ومن ناحية أخرى أرسل على رضا إلى الإيرانيين ينبئهم بثورة داود وخروجه عن طاعة السلطان وأن قوات الخليفة ترحف على الباشا المتمرد لطرده من بغداد وطلب من الإيرانيين ألا يقبلوا داود إن هو لجأ إليهم^(١) فهل كانت لدى داود نية الفرار أو الاستعانة بإيران ؟

لا شك أن هذا الافتراض لم يقم عليه أى دليل بل هناك ما يشير إلى أن داود كان يعتقد أن ارتماؤه في أحضان القرس كارثة على العراق إذ أن جمهرة العراقيين يعتقدون أن الإيرانيين إذا استولوا على العراق شردوا أهله وسفكوا دماءهم وسبوا نساءهم وأطفالهم^(٢) . وماضى الإيرانيين يؤكد هذا الاعتقاد وماضى الممالك يؤكد أن الولاة منهم لم يميلوا إلى إيران ولم يستعينوا بها بشكل يوحى إلى أن الاستعانة بها أمر قوى الاحتمال ، ثم إن العلاقات الإيرانية - العثمانية كانت في ذلك الوقت على ما يرام ، وكانت السفارات تتبادل بين بلاطى إيران وتركيا بشأن توحيد قوى الدولتين ضد العدو المشترك روسيا وتأليف قوة إسلامية توحد خطط الدفاع عن الإسلام^(٣) . وكانت الأاطاع الروسية تهدد إيران تهديداً يجعلها تتجه إلى تقوية أواصر الصداقة مع الدولة العثمانية الأمر الذى تحاول روسيا - ما استطاعت إلى ذلك سبيلا - أن تمنع وقوعه^(٤) .

على أن افتراض فرار داود إلى إيران ليس على غير أساس إطلاقاً نظراً لأن الأزمات العنيفة قد تلجئ الإنسان لأن يسلك طريقاً ما كان الناس ليعتقدوا أنه سالكه ، ولقد كان كبخيا داود السابق محمد أغا - من أمثلة الفرار إلى إيران ليتولى الباشوية .

هذا إلى أن إخطار إيران بأمر الباشا العاصى وأن جيش السلطان يعمل

(١) الزاوى : تاريخ العراق ج ٦ : ٣٠٧

(٢) Groves : Op. Cit. PP. 96 — 138

(٣) لطفى : تاريخ لطفى ج ١ : ٢٠ - ٢١

(٤) Sykes : History of Persia, II, 322

على طرده من البلاد هو في الواقع أسلوب من أساليب الدبلوماسية التي ترمي إلى إخطار الجار القوي الانتهازي بأن الأمور في العراق يدبرها رجال السلطان وأن حسن الجوار يقتضي أن تتعاون الدولتان على تأديب المتمردين وعدم قبول القارين إلى أي منهما .

هنا من ناحية إيران ، أما من ناحية الإنجليز فقد عمل الباب العالي على أن يسد هذا المنفذ في وجه داود ، إذ أنه أشيع أنه سيهرب بأمواله إلى الهند بوساطة القنصل الإنجليزي في بغداد ولذلك اتصل الباب العالي بترجمان السفارة الإنجليزية في الأستانة وأظهر له أن كل مساعدة من جانب الإنجليز لداود تسيء إلى العلاقات بين البلدين ويبدو أن الإنجليز كانوا مهتمين فقط بأمرين :

١ - المحافظة على الأمن حتى لا تمس تجارتهم بسوء .

ب - محاولة ظاهرية للإبقاء على داود نظراً لأنه متفق معهم فيما يتعلق بمشروعاتهم في دجلة والفرات .

ولذلك نجد أن ترجمان يطالب الباب العالي بالمحافظة على البصرة ونواحيها ويقدم السفير الإنجليزي مذكرة يطلب فيها العفو عن داود مستغلاً سحر مال داود . وكان المال في أغلب الظروف سبباً في تغيير الباب العالي لحطه ، فقد انتقد السفير حملة على رضا على بغداد من الناحية المالية وأظهر أن تكاليفها ياهظة وأن الباب العالي يمكن أن يستحصل من داود على أموال كثيرة^(١) ولكن الهدف من هذه الحملة لم يكن جمع أموال أبو محمّد رغبة طارئة وإنما كان تطبيقاً لمبدأ اتخذهُ محمود الثاني وصح عزمه على أن يتبعه . ولم يكن الإنجليز في حاجة شديدة إلى مقاومة رغبة السلطان هذه لأن على باشا كان متفاهماً معهم ، ولذلك وقفت سيهودات الإنجليز من أجل داود عند هذا الحد .

(١) النزاع : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢١٠

والأمر الثالث الذى اتبعه على باشا رضا لتوحيين قوى داود هو تفكيك وحدة الممالك وتفريقهم عنه . ولما كان الباشا الذى يحمل براءة الولاية هو القادر على تأمين الثوار ومنح المناصب لمن ينضم إليه فإن ذلك كان من الأسلحة الخطيرة التى كان يملكها على رضا ، بخاصة فى ولاية تقدر وتحترم كل الاحترام فرمان السلطان .

ولذلك أصدر على باشا رضا الأوامر بمنح الممالك والجيش المحلى (الجيش العثماني) والأهالى الأمان، وهذه أمور تقليدية لها أثرها فى تفكيك قوى الباشا المتمرد على السلطان . وتعتبر مقدمة لجنهم إلى صفه^(١) . ثم أسند منصب كتبخدا البواين (قيوجى لوكتخدا) إلى إبراهيم أغا وقضاء بغداد إلى قائمقام النقيب تقي الدين القلمسى^(٢) .

وأنمرت فعلا محاولته فقد انضم بعض الممالك القارين إلى جانب على رضا ومنهم علو داود اللدود محمد أغا الكيخيا السابق الذى فر إلى حلب بعد هزيمته فى الحلة وكذلك انضم إلى الباشا الجديد رسم أغا والبلوك باشا سعدون أغا الذى انضم إلى على رضا على رأس ألف من اللاوند^(٣) وكان هؤلاء الممالك الفضل فى توثيق علاقة الباشا الجديد بمعظم أجزاء العراق كما انضم إليه من العرب أحد كبراء عشيرة الحربا وسليمان الغنام أحد شيوخ عقيل^(٤) .

تلك الاستعدادات تمثل الجانب السياسى من إجراءات على رضا لإضعاف جبهة داود الدفاعية .

أما من الناحية العسكرية فإنه جيش جيشاً غير نظائى لا يقل عدده عن عشرة آلاف مقاتل ولكنه كان غير كامل التدريب ، وقوات نظامية

(١) المزوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٣٠٩ .

(٢) المصدر السابق : ٣١٠ .

(٣) المزوى : ج ٦ : ٣١٢ .

(٤) بغداد كوله من : ٤٩ .

تألفت من كتيبة قوامها ثمانمائة مقاتل عن ولاية حلب وكتيبتين من التياراتين وتسعة مدافع ميدان^(١) وأرسلت الحكومة الصدر الأعظم السابق سليم محمد باشا بقوة عسكرية إلى حلب وعينته قائداً للفيق الثاني ليكون له ردهم^(٢).

وأما داود فقد أخذ هو الآخر منذ مصرع صادق يستعد للجولة القادمة سياسياً وعسكرياً . فبذل محاولات في البلاط السلطاني ليعيد المياه إلى مجاريها وأعلن استعدادده لدفع ما يطلبه السلطان من أموال^(٣) . ولكن المسألة في ذلك الوقت كما ذكرت لم تكن مسألة أموال فهي أخطر من ذلك، إنها مسألة مبدأ^(٤) وضعه السلطان لإنقاذ الإمبراطورية من الانهيار التام . ولذلك كان من الحماقة أن يكتب القبوكتخدا على نجيب إلى داود بأن الحصول على عفو السلطان أمر ممكن إذا توقف الباشا عن استعداداته العسكرية حتى لا يظهر بمظهر المتمرّد وإذا أرسل هدية من الخيول العربية^(٥) . وهو بذلك أضاع على داود وقتاً كان ينتظر فيه نتائج وساطته هذه دون جدوى .

أسرع داود إلى استكمال استعداداته العسكرية فأصدر الأوامر إلى الجيوش التي كان سيرها بأن تتخذ مواقعها وعسكرت قواته النظامية خارج باب الإمام الأعظم تحت قيادة الميراخور سليمان أغا في سهل ذي موقع استراتيجي ، وبعث يوسف أغا على رأس كتيبة من المشاة النظاميين وألف وخمسمائة فارس تقريباً إلى كركوف وقوة البدو إلى دير الزور^(٦) .

وواضح من هذه الحركات العسكرية أنها ترمي إلى هدف واحد

(١) بغدادكوله من : ٥١

(٢) المزاي : تاريخ العراق ج ٦ : ٣٠٩

(٣) المرجع السابق .

(٤) أضى به الحكم المركزي .

(٥) بغدادكوله من : ٤٩

(٦) المصدر السابق ٤٩ - ٥٠

هو أن تناوئ مقدمة قوات داود هذه جيوش السلطان الزاحفة وتهدها في الوقت نفسه بقطع خط الرجعة عليها وقطع تموينها .

الطاعون والقيضان :

وبينا كان الجيشان يستعدان للصراع فاجأ الطاعون العراق في سبتمبر ١٨٣٠ وكان قد انتشر في تبريز وكركوك واجتاح كردستان . وشعر داود بخطورة الموقف إذا ما دهم الوباء بغداد في هذه الظروف فطلب داود من المستر تايلور Taylor أن يبين له أساليب مقاومة الأوبئة فقام تايلور بما عهد إليه . ولكن لم نر لتلك الأساليب أثراً ظم يكن لدى الأهالي من وسيلة سوى أن يفروا من المدينة .

أخذ الوباء يتقدم في بطن نحو بغداد فسرى الرعب في قلوب أهلها وبخاصة عندما قيل إن كرويين أتيا إلى بغداد حاملين الوباء معها . وفي آخر مارس تأكد الجميع أن الطاعون بينهم واستعد القنصل البريطاني للقرار من المدينة، وفي أول أبريل اشتدت وطأة الوباء في سرعة مذهلة، وبدأت الأعمال تتوقف في المدينة كما بدأ الاضطراب يعم أهل العراق ، وبخاصة اليهود والكرد فأخلوا يفرون من المدينة . بينما كانت على أبواب المدينة قافلة تضم بعض مسيحي الموصل حائرة بين بغداد والموصل لا تعرف لما مستقراً لاجتياح الطاعون للبلدين . وكانت القوافل التي تفر من وجه الوباء تقع في قبضة العشائر العربية . ومع ذلك استمرت حركات الفرار من المدينة قوية . بينما أخذ متوسط الوفيات يرتفع بسرعة فبلغ في الأيام الثلاثة الأولى ١٥٠ ضحية في اليوم ، وفي ١٠ أبريل كانت ضاحية الكرخ قد فقدت سبعة آلاف مواطن خلال أربعة عشر يوماً . وأصبح الناس في حيرة مريرة . ففي المدينة الوباء القاتل وفي الخارج العشائر التي لارحة في قلوبها ، ودجلة يهدد بفيضانه - في ذلك الوقت - منطقة بغداد وفاضت مياه النهر ودمرت عدداً كبيراً من المنازل في الكرخ . هنا بينما ارتفع معدل الوفيات

في يوم ١١ أبريل ١٨٣١ إلى ١٢٠٠ ضحية وبلغ في الكرخ ١٠٤٠ ، وكان يوم ١٣ أبريل أسوأ يوم من الأيام في الوباء ، فقد بلغ المعدل ١٨٠٠ ضحية وترك الموتى بدون أن يدفنوا لأن الوباء أصاب أغلبية سكان المدينة ولم تعد هناك أيد قادرة على حمل الجثث فركت حيث هوت ، وأفقرت الطرق من المارة ، وخشي كل واحد الآخر خوفاً من انتقال العدوى . وانقطعت المياه عن الناس لوفاة السقائين الواحد إثر الآخر .

لقد فر نصف سكان بغداد من المدينة وعانى الباقى الموت الذى كان يزحف على الدور فيقضى على كل ساكنها إلا أقلية ضئيلة . وارتفع المعدل بعد ذلك إلى ١٥٠٠ وإلى ٢٠٠٠ ضحية خلال الأسبوعين الأولين من أبريل وابتداء من الأسبوع الثالث كان دجلة مستمراً في الارتفاع مهدداً بغداد نفسها وفي ٢٥ أبريل لم يعد هناك سوى عدد من البوصات ليساب في المدينة . ووقعت الكارثة في ٢٧ أبريل عندما انهار الجسر أمام ضغط المياه واندفعت المياه مجنونة إلى شوارع المدينة تترجرج وتدمر بيوتاً لا تحمل هذا التيار العنيف - فدمرت عدداً ضخماً من المنازل في ساعات قليلة . واحتاحت المياه سبعة آلاف منزل، وكانت هذه المياه تدفن المرضى مع الموتى وتجهز على المحتضرين وتردى الأحياء ، ومن فر منها إلى مرتفع يكون طعمة سهلة للوباء لتجمع الناس فوقه وأصبحت سرايا الباشا خراباً بعد أن هدمت المياه شطراً منها ، وانطلقت خيول الباشا في المدينة على غير هدى^(١)

ولم ينقذ بغداد من الدمار التام سوى انخفاض مستوى دجلة ولكن كان لا يزال أمامها أخطار وأحوال . فالحائز على الأبواب وجيوش على ، ضا تنتظر انتهاء الوباء لتجهز على المدينة نهياً ونحريراً .

وفي أوائل مايو تناقص الطاعون وبدأت الحركة تدب في المدينة التي لم يبق منها إلا ثلثها تقريباً ولم يبق حول الباشا إلا أربعة من الجراكسة كانوا

معه دائماً ، وخلت أحياء كاملة من السكان وذهب معظم سكان الحلة ضحية للوباء . وبرغم ما أصاب الوزير من كوارث وما أصابه من فقد معظم أولاده لم ينس شعبه الذي طحته تلك الكوارث ففتح له مخازنه ودفع الأجور بسخاء لدفن الموتى ...

وبعد ثلاثة أسابيع مرت في رعب وفزع عاد صوت المؤذن يتردد في أرجاء بغداد ، ولكن الوباء كان قد قام بما كان يؤمله على رضا وزاد الطين بلة بالنسبة لداود أنه أصيب هو نفسه بالطاعون ، وبعد حوالي أسبوعين تمائل للشفاء ، ولكنه أصبح عاجزاً عن الحركة . ولم يبق من نسائه إلا اثنتين وأصبح يعتمد في غذائه على صائده سمك كرم^(١) وفر عدد كبير من كبار الشخصيات العراقية إلى حلب وسائر بلاد الشام فكان على رضا يستميلهم ويخالسهم ويتفق عليهم ، وبعض هؤلاء لم يكن قد جالس داود أو اجتمع به فكانوا من العوامل التي وثقت الصلة لعل رضا بأجزاء العراق^(٢) .

بغداد تقاوم :

كان أعوان الباشا الجديد يترابون يوماً بعد يوم وأخذت اتصالاتهم بشيوخ العراق ووجوهه توثق ثمارها وبذلت الأموال الوفيرة لكسب ثقة من يفد على الباشا الجديد لاجتذاب أعوان جدد . وخلال زحف على رضا من حلب إلى الموصل كان يتفق عن سعة ويعامل من انضم إليه معاملة ملؤها الاحترام ، ولاشك أن على رضا قدر أن بغداد - برغم ما صابها - قد تقف في وجهه فكان عليه أن يخطط للمفاجآت فتيق هو وجيشه في الموصل بينما أرسل قائمقامه - والى الموصل - قاسم باشا إلى بغداد على رأس قوة مناسبة فسلك هذا طريق الصحراء ونزل غربي بغداد وكان في معيته ويوده ماردين وصفوق شيخ شمر الجربا وسليمان الغنام .

(١) Fraser: Mesopotamia, 280, 281

(٢) الزاوي : تاريخ العراق : ٦ : ٣١٩ .

وصل قاسم إلى مكان يبعد عن بغداد حوالى خمس ساعات ومن هناك أرسل (بيولوردى) ولاية على رضا إلى قاضى بغداد ولم يكن فى وسع القاضى أن يعصى أمر السلطان لأن الخروج عن أوامره فتنة ، ولذلك أظهر القاضى فرمان لبعض أعيان المدينة وأخذ منهم عهداً بالأنحونوا دولتهم وأن يخلعوا طاعة الوزير ويولوها إلى قائمقام باشا بغداد . وكان من رأى القاضى أنه لا بد أن يظهرُوا طاعتهم للسلطان علناً فسكوتهم يثير حولهم الرب ويوجه إليهم الأفكار على أنهم قوم مخادعون وأنهم لكى يبرثوا ساحتهم عليهم أن يخرجوا داود من السراى مقر الحكومة وأن يضعوه تحت حراسه كافية ويعلنوا انضمامهم إلى الجانب العثمانى وبذلك يكون قد خدموا السلطان وأبعدوا الشبهة عن أنفسهم (١) .

والحق أن أحوال الوزير كانت فى انتكاس ومحاولاته ليعيد سيطرته على الموقف باءت بالفشل ، فلقد أرسل ميرخور سلیمان أغا ليجمع له للقوات ، ولكنه توفى بالوباء فى الخالص فتفرق شمل أولئك الذين جمعهم فعين محمداً المصرف مكانه وكلفه بنفس المهمة، لكن هذا كان هيباً وجلاً وإنما عين بتوصية من محمد باشا ابن خالد باشا رأس الأسره البابانية فى ذلك الوقت وهو رجل شجاع فطن كان يعسكر على رأس عدد من الفرسان الأكراد يتراوح بين ٤٠٠ - ٥٠٠ خارج أسوار بغداد منتظراً عودة محمد المصرف ليذهبها لجمع القوات، وفعلاً عاد إليه محمد المصرف بمبالغ ضخمة قد أتى بها رجال سلیمان الميرخور بعد وفاة الأخير .

سار محمد باشا ومحمد أغا على طريق مندلى وخانقين ، وبينما هما فى طريقهما إلى قرية شهرزور كان صفوق شيخ شمر قد اتفق مع حلفائه على أن يضرب أى قوة تخرج من بغداد فاصطدم بهم محمد المصرف وزميله محمد باشا البابانى ولم تستطع قواتهما الصمود أمام هذه القوات المتفوقة

(١) بغداد كوله من : ٥٢ - ٥٥

لنقص اللخائر والمؤن ولبعد الماء عنها، فانسحب محمد البابائي ونجا بنفسه، أما محمد المصرف فقد أخذت كل الأموال التي كانت معه وترك في حالة مهينة فكان هذا الفشل أيضاً من عوامل توهين قوة داود .

وفي غضون ذلك كان قاسم قد اقترب من الكاظمية بينما كانت السراى معرضة لهجمات الغوغاء، ولكن هؤلاء لم يكن في استطاعتهم أن يقوموا بعمل ذي قيمة وطلقات قليلة نشدت عليهم .

ويبدو أن داود وجد في تقديم قاسم — علوه اللود — خطراً عقيقاً يهدد حياته وأن داود فكر في أن يتخلص منه بأسلوب يبعد الشبهة عنه وعن البغداديين في الوقت نفسه. وكان سلوك قاسم نفسه يمهد للداود اتهاع هذا الطريق للتخلص منه فيحدثنا بعض المؤرخين أن داود آثر أن يتعد عن المسرح ويعيش مختفياً عن الأنظار في منزل أحد رجاله المقربين .

ولكن وجوه المدينة وأعيانها وأوا أن اختفاه على تلك الصورة من الأمور التي تثير الشك حول سلوكه وهم في الوقت نفسه كانوا مستعدين لضمان سلامته على أن يكون تسليمه للبasha الجديد بكل احترام، فذهبوا لديه واتفقوا معه على أن يستقر في منزل صالح بك وأدخلوا سنداً على صالح بأن يحافظ على حياة الوزير السابق حتى يسلمه لعلی رضا (يونيو ١٨٣١) (١) .

وكانت أمور المدينة لا تحتمل إلا أن يأتي القائمقام فيسلم حكمها في هدوء دون قتال فطلب الأعيان من القائمقام أن يأتي إلى المدينة لبسملها فدخل قاسم المدينة وهناه الوجوه والأعيان (٢) .

وبدأ قاسم يباشر مهام منصبه فأمر بفتح الأسواق وإعادة الهدوء إلى المدينة المنكوبة لتستعيد حياتها الطبيعية ولكن قاسماً كان يبيت من النيات ما يتناقض مع هذه المقدمات . فلن من كان معه من عرب كانوا ينتظرون

Groves: Op * Cit. 181-182 & Coke: Bagdad City of Peace, p. 260 (١)

(٢) بغداد كوله من : ٥٦ - ٦٠ .

الغنائم التي سيستولون عليها عقب دخولهم المدينة وكان من بين الممالك من كان يسعى لتولى الباشوية . وكان قاسم نفسه يريد أن يتولاها . ولكنه كى يعد نفسه لمنصب الباشوية يجب أن يدخل السراى على جيش الممالك فى بغداد . ولذلك بدأ بالمطالبة بتسليم داود إليه ، ولكن صالحاً كان قد تعهد بالمحافظة على داود حتى يسلمه لعل رضا ووضع للجميع أن قاسماً يريد أن ينفذ مأربه فى داود ، فوقف صالح عنيدا أمام إلحاح قاسم فى تسليم داود ، وطلب صالح بأن يسلم إليه داود مراراً ، ومع ذلك أصر قاسم على أن يتسلم داود واحتد وقد لعب برأسه الخمر - على صالح بك ولكن صالحاً رفض أن يسلمه وقدم له اعتبارات وجبة لرفضه . فإن المدينة كلها تعلم أن لدى داود أموالا طائلة وأن الناس لاشك سيتهمون إن هو سلم داود إلى علوه السابق بأنه شارك قاسماً فى اقتسام أموال داود ، وطلب من قاسم أن ينتظر للغد حتى يسلمه إليه أمام الهيئة التي أودعت داود عنده ليستعيد منهم السند الذي أخذ عليه فعاد القائمقام إلى مقره مسروراً . هذا بينما كانت الأمور فى منازل أعيان المدينة وبقايا ممالكها تسير فى اتجاه مغاير لذلك الذي تصوره قاسم ، لقد تأكدت مخاوف زعماء المدينة من نيات قاسم ، وكانت قوات سليمان الغنام وصفوق مستعدة لشن الهجوم على أهالى بغداد بمجرد أن تتلقى أوامر قاسم ، وسرت فى المدينة موجة من الخوف والرعب ففكر زعماء المدينة فى التخلص من هذا القائمقام الذى دخل المدينة بموافقة أهلها دون حرب ، ولكنه يأتى إلا أن يسيل الدماء فى المدينة إشباعاً لنزوة الانتقام الثائرة بين ضلوعه ، وربما كان داود هو الذى أوحى بهذه الاجتماعات والتدبيرات لينقذ رقبة من سيف قاسم ، وأغلب الظن أنه أثر ألا يظهر على المسرح السياسى حتى يستطيع أن يلعب دوره من وراء ستار وحتى لا يظهر بمظهر الباشا المتماذى فى العصيان ، وإنما أهل المدينة هم الذين يدبرون أمرها ويقررون من يتولى حكمها ، ولقد اجتمع وجوه البلد

وأعيانها في منزل صالح - حيث يقيم داود - وتدارسوا الموقف وانتهت مشاوراتهم إلى ضرورة التخلص من قاسم^(١).

وفي صباح اليوم الذي كان ينتظر فيه قاسم حضور أعيان المدينة ليتسلم أمامهم داود من صالح لم يحضر من المدعوين إلى هذا الاجتماع إلا عدد قليل لم يعرف ما اتفق عليه من قبل بينا تباطأ البعض الآخر في الوصول إلى مقر الاجتماع ..

ويقال إن قاسماً - الذي أراد أن يقضى على أولى الرؤى في بغداد - اعتزم أن يسفك دماء من جاء إلى الاجتماع وأن يجهز على من لم يأت إليه فيما بعد . إلا أن أولئك الذين كانوا في حضرته شعروا بأن قاسماً يبيت الخدر ولذلك أخذوا ينسحبون الواحد إثر الآخر بينما كان أهل المدينة المسلحون يضربون نطقاً حول السراي التي كان بها ثلاثة آلاف من العقيل فأوصدت أبواب السراي وكان العقيل من ذوى البأس بينما كان أهل بغداد لا يتقنون استخدام السلاح وكان من المحتمل أن يتغلب عليهم قاسم بقواته وبدأت المعركة بين الطرفين بتراشق رصاص البنادق، ولكن دخل في المعركة عامل جديد وهو أن قوة من العقيل بين سبعائة وثمانمائة رجل - كانت معسكرة في غربي بغداد قدمت إلى المدينة بدون أن يستدعيها أحد وانضمت إلى البغداديين في صراعهم ضد قوات قاسم وكذا انضم الملاحسين (سرجشمه) - الذي كان موجوداً في القلعة الداخلية - إلى الأهالي . ويبدو أن صالحاً كان هو المتزعم لهذه الحركة^(١). وأصبحت المدينة منقسمة إلى معسكرين :

ا - معسكر مستعد ليذل حياته من أجل داود .

ب - معسكر مستعد لقتال أعوان الباشا المزعول على رأسه قاسم العمري وكان المعسكر الثاني قد انحصر بعد الحركة الأخيرة في السراي حيث حوصر قاسم وويوده ماردين والحاج أبو بكر الكيخيا السابق لعلی باشا وسليمان الغنام وثلاثة آلاف مقاتل معظمهم من العقيل ، وفل بأس هؤلاء قوة العقيل

(١) بغداد كوله من : ٦٠ .

التي انضمت إلى أهل المدينة وانقلب التوازن لصالح البغداديين ، وبخاصة عندما قصفت مدفعية القلعة السراى فاستسلم قاسم وويوده ماردین إلا أن سليمان الغنام وأبا بكر بقيا فترة قصيرة حيث نهبا السراى من تحف وأموال وخزائن ثم أشعلا النيران فيها وخرجوا من السراى شاقين طريقهما بحمد السيف. وحاول الناس أن يحمّلوا النيران التي اندلعت في السراى التي كانت تحفة بغداد والشرق في ذلك الوقت بما كانت تحويه من نفائس وعمائر . فكان حريق السراى من العوامل التي قوت الترابط بين البغداديين ، وإذا كان أبو بكر وسليمان الغنام قد فرا من مصر محمول خطر فلان قاسماً الذي أتى ليطيح برأس داود فقد هو وزميله رأسهما على يد البغداديين في المحرم ١٢٤٧ . (يونيو ١٨٣١) وقيل إن قاسماً أعدم لأنه حجز التار الذي كان يحمل فرمان تثبيت داود في ولايته .

وعلى أى حال أجمع البغداديون على أن يقاوموا جيش على رضا لأنه - في نظرهم - من نفس الطراز الذي عهدته بغداد من (ولاية الخارج) الذين يهتمهم التهب والسلب دون النظر في مصلحة الرعية التي لا يعرفونها وأن على رضا إنما أتى لبيز أموالهم وحق على البغداديين أن يدافعوا عن مدينتهم وأن يطلبوا الولاية لمن هو أقدر على التعاون معهم في حكم البلاد ، وهم قد اعتادوا أن يتولى منصب باشوية بغداد وتوابعها من نال رضا أهل بغداد . ولذلك أصبحت المدينة والوضع هكذا مرتعاً خصباً للإشاعات فتارة ينادى المنادى أن داود باشا مريض وأن صالحاً قائمقام حتى يشفى وأن باشا حلب^(١) مات بالوباء وأن قاسماً إنما أتى بقواته ليستولى على حكم بغداد لنفسه وأن على رضا لو كان حياً لجاء لإنقاذ رجاله من الأسر . ولا شك أن أهل بغداد كانوا يعتقدون أن حادثة الوزير مثل حوادث الوزراء السابقين من حيث أن المقاومة محدبة وأن الباب العالي لن يلبث أن يعترف بالأمر الواقع ويعيد على رضا إلى حلب على اعتبار أن الباب العالي ما كان ليخرب بغداد وهي حدة من درر الدولة العثمانية في سبيل على رضا ، وقر عزهم على أن يكون لهم الرأى فيمن يتولى الأمر فيهم ولا يسلموا

(١) أى على رضا باشا

القيادة لعل رضا . وقد ظهرت بواكير أساليب حكمه ممثلة في الأفعال التي ارتكبها قاسم وأتباعه، ولن يصل أهل بغداد إلى تحقيق غرضهم هذا إلا إذا وقفوا وقفة رجل واحد أمام جيوش علي رضا الذي لا بد أن ينتقم لمقتل قاسم وويودة ماردین، ولكي يظهر بمظهر يعلم كل البعد عن الصفاق تهمة الثورة ضد السلطان والوقوف إلى جانب الباشا الثائر المتمرد اتجهوا وجهة جديدة وهي أن يطلبوا من الباب العالي تثبيت داود في الولاية أو إسنادها لصالح بك وهو القائم فعلاً بأمر المدينة إذ لم يعد داود يتدخل في أمورها وإنما كان صالح يستشير فيه بفعله .

وأما ما عدا هذين الرجلين فلن يقبله أهل بغداد والياً عليهم ، ولذلك كتبوا إلى السلطان التماسين أحدهما من طريق إيران والثاني من طريق الشام بواسطة القنصل الإنجليزي، والغرض من ذلك هو ضمان وصول هذين الالتماسين أو أحدهما إلى السلطان وطلبوا في هذين الالتماسين العفو من السلطان وتعهدوا بدفع عشرين ألف كيس خدمة للخزانة السلطانية وإبلاغ سنوية بغداد إلى الأربعة آلاف كيس في السنة الأولى بعد أن كانت ألفين . ثم يضاف كل سنة ألف كيس حتى تبلغ عشرة آلاف كيس، هذا بالإضافة إلى أنهم تعهدوا بدفع مصروفات حملة على رضا باشا^(١) .

ولكي يعرفوا عمليات علي رضا العسكرية الموجهة ضد بغداد بأمر من السلطان كتبوا له رسالة بنفس المعنى راجين منه ألا يقدم على مهاجمة بغداد في هذه الظروف حتى تأتي أوامر السلطان وإلا فإن أهل المدينة سيدافعون ويقاومون أشد المقاومة .

علم على رضا بتلك التطورات الخطيرة وهو في نواحي الزاب عندما وصل إليه مبعوث من قبل البغداديين يحمل إليه رسالتهم^(٢) . فإمكان منه إلا أن أصر على أن يسير رأساً إلى بغداد فزحف حتى الأعظمية على رأس جيش

(١) بغداد كوله من : ٦١ - ٦٢

(٢) تاريخ الموصل : ١ : ٣٠٦

مؤلف من الآلين من الخيالة التياراتين وكتيبتين من المشاة والخيالة غير النظامية ومدفعية. قليلة العدد ، فكان مجموع جيشه حوالى خمسة عشر ألف مقاتل انضمت إليه بعض القبائل العربية العراقية المعادية لباشا بغداد السابق وعندما قرعت أخباره هذه أسماع أولى الأمر فى بغداد أخلوا يستعدون لمقاومة الباشا الحديد فسدوا الأبواب وحشدوا ما لديهم من قوات، وكذلك البقية الباقية من قوات داود النظامية . أما الجند الموظفة الذين كانوا فى القلعة فقد أسندت قيادتهم إلى الملا حسين (رئيس الحشامات) وأسند أمر الدفاع عن الروابي إلى عدد من كبار الممالك وأسندت القوات المدافعة عن البوابات إلى أغوات الممالك بمن معهم من الجند النظاميين . .

وكان تعداد قوة داود النظامية هو خمسمائة جندي وضابط وتولى صالح بك قيادة هذه القوة بنفسه كذلك كانت لديه من ٦٠٠ إلى ٧٠٠ من الجنود الموظفين ونحو خمسمائة من العقيل فاستعان المدافعون بهؤلاء جميعاً فى تمسيق الدفاع .

وكانت هذه التدابير العسكرية فى نظر جروفر Groves ضرباً من ضروب الانتحار على اعتبار أن قوة بغداد الهجومية والدفاعية قد تحطمت بالطاعون . والواقع أن القوات العسكرية تحطمت ولكن الروح المعنوية ظلت قوية فى أهل المدينة، وأسوار المدينة لا تزال سليمة قوية . ولم تكن مدفعية على رضا من القوة بحيث تستطيع تحطيمها بسهولة ، ولم تكن جيوشه من التنظيم بحيث تشن هجوماً ناجحاً عليها . .

ولقد استطاع داود أن يشترى ولاء إحدى القبائل التابعة لعلى رضا . كما أن الحصار المضروب حول المدينة غير تام وكان الطعام يتدفق على المدينة من الباب الشرقى ومن باب الحلة . وهذا معناه استمرار مقاومة المدينة لمدة أطول . ولذلك عمل على رضا على إحكام حلقة الحصار حول المدينة ليوقعها فى أزمة اقتصادية شبيهة بتلك التى قضت على سعيد باشا . إلا أن الموقف هنا

كن غيره أيام سعيد؛ فالبيغداديون في هذه الأزمات لم ينشقوا على أنفسهم وحلوا لواء القتال والدفاع عن المدينة وعلى رأسهم علماء البلدة وطلّاع أدبائها من أمثال أبي التّناء الألويسي . وهكذا بدأ كان تبعة النضال وكوارثه لا تقع على وال أساء الحكم والتصرف وإنما تقع على البيغداديين إذا ما فتح المدينة الوالي الذي يريد أن يفرض نفسه عليها . وأخذ أولو الأمر يفكرون في وسيلة لإنقاذ المدينة من الحصار الشديد المضروب عليها .

ولما كان وجود سليمان الغنام والعقيل أمام باب الحلة قد أكمل الحصار المضروب فقد وضعت الخطة على أساس استمرار فتح باب الحلة هذا لاستقبال المؤن . وكلف دفو Devaux^(١) بهذه المهمة وأسندت إليه قيادة القوات النظامية مع مدفعين وخمسة جندى من الهايتة والعقيل التابعين للمدافعين وألف وخمسة من أهالى الكرخ المشاة تحت قيادة الملا حسين وشتت القوات هجوماً على قوات سليمان الغنام فلم يلبث أن لاذ بالفرار تاركاً عدداً كبيراً من رجاله بين أسير وقتيل . ورفع هذا النصر الجزئى الذى أحرزه « دفو » الروح المعنوية بين المدافعين ، واعتقد الناس أن من الممكن مهاجمة الجيش الرئيسى وهزيمته . وسرت في النفوس روح مهاجمة العدو وطرده فقام لإبراهيم أغا على رأس سبعين أو ثمانين فارساً بمهاجمة روائى جادة الأعظمية . ولقد حاولوا منعه من القيام بتلك المحاولة المخوفة بالمخاطر ولكنه أصر على أن يشن هجومه فلما بدأ عملياته الهجومية شعر بخطأ خطته فطلب العودة ، ولكن قطع عليه خط الرجعة وأراد أن يدخل من باب الأعظمية ، ولكن الباب كان مغلقاً ومن كان على السور انسحب والأهالى متكاثرون هنا وهناك وهجوم يشن فجأة نتيجة لخطة ارتجالية أو رغبة جامحة فواجهه هجوم مضاد فتيقهر أحد الجنانين في غير نظام ، وفي بعض المواقف كانت بعض القوات تقع بين قوتين العدو فتصلى ناراً حامية ، وبعضها يقع بين نيران عدوه فيصلى نار الاثنين العدو والصدى .

وكان الموقف من الميوعة للدرجة أن جروفر Groves لم يكن يتوقع نهاية

(١) القائد الفرنسى ويترج جيش داود النظمى .

لهذا الصراع ، فالهجوم ليس قوياً والدفاع وراء استحکامات قوية وليس لدى المدافعين ما يخشونه فليدهم من المؤن والأموال ما يكفيهم لمدة ليست بالقصيرة .

وبعد ذلك هدأت هذه الموجة العنيفة من الكر والفر والهجمات الارتجالية السريعة الإعداد السيئة . ولقد انتصرت قوات دفو Devaux لأنها كانت قد شنت هجومها على أساس خطة استغل فيها عنصر المفاجأة أحسن استغلال وكانت القوات المستخدمة من القوات النظامية المدربة . ولا شك أن بغداد كانت في حاجة إلى حاكم قوى حازم ، ومن ثم كان اعتزال داود العمل — في ذلك الوقت من العوامل الأساسية التي أوجدت فراغاً كبيراً في قيادة المدينة التي كانت في حاجة ماسة إلى قيادة موحدة تنظم الهجوم والدفاع وتفض الاجتماعات عن قرارات تنفذ بدلاً من المشاورات المتعددة والآراء المتضاربة . حقيقة كان لهم هدف وهو منع دخول على رضا ولكن أساليبهم في هذه الناحية كانت غير مجدية استغلت مجهودات المدافعين دون طائل . ومنذ ذلك الوقت لا نسمع إلا القليل عن داود وموقفه من تطورات القتال . وعلى أى حال ساد ميدان القتال هدوء مؤقت باستثناء التراشق بالمدفعية بين التلال الصناعية — التي أقامها على رضا وركب فوقها بطارياته — وقلعة بغداد وطوابق الصابونجية والجاووشية .

ولكن هذا السكون كان يخفى وراءه أزمات شديدة تجتاح المدينة فقد أصبح المدافعون يشعرون بطول الحصار ووطأته وأخذوا يعملون على تركيز كل الإمكانات التي تيسر لهم مهمتهم فاستولوا على ثلث أو نصف ما اخترته أهل بغداد من قمح لاستهلاكهم الشخصي^(١) .

ولم يكن في استطاعة أهل المدينة أن يحصدوا ما زرعه خارج أسوار المدينة بسبب الحصار ، هذا إذا كانت لديهم أيد عاملة تقوم بهذا الحصاد . .

(١) بغداد كوله من : ٦١ - ٧٢

وأنظر كذلك : Groves: Op. Cit. P. 277 — حديقة الورود ج ١ : ورقة ١٢ .

ولا شك أن دفو Devaux قدر خطورة هذا المدء وأن طول مدة الحصار في صالح على رضا . فقرر دفو أن يضع حداً لهذا الموقف المائع وأن يحسم المعركة بهجوم منسق يكون فيه عنصر المفاجأة من العناصر البارزة . وعرض دفو الخطة على صالح بك ولكنه كان شخصية غير حاسمة . ولما لم يستطع البت في هذا الأمر جمع كبار المدينة لعرض الخطة على بساط البحث : بين دفو أن الإمدادات التي ينتظر أن تأتي من خارج المدينة قد أصبحت في حكم العدم وأن الحاجة تزداد يوماً بعد يوم وأن ما لديه من قوات يكفي في أن يشن هجوماً ناجحاً ووضع أمام المحتمين خطة تفصيلية لهجوم منظم ليلى مفاجئ به جيش على رضا ويلقى به في دجلة ولكن الحاضرين لم يناقشوا الخطة في تفاصيلها وناقشوها من ناحيتها السياسية .

فقد أثار درويش أغا عدة اعتراضات سياسية على جانب من الخطورة فعلاً . ذكرهم درويش بالالتماسات التي أرسلها البغداديون إلى السلطان يسألونه فيها إسناد الباشوية لداود أو لصالح بك ، وأنهم قرروا في الخامس هذا أن البغداديين يدافعون عن مدينتهم إذا أرغموا هم على ذلك . فهل خروج جيش بغدادى وشنه هجوماً يلقي بجيش السلطان في النهر يعتبر من قبيل الدفاع ؟ . ثم ذكرهم بالعدو الرابض على حدود العراق الشرقية والذي يعبث بها منذ أمد طويل ، وخاصة بكرستان ويتحين الفرص ليستولى على العراق وأنهم بعدائهم السافر للدولة يمنحون الفرصة الثمينة لإيران لتحقيق آمالها التي فشلت في بلوغها قبل ذلك بسبع سنوات . والفرصة مهيأة تماماً لأن تقطن إيران من الخلف وهم بعدائهم للسلطان يصيحون وحدهم في الميدان — لقتال هذا العدو العنيف القوى في الشرق ولصد قوات الباشا في الغرب . وأن وقوع هجوم إيراني في هذا الوقت يجهز على المدينة المنكوبة وتم الكارثة .

ولا شك في أنه كان هناك خوف عام في بغداد من وقوع هجوم إيراني ، وكان البغداديون متخوفين من وقوع هذه الكارثة (١) . ولكن إلى أي حد كان هذا الخطر محتمل الوقوع .

(١) 199,215 — 198 Groves: Op. Cit., PP. ٧٤ — ٧٧ ، بغداد كوله من :

لقد عقدت إيران مع روسيا منذ وقت قصير معاهدة تركلستان المذلة سنة ١٨٢٦م ، وكانت الدولة - العثمانية قد أذلتها هي الأخرى معاهدة أدرة سنة ١٨٢٩م ، مع روسيا أيضا ، وكانت النداءات تتردد عن توحيد كلمة المسلمين شيعيين وسنيين ضد الخطر الروسي . وعلى هذا كان الموقف واضحا يحمل معنى التفاهم الإيراني العثماني وأن المهجوم الإيراني على بغداد معناه حرب أخرى مع الدولة العثمانية . وإيران كانت منهكة كالدولة العثمانية . وكانت منازعات إيران مع الروس لاهدا ، وروسيا تخشى تحالف إيران مع السلطان . وكانت قوات روسيا تتجه نحو الشرق لتقوى سيطرتها على أفغانستان . أما حركات الإيرانيين في كردستان وإمدادهم لبابائي ثائر بلخا إليهم فقد كانت من باب الروتين السياسي الذي كانت تتبعه إيران في كردستان لتحفظ بنوع من النفوذ فيها^(١) . وعلى هذا لم يكن هناك خطر إيراني يهدد العراق فعلا وإنما هو شعور لدى أهل بغداد وتوقع له مبرراته التاريخية ويمكن أن يستغل في إثارة مخاوف الناس والساسة على حد سواء . وهذا ما حدث فعلا فقد كان هذا الخطر ماثلا في مخيلة المجتمعين ، ووقف المؤتمرون أمام خطة دفو واعتراضات درويش الموقف الحائر العاجز الوجيل وانتهى المجلس دون الوصول إلى قرار حاسم . وهكذا في هذه الظروف العصيبة التي تتطلب من القيادة الحزم والمواقف الحاسمة وقف صالح بين الخططين ، ولاشك أن تردده كان بوحى من آماله فهو يخشى معاداة السلطان مانح الولاية لمن يشاء ويخشى إن نجحت خطة دفو أن يصبح هو هدف جيوش السلطان من بعد ذلك . وهو في قرارة نفسه ينتظر منصب الولاية من السلطان .

كان هذا التردد سببا في شل يد البغداديين وكان ضد مصلحتهم فهم

Sykes: A History of Persia, Vol. II, pp.312-323, (١)

محمد أمين زكي : تاريخ السلطنة ص : ١٤٩ - ١٥١ .

بحاربون قوات السلطان فعلا وإن كان قتالهم قد اتخذ صورة الدفاع .
وهكذا بدأت الأمور - لضعف المدافعين - تسير لصالح على رضا
الذى كان قد صبح عزمه على أن يلعب بأوراقه حتى النهاية برغم حرج مركزه
هو الآخر

ولو أدرك المدافعون أن على رضا كان فى موقف جد خطير لربما
فضلوا تنفيذ خطة ديفو Devaux . حقيقة إن على رضا فرض سيطرته على
معظم أجزاء العراق فيما عدا بغداد^(١) . ولكن هذا لم يسد حاجته إلى التمويل
والأموال فمنذ ارتحاله من حلب لم يدخل خزائنه درهم ، بينما استنفد ماكان
فيها بسخائه وإفناقه على من يفد عليه من أعداء داود ثم إن مدة الحصار
طالت وتكاثرت المتاعب على جيشه ، وبدأ كأن هذا الفتح لن يؤدى
إلى نتيجة ذات قيمة حتى لقد انتشرت فى معسكر على رضا فكرة نهب مالدیه
والعودة من حيث أتى . ولكن لم يتحمس جنده لتنفيذ هذه الفكرة نظراً
لأن مائتى فى خزائنه من أموال لايساوى عشر مايستحقونه ، هذا بينما
اقرب الصيف من نهايته وهو فصل العمليات الحربية وأقبل فصل الشتاء
الذى تهدأ فيه جبهات القتال إن لم ترجع الجيوش إلى قواعدها لتسأنف
المهجوم فى الربيع القادم ، وعلى رضا لايستطيع أن يبقى معسكراً وهو خالى
الوقاض تحت وطأة سياط البرد القارس وبرق المدافع وبين جنود ملوا
القتال فى انتظار يوم النهب والسلب .

لقد كان الموقف جد خطير لدى الطرفين ، والنصر فى هذه الأزمات
حليف من يسيطر على أعصاب جنده أطول مدة ممكنة ومن يكون عزمه
أقوى أو أرسخ وحيلته أدق أو أحكم . ولاشك أن على رضا بدأ يعتقد أنه
سيخسر الناحية العسكرية . وخلال هذه الأزمة وصلته من الآستانه رسالة
مبثطة تطلب إليه أن يدبر الأمور بحكمة وإن عجز عن فتح بغداد فليعد
أدراجه وأرسلت إليه إحدى الرسلتين اللتين أرسلهما الأهالى إلى السلطان .

(١) بغدادكوله بن : ٧٩ .

قدح على رضا زناد فكره ، ووجد أن رسالة الأهالي التي أتته من السلطان هي الورقة الأخيرة التي يستطيع أن يلعب بها . فأرسل إلى كباراء المدينة يطلبهم للتفاوض فيما أمر به السلطان . فكان الملاحسين مندوب البغداديين وحدي خازندار كان مندوب على رضا باشا ، وفي الاجتماع أظهر حمدي بك لحسين رسالة الأهالي ، وذكر له أن لاقية لها فلقد أعادها السلطان لصاحب الشأن في العراق وهو على رضا وحديثهم حدى حديث الائق بالنصر مؤكداً لم أن الباب العالي قد رفض ملتسمهم وليس أمامهم إلا الإذعان لأمر السلطان وأن الاستمرار في الدفاع لن يؤدي إلا إلى كوارث جديدة تنزل على رموس البغداديين أنفسهم .

نقلت المفاوضات إلى أسمع صالح بك فلم يتغير في أسلوب معالجته للمواقف الجديدة . وما كانت طبيعة المرء لتتغير في فترة وجيزة إلا إذا كانت على شيء من القنطة والحكمة السياسية ولكنه خلال تلك الأزمات لم يع درساً في القيادة إبان الحرب ولا في مواجهة المواقف بقلب جرىء غير هباب «إنما تلقى أنباء وصول رسالة الأهالي إلى يد على باشا كأنها كارثة نزلت على أم رأسه فشلت حركته ليصبح وكأنه صورة على حائط»^(١).

أذهلته الصدمة وهو الزعيم الواهن العزم العاجز التدبير فلم يسعه إلا أن يجمع المستشارين في مؤتمر دار فيه الجدل والنقاش . والواقع أن موقفهم لعجيب ، كانوا قبل ورود رسالتهم إلى على رضا عازمين على المقاربة حتى يرد أمر السلطان فيكون فصل الخطاب ، ولكنهم علقوا أمر النزاع على تولية واحد من اثنين داود أو صالح ، ولم تأت موافقة السلطان على أى منهما وترك الأمر لعل باشا الذي لم يظهر حقيقة الأمر ولو أظهره لكان كمن يحكم على نفسه بالإعدام ولذلك رأى البغداديون أن ينفلوا ماتعاهلوا عليه من استمرار الدفاع عن مدينتهم حتى يعود على رضا أدرجه. وتردد المؤتمرون في أى السبل يسلكون وانفض المؤتمر كما اجتمع دون أن

يصلوا الى حل حاسم^(١) وكان شخصية صالح المترددة طبعاً الأمور بطابعها فبقيت الأمور متناقضة مائعة . فهو يريد أن يخفى أمر تلك المفاوضات ولكنها تتسرب إلى الخارج على كل لسان . واهتزت القلوب من إصرار السلطان على فتح المدينة . وكان هذا الانهيار في الروح المعنوية فرصة ثمينة استغلها على رضا كل الاستغلال فنشط رجاله في تفكيك الترابط بين البقية الباقية من المالك وأكثر من وعده، ومن توزيع المناصب على كبار رجال البلد وبدأ عملاء الوزير ينجحون في تأليف حزب قوى له في داخل المدينة خصوصاً في حى الشيخ أحد الأحياء الكبرى في المدينة^(٢) .

وفي أغلب الأحيان توقف فتح بغداد على ثورة قوية في داخل المدينة وكم من مرة استعصت بغداد على الفاتحين من فرس وترك ما دامت الجبهة الداخلية متينة لم تمس^(٣) . هنا بينما دخلها داود في نهاية نزاعه مع سعيد على رأس شزيمة قليلة، لأن الجبهة الداخلية كانت قد تصدعت وانحلت ولذا كان موقف الأهالي هو الذى يحدد مستقبل الحكم في المدينة . وطالما كانوا عوناً للحكم المملوكي في الداخل، وطالما كانوا مصرين على القتال كانت آمال فتحها بعيدة التحقيق .

ولكن هذه الآمال تجددت عند على رضا وقويت بعد التطورات الأخيرة فقد تصدعت الجبهة الداخلية فعلاً وترغم أحمد أفندي أحد وجوه بغداد حركة التمرد والتف حوله عدد كبير من الأهالي، كما غير معظم المالك ولاهم وانضموا لعل رضا بوساطة سيد أحمد أفندي هنا .

استسلام داود :

وبدأت المدينة تستعد لاستقبال على رضا وقواته في غير حماسة فإن

(١) بغداد كوله من : ٨١ - ٨٢

(٢) حى الشيخ هذا عرف عنه أنه مسرح الثورات ثار على سيد باشا سنة ١٨١٧ قضى عليه .

(٣) راجع حكم أحمد باشا وسعيد باشا .

بعض الأحياء كانت تخشى أن تستباح للنهب والسلب . فعمل بعض البغداديين على تحصين مداخل الشوارع لمواجهة الموقف^(١) عند ما تدفق قوات علي رضا إلى المدينة (آخر أغسطس ١٨٣١) فأخذ التدبير يحل في المدينة من جديد بصورة أخرى، إذ أن إقامة تلك التحصينات والمتاريس كانت تتطلب قدراً من الأخشاب فخلعت أسقف الحوانيت^(٢) وسرت في المدينة روح الفوضى والاستهتار بالبasha المعزول، وقيل إن بيت ابنه تعرض للنهب^(١) . وبعد وقت قصير استطاعت قوات مسلحة تابعة لحجة المتشقين أن تستولى على الباب الشرقى في ليلة الخميس ٨ ربيع الثاني ١٢٤٧ (سبتمبر سنة ١٨٣١) ودخل منه الخيالة والتماريون واستولوا على طوابق المدينة فيما عدا باب الإمام الأعظم الذى ظل يقاوم حتى صباح اليوم التالى^(٢) في اليوم التالى وبعد صلاة الصبح أراد داود أن يعتصم بالقلعة ، ولكن هذا كان غير ذى قيمة، ولذلك أكر أن يأخذ برأى أتباعه وأن ينتظر ما يأتى به القدر . وجلس فى منزل أحد أتباعه بجوار القلعة وبعد ساعات جاء عدد من ضباط علي رضا باشا، وأخفوا داود إلى خارج المدينة بكل احترام .

وحيثما اقترب من خيمة علي رضا، نهض علي رضا نفسه وتقدم لاستقبال داود وعانقه وأخذه إلى خيمته . وأخذ الباشا يسأله عن صحته وحاله . وكأنه فى ضيافة رجل كريم . وقدم الباشا فنجانه الذى شرب منه إلى داود . وأخذ منه فنجانه ليؤكد له صفاء نيته نحوه وأن الغدر لا مجال له فى حى الباشا الحديد . فكان لهذا العطف أثر عميق فى قلب داود وسكنت نفسه المضطربة ، وبدأ يشعر بالأمل فى الحياة وفى أن يرى أهله وولده، ولم يكن قد بقى له من الأولاد سوى حسن الذى لم يبلغ من العمر إلا خمس سنوات تقريباً . وبناء على رغبة داود أمر الوزير بأن يؤتى بابنه فى الحال فجاء به

(١) Groves: Op. Cit. PP. 243, 245, 248

(٢) بنداد كوله من : ٨٢ - ٨٤ .

القوم إلى خيمة الوزير والتي الأب بولده في موقف مؤثر أكد نبل عواطف الباشا الحديد .

ولم يكتف على رضا بهذا ، بل ترك الحرية لداود في أن يستقبل من يشاء دون أن يحيطه بحرس ، وأحضر جميع آل بيته إليه وأعد له لوازم السفر إلى الآستانة ، وكتب إلى الباب العالي بأن سبب عدم قبول الباشوات أمر عزلهم هو أن العزل يعقبه الإعدام غالباً وبأن العفو عن داود يكون أجمل مثل لما يلقاه الباشا لو قبل أوامر السلطان بدون تمرد ، وبخاصة أن داود كان عالماً وكبير السن ، وبذلك لن يكون الخوف من الإعدام سبباً في تمرد الباشوات المعزولين^(١) .

ولكن هناك من يخالف هذا الرأي كل المخالفة ويرجع العفو عن داود إلى أنه قدم خزانته كرشوة لينقذ رأسه من سيف الجلاد^(٢) : نعم كانت الأموال من العوامل التي يغير بسببها الباب العالي سياسته ، وكانت الرشوة أمراً شائعاً في الدولة العثمانية ، ولكن الموقف بالنسبة لداود يختلف عنه بالنسبة لحوادث التمرد الأخرى . فقد كان السلطان محمود الثاني يواجه ثورات متعددة في الدولة ، وكان يهدف إلى أن يثبت أنه سلطان مصلح حقاً وأن ضروب القسوة والتهديد والإعدام السريع لم يعد لها مجال تحت حكمه العادل ، ولقد كانت ثورة علي باشا يانينا عاتبة هزت الدولة العثمانية هزات سريعة مروعة ومع ذلك كان مقتله على غير هوى السلطان^(٣) ومن ثم كان اتجاه السياسة العثمانية هو التخلي عن أعمال القسوة والإعدام وإحلال تبادل الثقة محل تبادل الرية والشك . فلا يستبعد أن يكون الدافع السياسي والاقتناع بفكرة على رضا من حيث تجنب إعدام الباشوات المعزولين هما السببان الرئيسيان في إنقاذ رأس داود .

(١) Hunt : Op. Cit. p. ٢٥٢ .

(٢) سعاد العمري : بغداد : ٦٤ .

(٣) الزاوي : تاريخ العراق : ٦ : ٢٢٧ .

ومن ناحية أخرى كان علم داود بلا شك من الأسباب الجوهرية التي أدت إلى أن يطالب على رضا بالغفر عنه ، فلقد كان على رضا نفسه أديباً محباً لأهل العلم وارتبط عهد داود بنهضة أدبية علمية في بغداد جعلت الطبقة المثقفة في المدينة تتمسك بالبasha وتستبسل في الدفاع عنه . ومن ثم كانت مكانة داود العلمية من الأمور التي نظرت إليها البasha الجديد بعين الاعتبار ، وقد حرص على أن يكسب ثقة هذه الطبقة المثقفة في المدينة ليقم حكمه على أساس قوى ، وإعدام داود - الشيخ العالم - سيلطخ صفحة على رضا وسيكون حاجزاً منيعاً بينه وبين الطبقة المثقفة في المدينة فلا شك إذاً في أن على رضا كان بعيد النظر في موقفه الكريم من داود ، ولقد احتضن على رضا الطبقة المثقفة في بغداد وعفا عن كان يحرض البغداديين على الاستبسال في المقاومة وقربهم إليه وأسند إليهم الوظائف وخلع عليهم وبدا وكان حكمه استمرار لحكم داود(١) .

وهذا يؤكد لنا أن على رضا قلر تمام التقدير القوة الهائلة الكامنة في هذه الطبقة المثقفة التي كانت تحت يد داود ، فهي القادرة على إثارة الشعب البغدادى وتجديد عهد المقاومة ، وخاصة أن البغداديين قد امتثلوا لحكم المماليك ، فإن ذكرى سليمان الكبير كانت قوية في نفوس الشعب البغدادى والعراقى بوجه عام ، وجاء داود ليرتفع بعهد المماليك إلى مصاف عهود بغداد المهيبة السالفة حينما كانت عاصمة الشرق السياسية والعسكرية ورائدة الحركة الفكرية فيه أيضاً ، وكان هذا التاريخ المجد الذى يحفظه الشعب البغدادى لباشوات المماليك لا يدانيه تاريخ ولاية الخارج في شيء ، بل لقد كان سوء ظن البغداديين بولاية الخارج قوياً ورغبتهم في أن يتولى حكمهم من خبرهم وعاش بينهم ، صادقة وعميقة ومتأصلة وهذه

(١) حقيقة الورد ورقة ١٢

كلها اعتبارات قوية أنقلت رأس داود من سيفت الجلاله ، وجعلت على رضا بعده للرحيل إلى الآستانة بكل احترام وتبجيل .

وعندما تمت جميع الترتيبات اللازمة لرحلة داود وأسرته إلى الآستانة أمرت كتيبة من الفرسان وأخرى من القوات غير النظامية أن تقوم بحراسة داود وقافلته . ومنحت هذه القوة سلطة إطلاق النار على داود إذا ما حاول الفرار أو حاولت قوة ما أن تقتله . فقد قيل إن سعلون - شيخ العبيد - وسكان كركوك قد اعترضوا أن يقتلوه . فكتب إليهم على رضا بأن يلزموا السكنة حتى لا يكونوا سبياً في إيلاء داود (١) ، ووصل داود في هلوه إلى الآستانة ثم عفا عنه السلطان ، بل وأفاد من خبرته فولاه البوسنة من ١٢٤٩-١٢٥١ هـ (١٨٣٣-١٨٣٥ م) ، ثم ولاه رئاسة مجلس الشورى سنة ١٢٥٤ هـ (سنة ١٨٣٨ م) ثم تولى أنقرة سنة ١٢٥٥ هـ (سنة ١٨٣٩ م) وعزل سنة ١٨٥٦ هـ (سنة ١٨٤٠ م) ثم طلب داود أن توجه إليه مشيخة الحرم النبوي ، فقال ما طلب ، وظل هناك حتى توفي سنة ١٢٦٧ هـ (١٨٥٠ م) ودفن بالقيع .

مذبحة الماليك :

وبينما كان داود في طريقه إلى الآستانة كان على رضا قد دبر مذبحة الماليك . فقد دعا على رضا الماليك إلى حفل لقراءة فرمانات التولية لأرباب المناصب ، وملأ القصر بعدد كبير من جند مختارين ثم انتهز الفرصة وانسحب من الاجتماع فانقض الجند على الماليك وذبحوه كما ذبح صالح ومن كان مؤيداً منهم لعل رضا أو معارضاً له : وفر عدد قليل من الماليك بينما كانت جنود الباشا تبحث عنهم في كل مكان فقبض على بعضهم وعفا الباشا عنهم (٢) .

(١) بغداد كوله من : ٨٨

(٢) بغداد كوله من : ٨٧ - ٨٨

وبرغم هذه المصلحة استلزمت إدارة العراق الاستعانة بالمماليك الباقين ،
فكان منهم الكيخيا في عهد علي رضا ، ولكن عصر المماليك في العراق
كان قد انتهى ، وكانت ملتحهم هذه في الواقع خاتمة لحياتهم كقوة ذات
شأن في حكم العراق (١) .

(١) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٧ : ص ٢١ .

الفَصْلُ الثَّامِنُ

إِصْلَاحَاتُ دَاوُدَ

إِصْلَاحَاتُ دَاوُدَ الْاِقْتِصَادِيَّةُ - وَصِفَ بِنَدَادٍ فِي مَهْدِ دَاوُدَ -
فَضَلَ دَاوُدَ عَلَى الْهَمَّةِ التَّقْلِيْدِيَّةِ - نَمُو الْقُوَّةِ الْمَسْكُوتَةِ عَلَى مَهْدِ
دَاوُدَ .

إصلاحات داود

إصلاحات داود الاقتصادية

يقع العراق في أقصى البلاد العربية من الشرق، وإلى الشرق منه إيران التي يفصلها عن العراق مرتفعات الزاجروس حيث تختلط القبائل الكردية التابعة للدولتين وإلى الغرب تفصل الصحراء الشام عن سهل العراق الذي يجري فيه نهرا دجلة والفرات فربطان بين الخليج العربي والشام . وفي الشمال مرتفعات كردستان التي يفصلها عن سهل العراق مضائق صغيرة (دربند) كانت ذات ميزات عسكرية هامة عند الدفاع. وبينما تكثر الأمطار في شمال العراق على المرتفعات الكردستانية فلنما تقل كلما اتجهنا جنوباً، ولذلك تعتمد الزراعة على الأمطار في وديان كردستان وسفوحها وعلى مياه الترع والنهيرات في وسط العراق وجنوبه ، ولكن وجود الأهوار الموسمية وتعدد طغيان دجلة والفرات على مناطق وسط العراق – يعرقل الزراعة^(١) وإن كانت مياه الفيضان هذه تخصب الأرض التي تغرقها أحيانا^(٢) :

ونظراً لتعدد الأنهار والنهيرات والترع ازدهرت الزراعة في سهول العراق، ولكن وقوع العراق في شرق العالم العربي جعلها تتلقى الصدمات الأولى العنيفة التي أنزلها التتار بالشرق العربي . فكان ذلك من العوامل التي قضت على ازدهار العراق الاقتصادي، على أن الغزوات التتارية والحروب الداخلية لم تكن وحدها مسؤولة عن ذلك الانهيار الاقتصادي . فلن إجهاد

(١) هذا العالم : ١٨٢

(٢) Porter: Op. Cit. P. 259

التربة لعدم وجود نظام دقيق للرى فى العراق^(١)، ونحول مجرى الفرات^(٢) كانا من العوامل الأساسية التى سببت ذلك الانهيار، وأديا إلى اضمحلال بعض المدن المزدهرة :

وكان من الطبيعى أن يفكر حكام العراق فى النهوض به اقتصادياً فقد اعتنى سليمان القانونى بمشروعات الرى^(٣) . فكان بذلك مثلاً لباشوات الدولة فى العراق . ولكن قصر مدة الوالى وضعف القوة المركزية الحاكمة واجتياح الإيرانيين غير مرة للعراق والثورات القبلية كانت من العوامل الأساسية التى جعلت الولاية يميلون مشروعات الرى والزراعة ، ومع ذلك استمرت الزراعة هى المحور الذى تقوم عليه اقتصاديات العراق . ففى كردستان تزرع الحبوب والكروم والقطن والتبغ والكتان الذى جلبت بذوره من مصر وحاول محمود باشا البابانى لإدخال زراعة الموالح فى بلاده ولكن المناخ لم يساعد على نموها^(٤) وفى منطقة السهول الوسطى يزرع الأرز ومختلف أنواع الحبوب وتنتشر المراعى الواسعة حيث تنتقل العشائر العربية الرعوية حتى حافة الصحراء وتخلل تلك المناطق بقاع اشتهرت بخصوبة نادرة المثال كمنطقة الحلة وكريلاء^(٥) . على أن هناك مناطق شديدة الفقر بين الشطرين وبغداد^(٦) . ولما كانت الحبوب تمثل الغذاء الرئيسى العراقى فقد تفنن العراقى فى الاحتفاظ بما يحصده بعيداً عن متناول أيدي الجيوش الغازية الناهبة وبعيداً عن أطماع الحكام فكان يضع المحصول فى آبار عميقة فى الأرض لا يستطيع الباحثون عنها العثور عليها^(٧) :

(١) GIBB : Op. Cit. I, P. 257, 264, 274

(٢) وادى العطية : تاريخ الديوانية : ٣٠ .

(٣) المزوى : تاريخ العراق : ج ٤ .

(٤) رحلة ريج : ج ١ : ص ٩٤ .

(٥) Chesney: Expedition. II P. 602 Heude: Op. Cit. P. 80 (٦)

(٧) رحلة ريج : ج ١ : ص ١٤٢ .

أما البصرة فكانت غنية ومشهورة بمساحات النخيل الشاسعة والتي تغل محصولاً يمثل الغذاء الرئيسى لجزء كبير من سكان المنطقة في بعض شهور السنة ويمثل أيضاً أهم محصول من حيث التصدير ، على أن العراق ظل في حاجة ماسة إلى مشروعات رى واسعة النطاق ، ولقد ثبت أن زراعة القصب والنيلة تقدمت حيث الرى المنتظم (١) .

وفي عهد المماليك لم يشاهد العراق إصلاحات زراعية على نطاق واسع . وكان ذلك نتيجة لاضطراب أمور العراق والفتن الداخلية المستمرة فلم يشعر وال بالاستقرار لياشر تنفيذ برنامج اقتصادى سليم الإعداد . فهذه الفتن كانت سبباً في استنفاد قوى العراق . وإذا ما أراد حاكم أن يصلح جاء إصلاحه ارنجاليا سريع الإعداد بدلى التنفيذ دون أن تستغل فيه رموس أموال ذات أثر (٢) . وأروع مثل لهذا ما كان يحدث في كردستان فإن محمود باشا البابانى سنة ١٨٢٠ كانت لديه نية الإصلاح ويود مخلصاً أن تستتب الأمور في بلاده ليصلح ولينضج ببلاده ، (٣) ولكن رموس الأموال في كردستان لا يمكن أن تستغل في مشروعات اقتصادية لأن تنفيذ المشروع في حاجة إلى وقت طويل وإلى استقرار ليجنى صاحبه ثمار مشروعه وأمواله (٤) . وحاكم كردستان في حاجة إلى الأموال المنقولة ليستعين بها على دفع مطالب الشاهزاده الإيرانى حتى يبقى في منصبه أو ليستعين بها على الحياة في المنفى (٥) .

ولم يشعر داود بالاستقرار النوعى إلا بعد الحرب الإيرانية وبعد

(١) Buckingham: Travels in Assyria II, P. 180

(٢) Dupré: Op. Cit. I P. 180

(٣) رحلة ريج : ١٥٢ .

(٤) بغداد كوله من : ٣٨ .

(٥) الأصلى : مختصر تاريخ بغداد : ٢٢٤ - ٥ ، الزاوى : تاريخ : ٦ :

لإخماده لثورات القبائل العربية والمتنق (١٨٢٦) ولذلك كان قيامه بمشروعات زراعية واسعة النطاق أمرا صعب التحقيق . ومع ذلك فقد قام بمجهودات عظيمة إذا ما قورنت بمشكلات العراق ، فقد قام بتطهير القنوات والترع المهمة ، وبذلك استطاع أن يوصل الحياة إلى أماكن قاحلة بين بغداد والحلة فأثبت بها الزرع ، وقال هو من وراء ذلك زيادة لدخل الحكومة .

ومن أهم مشروعاته في هذا الصدد حفر نهر النيل الذي كان الحجاج ابن يوسف الثقفي قد شقه سنة ٨٢٢ هـ (٧٠٩ م) وهو يأخذ من الفرات قرب الحلة . حشد داود لحفره خمسة آلاف عامل حتى أتمه سنة ١٢٤٢ (١٨٢٦) وكذلك كان مهتماً باستخدام آلات الري التي تسهل على الفلاح عمله فلما عرض عليه أحد الإيرانيين آلة لرفع المياه أمر بالتسهيلات اللازمة لإتمام المشروع فلما تم بنجاح كافأ الوزير صاحب الفكرة وأطلق على هذه الآلة (جرح يوسف) نسبة إلى يوسف بن داود .

وكانت خطته في النهوض الاقتصادي بالعراق شاملة غير مقصورة على توفير مياه الري وزيادة مساحة الأرض المستغلة . فقد عمل على رفع المستوى الصناعي الذي كان قد انهار إلى الحضيض . وكان من الطبيعي أن تهدف خطته في هذا الشأن إلى استغلال خامات العراق الزراعية فأسس مصانع للمنسوجات القطنية والجسوخ^(١) . وكان الجوخ سلعة تنافس على بيعها في العراق كل من بريطانيا وفرنسا^(٢) . حقيقة كانت هذه الصناعات تخدم إلى حد كبير حاجات جيشه وتشكيلاته الجديدة . وهذا أمر تتطلبه حاجات الولاية في هذه الظروف ، وهي سد الحاجات السريعة للقوة العسكرية التي كونها الباشا المصلح دون النظر — في أول الأمر — إلى تنفيذ برنامج صناعي شعبي . ولذلك نجد داود يستقدم الفنيين

(١) بغداد كوله من : ٣٨

(٢) Olivier : Voyage dans L'Empire Ottoman, IV, P. 436 — 7

من أوروبا والأدوات اللازمة لبناء مصنع للبنادق (١) وما ذلك الاتجاه في سياسة التصنيع إلا نتيجة لأن كرمسى الوزارة كان مهتر تحت قدميه لخشية داود من نوايا السلفاط ، ولتعدد الثورات الخطيرة في البلاد ولأنه وقف وحده تقريباً في الحرب ضد إيران .

والعراق عامر بالمعادن والخامات اللازمة لكثير من الصناعات . ولكن الجهل يحول دون استغلالها . وقد أشار جسنى Chesney إلى اكتشاف مواد معدنية وخامات هامة للصناعة دون أن تستغل مثل البتومين والنفط الذى كانت تطمع فيه كل من فرنسا وبريطانيا في ذلك الوقت (٢) ومثل الكبريت (٣) إلى جانب النحاس والرصاص ، فكانت تلك المعادن محط أنظار الأوروبيين منذ ذلك الوقت .

وكان من المنتظر أن تكون تجارة العراق ضعيفة تبعاً لضعف الزراعة ولكن العراق كطريق بين الشرق والغرب وكمركز عظيم لتوزيع واستهلاك المتاجر الأوروبية والهندية ، كان سبباً في أن يستمر العراق على نوع من الازدهار الاقتصادي . ويرجع الفضل إلى سليمان أبى ليله (١٧٤٩ - ١٧٦١) وسليمان الكبير (١٧٨٠ - ١٨٠٢) في ارتقاء بغداد من مجرد مركز تجارى بسيط إلى سوق شرقية كبيرة (٤) . ولذلك تقدمت التجارة في الربع الأول من القرن التاسع عشر تقدماً كبيراً . وأصبح يصل إلى البصرة سنوياً ست سفن تحمل العلم الإنجليزى بدلا من سفينتين . هذا علما السفن العربية . وذلك بفضل التسهيلات التى منحت للإنجليز وللعثمانيين . بل إن البصرة استقبلت سنة ١٨١٥ خمس عشرة سفينة أتت من البنغال وبمباى متوسط حمولة الواحدة من ٣٠٠ - ٤٠٠ طن . وكانت هذه السفن تأتى حاملة المومولين البنغالى

(١) بغداد كوله من : ٢٨

(٢) Cheany: Expedition, I, P. 108, Olivier, IV: 436 — 7

(٣) المنشئ البغدادي : ٥٥ ، رحلة ريج : ٢١

(٤) Groves: Op. Cit. PP. 254 — 5

والتوابل والمخلّطات والأرز والسكر الأمريكى والحزير والشيلان والسلع
الصينية والدانثلة والرصاص والآلات الحادة والصفیح والعطارة والبخور
والنيلة^(١) التي كانت ترد من سان دومنجو بكثرة إلى بلاد الدولة العثمانية
ولكن منذ أواخر القرن الثامن عشر قل ورودها من هناك ولذلك استبدلت
بالنيلة المزروعة في لاهور بالهند . وكان هذا النوع من النيلة يصدر من
بغداد إلى إيران وقندهار وتركيا ، هذا إلى أن البصرة كانت تتلقى سنوياً
٣٠ ألف أقة من خيوط القطن وتصلدها البصرة إلى بغداد والموصل
ودمشق وحلب ، وكانت البصرة كذلك تستقبل سفناً من مسقط وشرق
إفريقية ، وكانت هذه السفن محملة بالعبيد والبن والعنبر ، ومن
البحرين تأتي السفن باللؤلؤ والصمغ .

وكانت القوافل من التبت وقندهار وإيران تأتي باستمرار إلى
بغداد حاملة الفواكه والتبغ الذي يصدر من بغداد إلى دمشق وحلب
والآستانة . هنا مع أن التبغ مزروع في أطراف بغداد بكيات كثيرة
أقل جودة من النوع الإيراني ويصدر جزء منه إلى الآستانة وتأتي هذه
القوافل أيضاً محملة بالشيلان .

وهناك قوافل أخرى كانت تأتي من سنه وزهاب والسليمانية وكر كوك
وديار بكر وحلب وارفه وماردين ، هذه كلها تلتقي في أسواق بغداد
حيث تتبادل السلع وكانت بعض المتاجر الآتية من حلب على جانب
كبير من الأهمية نظراً لأنها واردة من أوروبا . ومن أهمها أنواع الحلوى
والمسوجات .

وقد أسهمت منتجات العراق نفسه في نشاط التجارة فقد بلغت قيمة
المصدر من منتجات العراق في العقد الثاني من القرن التاسع عشر حوالي
٣٥٠ ألف قرش ، وكانت إمكانيات العراق الاقتصادية تسمح برفع هذه

Buckingham: Travels in Mesopotamia II P. 201,205 ; Travels in (١)
Assyria II P. 169

القيمة إلى أربعة أمثالها لو أن الحكومة العراقية اهتمت بوسائل تنمية الإنتاج،
الاقتصادى واستقرت العشائر العربية في أماكن يعملون بها. ومن ناحية أخرى
كانت قيمة شحن البضائع إلى البنغال تساوى ٤ ٪ من قيمة البضاعة، ٣ ٪
إلى بمباى ، ٢ ٪ إلى مسقط ، ١ ٪ إلى بوشير ، وكانت الخيول العربية التى تربى
حول بغداد وفى نجد من أهم الصادرات العراقية إلى الهند . ولقد شعر
الباب العالى بأهمية الخيل فى الحرب فأصدر فرمان بمنع بيعها فى الموانئ
العثمانية ، ولكن نظراً لما كانت تدره هذه التجارة من أرباح وفيرة على
متسلم البصرة وبالثالى على باشا بغداد استمرت هذه التجارة نشطة وكانت
صادرات البصرة من التمر تغل جزئاً هاماً جداً من صادرات العراق . وكان
يصدر إلى كرمشاه وهمدان ومسقط والهند . وكان يأتى إلى البصرة سنوياً ٢٥٠
قارباً متوسط حمولة كل واحد منها ٦٠ طناً خصيصاً لنقل التمر ١٥٠٠
حصان إلى الهند (١) .

وكان هناك نوع آخر من النشاط التجارى خلاف المتاجر الوافدة من
مختلف الجهات ، فقد كانت فى العراق أهم مزارات الشيعة فى التجف
وكربلاء . وكان الشيعة يأتون إلى العراق سنوياً لزيارة هذه العتبات
المقدسة . ويقدر عدد الوافدين إلى العراق سنوياً للزيارة من ١٢ - ١٥
ألفاً (٢) ، كما يأتى الزوار السنيون من الهند لزيارة الإمام الأعظم (٣)

Buckingham: Travels in Assyria. Vol. II. PP. 170—173, 180 (١)

Buckingham: Travels in Mesopotamia. PP. 201—205

Ainsworth : A Personal : Vol. II. P. 110

Olivier: Op. Cit. T. IV, PP. 440—448

Fontanier: Op. Cit. I, PP. 142—143, Dupré : Op. Cit p. 180

Fontanier: Op. Cit. LP. 323 (٢)

Gibb: Islamic Society & West . I Pt. I P. 305 (٣)

فيكون مجيء هؤلاء عاملاً من عوامل انتعاش التجارة في العراق ومن العوامل التي ترفع من كمية النقد في العراق ، بينما كانت التجارة الهندية تجرى لصالح الإنجليز على وجه الخصوص ، وكان النقد بسبب ذلك يتسرب إلى التجار الإنجليز وإلى خارج العراق .

وعلى أي حال فقد كانت التجارة الهندية أوسع التجارات نشاطاً وكانت الضرائب المفروضة عليها قد اتفق عليها بين رجال شركة الهند الشرقية وولاية بغداد بفرض ٣٪ من قيمة البضائع في البصرة ولا تدفع إلا عند البيع . وفي هذا مجال كبير للتلاعب، وبخاصة إن التجار الإنجليز استطاعوا أن يحصلوا على امتيازات خاصة بهم بفضل قناصلهم في بغداد . فقد كان لهم حق إزال بضائعهم أولاً في مخزن الوكالة أو في أي مكان آخر دون أن ترسل بضائعهم هذه إلى ديوان الجمرک وهذا الامتياز لاشك يمنح التجار الإنجليز فرصة الهرب من دفع الضريبة على البضاعة كلها فبعضها يمكن أن يهرب ، بل إن قائمة البضائع التي يقدمها الإنجليز للمسلم البصرة كانت تقبل دون تمحيص وأيضاً كان يسمح للسفن البريطانية بالمرور أمام ديوان الجمرک صاعدة للنهر دون تفتيش مع أن هذه الامتيازات كانت غير منطبقة على السفن العربية التي ترفع العلم الإنجليزي .

أما الضرائب على التجارة التي يقوم بها الأهالي والدول التي لم تكن موقعة على الاتفاقات أو معاهدات مع الباب العالي فكانت قيمتها ٧ ٪ وهذه هي القيمة الرسمية للضريبة ، ولكنها تصل فعلياً إلى ٩ ٪ لارتفاع سعر البضاعة في سنة ١٨١٦ عن ذي قبل وكانت الضريبة تقدر حسب البالة أو الصنلوق أو حسب الوزن ، وهذه تسمى سقط أو حسب الأطوال وهذه تسمى صاغ ، وكان يستقطع قرش عن كل بالة كرسوم (١) .

وكانت هناك بعض البضائع المعفاة من الضريبة مثل النقد والذهب

(١) وادی المطیة : ص ٢٠ ، سعاد الممری : بغداد : ٤١ - ٤٢ - ٤٨ .

والقصة^(١) ولا يدفع الإنجليز ضرائب عند تصدير القمح والتمر على اعتبار أنها بضائع استهلاكية^(٢). ولم تكن قيمة الضرائب ثابتة على جميع الأصناف فهي تختلف من سلعة لأخرى، ولكن الأمر الثابت هو أن الميزان التجارى دائماً كان لصالح الإنجليز^(٣).

وهكذا تولى داود والإنجليز يتمتعون بهذه الامتيازات الواسعة وهى ليست نتيجة للامتيازات الأجنبية التى حصل عليها الإنجليز من السلطان فحسب، بل كانت أيضاً نتيجة لتساهل شائن من جانب سعيد باشا وإلى العراق الذى سمح بتلك التسهيلات التى تمنح للأجانب فرصاً تجارية لا يمكن أن يحصلوا على مثلها إلا فى إحدى مستعمراتهم. ومن ثم كان لابد من أن تصاب الخزانة بشيء كثير من نقص المواد وهذا ماحدث لسعيد باشا فعلاً فقد أفلست موارده. ولم تقتصر تلك الامتيازات على الإنجليز فإنه لأمر ذو مغزى أن تكون الحكومة الأخرى ذات الامتيازات الواسعة هى حكومة مسقط حليفة الإنجليز وساعدهم الأيمن فى الخليج العربى فقد منح سعيد وإلى بغداد سلطان مسقط - السيد سعيد - حق إرسال ثلاث سفن إلى البصرة حيث تفرغ حولتها دون دفع أية ضريبة، وكان هذا الامتياز من القداحة إلى حد أن طالب الباشا بأن تعدل هذه الامتيازات وانفق الطرفان فى نهاية الأمر على أن يدفع سلطان مسقط ألف تومان^(٤) سنوياً فى مقابل الحمولة التى تحملها تلك السفن. ومع ذلك كانت هذه الألف تومان لا تعادل عشر أرباح سلطان مسقط^(٥). ومن ناحية أخرى كانت عوامل النزاع قوية بين أى باشا مصلح والإنجليز. لأن تلك التسهيلات

(١) ساد : ٣٨ .

Buckingham: Travels in Assyria II. P. 169, 181 — 182

Dupré: Op. Cit. I.P. (٢)

Ibid. Buckingham: Travels in Assyria II. P. 187 (٣)

(٤) عملة إيرانية من الفضة .

Buckingham: Travels in Assyria, II, P. 188 (٥)

لا يمكن أن يقبلها الباشا الذى يريد أن يحدد، والتجديد فى حاجة إلى أموال ومعالجة مشكلات العراق تستلزم مجهودات باهظة التكاليف، ومن ثم يتطلع الباشا إلى استغلال موارد البلاد. والخطوة الأولى فى هذا السبيل هى الحصول على حقوق الخزانة كاملة من الضرائب، وخاصة من الضرائب على التجارة الأجنبية التى ثبت أنها لا تسير وفق ما لها من امتيازات معترف بها بل حصلت على امتيازات مضاعفة. وإنه لأمر يفقد الباشا صوابه أن يفقد مثل تلك المبالغ الضخمة التى يستطيع أن يحصل عليها من التجارة الخارجية على يد قنصل يتآمر عليه ويشير الفتن الداخلية والخارجية عليه، فكان أن اشتد داود فى مهاجمته لريتش من الناحية الدبلوماسية وألقى الامتيازات التى كان يتمتع بها الإنجليز. ومن الطبيعى أيضاً أن يصطدم داود بسلطان مسقط بعد اصطدامه بالإنجليز. وحرص داود على أن يعامل سفين مسقط كأى سفن عربية أخرى وألقى ما كان لها من امتيازات، ومن ثم راح سلطان مسقط يجار بالمطالبة بالحصول على مكافآته السنوية التى كان السلطان قد منحها لـمسقط وداود باشا^(١).

وعلى أى حال فقد عمل داود على أن يستغل هذه التجارة الهندية بأساليب أخرى مثل تلك التى اتبعها خلال نزاعه مع ريتش فقد عمل على تسهيل المواصلات عبر العراق، ولذلك شق نهراً بين دجلة والفرات^(٢) وهذا كان نتيجة لإيمان داود بالأرباح الواسعة التى يأمل أن ينالها من استخدام السفن التجارية فى الفرات ودجلة.

ولقد زادت التجارة نشاطاً فى عهده وكان مقدراً لها أن تزداد نشاطاً لو لم تدمرها كوارث سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٣١. ولم تكن فكرة شق القنوات هى الأسلوب الوحيد الذى اتبعه لتنشيط هذه التجارة، بل أهم كل

(١) انظر تفاصيل النزاع بين داود وسيد سعيد فى الفصل السادس.

(٢) Groves : Op. Cit. p.54

الاهتمام بأمن الطرق وتيسير المواصلات النهرية والبرية ، ومن ذلك أنه ضرب عشيرة عفاك لأنها عبثت بالملاحة النهرية وكلف بعض القبائل بالمحافظة على الملاحة في مناطق معينة، وكان اهتمامه هاماً كفيلاً بزيادة دخل خزانته من هذه التجارة الوفيرة وزيادة الدخل الوطني أيضاً .

فقد كانت الرسوم على التجارة في بغداد تقلر بمليون قرش وفي البصرة كانت تقلر بمليون ونصف المليون^(١) . ومع ذلك لم تكن الضرائب الجمركية تمثل إلا نوعاً واحداً من الضرائب التي تفرضها الولاية . فكانت هناك أنواع أخرى من الضرائب، وهذه الضرائب تعرضت للزيادة والتقصان من عهد لآخر ، وكان نظام الالتزام يمثل مصدراً هاماً لخزانة الباشا .

كانت كل منطقة أو قرية أو مدينة تمنح للملزم يتكفل بجمع مقدار معين من الأموال منها، وهو نظام وضع في القرن السادس عشر عندما عجز الولاة عن جمع الأموال بأنفسهم . وكان للباشا حق منع هذه الالتزامات . وكان داود أحياناً يربط بعض المناطق الغنية مباشرة وتدفع الأموال المقررة عليها إلى الخزانة مباشرة مثلما كان الحال بالنسبة لمنطقته قره حسن وكان داود أحياناً ينعم بقرية على أحد المقربين إليه^(٢) .

أما الضرائب في عهد داود فكانت على النحو التالي :

أ - ضرائب شرعية :

١ - الجزية .

٢ - العشر على الحاصلات الزراعية^(٣) وفي بعض المراجع إنها

كانت الخمس في البصرة^(٤) .

٣ - زكاة الفهم^(٥) .

(١) Dupré: Op. Cit. I. P. 187-189

(٢) Rich : Narrative of Residence in Kurdistan, I, P. 35 ، رحلة زيج في

العراق : ج ١ : ٣٥ : ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٣) رحلة زيج : ص ٣٥ . (٤) الماليك في العراق : ٢١٤ .

(٥) سعاد : ٤٣ .

٤ - رسوم الجمارك^(١) .

٥ - ضريبة المرور على البضائع فقد كان للبasha موظفون معينون لجمع هذه الضريبة وتسمى الباج . والحاوة عند مضائق الجبال^(٢) وأحياناً كان المتغلبة يجبون هذه الضريبة لأنفسهم مثلما كان الحال في زهاو .

٦ - ضريبة على الحوانيت والحانات والمنازل .

٧ - ضريبة على الأراضي المزروعة^(٣) .

٨ - أموال يقدمها حكام المدن^(٤) .

ب- ضرائب (طارقة) : يفرضها البasha أو الشيخ أو المتسلم أو مختار القرية إذا أراد أن يصلح شيئاً أو كان في حاجة إلى الأموال^(٥)

وكانت الضرائب على وجه العموم تجبي على طريقة الالتزام فيلزم فرد بمبلغ معين عن مساحة معينة ومحصول معين ويلتزم المتسلم كذلك بمبلغ سنوي يدفعه للبasha . وكان من الطبيعي أن يشترط بعض المتزمين في جمع الأموال فينال الناس أذى من وراء ذلك ، ولكن الذي ثبت أن داود كان قد اشتد في جمع الضرائب في أواخر حكمه فقر اليهود من العراق إلى مسقط^(٦) . وثارت مارددين على متسلمها^(٧) الذي استحدث ضرائب

(١) الماليك في العراق : ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) المثني : ٥٨ . (٣) المثني : ٣٩ - ٤٣ .

(٤) الماليك في العراق : ٢١٤ - ٢١٥ .

(٥) Rich: Narrative of a journey, P. 52 .

(٦) تاريخ مارددين ورقة ١٥٧ .

(٧) Willsted: Travels in Arabia, P. 15 .

جديدة وضاعفت قيمة الضرائب على التجار^(١) وهبطت قيمة العملة وأبو قرشين صار بقرش، والدراهم نزلت عن السابق بمقدار العشرة ثمانية (في ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢٤٤)^(٢) .

وكان تخفيض سعر العملة من الأساليب التي كان يلجأ إليها الباشوات لزيادة دخلهم ، وقد زادت هذه الضرائب بشكل واضح وأرقت الأهالي فلجأ بعضهم إلى السلطات الإنجليزية ليتوسطوا لهم في تخفيضها^(٣) .

ولم يكن هذا التطور إلا لأن داود بدأ الإصلاح بعد انتهاء الحرب الإيرانية ، فكان في حاجة إلى الأموال لتجهيز الجيش بالحديد ولشراء المصانع وجلب المدرين وشق القنوات والترع . ومع ذلك لم يختلفت داود عن معظم حكام الشرق في ذلك الوقت ، من حيث إنهم كانوا يستغلون إمكانيات البلد دون استثماراتها الكامنة، ومع ذلك لم يكن أمام الحاكم الشرقي في ذلك الوقت - وقد رأى الفرق الشاسع بينه وبين أوروبا - إلا أن يحاول القفز وأن يسرع انخفاً فكان ذلك سبباً من أسباب سطحية الإصلاحات التي قام بها حكام الشرق . ومن الأسباب التي أرهقت البلاد في سبيل تكوين قوة عسكرية كبيرة باهظة التكاليف^(٤) .

وكان دخل الخزنة في عهد داود يفوق دخلها بكثير في عهد أسلافه فقد بلغ هذا الدخل سنة ١٨٢٨ أربعة وعشرين ألف كيس بعد خصم المصروفات وهذا مالم يبلغه باشا في بغداد من قبل^(٥) وقد أعطانا (جسني) قائمة بدخل الخزنة وهي على النحو التالي :

١ - من صادرات التمر والقطن وتأجير المساكن ١٥ مليون دولار -

(١) تاريخ ماردين : ورقة ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) تاريخ مباحث عراقية : ج ٢ : ٢٢٠ .

(٣) Groves: Op. cit. P. 50 .

(٤) Dupré: Op. cit. I, P. 160-1 .

(٥) تاريخ لعل (ج : ١) : ٢٩٣ .

٢ - من الحبوب المنتجة على وجه الخصوص من منطقة بغداد والحلة ٤ ملايين دولار .

٣ - ١٠ ٪ مفروضة على الحيوانات ٣٥ مليون دولار .
فيكون المجموع ٩ ملايين دولار وكسفى فى الوقت نفسه يقدر قيمة الضريبة التى يمكن أن تدخل خزانة الباشا بعد إنتاج النفط بحوالى ٣٥ مليون دولار (١) .

ونظراً لهذا النشاط الاقتصادى فى العراق، ولبعده عن مركز الخلافة صرح الباب العالى لباشوات بغداد بسك العملة ، وكان فى بغداد مصر فخامة وداراً لسك العملة . على أن العملة التى تسك فى بغداد لا يسمح بانتشارها خارج الولاية وقد سمح لبغداد بسك العملة فى عهد داود سنة ١٢٣٥ هـ (٢) .

وحدد قيمة ما يضرب فى بغداد بخمسين ألف قرش ولكن منع ضرب العملة بفرمان بعد سنة ١٢٣٥ هـ ، ومع ذلك شوهدت عملة مضروبة فى بغداد بتاريخ سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) (٣) .

وعلى أى حال فقد ثبت أن خزائن داود كانت عامرة وأنفق بسخاء على التهوؤ بالعراق من الناحية الثقافية والاجتماعية والعسكرية .

وصف بغداد فى عهد داود :

كانت بغداد عاصمة العراق من الناحية الفعلية، وإن كانت عاصمة ولاية من ولاياته فقط من الناحية الرسمية. ولكن بغداد داود ليست كبغداد هارون الرشيد نتيجة للكوارث التى حلت بها منذ الفتح المغولى (١٢٥٨م) حتى القرن التاسع عشر، فكم مرة اجتاحتها الطاعون أو الجيوش الإيرانية

(١) Chesny: Expedition, I, P. 110

(٢) القزوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٣٠٠ .

(٣) المرجع السابق .

وكم من ثورة مخربة مدمرة روعتها : وبرغم ذلك ظلت لها هيبتها وروعها
لماضيها التليد ولما تبقى فيها من آثار ذلك الماضي العظيم :

فدجلة يشق طريقه بين الرصافة والكرخ وتربط قنطرة مقامة على
ثلاثين قارباً تقريباً قسمى المدينة، على أن القسم الشرقى (الرصافة) ظل هو
المتفوق والأكبر وكانت تتحكم في مداخله عدة أبواب أهمها باب الإمام
الأعظم وهو يواجه الطريق المؤدى إلى الأعظمية حيث دفن الإمام الأعظم
أبو حنيفة ، وباب يسمى آق قبو (الباب الأبيض الوسطاني) وإلى الجنوب
باب الظلم الذي أمر السلطان مراد الرابع بأن يسد بعد مروره منه عقب
استيلائه على بغداد سنة ١٦٣٨م وظل الباب مسلوذاً حتى عهد داود وبعده^(١).

وبغداد كعاصمة إسلامية كبرى اشتهرت بكثرة مساجدها التي يربو
عددها على مائتين^(٢) ومن أشهرها مسجد عبد القادر الجيلاني ذي القبة
المغطاه بالصينى المختلف الألوان على الطراز الفارسى . ويعتبر حى الشيخ
وهو نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني — أهم وأكبر أحياء المدينة^(٣) فنه
اندلعت الثورات العنيفة على الباشوات .

وكانت تشق أحياء المدينة^(٤) شوارع وحوار ضيقة قلرة في
الغالب اصطفت على جانبيها منازل البغداديين المتشابهة . وهذه المنازل مبنية
من الطوب المحروق وحجم المنزل صغير وأحياناً يبنى المنزل من أنقاض
منزل آخر وقليل من المنازل من طابقين ومعظمها ليس له شكل هندسى
واضح ونوافذها قليلة ضيقة وأبوابها صغيرة . وفى وسط المنزل نخلة
أو أكثر ، أما منازل الأغنياء فلذات فئاتين أحدهما به حديقة إلى جانب جناح

(١) Huart: Op. Cit. P. 6-7

(٢) Frazer: Mesopotamia, P. 269

(٣) لم تكن هناك فواصل أو حدود مميزة بين حى وآخر .

(٤) وصف بغداد منذ القرن السادس عشر حتى عصر المماليك لم يكن يتطوّر على خلاف
ذى أهمية .

خاص للحريم ، وعند اشتداد الحرارة التي تبلغ في الصيف من ١٢٠ : ١٤٠ ف يلجأ الناس إلى سراديب في منازلهم نهاراً وينامون على أسطح المنازل حتى أكتوبر ، وفي وسط بغداد تقريباً يوجد الميدان وهو مكان متسع حوله مباني الطبقة الأرستقراطية في المدينة ، وفي الميدان يجتمع البغداديون للمرح والسهر وللشعب أيضاً ، وشوارع المدينة ضيقة غير ممهدة ملتوية حتى لكان المدينة عبارة عن قصرته ، وأهم المرافق العامة في المدينة هي الحمامات ويبلغ عددها خمسين وقد انخفض عددها إلى النصف تقريباً بعد عهد داود . وللمسافرين خانات يبيتون فيها والمقاهي تنتشر في المدينة ويجوارها الخوانيت .

ولما كانت السوق قلب بغداد — بل العراق — النابض اهتم به داود كل الاهتمام وبني تلك الأسواق المسقوفة التي مازالت حتى يومنا هذا من معالم بغداد .

وكان الأمن مستتباً بقوات الحكومة التي كانت تفذل أحكام القاضي الذي ينظر في الأمور الجنائية والدينية ، والبغداديون شعب يمكن أن نقسمهم إلى ثلاث طبقات ، الطبقة العليا وهي الطبقة الحاكمة ، وتتألف من أغوات المالك ، والطبقة المتوسطة وكانت تتألف من الموظفين ومن الصرافين والمشايخ والأثمة والأدباء وكبار التجار ، أما الطبقة الثالثة فتتألف من العامة تملأ قلوبهم الخرافات ويشغلون أوقات فراغهم بالأمور التافهة وفي مثل هذا الجو تكون الفن سريعة الاندلاع ، وكان من الطبيعي أن يكون السيف الذي يضرب هذه الفن قويا وسريعا وحازما ، على أن الطبقة الوسطى كانت دائما تدافع عن مصالح الطبقة الفقيرة وتدبر الثورة على الباشا الفاشل ، وتقف إلى جانب الباشا المفضل بكل قوة . وقد أثبت تاريخ البغداديين قوة كيانه من حيث تمسكهم بالباشا الذي يرتضونه وليس بصحيح ما ذكره انزورث Ainsworth من أن أهل العراق لم يشعروا بأهمية موقع بلادهم فقد ألزموا سعيداً بأن يسرع إلى إنقاذ الحجاج الإيرانيين سنة ١٨١٤ لما يترتب على نهيبهم من آثار سياسية واقتصادية خطيرة^(١) ويقال^(٢) إن أحد

(١) انظر الفصل الثاني ، Ainsworth : op. cit. II pref.

(٢) Fontanier : op. cit. I. : pp. 224-225

الشيوخ العرب في الزبير عمل على أن يخلص البصرة من النفوذ الأجنبي ومن الامتيازات التي حصل عليها الإنجليز .

وكانت ضخامة عدد بغداد - بالنسبة لغورها من مدن العراق - تمنحها قوة بشرية ساعدت على أن يحقق البغداديون كثيراً من أهدافهم . فقد كانت في أوائل حكم داود ٨٠ ألف نسمة ، وبلغ تعدادها - بفضل حكم وإصلاحات داود - إلى ١٥٠ ألف نسمة ولكن كوارث ١٨٣٠ - ١٨٣١ أدت إلى أن ينخفض تعدادها إلى خمسين ألفاً فقط . وكان لكل حرفة رئيس أو شيخ أو نقيب فكان الشاهيندر على رأس التجار والصراف باشي على رأس الصرافين ونقيب الأشراف هو المسيطر على طائفة الأشراف في بغداد . وكان هؤلاء الشيوخ والزعماء قدرة على إثارة المشكلات في وجه الباشا إذا تعرض لهم . ولذا أثر داود أن تكون علاقته بالشاهيندر طيبة وقوية لأن التجار عصب الحياة الاقتصادية في بغداد ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يضبط على الشاهيندر لينال منه أموالاً أكثر . ولاشك أن وجود شيخ أو زعيم على رأس كل حرفة كان يسهل لداود أمر توطيد الأمن في المدينة كما يسهل له جمع الأموال من أهل الحرف (١) . وكذلك قوى داود علاقته بأئمة المساجد وخطبائها والمدرسين لأن هؤلاء هم قادة الرأي العام في بغداد وهم أداة الدعاية القوية التي تؤثر في نفوس الناس ولذلك كانت محبتهم له عظيمة فآلفوا له الكتب في حياته . وذكروه بالخير بعد وفاته (٢) .

ومع هذا الولاء الشديد الذي كان متبادلاً بين البغداديين وداود وذلك التعاون العظيم لحد الاستماتة من أجل وزيرهم المفضل لم يفكر واحد من

(١) سداد العمري : ٦٩ ، جودت : ١١ : ٢٨ ، بغدادكوله من : ٤٤ .

Buckingham: Travels in Mesopotamia Vol. II P. 180-194, 278, 431, 494
Olivier: Voyage. Vol. IV P. 312 & Groves: Op. Cit. PP. 6, 160, 249-250
Fraser: Mesopotamia P. 278 & Porter: Op. Cit. II P. 244 & Fontanier :
Op. Cit. I, PP. 224-5
Heude: Op Cit PP. 155, 181.

(٢) انظر : ص ١٨٨ - ١٩٤ .

البغداديين في الاستقلال عن الدولة العثمانية ، ولم يفكر داود نفسه في هذا الصدد . فلقد أعلنوا أنهم يقفون وقفة رجل واحد في وجه على رضا ، أما فرمان السلطان فقبول لديهم ، والخطأ من على رضا ورجاله وليس من السلطان ، فكان السلطان ملاذهم دائماً ، وكان حامى الدمار ومنقذ الإسلام وأوامره مطاعة ولو شن تابع حرباً فلأنما يشنها ضد وال مثله وليس ضد السلطان^(١) .

لهذا كان من الطبيعي أن يهتم داود بهذه المدينة التي رأى أنها من دعائم قوته الأساسية ، ولذلك قام بعدة إصلاحات ترضى الشعب البغدادى وقام بإصلاحات تجعل الباشا مهيباً في أعين الناس .

كان بناء المساجد من مظاهر التقوى والصلاح ، وعن هذا الطريق يكسب الحاكم محبة الشعب له ، ولذلك عرف داود هذه الميزة وهو في الوقت نفسه مخلص للدين ، فأكثر من بناء المساجد ففي ١٨١٨ - ١٢٣٤م عمر الوزير جامع الحيلدر خانة وهو من أفخم مساجد العاصمة العراقية ، كانت أرضيته وازاراه من الرخام ، وكانت له ثلاثة أبواب كبيرة وبنيت فيه مدرسة زودت بقدر كبير من الكتب ونقش عليه بيت من الشعر يعين تاريخ بنائه على طريقة الجمل :

فقل لدى الصنع أقصر يا مؤرخه • كذا بدا جامعا من صنع داود

وكان بهذا الجامع مصلى شتوى مرتفع عن الأرض وعليه قبة شائعة من الحجر الكاشاني الملون بجوارها قبتان على شكلها ، ولكن أصغر منها . أما المصلى الصيى فقد بنى على أساس التقليل من قوة الحرارة ما أمكن وإلى جانب ذلك توجد عدة حجرات يستخدمها القائمون على شئون المسجد وبعض طلاب العلم .

وبنى داود مسجد السيف المطل على دجلة شرق رأس الجسر وجدد

(١) راجع الصراع بين داود وعلى رضا (الفصل السابع) .

جزءاً من مصلى الإمام الأعظم، وأعاد بناء جامع الآصفية وهو من مساجد بغداد القديمة في جانب الرصافة قرب الجسر فرغ قواعده من جديد وبني مصلاة وجعل عليه قبتيْن ومثلننن بالحجر الكاشانى الملون وبني في جهاته الثلاث طابقيْن وجعل فيه مدرستين وأقام له خطيباً وإماماً وجمعاً من المؤذنين والخدم^(١).

ولما كان داود يعتقد في صلاح وتقوى الشيخ خالد النقشبندى فإنه عمر تكية الشيخ خالد سنة ١٢٣١ - ١٨٩٧ لأن الشيخ خالد أقام بعض الوقت فيها .

كذلك لاحظ داود أن جامع الأزبك قد أشرف على الانهيار فجدد بناءه ووسع فناءه وشيد فيه مثلنة (صفر ١٢٤٢)^(٢) وجدد أيضا جامع الحسين بن المنصور الحلاج .

وإلى جانب تلك العمارات الدينية اهتم داود بالمنزهات العامة ، ومن المنزهات التى أمر بتخطيطها بستان تسمى باسم ابنه الكبير يوسف^(٣) .

ونظراً لأن داود كان يرمى إلى النهوض بالعراق وكان مهتماً بالإنشاء والتعمير ، فقد رأى أن سراى الحكومة لا تتمشى مع أبهة وزير بغداد المسيطر على العراق فعمل على تجديد السراى وأمر بتوسيعها وشيد على يسار مدخلها برجاً وشرع في تأثيثها من الداخل وزينها على أجمل صورة واستمرت عمليات الإصلاح هذه ثلاثة أشهر تقريباً^(٤) .

وكانت هذه السراى ممتلئة بالموظفين والخدم ، بعضهم مخصص بالملابس أو بالقهوة وتقديم الشربات والحلوى وبعضهم مخصص بالحريم وآخر

(١) أسد طلس : الكشاف : ٦ - ٧ وتاريخ مساجد : ٢٨ - ٣٣ .

(٢) تاريخ مساجد : ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ .

(٣) أسد طلس : الكشاف : ٧ ، عباس الزاوى : تاريخ العراق : ٦٦ :

٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٤) تاريخ مساجد : ٢٨ - ٢٩ ، للمالك في العراق : ٢٢١ - ٢٢٢ .

بالسلاح (السلحدار) والميراخور (رئيس الاصطبل) والقبوجيلر كتحذا (رئيس البوابين) والمهردار (حامل أختام الباشا) واحتشامات أغامى وقوشجى باشى (مستول عن الخدم) والسفرجى باشى واطه جى باشى (المستول عن الحجرات فى القصر) فكانت السراى بذلك مفخرة من مفاخر بغداد ، وكان يعقد بها ديوان الباشا كل جمعة أو فى المناسبات الهامة ويتألف الديوان من كبار رجال الولاية وهم الكيخيا وأغا الانكشارية وديوان أفندى سى (رئيس الديوان) والقاضى والمفتى ومتسلم البصرة وحاكم الحلة وماردين، وينظر الديوان فى الأمور الهامة ويعقد الديوان فى حضرة الوالى عندما يستقبل شخصية هامة أو مبعوثاً من قبل السلطان .

وقد كانت مراسم الاستقبال تشبه إلى حد كبير مراسم استقبال لدى الحكام المستقلين . وكان استقبال القنصل البريطانى من أهم حفلات الاستقبال التى تجرى فى المدينة ، فكان موعد حضور القنصل يحدد من قبل ، ثم يذهب القنصل وحاشيته إلى القناء الخارجى للسراى حيث ينتظره عدد من الخند الانكشارية ويترجل الزوار عند بلوغهم هذا القناء ويسرون إلى القناء الداخلى فيمرون بين صفيين من ثلثائة كرجى يمتدان على طول الطريق المؤدى إلى حجرة الاستقبال ، وكان هؤلاء يرتدون أزهى الملابس ويتقلدون بالأسلحة النارية الخفيفة والخناجر ويقفون فى صمت ووقار . وعند مدخل حجرة الاستقبال علق ذبول ثلاثة لتدل على رتبة الوالى كباشا من الدرجة الأولى . وفى داخل الحجرة يجلس الباشا على وسائد حريرية تعيد ذكرى محالىس هارون الرشيد وعن يمينه يجلس رجال ديوانه فى صمت ووقار وقبيل دخول الزوار الحجرة بثوان قليلة يعلن قدومهم فلا يكاد الزوار يدخلون حتى يبدو الباشا كأنه يهيم بالوقوف (١) .

ثم يجلس الزوار بعد التسليم عليه على كراسى نظراً لأن القنصل

Heude: Op. Cit. PP. 170—172, 184—185 & Buckingham : (١)

Travels in Assyria and Mesopotamia Vol. II. P. 196

ورفاقه لم يتعودوا الجلوس على الوسائد . وبين القبة والقبة يرحب بهم الباشا^(١) وتقدم الحلوى في إناء ذهبي يحمله خادم بيد وباليد الأخرى يمسك بملعقة من ذهب أيضاً يضع بها الحلوى في فم الزوار ، وبعد ذلك توضع مناشف على ركبتي كل زائر وتقدم القهوة وبعد الانتهاء منها تسبدل بالمناشف أخرى ثم يقدم الشربات ، في كتوس صغيرة ثمينة ، وبعد ذلك تصب على أيدي الحضور ماء الورد من إبريق من فضة ، وبعد ذلك يوزع العطر فيوضع على لحية كل زائر وعلى شاربيه ليعطر الهواء قبل استنشاقه وتمر الأيدي ببعض العطور ويمسح بها على الوجوه فيمتزج ماء الورد بالعطور فينشر في جميع ثنايا الوجه^(٢) .

أما مراسم استقبال مبعوثي السلطان وكبار الشخصيات العثمانية فتختلف عن تلك . فقد كان من المتبع أن مبعوث السلطان لا يدخل بغداد مباشرة وإنما ينزل أولاً في ضاحية الأعظمية حيث يبيت ليلته وفي الغد يدخل المدينة في احتفال مهيب تحف به ثلة من الجند حتى السراي فيستقبله الباشا بكل احترام وتكون سلطات بغداد قد أعدت له بيت الضيافة فينزل فيه، وكانت هذه المراسم مرعية منذ أيام حسن باشا حتى عهد داود، ولم يخل بها سوى صادق أفندي عندما جاء بأمر عزل داود . وكانت حفلات الاستقبال هذه فرصة لاستعراض بعض قوات الجيش وأسلحتها فعند وصول المبعوث إلى فناء السراي كانت تقف كتيبة عسكرية لتؤدي له التحية العسكرية ثم يدخل إلى حجرة الاستقبال حيث الباشا ودبوانه^(٣) . وأعضاء الديوان لا يتكلمون كثيراً ، وإنما يجيبون عن الأسئلة باختصار معقول وإنه لمن الخروج على التقاليد والرسوم أن يكثر الأعضاء من الحديث مع الزائرين^(٤) وبالقرب

(١) Heude: Op. Cit. P. 184—5

(٢) Porter: Op. Cit. II, P. 249

(٣) Huart: Op. Cit. P. 176—177

(٤) Heude: Op. Cit. P. 173—4

من جناح الوزير يوجد مقر الكتخدائية . وكانت رسوم الاستقبال لدى الكتخدا صورة مصغرة من حفلات الباشا، وهكذا كانت سراى الباشا التى تدار منها شئون البلاد، وفضلا عن هذا بنى داود لنفسه قصرأ بين حدائق أمر بغرسها وزينها أحسن زينة . (١)

لقد فاقت مجهودات داود فى التعمير مجهودات أسلافه وخلدت مجهودات داود أبيات فحول الشعراء فى أيامه . ولكن كتب السراى ألا تخلد إلا فى بيوت الشعراء فقط . فلقد تعرضت السراى للنهب والتخريب خلال القتال الذى نشب بين قاسم باشا وشعب بغداد واندلعت النيران فى السراى فأنت على جميع نفائسها . وانطوت صفحة هذه السراى التى كانت مفخرة بغداد . وتحفها الفنية . وكأن القدر أراد أن يسلط على المدينة كوارث تحم عهد الممالك وآثاره بعد أن بدأت بالانتصارات المؤزرة .

وإذا كانت السراى تحفة عمائر داود قد اندلست فإن النهضة الأدبية الكبرى التى تعهدوا خللت ذكراه فى تاريخ العراق السياسى والأدبى على حد سواء وقد ساعده تاريخ بغداد الأدبى على أن ينهض بها نهضة أدبية عظيمة .

فضل داود على النهضة الثقافية :

كانت بغداد منذ أن أنشئت مركز إشعاع ثقافى عظيم وازدهار علمى وأدبى رائع فى العصر العباسى ، ولكن هذا الازدهار أخذ ينهار بسرعة عقب الفتح المغولى لبغداد وما صاحبه من تدمير شامل لمكتبات المدينة العظيمة وسفك لدماء علمائها ، ومع ذلك لم تقض تلك الأحداث الخطيرة على مركزها نهائيا نظراً لماضيتها التليد ، ولأن القانون السائد فى العالم الإسلامى مستمد من القرآن ذروة البلاغة ، ومن « الحديث » آيات الحكم ، ولأن العربى يميل بطبعه إلى روائع أسلافه من عباقرة الشعر والنقد والتصوير ،

(١) النزوى : تاريخ العراق : ٦ : ٢٦٨ - ٢٦٩ والكتخدا هو نائب الوالى .

ويرددهما فلا تموت مآثر الأدب العربي، وتظل حية تدفع النفوس إلى تلوق هذا الأدب أو السير على منوال الأسلاف، وهكذا حفظت هذه العناصر الثلاثة الأدب العربي راسخاً على العصور برغم تعرضه لنكبات مروعة . وإذا كان الوهن قد دب في الأدب نتيجة لتلك النكبات فإنه ظل حياً بين أيدي القراء والأدباء للذين كانوا على قلهم وضعف مستواهم بعد النكبة المغولية قد أدوا خدمات للأدب وهي نقل ما وجد بين أيديهم من تراثهم، فأعطونا صورة عن الحياة الأدبية في العهود التركانية حتى حكم المماليك في العراق . وهي تبين بوضوح ضعف الأسلوب الأدبي العربي ، وارتقاء الأدب الفارسي والتركي ، وخاصة خلال الحكم العثماني في العراق . وكان الشاعر المشهور فضولي البغدادى^(١) على رأس شعراء التركية وهو يمثل ذلك الطراز من الشعراء الذين برعوا في أكثر من لغة ، فقد كان ينظم بالتركية وبالعربية والفارسية، وليس هذا إلا نتيجة لأن العراق كان بين تيارات أدبية ثلاثة قوية : تيار فارسي قوى يشع من إيران ويظهر قوياً بين شيعة النجف وكربلاء وبين الطبقات المثقفة في العراق أيضاً ، وتيار تركي يشع من بلاط الولاة الأتراك في العراق ومن الآستانة ومن استمرار استعمال اللغة التركية لغة البلاد الرسمية، هذا إلى جانب استمرار ظهور المؤرخين في المدن الكبرى العراقية مثل مرقضي نظمي صاحب كلشن خلفاً^(٢) .

ونشطت الثقافة التركية والفارسية في القرن السابع عشر . وكذلك الثقافة العربية استمرت تسير على منوالها الواهن في المدارس والجامعات وفي مجالس الشيوخ ورجال الدين والشرع وفي التكايا . ولكن التجديد يكاد يكون معدوماً . وظهرت أسرات اشتغلت بالأدب التركي والعربي^(٣) ولكن

(١) هو محمد بن سليمان البغدادى من عشيرة الليات (الزاوى : تاريخ : ج ٤ : ٩٨ - ٩٩) .

(٢) عن تاريخ بغداد منذ تأسيسها حتى ١٧١٨ م .

(٣) الزاوى : تاريخ العراق : ج ٥ : ٣٠ - ٣١٠ .

ابتداء من القرن السابع عشر بدأ العراق يشعر بشيء من الطمأنينة في عهد حسن باشا ولهذا لمسات نهضة أدبية في مهبها :

لقد أضاف حسن باشا إلى أعماله المجيدة عنايته بالأدب وبالأدباء وبأهل العلوم . فكانت مجالس العلم التي يعقدها حافلة بالعلم والأدب وبالبحث في المنقول والمعقول ، فكان له الفضل في تشجيع الأدباء على عملهم وفي حذيقه الزوراء خبر ما يوضح روح ذلك العصر في التاريخ وفي النظم وفي النثر العربي ، والنثر يعنى بالمحسنات اللفظية وبالسجع المتكلف (١) ومعاني الشعر ترديد لمعان سبقهم إليها شعراء الماضي .

ويعتبر عهد المماليك عهد الرعاية للنهضة العربية التي بدأت تظهر جلية وتفرض نفسها على مقومات الحياة في بغداد، بل في العراق كله ، وظهر العلماء والمدرسون كطبقة لها شأن واضح في تدبير أمور العراق وفي إصلاح أمر أهله وفي تقديم الأدب نفسه والنهوض به . فقد كان سليمان الكبير مهتماً بالمدراس (٢) وشجع الشعراء (٣) واحتضن سليمان الصغير الشيخ علي السويدي حتى إنه لم يكن يصلح إلا عن رأيه (٤) .

وهكذا ارتفع شأن العلماء ، واشترك منهم من اشترك في إدارة أمور البلاد ، وتلقوا يصلح رجب تيار الثقافة الدينية الجديدة الذي هب من شبه الجزيرة العربية - وأعنى بها الدعوة الوهابية . فكانت إحدى الحركات الإصلاحية التي تلقاها العراق وأثرت على حكاهم ووجهت لإصلاحاتهم

(١) الزاوي : تاريخ العراق : ج ٦ : ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق ٦ : ٨٦ .

(٣) المسك الأنفر : ج ١ : ٧٣ .

(٤) من النثر الذي جاء في حديقته الزوراء جعل لهم بعض الضياع . فيكون لهم منها الانتفاع .

على شرط أن يذهبوا مع المساكن المنصورة والجنود المحبورة . عبد الرحمن السويدي حديقته الزوراء : ص ٦ .

الداخلية ، بل والسياسية أيضاً ، وسرت هذه الدعوة بين الطبقات المثقفة حتى ظهرت في اتجاهات داود ، وفي معتقداته الدينية (فقد آمن بفكرة منع الغزو بين العشائر وهي فكرة نابعة من مشكلات العراق من هذه الناحية) ، وقد ثبت أن داود أوصى بالألا يزين قبره بقباب أو ما شابه ذلك وهذا من صميم الدعوة الوهابية^(١) .

وبينما كان تيار الدعوة الوهابية يسرى بين الطبقة المثقفة في بغداد ويلقى من بعض أفرادها مقاومة عنيفة ، كانت الطريقة النقشبندية^(٢) . تنتشر بسرعة في العراق هابطة عليه من كردستان واندفع تيارها منها إلى الشام ومصر ، وهذه الطريقة ظهرت منذ القرن الثاني الهجري ، ولكن انتشارها في كردستان ثم في العراق كان على يد الشيخ خالد النقشبندی . وكان الشيخ مقبلاً على العلوم وكان قد ارتحل إلى الهند ليحصل على أصول النقشبندية وينال إجازة الإرشاد . ولما عاد إلى العراق حوالي ١٢٢٢ هـ سنة ١٨٠٧ م استقر في السليمانية ، وأخذ ينشر طريقته ثم ذهب إلى بغداد وأقام بالتيكية القادرية زهاء خمسة أشهر ثم عاد إلى السليمانية فأخذ يرشد الناس وبعد فترة ذاع صيته ونظراً لما كان للشيخ من منزلة عظيمة في قلوب الكرد فإن محمود باشا الباباني عندما أراد أن يوحد القلوب وأن يوقف الحروب الأهلية في كردستان عند حد وأن يعيد إلى الأسرة البابانية تماسكها بلحاظ إلى أن يستحلف إخوته سنة ١٨٢٠ أمام الشيخ خالد النقشبندی بالألا يخونوا العهد . ولقد أقسموا وحنثوا في أيامهم^(٣) . بل لا شك أن ذلك التصديق الذي حدث من جديد في الأسرة البابانية ونقمة أصحاب الطريقة القادرية عليه كان لهما يد في فراره من السليمانية إلى حي داود .

وكان داود وعدد كبير من أصفياؤه — ومن بينهم مؤرخه عثمان بن

(١) مختصر مطالع السمود .

(٢) هذه إحدى الطرق الصوفية أسسها الشيخ محمد النقشبندی الذي ولد سنة ٧١٧ هـ

(٣) (١٣١٧ م) .

(٣) انظر الفصل الثالث .

سند - يعتقدون في علم وصلاح الشيخ خالد، ويتمثل ذلك التقدير القوي في ترحيب داود به عندما أتى إليه وفي الدفاع عنه عندما أرادت الدولة العثمانية أن تنال منه لخوفها من ظهور دعوة أخرى تهددها مثلاً هددتها الوهابية منذ وقت وجيز بخطر داهم في وقت كانت فيه العقول مهياة لقبول هذه الدعوات الإسلامية^(١).

وكانت هذه الحركات الدينية الصوفية التي تزعمها الشيخ خالد النقشبندی تقابلها حركات أخرى عديدة وأهمها الحركة الدينية التي تزعمها الشيخ أحمد الإحسائي المتوفى حوالي ١٢١٢ هـ (١٨٢٦ م) وأسس الطريقة التي عرفت باسم الشيخية^(٢) وانتشار هذه الطريقة الصوفية وهذه الدعاوى الدينية لم يلق من حكام العراق ولا من داود أى عناية منظملة للراستها ونقدتها، ووقف هذه التيارات الدينية المغالية في تحصيل العقيدة الإسلامية معاني وتفسيرات وأحداث لا تقوم إلا على أسس واهية لا تؤدى إلا إلى إضعاف العقيدة نفسها في قلوب أهلها.

وهكذا كانت الثقافة الدينية النابعة من الطرق الصوفية في عهد داود من عوامل تفكيك وحدة العراق. وكان المستوى الثقافي بين أفراد الشعب العراقي ضعيفاً جداً، وهذا مما سهل على هذه الطرق والدعاوى أن تنتشر في العراق برغم التطرف الصارخ لبعضها. هذا مع أنه كانت معاهد التعليم عديدة في العراق، وكانت المدارس منتشرة في مدنه الكبرى، وخاصة

(١) أطلق داود اسم التكية الخالدية على المدرسة الأحسائية لأن الشيخ خالد أنشأها مقراً له في بغداد أما الطريقة القادرية فقد أسسها الشيخ عبد القادر. ويقول محمد أمين زكي إن هذه الحوادث وقعت سنة ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) ولكن ريتش حضر هذه الحوادث بنفسه ورواها كما كانت يوماً بعد يوم بتاريخ ١٨٢٠ م في رحلته.

(٢) ليس المقصود هنا أن نبش هذه المقائل بل الإشارة فقط إليها لكي نلم بالتيارات الدينية والثقافية التي كانت تروج في العراق في عصر داود وموقف داود منها. والشيخية مذهب فرقة من فرق الغلاة أيضاً وهي التي تفرعت عنها الكشغية والركنية والبابية التي خرجت منها البهائية وأتباع صبح أزل. انظر النزاهي: تاريخ العراق: ج ٦: ٢٩٨.

في بغداد والبصرة والسلمانية وكركوك والموصل وقد عرفت المدارس منذ العصر العباسي واشتهرت المدرسة المستنصرية في بغداد التي استمرت تؤدي رسالتها حتى عهد داود وبعده . وكان اهتمام الولاة العثمانيين بالمدارس أمراً شائعاً في مصر وفي الشام والعراق إلا أن هذه المدارس كانت مراكز للدراسة الكتب والاستماع إلى المدرس دون أن تنظر في مشكلات البيئة أو تراقب الحركات الثقافية الدينية منها والأدبية بدقة ، فكانت منعزلة عن المجتمع غير مرتبطة بحاجاته متبعة في دراساتها المنهج التقليدي القديم وهو حفظ الكتب متناً وشرحاً ، فجمد خريجو هذه المدارس ولم يظهر أى إبداع وابتكار يذكر في العراق خلال حكم المماليك حتى عهد داود .

ولقد أدرك داود قيمة التعليم في تكوين طبقة مثقفة واعية بالعراق فاستطاع أن تنهض بالبلاد، ولذلك شجع التعليم في العراق ورعاه بنفسه وتفقد شؤونه ليطمئن على سير الدراسة، ولذلك ارتفع عدد المدارس في عهده إلى ثمان وعشرين مدرسة . منها مدرسة أطلق عليها اسمه ومدرسة على باشا والعدلية والأحمدية والسليمانية والقاسدية والأعظمية وبنيت النقيب ، ومدارس في الجوامع مثل مدرسة جامع داود باشا ومدرسة جامع الخلفاء وجامع الشيخ شهاب الدين وجامع حسين باشا العتيق والجديد^(١) .

وكان التلميذ قبل أن يدخل المدرسة يتلقى مبادئ القراءة والكتابة في كتاب القرية أو المدينة ولا يبرحه إلا بعد حفظ القرآن ، فإن آنس في نفسه مقننة على الاستمرار في متابعة الدرس دخل المدرسة فيبدأ أولاً بدراسة النحو والصرف^(٢) وبعد ذلك يكلف بقراءة شيء من

(١) الأعظمي مختصر تاريخ بغداد : ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٢) أول ما يتناول من النحو متن الأجرمية أو شرح الكفراوى على الأجرمية ثم شرح الشيخ خالد عليها بحاشية المطار ثم الأزهرية بحاشيتها ثم شرح القطر بحاشية السجلى ثم الثنور ثم الفاكهي ثم شرح السيوطي على ألفية ابن مالك ثم شرح الأشموني عليها بحاشية الصبان ثم منى =

الفقه^(١) وبعد هذا يكلف بقراءة أصول الفقه وكتب البلاغة والقصائد والتفسير : وإذا كان الطالب مجتهداً درس العروض والقوافي والحساب وكتباً في الهيئة القديمة وكتباً في الحكمة^(٢) وكانت بعض المدارس تدرس اللغة الفارسية فيها والتركية^(٣) وهكذا كانت مناهج المدرسة العراقية متأثرة بتعدد الثقافات في العراق واعترفت بقوة الثقافتين الفارسية والتركية ويبدو أن الأكراد كانوا من الشعوب التي أولت التعليم أهمية كبيرة ، فإن عدد المدارس في بلاد الكرد كبيرة ، وتكاد تكون في كل قرية كردية مدرسة . وقد عرف عن الأكراد حكاماً وشعباً جهم وحماتهم للمدارس والعلماء . وكانت السليمانية على رأس مدن كردستان من حيث انتشار المدارس ولا تقل عنها كركوك والموصل في هذا المضمار . وعلى أي حال لم يكن منهج الدراسة في مدارس كردستان يختلف كثيراً عنه في مدارس بغداد والبصرة^(٤) .

ولم تكن العناية بالمدارس والمدرسين مقصورة على الحكام ، بل كان الأهالي يقومون بدور فعال في نشر التعليم وجمع الكتب وإنشاء المكتبات ووقف الأرزاق على المدرسين وعلى المدارس . وكان منصب التدريس من المناصب ذات الأهمية الكبيرة في بغداد ، وكان المدرس لا يقتصر عمله على المدرسة ، بل أحياناً يكلف بالتدريس في المدرسة إلى جانب الوعظ في الجامع الذي ألحقت به المدرسة ويكلف أيضاً بالقيام بمهمة الخطيب في نفس الجامع . وكان داود مهتماً كل الاهتمام بالمدرسين ومجدي جدارتهم

= القريب لاين هشام ، ومن كتب الصرف الأمثلة والبناء والمراح والمقصود والشافية ومألفها من شروح وحواش وتقارير . انظر محمد مهجة الأثرى : أعلام العراق ٩١ .

(١) كان لكل مذهب كتبه الميعة . وكان كل طالب يختار لنفسه مذهباً وهكذا كان الملهم يحدد المنهج المقرر على الطالب أعلام العراق : ٩١ .

(٢) أعلام العراق ٩١ . (٣) المالكي في العراق : ١٩٢ - ١٩٣ .

(٤) انظر الدكتور به شيركوه . القضية الكردية : ٣٨ وانظر أيضاً محمد القزلي .

التعريف بمساجد السليمانية : ٢٣ - ٢٤ .

وأهليتهم للقيام بمهام التدريس فكان أحياناً يطلب أن تكتب له قائمة
بعدد الطلبة والدروس التي يلقيها أحد المدرسين .

وكان للطلاب حرية الانتقال من مدرسة إلى أخرى أو من مدرس
لآخر^(١) وهذا الأسلوب في التربية الحديثة ينسأى به اليوم : « دع
الطالب يعمل ما يشاء ومع من يجب » على أن هذه الفكرة السامية في التربية
كانت تفقد مميزات بسبب جمود الشيخ والكتاب .

وإلى جانب هذا التعليم في المدارس كان هناك نوعان آخران من
التعليم في الجوامع والتعليم في المنازل .

وكانت الجوامع تقوم بلور كبير في تثقيف الخاصة من الشعب
والعامة منه ، فقد كان لكل جامع واعظ يقوم بوعظ الناس عامة ، ومن
تفوق على أقرانه في هذا المضمار حضر إليه كبار الحكام ليستمعوا إلى وعظه
وترتفع مكانته ويحصل على منصب خطيب الحضرة الأعظمية .

أما التعليم في المنازل فكان مقصوراً على أبناء عليا القوم وكان الشيوخ
هم الذين يقومون بتعليم البنات وقد ظهرت في عهد المماليك سيدات على
جانب كبير من الثقافة والتعليم ومنهن من شجعت على تدوين تاريخ العراق^(٢) .

وكانت حركة التاريخ هذه نشطة تسير جنباً إلى جنب مع ارتقاء الأدب
وفروعه ، وخاصة في عهد داود الذي اعتنى بفروع الأدب التقليدية وبالتاريخ
بوجه خاص . وترغم هذه الحركة أديب وشاعر عربي نجدى هو الشيخ
عثمان بن سند وأديب تركي هو رسول حاوي صاحب دوحة الوزراء .

كان عثمان بن سند مشغولاً بالنظم التعليمي وبالمحسنات اللفظية وله
من المؤلفات مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود، وهذا المؤلف ليس
تاريخياً كله وإن كان القصد منه التاريخ والترجمة لداود بل إن معظم ما كتبه
عثمان بن سند كان شعراً من تأليفه ونقلاً لشعراء آخرين وله غير هذا

(١) حليقة الورد : ج ١ ورقة ٦ - ٥ ، ١١ ، الروض الأثر : ٤٧ - ٤٨ .

(٢) تذكرة الشعراء : ص ٢٥ .

«أصنى الموارد من سلسال الشيخ خالد النقشبندى» ، وله أيضاً سبائك العسجد والصارم القرضاب . وكان مقر عثان بن سند فى أول الأمر بالبصرة وكان صيته قد ذاع فيها، وكانت علاقته بـداود سابقة لتولى الأخير الباشوية . فمكث بعد ذلك على تأليف كتاب فى الوزير ولكن بعده عن بغداد عقد المهمة فاستدعاه الوزير إلى بغداد فأثابه فى ١٢ ذى الحجة (١٨٢٥ م) وأخذ يكتب^(١) .

والواقع أن صلات داود بأدباء عصره كانت قوية جداً قبل توليه الباشوية ، وكان يحرص على تلقى العلوم على كبار العلماء فى ذلك العصر بعد أن تولى الباشوية أيضاً . ومن هؤلاء الذين لمع اسمهم فى ميدان العلم ومن درس عليهم داود السيد حسن جمل الليل (زين العابدين) المتوفى سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠) وكان تاريخ إجازته لداود سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧) وكان هذا الشيخ من المشهورين فى البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت وكان له نشاط فى الحجاز أثار شكوك محمد على والى مصر^(٢) .

ومن أولئك الذين درس عليهم داود الشيخ على بن محمد السويدي المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣) وكانت إجازته لداود بتاريخ ١٢٣٥ هـ (١٨٢٠ م) وهى متضمنة على الحديث وغيره ، ولم يقتصر داود فى توسعه فى الدراسة على العلماء العرب ، بل كان يدرس على العلماء الأكراد أيضاً : ويضرب داود مثلاً رائعاً للحاكم الذى يقبل على تلقى العلم من العلماء وفى الوقت نفسه يفيد هو الناس من علمه ومن دراساته المستفيضة ولا يمكننا أن نحصر عدد هؤلاء الذين تلقوا العلم عنه وذلك لأنهم جماعة يطول شرحهم^(٣) .

(١) مختصر مطالع السعود : نشرة الخطيب : المقدمة : ص ٦٣ .

(٢) الوثائق التاريخية : دفتر ٧ : مئة تركى : أمر رقم ١٢٩ بتاريخ ١٠ رجب ١٢٣٥ من محمد على إلى حسين بك محافظ المدينة .

(٣) هناك إجازات أخرى لداود ولكن نضرب هنا أمثلة فقط . انظر تذكرة الشعراء

٩٥ وانظر كذلك مختصر مطالع السعود : طبعة بمبى : ٦٣ - ٦٤ .

ولا شك أن تولية داود الباشوية كانت ذات صدى ضخم في الأوساط العلمية والأدبية في العراق من كردستان إلى البصرة . فإن إلقاء نظرة سريعة على تراجم الشعراء والأدباء في عصر داود^(١) ، تبين أن عدداً ليس بالقليل من الأدباء والشعراء هاجر إلى بغداد من كركوك والبصرة والموصل وكانت حركة الهجرة هذه قبل تولي داود الباشوية، ولكنها اشتدت في عهده ولذلك زادت في عصره التصانيف والتأليف المختلفة. وأصبح العلماء يتسابقون على التقرب إليه بتأليف الكتب له . وفي ذيل كشف الظنون^(٢) أسماء هذه المؤلفات العديدة ، وفي الخزانة الوقفية ببغداد معظم هذه المؤلفات : ولا شك أن اهتمام الأكراد بالعلوم وبالمدارس كان من العوامل التي أدت إلى تخريج هذا العدد الكبير الذي عاصر حكم داود وأغدق عليهم داود مبالغ ضخمة لتشجيع الإنتاج الأدبي وفي الوقت نفسه ينتفع بهم في ديوانه . وكانت كركوك تنافس في هذا المضمار الأدبي الموصل التي خرجت ياسن بن خير الله الخطيب العمري المؤرخ والأديب الموصل . فقد كانت الحياة الأدبية متعشة في كركوك ، وكان الميل إلى الأدب التركي والفارسي واضحاً فيها ، وتكاد تكون التركية هي الشائعة هناك، وظلت كركوك منذ أيام الفتح العثماني حتى عهد داود وبعده مصدراً لا ينضب للموظفين الأتراك ، ولكن الحكم كان بيد المماليك ولذلك اقتصرت وظائف الأدباء على وظيفة كاتب ديوان في الغالب فضلاً عن أن المماليك كانوا يربون ويتدربون وفق تربية عسكرية أهلهم لأن يتولوا الحكم في العراق^(٣). وكان مما ساعد على نشر الثقافة عناية الحكام والأهالي بإنشاء المكتبات في كبريات المدن . فقد كانت في قلعة جولان (في السليمانية) مكتبة . وكون علي باشا والي بغداد (١٨٠٢) - (١٨٠٧) مكتبة لزين الدين جمل الليل

(١) تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابتها أيام وزارة المرحوم داود باشا .

(٢) انظر ذيل كشف الظنون وكذلك في الكشف .

(٣) حباس المزاي : الكاكتية في التاريخ ص ٤٥ .

وانظر تربية المماليك في الفصل الأول .

وجمع الأهالي مكتبة عناية الله أغا خازندار داود باشا في جامع تازلده خاتون ولكنها للأسف احترقت (١) :

وإلى جانب هذه النهضة الأدبية التعليمية القوية - التي اعتبر داود زعيمها ومشجعها الأول - امتاز داود عن غيره من الحكام المهتمين بالأدب وبالأدباء بأنه اكتشف اثنين كان لهما أثر واضح في السرعة التي سارت بها النهضة الأدبية بعد عصر المماليك . فقد اكتشف داود كلا من أبي الثناء الألويسي وعبد الغفار الأخرس صاحب ديوان الطراز الأنقس أروغ دواوين ذلك العصر (٢) :

ولد عبد الغفار الأخرس في الموصل سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ثم رحل إلى بغداد حيث نشأ هناك وأخذ يتردد بين البصرة وبغداد ، فكان ذلك من الأسباب التي جعلته يلتقي بداود وقد ظهرت عليه مبادئ التفوق في الشعر فاعتنى به الوزير كل العناية ، ولما كان عبد الغفار الأخرس مصاباً بمرض في لسانه عرض عليه داود أن يذهب إلى الهند ليعالج هناك على نفقته (٣) وفي نفس الوقت تقريباً ، كان داود ينظر بعين الارتياح إلى نمو وتفوق أبي الثناء الألويسي (٤) صاحب المؤلفات العديدة التي من أشهرها غرائب الاغتراب وروح المعاني (٥) التي لا يزال يعتبر من أهمها كتب التفسير . ولقد أثمرت عناية داود بالأدباء والشعراء ، فقد وقف أبو الثناء هذا وقفة صادقة إلى جانب داود خلال حصار على رضا باشا لبغداد سنة ١٨٣١ م : وبذلك نسب إليه من حادثة الحصار مانسب ، وشن عليه الأعداء غارة البهتان والكلب حتى أغلظوا قلب الوزير عليه فضاقت عليه الأرض

(١) مصطفى الواعظ : الروض الأزهري : ٤٢ .

(٢) كان صالح التميمي من الشعراء الكبار ولكن سائقصر على عبد الغفار لأنه أعظم الشعراء .

(٣) مجموعة عبد الغفار الأخرس في شعر الأستاذ عبد الفتى بحيل : ٤

(٤) المتوفى سنة ١٨٥٥

(٥) انظر روح المعاني : تأليف أبي الثناء الألويسي .

برحبها إلى أن أقبل عبد الغنى جميل مفتى الحنفية فلم ير مزيلا غلوفه
ووجهه مثل الانتباه إليه والإقامة في داره (١) .

وقد سار على رضا باشا على أسلوب داود في رعايته للنهضة الأدبية
والعلمية . ولعله وجد أن من الخطر استخدام الإرهاب والعقاب لضرب
أعوان الوزير من الأدباء فأثر أن يقربهم منه ليستخدمهم في توطيد أركان
حكمه .. ولقد استطاع فعلاً أن يحقق هدفه هذا .. ولكن كان غير قادر
على أن يسير إلى النهاية في هذا الطريق ، وفشل في نهاية الأمر في توطيد
علاقته بأدباء عصره وعلى رأسهم عبد الغنى جميل نفسه وعبد الغفار الأخرس .
وفي شعر الأخرس - في ديوانه وفي مجملته - من الأبيات ما يوحى إلى أن
القومية العربية كانت قوية في نفس أدباء ذلك العصر ... فقد كان الأخرس
يهاجم ميل العراقيين للأجنبي وتوزعهم وتفرقهم إلى فرق متعادية وأحزاب
متقاتلة ... وهكذا كانت الحركة الفكرية التي تمت في عهد داود الشعلة
الأولى التي أدت إلى الحركة العلمية الأدبية التي انطلقت في النصف الثاني
من القرن التاسع عشر في العراق .

وإلى جانب هذه التيارات الثقافية الأدبية التعليمية كانت في العراق
حركة تعليمية ثقافية مسيحية أيضاً . وكانت الأديرة والكنائس مراكز
هذه الثقافة . ومنذ أن بدأ الأوروبيون في القرن السادس عشر والسابع عشر
يسيطرون على الخليج العربي دارت رحى المنافسة الاستعمارية على
مياه الخليج وكانت أساطيل الغرب - التي أتت لتضرب جناح المسلمين
من خلف - تحمل معدات غزو للعالم الإسلامي من نوع آخر وأعنى به الغزو
الثقافي الأوروبي الذي يحمل جزءاً من الحضارة الأوروبية والتفكير الأوروبي .
فقد كان للكرملين دار في البصرة . وأصبحت هناك عدة مؤسسات دينية

(١) حديقة الورد : ورقة ١ : ١٢ .

للأوربيين في البصرة . ولكن الحركة التبشيرية - ومعها الحركة التعليمية المسيحية - لم تنشط بشكل ملحوظ إلا في أواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر ، وخاصة في عهد القنصل ريتش في العراق (١٨٠٨ - ١٨٢٠) على أن المدارس الأجنبية كانت موجودة قبل عهد داود فقد كان هناك مدرستان للأرمن في بغداد .

ولما كانت المؤسسات الفرنسية في البصرة كاثوليكية وذات نفوذ - حيث كان البنات يتعلمن اللغة العربية وشغل الإبرة - عمل الإنجليز على أن يواجهوا هذا النفوذ الفرنسي الديني بنفوذ إنجليزي أيضاً . وكان النفوذ الفرنسي الديني هو الذي تبقى للفرنسيين في العراق فاتجه الإنجليز إلى أن يقوضوا هذه الدعامة الأخيرة للنفوذ الفرنسي في العراق ولذلك جاء المبشر الإنجليزي جروفز Groves وزوجته إلى العراق وكلاهما بروتستانتى ليقوما بحركة تبشيرية تعليمية واسعة النطاق في العراق وخارجه إن أمكن . وشجعهم على ذلك نشاط التجارة الإنجليزية .

أسس جروفز مدرسة لتعليم الإنجليزية والعربية وكان يقوم هو بالتدريس فيها كما كان يقوم بمدرس بتدريس العربية . وكان جروفز على اتصال بيو شهر والموصل ليعرف مدى تقدم المدارس الإنجليزية في بوشهر ولیدرس الإمكانيات التي تسهل إنشاء مدرسة في الموصل .

وكان جروفز مضطراً إلى استيراد الكتب المطبوعة لتعليم اللغة العربية من مالطة، وقد لقيت هذه الكتب الأجنبية مقاومة في أوساط بغداد العلمية ومقاومة من الكاثوليك أيضاً . وأراد جروفز أن يتخلص من مشكلة استيراد الكتب من الخارج فعمل على إحضار آلة طباعة، وقد وصلت هذه الآلة فعلاً إلى البصرة سنة ١٨٣٠، ولكن ظروف القتال بين داود وعلى رضا لم تسمح بإحضارها إلى بغداد^(١) .

Longrigg: Op. Cit. P. III & Groves: Op. Cit. PP. 5,8,22,27,53,67 (١)

ويقال إن داود أحضر إلى بغداد مطبعة وأن كتاب دوحة الوزراء طبع في هذه المطبعة . وقد دار جدل طويل حول هذه المسألة وأغلب الظن أنه لم توجد هناك مطبعة في عهد داود وذلك لأن طبع كتاب واحد فقط بها أمر يثير الشك فعلاً^(١) .

ويمكن أن نقول إنه كانت هناك محاولتان لإحضار آلات طباعة إلى العراق ، ربما فكر داود وعمل على إحضار واحدة وحاول جروفر أن يحضر أخرى إلى العراق لتخدم أغراضه .

وأخيراً كانت حركات جروفر وأتباعه وغيره من المسيحيين - التبشيرية منها أو التعليمية - تسير دون أن تتعرض لمعارضة تذكر من جانب داود .

نمو القوة العسكرية على عهد داود :

اعتمد المماليك في الدفاع عن بغداد وعن العراق كله على قوات مملوكية ، مدربة وفق ذلك النظام الذي وضع منذ أيام حسن باشا (١٧٠٤ ، ١٧٢٣) وعلى قوات عشائرية عربية وكردية ، وقوات مجندة محلياً وعلى أسوار المدن التي يرجع تاريخ بعضها إلى العصر العباسي وكانت الإنكشارية - التي تدهور نظامها - مكلفة بالدفاع عن المدن .

وهكذا كانت القوات المملوكية المعدة لإعداداً خاصاً - لا تتحمل وحدها عبء الدفاع عن العراق ولو أراد الباشا ذلك لأصبح في حاجة إلى شراء أعداد كبيرة من المماليك وانتظار فترة ليست بالقصيرة حتى يتم تدريبهم . ولقد اضطر سليمان الكبير (١٧٨٠ - ١٨٠٢) إلى أن يشتري عدداً كبيراً من المماليك بسبب طاعون سنة ١٧٨٢ والحرب الإيرانية سنة ١٧٧٥ ومحاولة الباب العالي إبعاد المماليك عن الحكم (١٧٧٥ - ١٧٧٦) وتشتت كتائب المماليك على طول البلاد وعرضها ، وقوة الثورات

(١) يقوب مركيس : ج ٢ : ص ٣٦٨ - ٣٧٢ .

الكردية والعربية . ولم يكن غرضه من شراء وتربية الممالك أن يستخدمهم في الجيش فقط . بل ليملاهم أيضا وظائف الدولة المدنية والعسكرية . وكان داود من بين هؤلاء الممالك الجدد الذين جلبهم ونشأهم سليمان باشا الكبير .

وقد ظهرت براعة الممالك العسكرية بقيادة داود أفندى في موقعة كبرى ١٨١٢ م حيث تفوق التدريب العسكرى المنظم والانسجام في خطط الدفاع على قوات العصبية الكردية السريعة الحركة العنيفة في الهجوم لأنها عاجزة عن أن تسير في كل حركاتها في ميدان المعركة عند الكر والفر - في نظام وانسجام وفق خطة معينة .

ولذلك كانت القوة المملوكية برغم صغرها وبرغم توقف ورود الممالك من جورجيا منذ سقوطها في يد الروس هي التي ترجع كفة على أخرى مثلا حدث في المعركة بين سعيد وعبد الله سنة ١٨١٣ فقد كان انتقال الممالك إلى جانب سعيد ، وعلى رأسهم داود أفندى من العوامل الأساسية التي قضت على عبد الله وتكررت نفس الصورة خلال الصراع بين سعيد وداود فكانت الكفة الراجحة لداود لأنه كسب ولاء الممالك ومحبتهم فانضموا إليه .

على أن هذه المعارك أثبتت بصورة قاطعة أن القوات المملوكية وخدها لم تعد قادرة على أن تقوم بمهمتها خير قيام ، ولذلك كان الوزير المملوكى منذ عهد عبد الله باشا لا يتولى الباشوية إلا إذا حصل على تأييد إحدى قوتين : بابان أو المنتفق . وهذا يفسر لنا الاعتماد الرائد على العصبيات . وكانت هناك عشائر مكلفة بالخدمة العسكرية مثل عشيرة العقيل النجدية والبيات التركية والديزه في والشامك الكرديتين . وكانت عشيرة عقيل تنزل في ضاحية بغداد المسماة (قشلة قلعة سى) أو قلعة الطيور ، وهى متصلة ببغداد بحجر مقام على قوارب ، وقد حصلت على امتيازات مالية منذ سنين عديدة في مقابل الخدمة العسكرية وكذلك عشيرة البيات

التي منحت قطعة من الأرض مغطاة . وبوسع هذه العشيرة أن تجمع ألف فارس وهي تنزل قرب توزخورماتو وكذلك عمل الوزير على أن يستخدم عشيرة الديزه في الكردية كقوة من قواته الضاربة ففصلها عن تبعيها لكوى سنجق وأربل وجعلها تحت سلطته مباشرة (١) ولدينا عدة إحصاءات عن الجيش الذي كان يستخدمه المماليك وهي خير ما يوضح لنا قيمة هذا الجيش وتكوينه :

قدم لنا الرحالة الفرنسي دبريه Dupré (٢) قائمة عن الجيش في عهد سليمان باشا الصغير .. (١٨٠٧ - ١٨١٠) .

جند الباشا الموظفون	٥٠٠٠
العرب التابعون لبغداد	٢٠.٠٠٠ وهو يشك في صحة هذا الرقم
ماردين ومايتبعها	٢.٠٠٠
زهاو	١.٥٠٠
كر كوك أربل التون كوبري	٣.٠٠٠
كوى سنجق	٢.٥٠٠
السلجانية	٤.٠٠٠
عدد	٣٨.٠٠٠ مقاتل

وفي عهد سعيد باشا (١٨١٣ - ١٨١٦) قدر هود Heude عدد الجيش خلال النزاع بين داود وسعيد الذي يستطيع أن ينزله الباشا في الميدان بحوالي أربعين ألف مقاتل معظمهم انكشارية وقوات عشائرية وأن هذا الجيش غير مدرب على خوض المعارك المنتظمة (٣) .

أما بورتير Porter فإنه يقرر جيش باشوية بغداد لسنة ١٨١٨ في أوائل عهد داود بحوالي عشرة آلاف مقاتل ، وأن في استطاعة الباشا مضاعفة هذا العدد بالاستعانة بالعشائر العربية وكر كوك والسلجانية وأربل

(١) رحلة ريج : ٢٤٣ . Hunt : op. cit. II, 206-7 .

(٢) Dupré : Voyage en Perse Vol. I. P. 162 .

(٣) Heude : Op. lit., P. 281-2 .

والمرتقة . وأن الباشا ليس لديه سوى ٣ - ٤ مدافع . وهناك في سراى الباشا قوة منظمة من الممالك ولا يستخدم داود هذه القوة إلا نادراً وهذه القوة تلازمه وتتبعه دائماً^(١) .

وفي سنة ١٨٢٠ كتب المنشى البغدادي قائمة وافية لجيش داود وحدد العشائر والقوات التي كانت تحت يد داود خلال حربه ضد إيران ، وكانت قائمته على النحو التالي :

- الخيالة من أرباب المناصب المرافقين للباشا ٢٠٠٠ فارس
- غلمان الكيخيا ٥٠٠
- أغوات بغداد ٢٠٠
- ييارق اللاوند ١٠٠٠
- الانكشارية ١١٠٠ مشاة
- مشاة تكريت وانكشاريتها ٥٠٠ مشاة
- رجال المدفعية ورجال العربات (عربانية)
- مدفعية الزميرك وما يتعلق بها .
- عشائر العبيد والمالية وطى والبيات والخبور والبو فرج والقراغول والدليم والغنكية وشمس طوقه والدفاعية والسواكن والأسلم والبو هيازع والبو علقه والرواشد والعزة والبو سعد وبني صبيح والمجمع والقشعم وزبيد والبطه وخفاجه والمعدان (ومن الصعب تحديد تعداد القوات العشائرية) .

— مشاة العقيل . ١٠٠٠ راجل .

أما سليمان فاتى فيقدم لنا قائمة أخرى تتضمن^(٢) :

- ١ — أغوات الداخل (فرسان) ١٢٠٠
- ٢ — جقدار ومهتر ٣٠٠

(١) Portex: Travels in Georgia, Persia, II, P. 253, 254

(٢) بغداد كوله من : ٩٠ .

- ٣ - أتباع الكيخيا وأتباع أغوات الخارج ١٣٠٠
 ٤ - جيش اللاوند ١٥٠٠
 ٥ - المشاة القبلية ١٥٠٠
 ٦ - رماة البنادق (تفنكجيلر) ٥٠٠
 ٧ - عسكر عقيل ٥٠٠٠
 ٨ - مدفعيون ٥٠٠

وتعداد هؤلاء حوالي اثني عشر ألفاً وخمسة مائة مقاتل .

وأغوات الداخل هم أغوات الممالك، والجوقدار منصب من مناصب السراى فى خدمة الباشا . أما اللاوند فجنود شبه نظامى وهو فى العراق مكون فى الغالب من الأكراد ، والقبلية فى جيش داود كانوا جنوداً نظاميين يرتدون سراويل ملونة وصداراً وأما التفنكجيلر (رماة البنادق) فيرتدون ملابس مشابهة للباس القبلية ولكن لونها أحر للتمييز عند خوض المعارك هؤلاء لهم مدرستهم التى يتدربون فيها .

ورؤساء هذه القوات يتدرجون من أون باشية إلى يوزباشية ولكن بنادق هذه القوات كانت من أنواع قديمة إلا أنها كانت على أى حال أحسن من بنادق العقيل التى كانت بالقتل ولكن شجاعة هذه العشيرة وجلدها الشديد فى القتال عوضها عن سوء حال أسلحتها .

كل الجنود السابقة الذكر عساكر موظفة لها مرتباتها المنتظمة وهى دائماً تحت السلاح . على أن داود كان يستطيع أن يجمع قوات أخرى عديدة من سناجق يابان وكوى وزهاب والهادية . وحاكم السلطانية وحده يستطيع أن يقدم للباشا عشرة آلاف مقاتل . وكذلك تأتيه العساكر من كركوك والموصل والحلة ومندى . وعند النفي العام تأتي العشائر الكردية والعربية حتى إن الباشا يستطيع أن يجمع حوالي ٣٠ ألف مقاتل .

وخلال الحرب ضد إيران ١٨٢٠ - ١٨٢٣ وقف الباشا وحده

تقريباً ضد الجيوش الإيرانية وحلفائها البابائين^(١) فأمدته الدولة بحوالي عشرة آلاف مقاتل فاستبقى نصف هذه القوة وبقيت في خدمته إلى نهاية حكمه وهذا يدلنا على أن داود أيضاً كان يتجه إلى أن يؤلف قواته من رجال يرتبطون به هو لا بالأرض ولا بالعشيرة ، هذا إلى جانب استخدامه للعشائر العربية الموالية مثل الخزاعل وشمير الجريا .

ولقد كانت الحرب الإيرانية درساً لداود فقد واجه عدواً كبيراً وقدر قيمة النظم الحديثة في تشكيل الجيوش ولذلك استقدم دفو Devaux وكان له فضل في انتصارات الإيرانيين على جيش بغداد سنة ١٢٣٦ م (١٨٢٠م) وأسند إليه أمر تدريب الجيش وفق النظم الحديثة .

كان من الطبيعي أن يهب الإنجليز لمقاومة اتجاه الباشا نحو الاستعانة بالفرنسيين في الجيش البغدادي فإن ذلك في الواقع يؤدي إلى احتمال تأليف جيش بغدادي ينظر بعين الريبة والشك إلى الإنجليز ويصبح العراق أكثر بعداً عن المؤثرات والأهداف الإنجليزية . لهذه الأسباب سعى المقيم البريطاني تيلر Tayler - خليفة ريتش Rich - إلى إبعاد ديفو عن قيادة الجيش البغدادي . وكانت هذه هي الخطوة الأولى التي وضعها الإنجليز للسيطرة على العراق بالسيطرة على قواته العسكرية . فلم يكن غرضه فقط أن يعزل ديفو عن القيادة بل كان يرى إلى إحلال إنجليز في هذه القيادة . وكان داود في حقيقة الأمر في حاجة إلى عقلية أوربية تتولى أمر هذا الإصلاح العسكري .

وأغلب الظن أن داود لم يوافق على هذا العرض لأننا لم نسمع عن مجيء قوات إنجليزية إلى العراق كما أن ديفو ظل قائداً عاماً للقوات النظامية حتى آخر يوم من أيام داود في بغداد .

(١) ترجم له :

E. Flandin: Voyage en Perse (1840-1841) Paris, 1851, II P. 520

Fontanier: Voyage dans l'Inde, I. P. 192

وعلى أى حال فقد نشط ديفو فى تلريب الجيش الجديد . وكان يتألف من قوات الباشا المملوكية . فكانت عدة آلاف من الجند تتمرن على استخدام الأسلحة وفق النظم الحديثة .

وفى الوقت نفسه رفع عدد رجال المدفعية إلى أثنى جندى واهم سلاح المدفعية لما كان لها من أثر حاسم فى حروب القرن التاسع عشر . ولكى يؤلف داود فرقاً مشاة قوية لبلاده كان عليه أن يتبع أحد أمرين :

١ - أن يشتري المدافع والبنادق باستمرار كلما أعوزته مثلاً كان يفعل أسلافه .

٢ - أو أن يشتري مصنعا للبنادق يكفى حاجاته من هذه الناحية . وكان المصدر الذى اعتاد الممالك أن يشتروا منه السلاح هو الهند البريطانية . ولكن الإنجليز كانوا يبيعون الأسلحة ويمسكون عن بيعها وفق اتجاهاتهم وأطماعهم السياسية . ولذلك اتبع داود خطة مزدوجة ، فاشترى مصنعا للبنادق من أوروبا لامن الهند وجلب الفنين لإدارته وأخذ يلح فى طلب الأسلحة والسفن من الهند فى نفس الوقت . ، الواقع أن حاجته إلى الأسلحة والسفن من الهند كانت قوية وقد وقف الإنجليز فى إصرار ضد رغباته المتكررة فى أن يملوه بالسلاح والذخائر وغرض الإنجليز واضح هو إبقاء العراق ضعيفاً ليستطيعوا أن ينفذوا أغراضهم هناك وفى الخليج العربى .

ومع أن المقاومة الإنجليزية لهذا الإصلاح العسكرى كانت عنيفة فى الفترة بين ١٨٢٦ - ١٨٢٩ فلم تحل هذه المقاومة دون تولى ضباط إنجليز القيادة فى جيش داود . على أن هذا الاتجاه نحو الاستعانة بالضباط الإنجليز جاء فى أواخر أيام داود نظراً للتضام القوى الذى تم بين تايلور وداود حول إنشاء خطوط المواصلات النهرية البخارية بين الهند وأوروبا عبر العراق . فقد تولى أخو تايلور نفسه قيادة فرقة من الخيالة النظامية سنة ١٨٣٠ .

وأكل داود إصلاحه العسكرى بأن رصد لهذه القوات النظامية المرتبات التى تصرف بانتظام وأسس مصانع المنسوجات لتنى بحاجات الجيش^(١) .

وكانت أسوار المدن من الوسائل الدفاعية الهامة فقد كان عدد كبير من مدن العراق المهمة محاطاً بأسوار وإن كانت هذه الأسوار لاتضارع أسوار بغداد التى كتب لها تاريخ مجيد خلال الحروب بين الدولة العثمانية والإيرانية فى القرون الثلاثة الأخيرة . وكانت أسوار بغداد من بقايا الأسوار التى بنيت فى عهد العباسيين ثم أجريت فيها إصلاحات وإضافات بعد ذلك ، وهذه الأسوار كانت مبنية من الطوب الأحمر المحروق وحولها خندق بملأ من دجلة عند اللزوم وبهذه الأسوار أبراج عالية كبيرة عند الزوايا الهامة كما أن بها أبراجاً صغيرة عديدة ، وعلى تلك الأبراج أعدت أماكن لتوضع عليها بطاريات المدافع وكان عدد المدافع سنة ١٨١٦ حوالى خمسين مدفعاً ولكن علم وجود خبراء فى هذه المدافع أدى إلى أنها وضعت على صورة تدل على علم اتباع الأساليب الحديثة فى استخدام المدفعية . وفى الشمال الغربى من المدينة عند الزاوية المحصورة بين الأسوار ودجلة توجد القلعة وهى مبنية من حجارة ييضاء وتسيطر بمدافعها على المدينة وتستخدم أيضاً كدار للسلاح ومخازن للذخيرة ولكن موقعها لم يعد يتمشى مع النظريات الحربية الحديثة .

أما البصرة فكانت تحمىها أسوار من اللبن وعلّة أبراج دائرية الشكل لا تصلح مطلقاً إلا لمواجهة الأعداء التقليديين ولم يكن لدى متسلم البصرة فى أول عهد داود سوى قوة برية كانت تتألف من ١٥٠٠ خيال وخمسة ييارق من المشاة وتعداد كل ييارق هو مائة رام بالبندقية هذا إلى جانب حرس خاص بالمتسلم . ويرتدى أفراد هذه اليبارق ملابس

(١) بغداد كوله من : ٣٨ .

خاصة بهم^(١) واهتم داود كل الاهتمام بالبصرة لجعلها قادرة على مواجهة خطر هجوم المنتفق عليها بأن قوى حاميتها وبذلك استطاعت تلك الحامية أن تصمد بنجاح أمام الهجوم الذي شنته قوات المنتفق التي كانت تعاونها قطع من أسطول مسقط^(٢)، وكذلك اهتم داود بتحصين ماردین فقد عمرت طوابها في عهده^(٣). كما طلب من محمود الباباني سنة ١٨٢١ أن يبني حصناً في السليمانية وقرر أن يزوده بالمدافع^(٤).

لقد بذل داود مجهودات عظيمة في سبيل إعداد جيش كبير ليخوض به المعارك ويقضي على تلك القوضى التي انتشرت في ربوع العراق ولكن الطاعون سنة ١٨٣١ أفنى ذلك الجيش فحرمه من تلك الدعامة الكبرى التي كان يعلق عليها الآمال الجسام.

(١) Buckingham: *Travels in Assyria*, II, P. 151

(٢) انظر الفصل الثالث .

(٣) تاريخ ماردین ورقة ١٥٧

(٤) رحلة ربيع : ٩٤

حاشية

ينظر المؤرخون إلى داود باشا وإلى تاريخه وأعماله نظرات مختلفة كل الاختلاف . فأصحاب الحركة الفكرية والأدبية في العراق يصفون عليه من الثنوت والألقاب ما سما به فوق مراتب العباقرة من الحكام . وللأدب خياله الطليق المتحرر من قيود الحقائق^(١) . فهو عندهم رائد الحركة الفكرية في العراق ، وواضع اللبنة الأولى في صرح النهضة الأدبية العظيمة التي شهدتها العراق منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ومن الكتاب العراقيين من حله مسئوليات ضعف العراق وابتزازه الأموال دون وجه حق ، وأنه لا يفترق عن غيره في إرهاب الشعب والقسوة عليه^(٢) . ويقف سليمان فائق - المؤرخ التركي - بين الطرفين ، فهو يقرر فضل داود على العراق ، ثم ينحي عليه باللأئمة فيقول إنه تجاوز الحد في جلب المال وادخاره . . . وكل هذا لا يمنع أن له مآثر لا تنكر ، وذكر شيئاً عن عمائره واستطرد قائلاً : وصار له من الأولاد نحو الأربعين من الذكور فلم يعمر منهم أحد ونجرح مرارة وفاتهم في حياته والظاهر أن البارئ تعالى عاقبه بذلك من جراء عمله في قتل ابن سيده ، وهو صلفه سعيد باشا^(٣) .

(١) إليك نموذجاً من الأوصاف والثنوت التي أطلقها أصحاب الحركة الفكرية في العراق على داود باشا : « حتى رفع الأمر إلى الولاى ذى المقام المال من لان في البأس له الحديد وفاقه ملوك الأرض برأى سيد خاتمة بني الآداب ومقدمة هوى الألباب ، وفصل الخطاب حضرة الخليفة الأكبر ، والفاضل الأدهر داود باشا .

انظر عبد الفتاح الشواف : حقيقة الورود : ج ١ ورقة ١١ .
وانظر : تذكرة الشعراء : ص ٥ .

(٢) وصفه كاتب معاصر بقوله : « أن وقائمه لا تذكر لقبها وليس له عادة حسنة كى يعنى المؤرخون بذكرها . . . أسس أشياء من الظلم مالا يضطر في قلب فرعون وكان بخيلاً جداً مع زيادة أمواله ، ينصب الناس أموالهم ظلماً وعدواناً .

انظر التاريخ المجهول المؤلف : الخزايى : تاريخ العراق : ج ٧ : ص ٢٢١ .

(٣) مرآة الزوراء : ص ٥٩ عن عباس الخزايى : تاريخ العراق : ج ٦ : ص ٢٢٠ .

وهذا الحكم الذي أصطله سليمان فائق على داود فيه شيء من التحامل على الرجل وفيه أثر واضح للعاطفة وللصورة المحزنة المشوهة التي انتهت بها حياة سعيد ، ويرى أن الله عاقبه في أولاده ، ونحن نتعامل أمام حكمة الله في العقاب والثواب ٥

أما المؤرخون الإنجليز فينظرون إليه على أنه حاكم شرقي مستبد قاس ليس له أهداف سامية إذا ضرب عشيرة أو أعدم ثائراً وإنما يصلح ذلك عن هوى في نفسه وجشع، وهم يسمعون عنه كل خير في بعض الأحيان ولكنهم كونوا عنه صورة كانت بشعة . وقد شوه الإنجليز سمعة داود وحاسبوه وفق القواعد التي يحاسب بها حكام القرن العشرين . وهذا الاتجاه الواضح في كتابات الإنجليز^(١) يرجع إلى موقف داود الشديد من النفوذ الإنجليزي في العراق ومقاومته له .

وبالعكس كانت نظرة من كتب عنه من المؤرخين والكتاب الفرنسيين^(٢) تفيضه هؤلاء في مصاف — ساسة الشرق الذين تنهوا إلى أن الإنجليز يعملون على احتلال العراق وعملوا على إنقاذ العراق من براثنهم ، فامتدحوا موقفه إزاء ريتش Rich واعتماده على دفو الفرنسي Devaux في تدريب جيشه .

إن داود في تفكيره وفي أهدافه السياسية كان يرى إلى توحيد العراق وتخليصه من النفوذ الأجنبي أو الإيراني بالاعتماد على العراق وعلى قواه وإمكاناته في ترقية أموره بعيداً عن تدخل السلطان ومطالبه وهي أهداف سياسية كان العراق في أمس الحاجة إلى تحقيقها . وداود لم تغب عنه أسس الإصلاح ووسائله ولكن أعوزته الإمكانيات وكانت مشكلات العراق لا يمكن أن تحل مشكلة إثر مشكلة نظراً لتشابك تلك المشكلات تشابكاً

(١) انظر : Alexander: Bagdad Bygone days. & Longrigg: Four

Centuries. & Groves : Journal of A Residence

Fontanier: Voyage dans L'Inde. T. I.

(٢) انظر :

مروعاً ، فشكلة العشاير العربية لا يمكن أن تحل دون أن تحل مشكلات العراق كلها . فهي مشكلة متصلة بإيران والأكراد وبمسقط وبالإنجليز وبالباب العالي وبثورات المطالبين بالحكم . ومشكلة الأكراد متصلة بإيران وبالإنجليز وبالعشاير العربية وبالموصل وبالباب العالي .

وهذه أمثلة لتربط المشكلات وتكتلها تكتلا تحطمت عليه مجهودات داود وأسلافه . لقد تفوقت الأحداث على داود وكلها بدأ يحقق هدفاً تحطمت مجهوداته أمام مشكلة أخرى وهكذا . لقد نجح محمد علي باشا في تحقيق أهدافه السياسية والاقتصادية في مصر لأنه وجد شعباً متجانساً ثوراته غير جامحة، ووجد أرضاً تدر دخلاً كبيراً ودائماً ولم يواجه بثورات داخلية على تلك الصورة التي واجهت داود . ثم إن العراق كانت تجاوره دولة لإيران ! المعادية للعائنين فشكلات الدولة العثمانية مع إيران تقع نتائجها فوق رأس العراق ، وفي العراق فئات مماثلة لإيران وأكراد يجلبون الجيوش الإيرانية من وقت لآخر في كردستان . هذا كان السبب الرئيسي في فشل داود في السيطرة على البلاد ، وبالتالي فشله في تحقيق أهدافه . ومن ناحية أخرى وجد محمد علي باشا في ابنه إبراهيم قيادة عبقرية مخلصه كل الإخلاص له : بينما لم يحظ داود بشيء من هذا ، بل ثار عليه كتخذه ثورة عنيفة ، ولم يجد قائداً مخلصاً له إلا في السنوات الأخيرة من حكمه وهو سليمان الميراخور ولاتكاد الحرب تشتعل بينه وبين علي رضا باشا حتى يقضى على سليمان الميراخور ويقضى الطاعون على جيشه النظامي الكبير . إنه القدر الذي هزم داود . ومع ذلك ظلت ذكراه — لما خلفه من مآثر — ماثلة أمام الشعب البغدادي الذي أحبه وأخلص له وتفانى في الدفاع عنه لآخر لحظة .

الملحق

- الملحق الأول : ولاية بغداد من ١٧٠٤ - ١٨٣١
- الملحق الثاني : سلاطين تركيا وشاهات إيران
- الملحق الثالث : أسرة حسن باشا
- الملحق الرابع : أسرة آل شبيب
- الملحق الخامس : أسرة آل بابان
- الملحق السادس : أسرة آل عبد الجليل
- الملحق السابع :

Literal Translation of the Turkish Note delivered in by the Resident to the Pasha as the Term on which the Reconciliation was to be effected, to the content of which the Pasha Signified this unqualified Assent 1810 .

الملحق الثامن :

Translation of an Imperial Ottoman Diploma Granted to H.J. Brydges, British Consul of Baghdad. 1802.

الملحق التاسع :

Translation of a letter from his Highness the Pasha of Baghdad to the Political Agent at Bussora 1831.

الملحق العاشر :

Translation of a Boyoorooldi from his Highness Hajee Ali Reza, Pasha of Bagdad, Aleppo, Diarbekir and Mousul to the Political Agent at Bussora (Oct. 2, 1831).

الملحق (١)

ولاية بغداد من ١٧٠٤ حتى ١٨٣١

ملاحظات	مدة حكم الوالي		اسم الوالي	
	بالتقويم الميلادي	بالتقويم الهجري		
بإستثناء سنوات قليلة	١٧٢٣ - ١٧٠٤	١١٣٦ - ١١١٦	حسن باشا	١
	١٧٤٧ - ١٧٢٣	١١٦٠ - ١١٣٢	أحمد باشا	٢
	١٧٦١ - ١٧٤٩	١١٧٥ - ١١٦٢	سليمان باشا	٣
الباشا - الفارسي - قتل	١٧٦٣ - ١٧٦٢	١١١٧ - ١١٧٦	علي باشا	٤
قتل	١٧٧٥ - ١٧٦٤	١١١٧ - ١١٧٥	عمر باشا	٥
من آل الجليل في الموصل	١٧٧٥	١١٨٩	أمين باشا الجليلي	٦
من ولاية الخارج . قتل	١٧٧٥	١١٨٩	مصطفى باشا	٧
من ولاية الخارج	١٧٧٦	١١٩٠	مبدي باشا	٨
	١٧٧٨ - ١٧٧٦	١١٩٢ - ١١٩٠	عبد الله باشا	٩
طرد	١٧٨٠ - ١٧٧٨	١١٩٤ - ١١٩٢	حسن باشا	١٠
	١٨٠٢ - ١٧٨٠	١٢١٧ - ١١٩٤	سليمان باشا الكبير	١١
	١٨٠٧ - ١٨٠٢	١٢٢٢ - ١٢١٧	علي باشا	١٢
قتل	١٨١٠ - ١٨٠٨	١٢٢٥ - ١٢٢٢	سليمان باشا القتيبي	١٣
	١٨١٣ - ١٨١٠	١٢٢٨ - ١٢٢٥	عبد الله باشا	١٤
قتل	١٨١٦ - ١٨١٣	١٢٣١ - ١٢٢٨	سميد باشا	١٥
	١٨٣١ - ١٨١٧	١٢٤٧ - ١٢٣١	داود باشا	١٦

الملحق (٢) سلاطين تركية وشاهات ايران المتعاصرون

ملاحظات	ايران		تركية	
	اسم الشاة	التاريخ	اسم السلطان	التاريخ
صفويون	إسماعيل الأول	١٥٠٠	سليم الأول	١٥١٢
			سليمان الأول	١٥٢٠
	طهماسب الأول	١٥٢٤	سليم الثاني	١٥٦٦
			مراد الثالث	١٥٧٤
	إسماعيل الثاني	١٥٧٢		
	محمد خدابنده	١٥٧٨	عمرود الثالث	١٥٩٥
	عباس الكبير	١٥٨٧	أحمد الأول	١٦٠٣
			مصطفى الأول	١٦١٧
			عثمان الثاني	١٦١٨
			مصطفى الأول	١٦٢٢
			(للمرة الثانية)	
	صفي	١٦٢٩	مراد الرابع	١٦٢٣
	عباس الثاني	١٦٤٢	إبراهيم	١٦٤٠
	سليمان	١٦٦٧	محمد الرابع	١٦٤٨
أفندي كلاهما كان يطالب بالعرش			سليمان الثاني	١٦٨٧
			أحمد الثاني	١٦٩١
	حسين	١٦٩٤	مصطفى الثاني	١٦٩٥
			أحمد الثالث	١٧٠٣
	عمرود خان	١٧٢٢		
	أشرف خان	١٧٢٣		
	طهماسب الثاني	١٧٢٠	عمرود الأول	١٧٢٠
	(صفوي)			
	نادر	١٧٣٦		
	عادل	١٧٤٧		
الوصي الزندي	شاه رخ وثيره (فوضي)	١٧٤٩	عثمان الثالث	١٧٥٤
	كريم خان	١٧٥٧	مصطفى الثالث	١٧٥٧
	فوضي	١٧٧٩	عبد الحميد الأول	١٧٧٣
	أغا محمد	١٧٩٦	سليم الثالث	١٧٨٩
	فتح علي	١٧٩٧	مصطفى الرابع	١٨٠٧
			عمرود الثاني	١٨٠٨
قاجاريون	محمد	١٨٣٤	عبد المجيد	١٨٣٩
	ناصر الدين	١٨٤٨	عبد الميز	١٨٦١
			مراد الخامس	١٨٧٦
	مظفر الدين	١٨٩٦	عبد الحميد الثاني	١٨٧٦
	محمد علي	١٩٠٧	محمد الخامس	١٩٠٨

LITERAL TRANSLATION

OF

The Turkish Note delivered in by the Resident to the Pasha as the Term on which the Reconciliation was to be effected, to the content of which the Pasha signified his unqualified Assent . ١٨٦٠

- I The Pasha must renounce all species of authority or command in any shape over the Resident, as such in neither warranted either by usage of the treaties.
- II The Pasha shall never, on any pretext whatever, interfere in any manner with the affairs and arrangement of the Resident respecting his establishment, his customs and rights, his beating drums, etc, etc, and there shall be, on no account, objections made to any of the Resident's order, as such matters in no way concern the Pasha, nor come under his cognizance; particularly there shall be no objection made to the celebration of His Britannic Majesty's Birthday in the most public manner, with all the necessary ceremonies. In a word, there shall be no species of objection on interference in any of the Resident's states and ceremonies.
- III The Pasha shall never prohibit the customary interchange of visits between the great officers of the Turkish Government and the Resident.
- IV The Resident has never, nor will ever, show the least disposition to any undue interference in the Pasha's affairs of government, and will show every readiness to comply with

the Pasha's wishes, provided they do not interfere or are not contrary to any of the artish of icle treaty, or the interests of the British Government; and so it is agreed for the benefit of both parties.

- V Whenever the Pasha shall have any business with the Resident, he shall make it known to him by one of his own confidential men of rank, also should the Resident ever have any important business, and demand confidential persons on the part of the Pasha to converse with, there shall be no objections made to it, and the person required shall be immediately sent; the benefits arising from this Article are clearly reciprocal.
- VI There shall be no equivocation in any of these Articles. Should any doubts hereafter arise relative to any particulars contained in the Articles (especially Article II), the explanation of it shall be in favour of the Resident.

**Translation of an Imperial Ottoman Diploma
Granted to Harford Jones, Esq. British
Consul of Bagdad and the Environs. 1802**

At the request of Lord Elgin, English Ambassador to the Sublime Porte in a memorandum given to us by him, to wit, that in consequence of the capitulations, the English Minister having named Consul at the ports of Aleppo, Alexandria, Tripoli of Syria, Algiers, Tripoli of Barbari, Tunis, Scio, Smyrna, Egypt, and other ports requiring custom houses, and wishing shortly established as Consul in the city of Bagdad and its environs, Harford Jones, Esq., a British subject, and residing in the said city of Bagdad in order to protect the affairs of British merchants established there, or of travellers, we have given him our Imperial Berat in conformity with the requisitions of the said capitulations, conforming and ordaining the said Harford Jones, Esq., as Consul in the said city of Bagdad, that in conformity with the said capitulations the affairs of merchants and travellers under the protection of the British flag in this country, in cases of difficulty arising should take place only under his cognizance, and that no public servants under his orders should be molested under the pretext of tribute, or certain regulations entitled Kharatz, neither of others named Avaris, nor of such as is levied by ships called Cassab Akessi, or other arbitrary impositions called Tekialifi Orfy; that no one shall exact the Kharatz nor other dues for male and female slaves in his service, and that no person shall interfere nor obstruct the domestic affairs of the said consul but on the contrary, they shall be free from all impositions recording to the prevailing customs, neither shall they be subject to the customs or excise duties; that the Consul being established by the British Ministers is not subject to imprisonment; that his house cannot be closed or searched, or have any body of troops lodged therein; that

assistants and slaves belonging to him shall be free and exempt from Kharatz and Avaris, Cassab, Akcessi, Tekialifi Orfye; that any complaint made by any person against him shall be referred to us and cannot be disposed of by anyother means, that either by land or by sea, at any stations or ports he may arrive at, no one shall molest him or his servants, or cattle, or baggage, guides or anything connected with him, that any captain of country vessels on being paid shall be compelled to carry his provisions according to the prevailing regulations and that no one shall seek pretext for disputes against him, and that in dangerous ports of the country he be allowed to wear a white turban, sabre, bow or other warlike instruments.

That all judges and commandants or others shall not molest him, but shall assist and protect him and shall prevent any one from prevent any one from throwing obstacles in his way, and always behave towards him in conformity with the capitulations, and that no one shall presume to oppose, but, on the contrary, shall give every credence to this decree, given under our most respectable and noble seal.

Given under our hand this 7th day of the moon of Rejib, 1217, that is to say, 2nd November 1802, at our city of Constantinople.

**Translation of a letter from His Highness
the Pasha of Bagdad to the Political
Agent at Bussora.**

After compliments, - the Dragoman of the English Nation has arrived here, bearing a sealed despatch from the government and a letter from yourself containing the following demands:--

Article (1)

A compliance with all stipulations contained in the Imperial Treaties regal firmans, ancient or recent.

Article (2)

The Restitution of what ever was taken from Mr. Sturmeay above the proper rate of customs, and of such property of Mr. Scoododa as was damaged or lost.

Article (3)

Whatever may be deemed to constitute the complete safety in every respect of the life, property, and honour of all agents or vakeels of the government, of their protected dependants and subjects, together with an attentive regard for their views, wishes, a due estimation and honouring of them, and an admission of their rights to grant asylum, and all other claims according to their ancient rights and customs, and that they may entertain as many servants as they see necessity for.

Article (4)

Should thereafter an agent, not an Englishman, be established at Bagdad he shall unquestionably meet with every proper honour and consideration as it is due to his station.

Article (5)

Bills of exchange shall not be taken from their shroffs by force, nor money from their dependants or proteges by compulsion, nor

shall temporary or arbitrary taxes of any kind over be levied on their landed or other property contrary to their due right and custom.

Article (6)

No tax, except one previously well defined and arranged, shall be levied on boats the property of British subjects and proteges; such, for instance, as pass between Bussora and Bagdad, nor shall their boats be seized for the public service, nor shall the property of merchants being British subjects or proteges arriving at Bagdad, otherwise than as is usual on the arrival of the same at Bussora, enter the custom house contrary to stipulation and covenant.

Article (7)

Should British subjects and proteges lose any property in the town or in public roads, and by theft or plunder, every exertion shall promptly be made to recover the same.

Article (8)

Should any dependant of the government suffer from any of our subject's offence or injury, the injured individual shall receive immediate satisfaction and reparation.

Article (9)

In commercial dealings goods having been bought shall not be returned except on legal and just plea, and commercial disputes shall be adjusted by an assembly of merchants according to mercantile usage.

Article (10)

Should British or Indian Seamen desert, they shall not be forced to become converts to Islam, and in case of their willing conversion they shall be subsequently delivered up to their duty in order to prevent any detriment to the interest of the ship.

Article (11)

A spot shall be assigned on lease to the Resident for a house and garden wherever he may point out.

Article (12)

The Proven claim of British Proteges to be enforced on whom-over of our subjects it may be, without the smallest loss or injury to the claimants.

We have considered and fully comprehended these demands, in like manner also as we are convinced of the very great and faithful regard of His Imperial Highness for the English Nation, with regard, therefore, to such part of them as are contained in those imperial treaties and Royal Decrees which are in their hands, it has even been fulfilled to them hitherto, and we shall continue likewise to observe it in time to come, and this, too, in due consideration of the fulness of that valued friendship and the abundance of ancient and lasting unanimity which has existed between the two states engaged post.

With respect, however, to the overplus of customs taken from Mr. Sturmei and the goods lost to Mr. Scooboda, we have made investigation and discovered that the circumstances occurred by chance and not from premeditation; we have consequently returned them to the dragoman above-mentioned, as we cannot consent to any conduct towards the British government contrary to treaty and covenant-our friendship for them being of ancient date- and also in compliance with the engagements of our predecessors up to the present date.

In conformity, therefore, with the firm and lasting alliance formed between the Imperial and British Government with a view to confirm and secure the foundation of the faithful alliance and to strengthen the bonds of the immutable and important union set forth in the Imperial treaties and Royal edicts which are in their possession, and in conformity with ancient rule and former precedent, we have agreed to the observance of all the stipulations above-mentioned, and have sealed this instrument as a proof of our consent and delivered the same into the hands of the Dragoman aforesaid.

Be you therefore informed of this and consider it as fully efficient.

Daoud Pasha

Translation of a Boyooroolai from His Highness Hajee Ali Reza, Pasha of Bagdad Aleppo, Diarbekir, and Mousul, to the Political Agent at Bussora, dated the 27th Rubee oos-sanee, A.H., 1247, or 2nd October A.D 1831.

Official Sign

To the spiritual leader of Islam, the Lieutenant (of the Qadhee of Constantinople) at Bussora, to his Excellency the Muftee Effendi of Bussora, whose piety and Government the Motusullim Aga, be his rank and station increased, and to the elders and men of weight of the council and country, whose dignity be magnified. In reference to all affairs supervising at Bussora, and relating to the excellent Resident of England, the High and exalted Mr. Taylor, Balios Bag residing with our eternal government, and in observance of his rights and those of his agents, interpreters and all his subjects of his government, and the merchants and ships arriving from Hindoostan, according to stipulations and treaties which have been arranged and ratified with our exalted State: as they have been held in times preceding, to which we adhere, and for which we even exceed the former regard out of a wish to protect their rights; so you also the Nayeb Effendi; and Muftee Effendi; and Matusullim Aga, an Ayan (Inferior Minister) will in likewise deport yourselves towards, and protect the rights and regard the just claims of the dignified Mr. Taylor; Beg, his agents, interpreters, proteges, and dependants, and the subjects of the government arriving from Hindoostan, and their ships and merchants, and all other soever, conformably to what we have promulgated in this our Bayoorooldi, which you will on no account infringe and thus be it known unto you.

Aitchison : A collection of Treaties. Vol. XI

المراجع

- ١ - وثائق غير منشورة .
- ٢ - وثائق منشورة .
- ج - مراجع تركية .
- د - مراجع عربية .
- هـ - مراجع أدوية .

١ - وثائق غير منشورة

دار الوثائق التاريخية القومية (عابدين - القاهرة) .

دفتر ١٠ ، ١٣ ، ١٤ .

محفظة ٩ ، ١٦ برآ ، بحرآ ، تركى .

تتضمن هذه الدفاتر والمحافظ وثائق تكشف عن موقف داود باشا من تقدم القوات المصرية صوب الخليج العربى ، وعلاقة الحملة المصرية فى شبه الجزيرة العربية بكل من عمان والإنجليز .

كما تكشف هذه الوثائق عن موقف محمد على - والى مصر - من الحرب العثمانية الفارسية (١٨٢٠ - ١٨٢٣) ومن عصيان داود باشا ١٨٣٠-١٨٣١ م .

ب - وثائق منشورة

Aichison, C.: A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries. 12 Vols. Calcutta 1892.

جمع المؤلف عدداً ضخماً من المعاهدات والمكاتبات الهامة التي كانت معقودة أو متبادلة بين بريطانيا وشركة الهند البريطانية من جهة ، ودول الشرق الأوسط من جهة أخرى ، هذا فضلاً عن معاهدات أخرى عقدت بين دول أوربية أو أمريكية مع الدولة العثمانية وغيرها . وترجع أهمية هذا الكتاب أيضاً إلى الاستعراض التاريخي الذي كتبه أنشيسون قبل أن يورد نصوص المعاهدات حتى يكشف للقارئ عن الظروف التي أدت إلى عقد هذه المعاهدة أو تلك . على أنه يجب أن يكون في اعتبارنا دائماً أنه يمثل وجهة النظر البريطانية في تلك الظروف وهاتيك المعاهدات .

Hurewitz, J : Diplomacy in the Near and Middle East. 2 Vols. New York. 1958.

لعله أحدث كتاب عن نصوص المعاهدات التي عقدت بين بلاد الشرق الأوسط والدول الأخرى . وهذه المعاهدات عن الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والعشرين . وهي تمثل أبرز المعاهدات وليست كلها فقد انتقى المعاهدات ذات المدى الطويل والأثر العميق في تاريخ المنطقة .

Selections from the Records of the Bombay Government Vol. XXIV. Bombay 1856.

اقتباسات من وثائق حكومة بمباى مرتبة غالباً حسب التسلسل التاريخي وهذا الجزء الرابع والعشرون مهم جداً في دراسة تاريخ الخليج العربي والعراق في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ح - مراجع تركية

— أحمد لطفي :

تاريخ لطفي — ثمانية أجزاء — دار الطباعة العامة ١٢٥٧ هـ . وهو على نظام الحوليات ويبدأ بسنة ١٢٤١ هـ . وهو بذلك يعتبر استمراراً لتاريخ جودت والمادة التاريخية عن العراق فيه قليلة بينما هي غزيرة في تاريخ جودت .

— جودت باشا :

ترتيب جديد — ١٢ جزءاً — مطبعة عثمانية ده طبع المنشور ١٣٠٢ هـ : وهو تاريخ عام للدولة العثمانية من ١١٨٨ — ١٢٤٢ هـ . وهو المؤرخ الرسمي للدولة العثمانية لتلك الفترة . ويمتاز بأنه اطلع على وثائق ليست في متناول أيدينا .

— خورشيد باشا :

سياحته حلود . بدون تاريخ .

المؤلف من مماليك يحيى باشا الجليلي والى الموصل . وعين كاتباً في إدارة الشئون الخارجية العثمانية . ثم أرسل بصحبة درويش باشا لتحديد الحدود الفاصلة بين العراق وإيران في أعقاب توقيع معاهدة أرضروم الأولى ١٨٤٧ م . وكان خورشيد يتقن اللغة العربية الدارجة فضلاً عن التركية ؛ ولذلك جاءت معلوماته عن المدن والقرى والعشائر دقيقة . وهذا الكتاب يمثل وجهة النظر الرسمية في الخلافات التي نشبت بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية . تلك المشكلات التي امتدت زمناً طويلاً ولا يزال بعضها قائماً حتى وقتنا هذا .

— سليمان فائق بن الحاج طالب كهيه :

بغداد كوله من حكومتك تشكيلي له انقراضه دائر رسالة در. الآستانة ١٢٩٢ هـ .
المؤلف ابن كيخيه (كتحدا) داود باشا . وألف هذا الكتاب تحت اسم مستعار هو (ثابت) . والكتاب يلقى نظرة سريعة على تاريخ الدولة العباسية حتى ظهور حكومة المماليك في بغداد . والجزء الهام من هذا الكتاب هو الذي يغطي تاريخ داود باشا .

د - المراجع العربية

- أحمد الصوفي :
- الممالك في العراق . الموصل ١٩٥٢ ة
- أحمد عزت عبد الكريم :
- تاريخ أوروبا الاقصادى . طبعة أولى ١٩٥٣ ة
- دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة . القاهرة ١٩٥٨ ة
- أحمد فخرى :
- النين : ماضيها وحاضرها . معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧ ة
- أحمد فضل بن علي محسن العبدلى :
- هدية الزمن في أخبار ملوك الحنج وعدن : القاهرة ١٣٥١ هـ
- إسماعيل بن محمد أمين سليم الباباني :
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ة
بغداد ١٩٤٥ م - ١٣٦٤ هـ
- أليستاس مارى الكرملى :
- خلاصة تاريخ العراق - البصرة ١٣٣٧ هـ
- ألور زقلمه :
- الممالك في مصر - القاهرة ة
- بله شيركوه :
- القضية الكردية - القاهرة ١٩٣٠ .
- جبرائيل بوحنا أصغر :
- مختصر المستفاد في تاريخ بغداد (مخطوط) ة

- جميل سعيد :
نظرات في التيارات الأدبية الحديثة في العراق — معهد الدراسات العربية
العالية — ١٩٤٩ .
- جميل صليبا :
الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام — معهد الدراسات العربية العالية —
١٩٥٨ .
- حسن عوفى :
العراق وما توالى عليه من حضارات — الطبعة الثانية .
- حسين مؤنس :
الشرق الإسلامى في العصر الحديث — الطبعة الثانية ١٩٣٨ .
- دولت صادق :
الحفرافية السياسية — الطبعة الأولى ١٩٥٧ .
- رسول حاوى الكركوكلى :
دوحة الوزراء . ترجمة موسى كاظم نورس . مكتبة النهضة . بغداد
- روفائيل بابوإسحاق :
تاريخ نصارى العراق — مطبعة المنصور — بغداد ١٩٤٨ .
- ريج ، ك. ج. :
رحلة ريج في العراق (١٨٢٠) . ترجمة بهاء الدين — طبع بغداد ١٩٥١
المؤلف شغل منصب المقيم السياسى لبريطانيا في بغداد من ١٨٠٨ إلى
١٨٢٢ . وقد قام ريتش (ريج) برحلته هذه بدعوى السياحة والاستشفاء
ولكن هذه الرحلة تكشف لنا عن بعض أهدافه السياسية كما تكشف
عن الأوضاع في كردستان حينذاك .
- زكى صالح :
موجز تاريخ العراق — الطبعة الأولى ١٩٤٩ .

- ساطع الحصري :
 - البلاد العربية والنوالة العثمانية — معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧ .
 - سعاد العمرى :
 - بغداد كما وصفها السياح — بغداد ١٩٥٤ .
 - سليمان صايغ :
 - تاريخ الموصل — ج ١ — المطبعة السلفية — القاهرة ١٩٢٣ .
 - صديق الملوحي :
 - إمارة بهديتان — الموصل ١٩٥٢ . وهي إحدى الإمارات الكردية .
 - صلاح العقاد :
 - الاستعمار البريطاني في الخليج الفارسي — القاهرة ١٩٥٧ .
 - صلاح المنجد :
 - ولاية دمشق في العهد العثماني — دمشق ١٩٤٩ .
 - طه الهاشمي :
 - أطلس العراق — الطبعة الأولى — المكتبة العصرية — بغداد ١٩٣٢ .
 - مفصل جغرافية العراق — الطبعة الأولى — بغداد ١٩٢٠ .
 - عباس الزاوي :
 - عشائر العراق — ٤ أجزاء — بغداد ٣٩ — ١٩٥٦ .
 - تاريخ العراق بين احتلالين — ثمانية أجزاء صدر آخرها ١٩٥٩ .
 - الككاكية في التاريخ — بغداد .
- عنى عباس الزاوي بجمع المخطوطات والمؤلفات الهامة عن تاريخ العراق وأخرج لنا مؤلفاته عن عشائر العراق ، وحدد أنسابها وبطونها وأفخاذها . وكتب مقدمة تاريخية للعشائر الكبرى ، ولكنه لم يعن بتاريخ هذه العشائر قدر عنايته بتحديد أنسابها . وفي مؤلفاته عن تاريخ العراق أشار إلى تاريخ العشائر

العربية والكردية وتاريخ الإمارات والحكومات التي ظهرت في بغداد . ولكنه اتبع طريقة الحوليات . وعنى بتدوين المادة التاريخية دون تحليلها التحليل العلمي الدقيق . ومع هذا مؤلفاته مادة خام ذات أهمية كبرى للمشتغلين بتاريخ العراق الحديث . ولعل اعتماده الكلي على المخطوطات والمؤلفات الشرقية هو السبب في عدم عنايته بدراسة العلاقات بين العراق والدول الأوربية برغم أهمية هذه العلاقات في تفهم تاريخ العراق خاصة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ناهيك عن القرن العشرين . وأما كتابه عن الكاكاية فهو واحد من مؤلفاته عن العصبية المحلية الدينية . فله كتاب عن البريزية . وهو بذلك يعتبر من رواد المؤلفين في هذه المجالات الصعبة .

— عبد الباقي العمري :

الترياق القاروني — وهو ديوان شعر — القاهرة ،

— عبد الحواد الكليدار :

تاريخ كربلاء — بغداد ١٣٦٨ هـ .

— عبد الرحمن الرافعي :

عصر محمد علي — الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٤٧ م .

— عبد الرحمن عبد الله السويدي :

حديقة الوزراء في سيرة حسن باشا وأحمد باشا (مخطوط)

— عبد الرزاق الحسني :

— تاريخ العراق السياسي — ج ١ — ١٩٤٨ م ؛

— موجز تاريخ البلدان العراقية — ١٩٣٢ م ؛

— عبد الرزاق الظاهر :

صور من العراق — مطبعة السعادة — القاهرة ١٩٤٧ ،

— عبد السلام الماردني :

تاريخ ماردني (مخطوط) يرتحدث عن تاريخ ماردني بالتفصيل حتى

داود بيده

— عبد الغفار الأخرس :

الطراز الأنفس — بغداد ١٣٢٧ هـ .

وهو ديوان شعره جمعه عزت الفاروق . ولكنه لا يضم كل شعره .
ونشر عباس الزاوي بقية أشعاره تحت عنوان « مجموعة عبد الغفار الأخرس
في شعر عبد الغنى جميل » .

— عبد الفتاح الشواف :

حديقة الورود .

أراد المؤلف أن يكتب ترجمة وافية لأبي الثناء محمود الآلوسى . ولكنه
مات قبل أن يكمل هذه الترجمة فأكملها أبو الثناء وابنه . وعلى قلة المادة التاريخية
بها إلا أنها ذات أهمية كبرى في دراسة العلاقات الأدبية في الثلث الأول من
القرن التاسع عشر .

— عبد الفتاح إبراهيم :

على طريق الهند — بغداد ١٩٣٥ .

— عبد القادر الشهربانى :

شعراء بغداد وكتابتها أيام داود باشا أو تذكرة الشعراء نشرها أنستاس
الكرملى — بغداد ١٩٣٦ م .

يتضمن الكتاب نبذة عن معظم الشعراء والكتاب الذين ظهروا
في عهد داود باشا ، ولكن أسلوبه في بعض المواضع مختصر أحياناً بشكل
مخل . وهو لا يعطى صورة صادقة عن حقيقة الحياة الأدبية في العراق .
إلا أنه مهم من حيث أنه أشار إلى عدد من الشعراء والأدباء لم يسبق
أن ذكرهم مؤلف قبله ، هذا فضلاً عن عنايته بالترجمة للشعراء والأدباء
الأتراك .

— عبد الله الناصر السعلون :

تاريخ السعلون — الناصرية — ١٩٤١ .

— عبد الله السويلى :

النفحة المكية في الرحلة الملكية :

. عثمان بن بشر :

عنوان المجد في تاريخ نجد - الطبعة الأولى ١٢٤٩ هـ .

- عثمان بن سند :

- مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود ، اختصره أمين الحلواني

بعنوان « مختصر مطالع السعود » - طبع بمبى - ١٢٠٤ هـ .

ولم يتيسر لي الاطلاع على « مطالع السعود » فاكثفت مضطراً بالمختصر .

وعثمان ابن سند من أدباء البصرة ويمكن أن نعتبره المؤرخ الرسمي لداود باشا

وعندما قام الحلواني باختصار « مطالع السعود » حذف القصائد الشعرية

والقطع الأدبية واستبقى المادة التاريخية ثم أضاف تاريخ السنوات الخمس

الآخيرة التي لم يشملها « مطالع السعود » حيث أن عثمان بن سند توفي

حوالى ١٢٤٢ هـ - ١٨٢٦ م .

- عثمان بن سند :

سبائك المسجد . بمبى ١٣١٥ هـ .

ترجم فيه لأدباء البصرة ولبعض متسلميها وتعرض قليلا للأحداث التاريخية.

- على سيلو الكوراني :

من عمان إلى العمادية أو جولة في كردستان الجنوبية - القاهرة ١٩٣٩ .

- على ظريف الأعظمي :

- مختصر تاريخ بغداد - بغداد ١٩٢٩ .

- مختصر تاريخ البصرة - بغداد ١٩٢٧ .

- عمان :

عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي - القاهرة ١٩٥٢ .

- فتح الله بن علوان الكعبي :

زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر - بغداد .

يبحث في أيام حسين باشا والى البصرة ١٦٤٥ - ١٦٦٥ م .

- فرديناند توتل :
الحركة الفكرية في العراق - بيروت ١٩٥٣ .
- فيليب حتى :
تاريخ العرب - جزآن - القاهرة ١٩٥٢ ترجمة محمد مبروك لافع .
- فيليب ويلارد أيرلاند :
العراق : دراسة في تطوره السياسي - ترجمة جعفر الحياط - بيروت ١٩٤٩
- كارل بروكلمان :
تاريخ الشعوب الإسلامية - خمسة أجزاء - ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي - الطبعة الأولى ١٩٤٩ .
- كارل توتشل :
المملكة العربية السعودية - ترجمة شكيب الأموى - القاهرة ١٩٥٥ .
- كوركيس عواد :
دير الربان هرمز - مطبعة النجم ١٩٣٤ .
- مجموعة :
مجموعة عبد القادر الأخرس في شعر عبد الغنى جميل - جمعها ونشرها عباس الزاوى - بغداد ١٩٤٩ .
- مجيد خلورى :
أسباب الاحتلال البريطانى للعراق - الموصل ١٩٣٣ .
- محمد أسعد طلس :
الكشاف عن مخطوطات خزان كنب الأوقاف - بغداد ١٩٥٣ .

- محمد أمين زكي :
- تاريخ السليمانية - ترجمه من الكردية محمد جميل الروزياني - بغداد ١٩٥١ .
- خلاصة تاريخ الكرد وكردستان - ترجمه محمد عوفى - القاهرة ١٩٣٦ .
- تاريخ الإمارات الكردية - القاهرة ١٩٤٥ .
- محمد بدران :
- إبراهيم باشا - القاهرة ١٩٣٧ .
- محمد بهجة الأثرى :
- أعلام العراق - بغداد ١٣٤٥ هـ .
- محمد جعفر التميمى :
- مشهد الإمام - بغداد .
- محمد صالح السهروردي :
- لب الأبواب - جزآن - بغداد ١٩٣٩ .
- محمد عبد المنعم الشرفاوى :
- هذا العالم - الطبعة الثانية .
- محمد القزبلجى :
- التعريف بمساجد السليمانية - بغداد ١٩٣٨ .
- محمد لييب البنتونى :
- الرحلة الحجازية - الطبعة الثانية ١٩٢٩ .
- محمد موسى هنلاوى :
- المعجم فى اللغة الفارسية - القاهرة - مطبعة مصر .

- محمود آل لوسی (أبو التناء) . :
- غرائب الاغتراب - مطبعة الشايندر ١٣٢٧ هـ
- محمود شكری آل لوسی :
- تاريخ مساجد بغداد ١٣٤٦ هـ .
- المسك الأزفر - بغداد ١٣٤٥ هـ .
- مصطفى نور الدين الواعظ :
- الروض الأزهر - الموصل ١٩٤٨ .
- المنشئ البغدادي :
- رحلة المنشئ البغدادي - نشرها عباس العزاوي - بغداد ١٩٤٨ .
- نيقولا زيادة :
- محاضرات في تاريخ ليبيا - معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٨ .
- نور الدين السالمی :
- تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان - جزآن .
- يعقوب سرکيس :
- مباحث عراقية - جزآن - بغداد ١٩٤٨ .
- يوسف رزق الله غنيمه :
- تجارة العراق قديماً وحديثاً - بغداد ١٩٢٢ .
- يوسف كركوش الحلي :
- مختصر تاريخ الحلة - صيدا ١٩٣٤ :
- وداى العطية :
- تاريخ الديوانية - النجف ١٩٥٤ :

هـ - المراجع الأوروبية

Ainsworth; W.F.: A Personal Narrative of the Euphrates Expedition.
2 Vols. London 1888.

كان المؤلف أحد أعضاء بعثة جسنى Chesny الكشفية المشهورة . تعرض
كثيراً لآثار العراق . والمادة التاريخية قليلة ولكنها هامة .

Alexander, C.: Bagdad Bygone Days. London 1929.

المؤلفة تمت بصلة القربى إلى كلاودبوس جيمس ريتش C.J.Rich
المقيم البريطاني في بغداد على عهد داود . وترجمت حياته في كتابها هذا . وهو
ملء بالدفاع عن أعماله :

Andrew, W.P.: The Euphrates Valley Railway. London 1840.

Blunt, A.: Bedouin Tribes of the Euphrates. London 1879.

The Bombay Monthly Magazine of Selections from the British
Periodicals.

Bonné, A.: State and Economics in the Middle East. London
1955.

Brydges; H.: An account of His Majesty's Mission to the Court
of Persia. London 1811.

Budge, E.: By Nile and Tigris. 2 Vols. London 1900.

Chesney, F. : Narrative of the Euphrates Expedition London 1868
The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and
Tigris. 2 Vols. London 1850.

Coke, R.: Bagdad the City of Peace. London 1935.

Corancez: Histoire de Wahabis. Paris 1809.

Douglas, W.: Strange Lands and Friendly people. New York. 1924

- Dupré, A.: Voyage en Perse. Paris. 1819.
- Ernest, J.: Background of the Middle East. New York. 1952.
- Flandin: Voyage en Perse. 2 Tomes. Paris 1850.
- Fletcher, V.: Narrative of a two years Residence at Nineveh.
London 1850.
- Fraser, J.: Mesopotamia and Assyria. Edinburgh 1840.
- Narrative of a journey into Khorasan. London 1825.
- Fontanier, V.: Voyage dans l'Inde. 3 Tomes. Paris 1844
- Garnier, H.: Voyage en Perse. Tour. 1845.
- Gibb and Bowen;: Islamic Society and the West. Part I. 2nd
Edition. 1951.
- Grant: The Nestorians. London 1841.
- Grover, A.N, Journal of a Residence at Bagdad London 1832.
- Guillant: Documents sur l' Histoire, la Géographie et le Commerce
de l'Afrique Orientale. Paris.
- Heude, A. : A Voyage up the Persian Gulf and Overland Journey
From India to England in 1817. London 1819.
- Hogarth, D.G.: Arabia. Oxford. 1922.
- Hoskins, H.: British Routes to India. London 1928.
- Huart, C.: Histoire de Bagdad dans les Temps Modernes. Paris
1909.
- Hurewitz: Diplomacy in the Near and Middle East. 2 Vols.
New York. 1956.
- Kedurri, E.: England and the Middle East. London 1956.
- Kinnier, J. : Voyage dans l'Asie Mineure et le Kourdistan. Paris
1818.
- Lamouche, C.: Histoire de la Turquie. Paris 1953.
- Layard, A.: Nineveh and its Remains. 2 Vols. London 1887.
- Lewis, B.: Turkey. London 1955 .
- Lloyd, S.: Foundation in the Dust. London 1947.
- Twin Rivers. Oxford. 1944.

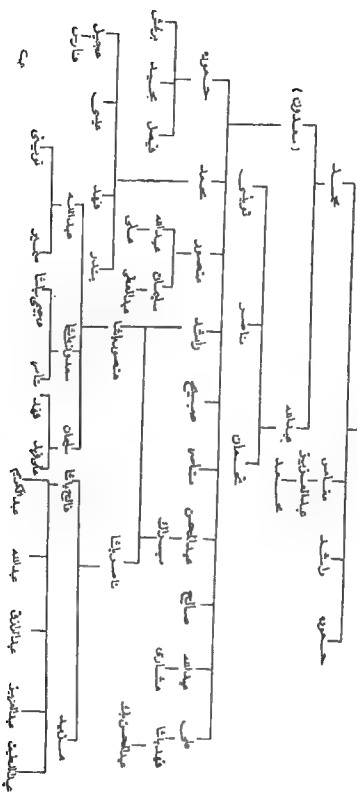
- Longrigg, S.: Four Centuries of Modern Iraq. London 1925.
- Marriott, J.: The Eastern Question. Oxford 1941. 4th Edition.
- Miller, W.: The Ottoman Empire and its Successors 1800-1827. London 1920.
- Mingan,: Travels in Chaldaea. London 1929.
- Morfill, W.: A Story of Russia. London 1930.
- Morier, J.: A Voyage Through Persia. 1808-1809. London 1812
A Second Journey Through Persia, Armenia and Asia Minor
to Constantinople Between the years 1810-16. London 1818.
- Olivier, G.: Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte et la Perse
3 Vols. 1801.
- Travels in the Ottoman Empire, Egypt and Persia, undertaken
by the order of the Government of France 2 Vols 1801.
- Panikkar, K.: Asia and Western Dominance. London 1953.
- Price, P.: A History of Turkey. London 1956.
- Porter, R.K.: Travels in Georgia, Persia, Armenia and Ancient
Babylonia during the years 1817-1820. London 1822.
- Rich, C.: Narrative of a Journey to the Site of Babylonia in 1811
London 1839.
- Narrative of a Residence in Koordistan. 2 Vols. London 1835.
- Rousscau,: Description du Pachalik de Bagdad. Paris 1809.
- Said, Rudolph Reute: Said Bin Sultan. London 1929.
- Scott, J.: The Law affecting Foreigners in Egypt. Edinburgh 1908.
- Sykes, P.: A History of Persia. 2 Vols. London 1951.
- Wellested, J,: Travels in Arabia. 2 Vols. London. 1839.
- Wilson, A: The Persian Gulf. London 1952.

Persia. London 1932.

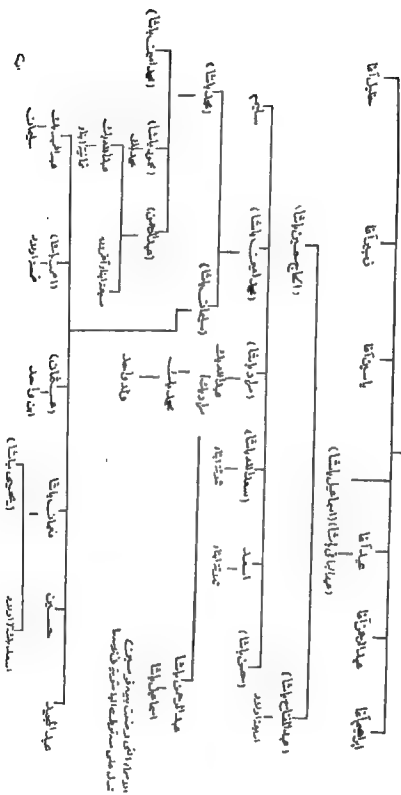
Abstract



اسماء



اسم: الهيكلية
هيكلية







الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

— ٧٧ —

التأليف (٥٢)

الأدب [٤٥]

القاهرة

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

المكتبة العربية

تصدّرها

وَرَاةُ الثَّقَاتِ أَفْتَرُ

المرشد البصري العام للنايف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى للرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

Bibliotheca Alexandrina



0247264

الثمن ٣٥ قرش